

МАРИНА СТЕПНОВА

الحديقة

САД

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

رواية

ثقافة THAQAFA
Publishing & Distribution L.L.C



الحديقة

САД

الحديقة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الروسية Сад

بدعم من Autonomous Non-Commercial Organization in Support of Theory and Practice of Translation. "Institute for Literary Translation" (ANO "Institute for Literary Translation") Nikoloyamskaya Street, Moscow, 109189, Russian Federation

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا ممثلا بالوكيل

The Publication of the book was negotiated through

Banke, Goumen & Smirnova Literary Agency AB (www.bgs-agency.com)

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م.

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2022 م – 1443 هـ

ردمك 978-9948-471-32-5



كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC

ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)

بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

ماريـنا ستيبانوفا

МАРИНА СТЕПНОВА

الحديقة

САД

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

مكتبة | 1164

رواية

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



المحتويات

الفصل الأول

الأم



ما أروع هذه الـ "نتاشا"!

مسدت ناديجدا ألكسندروفنا غلاف الكتاب بيدها الصغيرة القوية، وأغمضت عينيها من فرط المتعة. غلاف الكتاب كان جلديًا، دافئًا- كل الكتب في بيت عائلة بورياتينسكي، بما في ذلك تلك التي صدرت حديثًا، أعيد تجليدها من جديد، بجلد يطلبونه خصيصًا من فلورنسا، جلد رقيق، بني اللون، ذي ملمس لطيف حيّ.

ألا يؤسفك يا ماتوشكا، أن تُحوّل البقرات الإيطاليات إلى أغلفة تافهة؟ قال فلاديمير أناتوليفيتش مازحًا. هو، بالمناسبة، كان في سرّه موافقًا على تصرفات زوجته الغريبة كلها، فهي كانت مدبرة منزل رائعة، أدارت المنزل، على الرغم من الطابع الجاف الذي ورثته من أصلها الأجنبي العريق (ناديجدا ألكسندروفنا ولدت في أسرة فون ستينبوك)، إدارة اتسمت بالرحابة الروسية. والأمر الأهم من كل ذلك، هو أنها ظلت، بعد خمسة وعشرين عامًا من الزواج، تضحك للنكات التي يرويها زوجها.

همها الوحيد كان الكتب! آه من هذه الكتب!

لم تكن ناديجدا ألكسندروفنا تغفل عن اقتناء أي كتاب جديد يصدر بأي لغة من اللغات الثلاث التي تتقنها (الفرنسية، والألمانية، والروسية أيضًا)- لكن رحماك يا يمامتي، يبدو لي أنه لا معنى لقراءة أي شيء باللغة الروسية! ثمة تحت المكتبة في بيتها في بيتربورغ صالة مضاءة جيدًا، كان الناس الطيبون ينظمون فيها الحفلات الراقصة، أما نحن فكنا نقوم بجمع الغبار المكدس في زواياها.

لكن الأمر لم يكن يقتصر على بيتربورغ، ففي فيللاتها الثلاث الأخرى، كانت الكتب تملأ كل مكان، وها هي ذي الفيللا الرابعة تمتلئ الآن بسرعة بالكتب، علمًا بأن ناديجدا ألكسندروفنا لم توقع عقد شراء الفيللا والأرض التابعة لها في "آنّا" إلا في الربيع الماضي، وبعد ذلك بدأت بناء منزل جديد فيها يضم حتمًا قاعة مكتبة، بل إنها استخدمت في هذا المكان فتى ألمانيًا مضجرًا تغطي جبينه مجموعة من البثور الصغيرة البارزة، فتى لم يتكرّم أحد بحفظ اسمه وكنيته. كان الفتى يدير مكتبه: آل بورياتينسكي ويظهر في منزلهم مرتين في الشهر، يتجول فيه بهدوء ونعلا حذائه يصدران صريرًا خافتًا، مسبلًا يديه الحمراوين اللوثيريتين النزيهتين إلى حد الغباء. كان ينظم سجل المكتبة، ويشتري بناء على توجيه ربة المنزل، وعلى تقديره الشخصي، الكتب غير العادية، والجديدة، وكان مغرمًا غرامًا هادئًا لا يلحظه أحد، لكنه جنوني، بناديجدا ألكسندروفنا التي لم يتبادل معها أكثر من عشر كلمات.

أخطأ الفتى ذات يوم الباب الذي كان يقصده، فوجد فجأة في غرفة ضيقة، سيئة التهوية، جدرانها مبطنة بالحرير والحرارة، الحذاء الذي تنتعله في حفلات الرقص، وهو حذاء صغير، داخله مبطن ببطانة زهرية اللون، فكاد يفقد وعيه من شدة الانفعال والسعادة، لقد كان تأثره قويًا إلى حد أنه ظل بعد مرور ثلاثة أعوام يتخيل وهو يموت بمرض السل، الحذاء الذي اهترأ من كثرة الرقص، وتثقّب نعلاه، ويتمتم- الحذاء الصغير، الحذاء الصغير،- إلى أن اختلط أخيرًا كل شيء في ذهنه، وأطلقت الحياة سراحه، وحررته من آلامه...

روسيا، السنين، لوريليا.

هو مات من دون أن يعرف أن الحذاء لم يكن حذاء ناديجدا ألكسندروفنا، بل حذاء إحدى قريباتها الكثيرات- لقد كانت العائلة كبيرة جدا، ثرية جدًا، محاطة بشبكة من الأقارب الذين تربطها بهم قرابة الدم، شبكة تضم مختلف درجات القرابة التي كان يضمّها نظام الأسرة الروسية آنذاك.

هم أرادوا إبلاغ ناديجدا ألكسندروفنا أن عامل المكتبة المسكين قد مات- لكنهم نسوا ذلك.

... ها؟ ما رأيك بمسألة البقرات يا ماتوشكا؟ أحقًا أنك لا تأسفين لمصيرها؟

دعك من هذا،- قالت ناديجدا ألكسندروفنا ملوّحة بيدها من دون غضب- لا تهتم بمصير البقرات، فهي، على كل حال، ستذهب إلى المسلخ. الأفضل لك أن تقرأ- يا لروعة القراءة! إنها روعة يصعب وصفها!

نظر فلاديمير أناتوليفيتش بطرف عينه نظرة شك إلى الكتاب الأخير "الحرب والسلام" الذي صدر حديثًا في عام 1869. لا شك في أن الأمير ليف نيكولايفيتش تولستوي كان أصيل النسب، وأنه برز مقاتلًا ممتازًا في الخدمة العسكرية، وهذا ما جعله في نظر بورياتينسكي، الأمير والجنرال- فيلدمارشال، قيمة حقيقية لا خلاف عليها، لكن ما الذي يدفع إنسانًا محترمًا إلى كتابة الروايات، ثم نشرها! لا، ضفر أزهار الليلك لا يجدي يا نادينكا، لذلك كوني لطيفة، واعفني من سماع آرائك العاطفية عن القراءة.

اقتربت صبية، عينتها ناديجدا ألكسندروفنا خادمة للمائدة، قبل وصول تانيوشكا، تجرجر قدميها لاهثة، وسألت من دون أن ترفع عينيها، عن المكان الذي يأمرون بتقديم الشاي فيه- كأنه لم يكن واضحًا أن شرب الشاي مساء في شهر تموز يجب أن يكون في الحديقة حتمًا. ومري من فضلك، أن يقدم الكرز الأسود على المائدة. كانت الصبية عريضة القفا، منمّشة الوجه، غير جميلة. حين سمعت كلمة "من فضلك" غير المألوفة في مخاطبتها، ارتجفت، كما لو أنها ضربت بسوط من نبات "القرّيص" على ساقيها، لكنها انصرفت وهي ما تزال مغضية ببصرها. ناديجدا ألكسندروفنا كانت تستطيع في بيتربورغ مناداة الإمبراطورة التي تربطها بها صداقة متينة، باسم "ماشينكا" والضمير "أنتِ"، وترى أن من الممكن والواجب، أن تخاطب المرافق بالضمير "أنتم يا أفاناسي غريغوريفيتش". تنهدت بارتياح. تموّجُ غصن الكرمة كان ينسجم انسجامًا رائعًا مع تموّج عمود استراحة الحديقة الرائعة

أيضًا، رغم أنها لم تدهن منذ زمن بعيد جدًا، الأمر الذي لم يكن ليخفى على أحد. لقد كان الناس في مزرعة "آنّا" المشتراة حديثًا مذهلين بجهلهم وكسلهم، بالجهل والكسل، كما في كل مكان.

ليتهم يفتحون مدرسة هنا،- قالت ناديجدا ألكسندروفنا.

هؤلاء ليسوا بحاجة إلى مدرسة بل إلى جلد بالسياط،- أجابها فلاديمير أناتوليفيتش بلهجة المؤمن بما يقول، فنعتته ناديجدا ألكسندروفنا بالمستعبد والمستغل وحركت كتاب تولستوي، مقتربة به نحو سنتيمترين من بورياتينسكي فتحركت في إثره شمس فورونيج في خضوع على غطاء الطاولة. وانتشرت في الجو رائحة العشب المقصوص، والنباتات والأحواض التي تم ريّها منذ زمن قريب، وفاحت بقوة مخترقة تلك الروائح الرائحة الجذابة، الشاحبة، للتبغ والتراب الرطب.

عادت الصبية وأعلنت عدم وجود كرز أسود، غضبت ناديجدا ألكسندروفنا، فالبساتين الفاخرة لم تكن آخر الأسباب التي دفعتها إلى شراء المزرعة في آنّا. المالكة السابقة للمزرعة كانت تفضل اتباع الطرق العلمية في كل شيء، وكانت لها مراسلات كثيرة مع الأختين المختصتين في علم النبات، سارة ميري، وإيليزابيت فيتّون، وزرعت في تربة فورونيج الغنية نباتات كثيرة لم تكن معروفة من قبل، الأمر الذي جعل ناديجدا ألكسندروفنا، التي يغريها كل شيء غير عادي وجميل، تدفع إلى ورثة العجوز التي طارت إلى الحدائق الإلهية في الجنة، الثمن الذي طلبوه ولم تساومهم. صحيح أن الكرز البري الوفير الذي نضج في الأحواض بحلول عيد الميلاد، والإجاص الفواح الوردي اللون، الذي نضج بعد شرائها للمزرعة، كانا تعويضًا مرضيًا، لكن أين الكرز الأسود؟ أية ريح اقتلعته من هنا؟

أهو مفقود تمامًا- سألت ناديجدا ألكسندروفنا كي تتأكد، ورنّ في قاع صوتها الفولاذ الألماني الرقيق الذي تشوب لونه الزرقة. فأحنت الصبية رأسها بالإيجاب وأجابت متجهمة الوجه: تمامًا. لكن أين اختفت شجيراته؟ لاذت الفتاة بالصمت

خافضة رأسها. اجلديها، اجلديها بقوة!- قال لها بمرح بورياتينسكي الذي كان لا يهتم مطلقًا بالكرز الأسود وغيره من الثمار، لكنه كان على عكس ذلك، يهتم كثيرًا بشرائح اللحم البقري الجيد.

نهضت ناديجدا ألكسندروفنا، فعلّقت تنورتها بالكرسي، شدّتها، ثم شدّتها ثانية، فتمزق التول المطرز عليها على شكل زهرات. ألقت الصبية عليها نظرة خاطفة مشحونة بالخوف، ثم خفضت رأسها أكثر من السابق، فانزلق المنديل الذي كان يغطيه كاشفًا كتلة مستديرة مدهونة بزيت الكاز فوق يافوخها. يافوخ، كلمة لطيفة جدًا،- فجأة تذكرت ناديجدا ألكسندروفنا أن عمتها كانت تطلق على هذا المكان من الرأس اسم "نافوخ" وهي كلمة طفلية جدًا ورائعة أيضًا.

دعيني يا سنونوتي أقبل "نافوخك".

هيّا انصرفي،- أمرت ناديجدا ألكسندروفنا الفتاة، وهي تلوم نفسها على سرعة الغضب. تقرأ كتاب فولتير، "الثامن عشر من بروميير لوي بونابارت"، وترتب الأوراق الصفراء! ثم تغضب لعدم وجود كرز أسود!

انصرفت الفتاة من دون أن تفهم شيئًا- فالجَلْد، وكذلك التودد، ما كانا يتركان لديها أي انطباع. إنهما عندها سيّان- بأفظع معنى روسي لهذه العبارة البسيطة، أي أنهما سيّان حقًا. المهم ألّا تنشب الحرب، وألّا يتجدد الصيف. إن عبارة "الأمر سيّان" الصخرية، اليائسة لا يمكن أن تتأثر بأية ثورات أو إصلاحات، أو مواعظ أخلاقية يقوم بها أناس جيّدون، شرفاء، يشعرون بالذنب قرنًا بعد قرن، لمجرد أنهم يتقنون المعاناة والتفكير بعدة لغات ويغسلون يوميًا أعناقهم وأيديهم حتى تنظف تمامًا.

أدركت ناديجدا ألكسندروفنا أنها ستصل الآن بأفكارها إلى شيء ثوري فعلًا- كالاعتقاد بأن الشعب الروسي المتألم، المتعذب، لا يحتاج أي حب إضافي خاص، لا سيما حبها هي بالذات، لذلك طوحت يدها ومشت في الدرب نحو الحديقة، كان الحصى يصر تحت قدميها صريرًا عاليًا، ومن المطبخ القريب فاحت رائحة الفطائر

التي تركت لتهمد تحت المنشفة، فشعرت ناديجدا ألكسندروفنا فجأة بأنها جائعة- كما في الطفولة- وانتابها في اللحظة نفسها شعور حاد بالسعادة- كما في الطفولة أيضًا، شعور مرح إلى حدّ أنها أحست بدغدغة مثيرة للضحك تحت ركبتيها.

أحاسيس طفلية كثيرة تنتابني اليوم، قالت في سرها مندهشة، لكنها حين وصلت إلى الحديقة الشاسعة المشبعة بالضوء النحاسي للشمس الغاربة، أدركت سبب ذلك.

كانت الدنيا من حولها عيدًا- عيدًا لا نهائيًا، سخيًا، حافلًا- أغصان خضراء، ريانة، كأنها نبتت لتوها، تتقاطر متموجة من كل مكان، وتتضفر في عقد، مشكّلة قطعًا متنفجة كثيرة، وحركة خفيفة لا تتوقف أحست بها ناديجدا ألكسندروفنا فيزيقيًا: دمدمة النحل الناعس، وطنين البعوض، وجريان النسغ في العروق المتينة غير المرئية للأشجار، وحفيف أوراقها، وحتى الطقطقة الضعيفة التي تصدرها فلقات النباتات الحديثة الشاحبة وهي تشق التربة.

إن غيولدرين، المسكين، المسكين، الذي أحبته كثيرًا، والذي قضى أربعين عامًا من أعوام عمره الثلاثة والسبعين تحت سطوة الجنون الألماني الشفاف للغاية رغم سماكته البالغة كيلومترات كثيرة، كان سيسمي هذه الحديقة النشيد الإلهي لقوى الطبيعة. والحقيقة، طبعًا، هي أنه ليس هناك أي نشيد- بل هو دويّ العمل العادي لجهاز حي ممتلئ بالأصوات الخفية والظاهرة التي لا يجرؤ على تسميتها بغير اللائقة إلا لامبال إلى حد ميئوس منه.

علقت شجيرة الكرز الأسود بذيل ثوب بورياتينسكايا وشدتها، فأمسكت يد ناديجدا ألكسندروفنا بلطف غصنًا طويلًا- كان صلبًا، تكسوه حبيبات يغطيها الشوك، بيضاء ميكروسكوبية، لكنها ملتصقة بالغصن بقوة. لم تكن هناك أية ثمار. الصبية لم تكذب- الشجيرات التي تيتمت بعد فقد من كانت تعتني بها، نُسيت، وتركت في الشتاء بلا تقليم، فتحولت شجيرات الكرز الأسود إلى كتلة كثيفة من الخضرة غير المثمرة. لكن ثمار الدرّاق نمت بوفرة - ثمار رائعة! رفعت ناديجدا

ألكسندروفنا رأسها- العالم يدور فوقها. دراق أخضر، وأحمر قان، وداكن أملس، ناضج، ممتلئ بالعصارة،- ضحكت فرحًا. إنها، وهي التي نمت بين المستنقعات، لم تكن قادرة على تخيّل هذا الانتصار الحاسم للخلق الإلهي. قفزت ناديجدا ألكسندروفنا وقطفت ثمرة كبيرة ساخنة. فانتفض سرب من الزرازير القلقة فارًّا عن الشجرة، وهو يشتم المالكة الجديدة، غير المرحب بها، بأقذع الشتائم التي تتردد في الساحات.

حسنًا، تمتمت بورياتينسكايا. لا تضجوا، هناك من الثمار ما يكفي الجميع.

بدا لها طعم الدراقة كمظهرها- الساخن، الثقيل، الداكن. كانت تضج بالحياة.

قطفت ناديجدا ألكسندروفنا دراقة ثانية، فثالثة، فرابعة. تلطخ منديلها القماشي بسرعة، فكورته ورمته على العشب صغيرًا، مدعوكًا، تلطخه بقع كبقع مرض السل، وراحت تلحس أصابعها اللزجة على عجل بشراهة، فتبتلع بسبب استعجالها، عجوات الثمار القاسية. في الصف المجاور من الأشجار كانت ثمار الدراق مختلفة تمامًا- فاتحة اللون، لبّها أبيض تقريبًا، حامضة المذاق قليلًا، وباردة برودًا شديدًا منعشًا. تابعت ناديجدا ألكسندروفنا مشيها وقد أذهلتها فكرة المالكة السابقة التي انكشفت لها فجأة،- نعم، هي فكّرت بذلك بالضبط. وهذا النوع من الدراق لم ينضج بعد، فتدلى ثمارًا خضراء تشوبها حمرة خفيفة، تنتظر أزوف ساعة قطافها. لقد نظمت المالكة السابقة الحديقة تنظيمًا عقلانيًا بسيطًا كتنظيم إطلاق الرصاصات من المسدس- واحدة بعد أخرى، وهكذا لا يمر أسبوع لا يحصل فيه أصحاب المزرعة على موسم جديد، يكون خوخًا، أو درّاقًا أو تفاحًا أو إجاصًا، وهكذا يحلّ النوع من هذه الثمار في موعد نضجه محل سابقه.

حين وصلت ناديجدا ألكسندروفنا إلى أشجار التفاح قطفت وقضمت تفاحة صلبة، مدعبلة الشكل، لا تلفت النظر، فتبللت شفتاها بعصير دافئ فواح الرائحة. أما الإجاص فكان لا يزال فجًا، صلبًا كالحجارة، وله مذاق الخشب وشكله. لكن بورياتينسكايا كانت تتصرف بين الشجيرات البرية الشائكة ذات الثمار المرة، على

هواها، ناسية تمامًا نسبها الرفيع وتقاليد العائلة، لكنّها كانت تصرخ كلما سقطت على رأسها ثمرة من ثمار الخوخ الأكثر نضجًا. الثمار الأطيب طعمًا، ذات الزرقة الداكنة، الشفافة تمامًا، الممتلئة بالعصارة، كانت تتدلى من الأغصان العالية، وقد تسببت القفزات والجهود النشطة التي بذلتها ناديجدا ألكسندروفنا في ارتفاع سريع للحرارة تحت إبطيها. وبلطخات فاضحة على ثوبها الحريري تحولت، بعدما يزيد بقليل على الثمانين عامًا، إلى فقرة من أروع الفقرات في رواية سيرتها الذاتية التي كتبها روائي وشاعر لم يعرف بورياتينسكايا أبدًا. لكن، لا، الزمن أقل من ثمانين، فأبو ذلك الكاتب ولد في عام 1869.

أنت، إذن، من يكسّر الأعشاب الجافة يا عزيزتي! لقد ظننت أن دبّا دخل إلى الحديقة، فأمرت بتحضير الجفت. قلت لنفسي فلأصرعه: مباشرة، هنا، في الحديقة، ومن ثم أقدّمه طعامًا في العشاء، ما دمت قد عددتني من الشرهين للطعام.

التفتت نحوه ناديجدا ألكسندروفنا متفاجئة، سعيدة، على ياقة ثوبها المدعوكة وعلى ذيله أيضًا- البقع التي خلفتها الثمار، وفي شعرها علقت أغصان صغيرة جافة، خفيفة الوزن، وغير ذلك من النثار البهيج المتساقط عن الشجر. كان الزوج ينظر إليها بمودة ومرح كما فعل ذات مرة قبل خمسة وعشرين عامًا، حين دعاها لأول مرة إلى مشاركته رقصة "مازوركا" دعوة بريئة، خالية من أية نوايا مبيتة، ثم عاد فنظر إليها بعد بضعة أشهر، بنفس المودة والمرح، وهو يقودها نحيلة، تكاد لا تلحظ، وسط غمامة من الحرير والأورغنزة، لتقف فتية جدًا، تحت الإكليل. المحبة والمرح- سمتان تنطبقان عليهما تمامًا، فهما زوج جميل، بل رائع: العريس ضابط فرسان شجاع، ذو شهرة مدوية في روسيا كلها، والعروس أميرة صغيرة جذابة، ذات ثروة أسطورية، تحبها الأسرة القيصرية، وتُستقبل بالترحاب في البلاط القيصري. تشاور أهل العروسين بحذر، ثم جمعا بينهما، بعد أن بحثوا في آلاف الاحتمالات، ككلاب الصيد الأصلية المدربة، وبعد فحص الأصول التي تحدر العروسان منها،

وما فيها من نقاط ضعف و- خيارات- ولم يخطئوا في حساباتهم، فالزواج كان ناجحًا، وودودًا، ومرحًا، وبدا كما لو كان محميًا بجناح ملائكي. كان كل شيء في زواجهما مثاليًا: الثروة، والأرض، والعادات، ونمط الحياة، حتى الكيمياء الحيوية، التي لم تخطر في بال أحد، كانت في صالح الزوجين بورياتينسكي- الأمور كلها كانت منسجمة: الروائح، ومذاق اللعاب، ودفء الجسدين الهادئ، كل ذلك لم يكن منفّرًا لأي منهما في يوم من الأيام، ففي الأماسي كان فلاديمير أناتوليفيتش (في مرات ليست كثيرة جدًا وليست قليلة جدًا) متأكدًا، حين يقترب من غرفة نوم زوجته، من أنه سيجد بابها مفتوحًا، وسيلاقيه خلفه نسيم بيتربورغ المنعش، والملمس البارد للحرير الهولندي، والبشرة الناعمة الباردة لوجهي الكتفين، وعروق الدم الرقيقة، والتنهدات الضعيفة، ثم الجماع الصامت، الأشبه بالفعل السري منه بالجماع.

شكرًا يا حبيبتي، طابت ليلتك، ولتحرسك الملائكة.

هما لم يتشاجرا أبدًا- فجأة أدركت ناديجدا ألكسندروفنا أن هذا أمر فظيع وأنها لم تعد تريد التودد والمرح، بل تريد شيئًا مختلفًا.

والآن، وهي في هذه الحديقة الريّانة، التي تمددت أغصانها خارج سورها، أدركت فجأة أنها عاشت خمسة وعشرين عامًا مع زوجها جنبًا إلى جنب كما لو أنهما لم يكونا بشرًا، بل كلبين صغيرين منزليين اعتادا منذ زمن على تناول الطعام من إناء واحد، والنوم في فراش واحد، وانمحت بينهما كل الفروق الوحشية، المهمة حياتيًا، التي تميز أحدهما من الآخر، لم يركض أحدهما بمفرده، فيلحق به الآخر، يصرخ، ويقاتل، ويعض، ويتشبث بموقفه، ثم يتنازل في نهاية المطاف، لكن بعد ركض مضن، وبعد معركة.

الكتب التي قرأتها ناديجدا ألكسندروفنا طوّقتها بهدوء بما امتلأت به من شخصيات مختلفة، عقيمة، كل واحدة منها عاشت على عكس ناديجدا ألكسندروفنا حياة رائعة تضج بالحيوية. أما هي، فحتى الولدان اللذان جاءت بهما

إلى هذا العالم، أنجبتهما من دون المعاناة الموصوفة في الكتب، إذ لا تمكن مقارنة ما أحسست به من ألم بطيء، مديد، عند الولادة، بدقيقة العذاب التي عاشتها نتاشا روستوفا المختلقة وهي تبكي فراق حبيبها.

ما أغلى كلمة "حبيب"! إنها كتاج حوافه كلها أسنان حادة لامعة.

قفزت ناديجدا ألكسندروفنا مرة أخرى، وقطفت خوخة، زرقاء داكنة، تكاد تسقط عن غصنها، ثم اقتربت من زوجها الذي ما يزال يبتسم بعينيه، ناظرًا إليها بمحبة ومرح كما يفعل دائمًا، وقد شاب صدغاه، وانتفخ ما تحت شاربيه الكثين، وفاحت منهما، كالمعتاد، رائحة العطر والتبغ اللندني، فانتابتها رعدة برد، هي أيضًا ابيض سالفاها تمامًا، تحت خصلات الشعر المستعارة. هاجمها الإحساس بالبرد والوحدة من جميع الجهات، لقد عاشت خمسة وعشرين عامًا وحيدة، تنظر النظرة نفسها إلى كل الأمور- أما الأمور نفسها فلم تكن ثابتة كنظرتها، تغيّرت، تغيّرت تمامًا. قضمت ناديجدا ألكسندروفنا قطعة من الخوخة الدافئة، ومدّت يدها بشقها الذي تسيل عصارته جوعًا وعسلًا كالنبيذ تقريبًا، كأنها الطفلة سولاميغا السمراء الساقين المصورة في الكتاب المقدس.

هاك يا حبيبي، تذوّق هذه.

هو ظل لا يدرك شيئًا، واستمر يلوك الخوخة بتهذيب، أسنانه الخلفية ما زالت أسنانه الطبيعية، أما الأسنان الأمامية فهي تعرف أنها ليست طبيعية، بل هي تيجان من السيراميك البارد. إنهما عجوزان، يا إلهي! لقد هرما تمامًا! كيف لم تلحظ هي ذلك! وكيف سمح هو بحدوثه.

مائدة الشاي أعدّت كما أمرت...

لم تترك ناديجدا ألكسندروفنا له المجال كي يتم كلامه، وقفت على أطراف أصابع قدميها وشدت بعنف إليها زوجها الذي ما زال يمضغ، وما زال لا يفهم ما يحدث، لبّ ثمرة الخوخ، واللعاب، وعصارة الشمس الهاربة، ورائحة العرق الطازج التي تزكم الأنوف...

لا، ليس المرح والتودد، ليس المرح، وليس التودد، بل هكذا، هكذا، هكذا!
وهكذا مرّة أخرى. نعم، أنا أريد. أنا أريد هذا فعلًا.

لم يأمر أحد برفع الأطباق عن مائدة الشاي- كان ذلك من حسن حظ الزرازير التي اجتمعت في استراحة الحديقة لتنهب الوليمة بسرعة. الحليب الدسم، المائل إلى الصفرة، نفد قبيل الصباح، متمنيًا طول البقاء للآخرين. ونهب النمل علبة السكر، حمل حبات السكر الحلوة ونثرها في الحديقة كلها. أما الفطيرة فكانت ممتازة حقًا. قطع تفاح ساخنة، وقرفة، ومنكهات. وسرقت حدأة إحدى الملعقتين الفضيتين الصغيرتين ثم راحت ترف بجناحيها رفّات صغيرة من فرط سعادتها، أما الملعقة الثانية فنجت- سقطت في شق في الأرض، وراحت تنتظر في العتمة ساعتها،- بعد سنوات عديدة ستجدها توسيا الماهرة، الحادة البصر، وتريها لأختها "نوتا" قائلة: انظري ماذا وجدت! انحنت البنتان الصغيرتان بأكتافهما المتماثلة، وفستانيهما المتماثلين، ومفرقي شعرهما النظيفين المتماثلين، فوق الشيء الطريف الذي عثرتا عليه، تحاولان قراءة الحروف التي غطاها السواد. هذه ملعقة ماما! أنا متأكدة! إنها لماما! هيا بنا نذهب ونريها إياها! ركضت البنتان وهما تدوسان في عدوهما على رؤوس نباتات "عصاة الراعي" البرية النامية التي لا خير فيها، و"نوتا" كالعادة، تتخلف نصف خطوة عن أختها.

Les enfants, les enfants, on ne court pas si vite! Ce ne,est pas convenablei[1]

لم يطلب أحد تحضير العشاء، والطباخة التي كان يعذّبها، بطبيعة الحال، نبأ مجيء طباخ من العاصمة قريبًا، ذهبت لتنام وقد شبعت بكاء، لكنها، قبل ذلك اشتكت من الحياة للعذراء الأم وهي تنشق بأنفها، وتسند رأسها من وقت لآخر إلى الألواح الخشبية الباردة العالية. ذهبت الطباخة إلى قبو المؤونة، وبعد أن تأكدت أن العجينة التي دعكتها مئة مرة، وحضّرتها لفطائر الصباح ترقد بسلام، استجمعت قواها وتسللت إلى مرقدها وهي تئن من الألم.

(1) يا أولاد، يا أولاد، لا تسرعوا هكذا! هذا غير لائق (بالفرنسية)

بعد بضع دقائق كانت المزرعة في "آنّا" تغط في النوم، تشخر، وتتقلب في مضاجعها، تحك رؤوسها، وتتنهد، وكانت الخيول الناعسة تدق أرض الحظيرة بحوافرها بين الحين والآخر، وقد أخافها الخفقان الخافت لأجنحة الخفافيش التي تظهر فجأة من اللامكان في هواء الليل، ثم تختفي من جديد دفعة واحدة كأنها ليست كائنات حية، بل ثقوب سوداء ودهاليز إلى الفضاء، تقود إلى مكان مجهول في عالم مجاور، أو في عالم بعيد آخر. أضف إلى ذلك أنه بعد منتصف الليل بكثير كان يسمع من غرفة نوم المالكة الجديدة حركة خفيفة كالحفيف، وهمسًا وضحكًا مكتومًا، شبابيًا تمامًا، يكاد ينفجر بكل قوة- هش، اهدئي، سيسمعون!

فليسمعوا.

بعد ذلك انفتح الباب، وظهر منه ضوء الشمعة الكروي- شمع إنارة إنكليزي، أبيض، من أفضل الأنواع. الأوانس يتسابقن في القصر، يتشاجرن تقريبًا، من أجل الحصول على شموع كهذه. إنها حرب الشموع. فليقدموا لنا، في نهاية المطاف، شموعًا جيدة! ليفعلوا ذلك! جال الزوجان بورياتينسكي، على رؤوس أصابعهما، متدافعين ومتعثّرين كالأطفال، في المنزل الكبير الذي لم يعتادا بعد على العيش فيه. هل نذهب إلى اليمين؟ لا، ليس إلى اليمين! يتحادثان وهما يضحكان ضحكًا مكتومًا ويكادان يسقطان أرضًا. يعثران أخيرًا على قبو المؤونة- القبو مقفول طبعًا. ما هذا يا أمي، أليس لديك مفتاح لهذا القبو؟ واضح أنك ربة منزل ممتازة، لا جدال في ذلك! لم يتسع لي الوقت، وتانيوشكا لم تأت بعد،- أجابت بانزعاج ناديجدا ألكسندروفنا المنفوشة الشعر، الحافية، التي تتعثر قدماها الصغيرتان من حين لآخر بذيل ثوب نومها المحيك من قماش الباتيستا. توب- توب. شمعة تذوب، يدا زوج دافئتان، كتف معضوض مالح المذاق، ضحك، حركات أطفال، عناق كبار، هو ذا معنى أن تكون حيًا! يجب أن تكون هكذا كي تكون حيًا! هكذا، إذن، كل الأمور عندنا، بيد تانيوشكا؟ لقد كان ينبغي لي أن أتزوجها،- همس فلاديمير أناتوليفيتش بمرح ومودة- لكن مرحه ومودته كانا الآن مختلفين عما كاناه سابقًا، مختلفين

تمامًا. إنهما، منذ تلك القبلة في الحديقة، لم يتبادلا أية كلمة بغير الروسية- اللغة الفرنسية المعتادة لم تكن تحتمل ذلك الضغط الحي الحار- وهذا كان أيضًا أمرًا جديدًا وسعيدًا، اعتقدت ناديجدا ألكسندروفنا أنه سيرافقها مدى الحياة. ضربت نقرة زوجها ضربة خفيفة وقالت تأذن له:- حسنًا، تزوجها! وأنا سأتزوج سائس الخيل، ذلك الشاب ذا الشعر المتموج، والجسم الضخم. ضحك فلاديمير أناتولييفيتش.- سأجلدكما!- قال مهددًا ناديجدا ألكسندروفنا والسائس المجهول الاسم الذي كان يشخر نائمًا في غرفة خانقة الجو، وهو لا يعرف في أي إشكال وقع طيفه الأسطوري. اجلدنا،- قالت تأذن له ناديجدا الكسندروفنا. اجلدنا، يا باتوشكا، فأنت السيد. لكن أطعمني بحق المسيح، وإلا ستقع زلازل كبيرة في كل الأماكن، وسيحل الجوع، والموت، والفظائع، ستنشق السماء. ضحك الاثنان ثانية، ثم ارتمى كل منهما على الآخر.

استل بورياتينسكي مفاتيح قبو المؤونة من جيب الطباخة النائمة، بمهارة بعيدة عن أن يمتلكها أمير، مغامرًا في أن تستيقظ الطباخة فتراه عاريًا إلا من سرواله الداخلي- هكذا أنت، إذن!- صرخت ناديجدا ألكسندروفنا مندهشة بحرارة، وهي تضغط إلى صدرها آنية مملوءة لبنًا، أما فلاديمير أناتولييفيتش الذي حمل خبزًا ومرتديلا ومشى قفزًا كالجندي إلى غرفة النوم، فشعر فجأة بأنه يعتز بهذا العمل "البطولي" المضحك، أكثر من اعتزازه بلقب "الجنرال- الفيلدمارشال" الذي يحمله ويجعب الرصاص على خصره، والسيف الذهبي الذي نقشت عليه عبارة "وسام الشجاعة"، وبأنه لا قيمة لشاميل، واحتلال القفقاس بالمقارنة مع هذه المرأة التي تجلس على فراش مدعوك، تضحك وتأكل الخبز الأسود واللحم البارد اللذين سرقهما لها، وقدمهما شخصيًا إليها، حملهما إليها بيديه...

ناما، للمرة الأولى، حتى الساعة الثانية نهارًا، في سرير واحد تناثرت عليه بقايا الطعام، وانقلب عاليه سافله، ناما متعانقين، للمرة الأولى، عناقًا وحشيًا بكل ما لديهما من قوة. بورياتينسكي استيقظ أولًا- أيقظه صوت انغلاق النافذة. كان المطر

يتساقط من السماء الرمادية، رماديًا أيضًا، وحامضًا، ورذاذًا. لم يبق من روعة البارحة الوردية أي أثر. نهض فلاديمير أناتوليفيتش، دعك بقوة عنقه الذي احتقن فيه الدم، ثم اتجه إلى غرفته مارًا بين الأطباق وبقايا الطعام وآنية اللبن الذي شرب عن آخره، وعجو الخوخ، والأشياء الأنثوية اللطيفة التي لم يجرؤ حتى على التفكير بوظيفتها- شرائط حريرية متداخلة مع قماش "الباتيستا، مشكلة خليطًا من أمواج من الحرير والقماش، وقطعة رقيقة مدهشة نزعها البارحة على عجل عن جسد زوجته التي بدت كالمأسورة أو كالمستسلمة...

غباء، غباء، غباء!

بعد ساعة خرجت زوجته للإفطار فالتقت عيناها بعيني زوجها- كان حليقًا، نضرًا، معطرًا، لا مباليًا. وضع الجريدة جانبًا، ونهض محييًا زوجته بالشكل اللائق- بمرح وتودد كما السابق، وكأن شيئًا لم يحدث- قال شيئًا ما بالفرنسية عن الطقس السيء، وعن الرحلة التي ألغيت.

سارعت تانيوشكا التي حضرت أخيرًا فقبلت يدها. إنها خادمة ناديجدا ألكسندروفنا الملازمة لها منذ طفولتها، وصديقتها الحقيقية الوحيدة من حيث المبدأ. جلست ناديجدا ألكسندروفنا إلى المائدة وهي تشعر كيف يبرد هواء تشرين الثاني ببطء من حولها، فشرعت تصحح وضع الثنيات التي تخشبت في ثوبها المفتوح باستهتار لا يناسب عمرها ولا يناسب هذا الوقت من السنة. ما أكبر الجهد الذي بذلته! شرائط معقودة عند الصدر، وتنورة داخلية تحت الفستان، ومشدّ للخصر أيضًا. شعرت بعدم الراحة وبضيق غير مألوف. كان فلاديمير أناتوليفيتش يواصل كلامه، يروي شيئًا ما مما قرأه في "النشرة الحكومية"، لكن ناديجدا ألكسندروفنا لم تكن تصغي إليه. تذوقت القهوة، ثم هزت رأسها، وأضافت نقطة حليب. لم يتحسن الحال بل ساء. كان الأفضل لها ألا تتذوق القهوة، ألا تعرف شيئًا، ألّا تعرف أي شيء.

ظل المطر يتساقط طول النهار، وفي اليوم التالي أيضًا، وحين انفرج الطقس قليلًا، طرق بورياتينسكي باب غرفة نوم زوجته، فلم يجب أحد. أدار مقبض الباب

وشده- عبث، عبث لا يحتاجه أحد، إنه إهانة حيّة يتلقاها للمرة الأولى في سنوات زواجهما الخمس والعشرين. كان عليها أن تشرح له الأمر على الأقل، أن تزعم أنها مصابة بصداع، أن تختلق عذرًا. هي لم تزعم، ولم تختلق، ولم تشرح. هذا ظلم.

تنامى البرد، هاجم ناديجدا ألكسندروفنا من جميع الجهات، واخترق جسدها من دون رحمة. تدثرت بالشال يائسة، ارتعدت من البرد، ثم كفّت كليًا عن الخروج من غرفتها. صارت تتكور في الغرفة، وترقد طول أيام، شاحبة، جف الدم في عروقها، ملتاثة، يرتمي من يدها على السجادة المجلد الذي تقرؤه، وقد فقد قوته السحرية. حتى الكتب لم تعد تساعدها. حتى الكتب! وكان فلاديمير أناتوليفيتش يرسل من يستفسر عن صحتها، يتمشى قلقًا أمام باب غرفتها- يدعي القلق، طبعًا، يدعي القلق. قولي له أن ينصرف ويتركني، أخيرًا، وحالي- فتخرج تانيوشكا، قبيحة، جافة، تتدحرج في مشيتها المضحكة كالبطة، تتشاور مع بورياتينسكي، رأسها يقابل رأسه، على قدم المساواة- بل ليس على قدم المساواة، فقد كانت تانيوشكا تتفوق عليه كثيرًا في السلطة والنفوذ- وكان بورياتينسكي ينظر إليها من أسفل إلى أعلى متوسلًا كطفل صغير عوقب دفعة واحدة، على ارتكابه عددًا من الشقاوات. لذلك وقف لا يعرف ماذا يقول، وعن أي ذنب يعتذر. ألا تأكل؟ لا، يا سيدي، لا تأكل شيئًا. لقد كفّت حتى عن القراءة. إنها ترقد طول الأيام- تنظر إلى الجدار وتبكي.

وحين رفضت ناديجدا ألكسندروفنا حتى شرب الشاي الخفيف، استدعوا الطبيب المحلي- هل هو طبيب جيد؟ يقولون ذلك، يا فلاديمير أناتوليفيتش، أضف إلى ذلك أننا لا نملك خيارًا، فمجيء طبيب من بيتربورغ سيستغرق زمنًا!

أقسم بورياتينسكي في ذهنه أن يمدّ فرعًا مستقلًا من السكة الحديدية إلى "آنّا" (هذا سيحدث، لكن لن يكون هو منفذه- ففي عام 1897 سيسير أول قطار على خط غرافسكايا- آنّا)، وخرج شخصيًا للقاء الطبيب عند مدخل المنزل، فشعر، فجأة، وهو يشد على اليد الجافة، الحمراء، الملطخة باليود، أن لديه رغبة جامحة بتقبيل

هذه اليد، وبأنه، لو كان يضع قبعة، لرفعها عن رأسه، ولارتمى عند قدمي الطبيب. المهم هو إنقاذها!

ميزيل، غريغوري إيفانوفيتش،- قدم الطبيب نفسه. كان رجلًا قد تجاوز سن الشباب، متين البنية، رأسه مستدير ضخم، محلوق، على شكل قنفذ أشيب كثيف التجاعيد. بحث عن شيء ما في عيني بورياتينسكي ثم قال بهدوء.- أنت لوثري العقيدة. اضطرب بورياتينسكي وبسط يديه- ما علاقة عقيدتي بالأمر؟ تفضل بالدخول، ألا تريد شايًا بعد عناء الطريق؟

لم يجب ميزيل، صعد الدرجات المهترئة، وجال ببصره على كل نوافذ صالة الضيوف المطلة على الحديقة.

بدا كأنه كان يقوّم الوضع- لكنه لم يقل شيئًا عن نتيجة تقويمه.

مرهم بأخذي إلى المريضة- قال ذلك ومشى، مشى ملوّحًا بحقيبته التي انكشط لونها. مشى قصير القامة، معقوف الأنف، هادئًا هدوءًا لم يشهد بورياتينسكي مثله من قبل. لم يكن أرستقراطيًا، بل اختصاصيًا، محترفًا نزيهًا، كل حركة من حركاته، وكل كلمة من كلماته تساوي ذهبًا خالصًا. راح الأمير الخمسيني الذي نسي كل شيء، يقفز كمهر خائف قصّوا غرته، يركض تارة يمينًا، وتارة يسارًا، مزيحًا تانيوشكا الموجودة في كل مكان، صارخًا بها،- اذهبي يا غبية ومري بكأس من الماء للدكتور، هل أنت صمّاء؟!- ومشى مسرعًا في إثر الطبيب يرشده إلى الطريق، بل- ولأول مرة في حياته!- ينحني مرحبًا بكل من يقابله. المهم، يا ربي، ألّا تكون مصابة بالسل! المهم ألا تكون مصابة بالسل!- كان يقول في سره ناسيًا أنه لا يخاطب الرب، لا يخاطب سيدنا يسوع المسيح، بل يتوسل إلى ذلك الـ "ميزيل"، المعالج الريفي الذي لم يعرفه من قبل، ذي العقيدة اللوثرية والسترة المغبّرة...

انغلق باب غرفة النوم. وساد الهدوء.

المهم ألا تكون مصابة بالسل.

خرج ميزيل بعد ثلاثة أرباع الساعة، على دقات الساعة الجدارية المنغمة. بدا كأنه عرف كل شيء، وكان هادئًا، بل كان في نظر بورياتينسكي لا مباليًا، كأن تلك التي ترقد محتضرة خلف ذلك الباب التعيس ليست نادينكا، ليست ناديوشتي الحبيبة.

رحماك يا إلهي! كان بورياتينسكي يترنح، الأمر الذي اضطره إلى التشبث بحافة طاولة لا يعرف أحد كيف وصلت إلى هذا المكان،- دقائق الانتظار الخمس والأربعون قضاها يرشف بشكل مخجل، الكونياك الذي عثر عليه في الوقت غير المناسب، كان يجرع الكأس تلو الأخرى، وسرعان ما انبعثت فيه شهية طالب ضابط شاب- حين كانت لا تفوته حفلة سكر، أو يقصّر في الشرب فيسيء بذلك إلى سمعة سلاح الفرسان، وقد تشرّف بالسكر مع الأمير القيصري الكبير كونستانتين نيكولايفيتش، الأخ الأصغر لقيصر روسيا، الذي كان، ككل آل رومانوف شديد الإقبال على الشراب، وقد سمح له شخصيًا...

اختلطت الأمور نهائيًا في ذهن بورياتينسكي الذي سأل من دون أن يترك حافة الطاولة- كيف حالها إي- إي- إي... يا للشيطان، لقد مسح الكونياك اسمه من ذاكرته مسحًا تامًا. هذا شيء رديء، سيغضب ناديوشا، سيقتلها... إي- إي- إي... كيف حالها يا دكتور؟ هو لم يطرح سؤالًا، بل حشرج كفأرة تحت مكنسة.

أجابه ميزيل بصوت محايد: تستطيع أن تدخل إليها. هو لم يجبه- بل سمح له بالدخول، كأنه هو رب البيت، وللمرة الأولى سمع بورياتينسكي في صوت الطبيب، ليس في صوته بل في لهجته، رنة مزعجة غير روسية. لقد بدا كأن ميزيل وضع الكلمات العادية في نظام مختلف نوعًا ما، فبدت هادئة جدًا، وسليمة جدًا، وواثقة جدًا. الروس لا يتكلمون بهذه الطريقة، إنهم إما يصمتون وإما يصرخون. وقد اعتمد بورياتينسكي الخيار الأول. ردّ رأسه إلى الخلف ببساطة، ودق كعبي حذائه، أحدهما بالآخر، بكل ما أوتي من قوة، وهو نفسه يعلم أن هذه الحركة هي أول وأسوأ علائم السكر، ثم مشى نحو الباب الذي أصبح في الأسابيع الأخيرة التي لا نهاية لها، خصمه بل عدوّه الشخصي.

انفتح الباب، ثم انغلق.

هدوء شديد، جو خانق جدًا، ويكاد يكون مظلمًا.

ها... ناديوشكا؟

بورياتينسكي الذي عشي بصره بعد ضوء شمس منتصف النهار، تعثر بطاولة أخرى على عجلات- لا شك في أن الأثاث قد تكتل ضده اليوم،- دار برأسه قلقًا، باحثًا عن زوجته، لكنه لم يجدها- لم يجد سوى الهواء المتسلل برقة عبر الستائر، وقد فاحت فيه بقوة، وبشكل معقد، رائحة نادينكا- كأن أحدهم سكب من زجاجة العطر أفضل وأغلى ما تحويه.

فولوديا...

صوت ضعيف، خافت، كرنين جرس صغير مغلف باللباد، صوته نصف مسموع. أين هي، بحق الشيطان...

رباه! ها هي ذي.

كانت راقدة في السرير، جسدها خيال يكاد لا يرى. الوسائد المتلبدة أغمق لونًا من وجهها الذي نحل إلى حد بدا معه كشكل جانبي لوجه قصّه أحد الملائكة من ورق. لكن عينيها كانتا تلمعان- عينان واسعتان، لامعتان كمرآتين.

أهي تبكي؟

أرادت الأميرة أن تقول شيئًا ما لكنها لم تستطع- انتابتها نوبة سعال. هي، إذن، مصابة بالسل! إنه السل بالتأكيد!

نادينكا!

انهار بورياتينسكي، فجأة، على ركبتيه، وزحف، كما في الكنيسة، هو، قبل ذلك، لم يزحف في حياته، وظل يزحف حتى لامس يد زوجته بأنفه- كأنه جرو أو طفل صغير. لا، لا، لا، راح يتمتم وهو يغص بدموعه،- وانهارت الغرفة معه، تقافز أمام عينيه حرف السجادة حينًا، وحروف أغطية السرير حينًا، وحذاء ناديا الذي انضمت إحدى فردتيه إلى الأخرى بشكل يثير الشفقة. وكما يحدث دائمًا في بداية الصحو، بدا

كل شيء حادًا، فظيعًا، صاخبًا- لاسيما الألم الكبير الذي شعر بورياتينسكي أن داخله لا يتسع له، كما لا يتسع الفم لسن ملتهب ينتفض الوجع فيه. لقد كان ألمًا شاملًا، ناريًا، أحمر. لكن أشد ما كان يثير خوف الأمير هو أن جزءًا سافلًا، صغيرًا جدًا منه، كان فرحًا بالسجادة النظيفة بامتياز بالمناسبة) وبالجو نصف لمظلم، وبأنه يجثو على ركبتيه- لأنه، في هذه الحال يستطيع أن يتنفس، من دون أن تشمّ نادينكا رائحة الكونياك المقرفة، فهي كانت لا تطيق السكر القبيح الذي لا معنى له. إن الرب، جزاء حرصهم الشديد على التفكير به، منحهم القدرة على رفض "فعل ما لا يجب فعله". إنك يا ماتوشكا ما كنت لتستطيعين بهذه الأفكار أن تصمدي ساعة واحدة في سلاح الفرسان. الجندي الجيد لا يجب أن يشغل رأسه بالرب. رأسه يجب أن يكون خاليًا- خاليًا من كل الأفكار، لكي يتسع لاستيعاب الأوامر، ثم من قال إن الشراب في اليوم التالي للسكر أمر لا يجب فعله؟ الأمر على العكس من ذلك. ما لا يجب فعله هو، بالضبط، الامتناع عن الشرب في الصباح.

هو كان يقول هذا دائمًا. أما هي فكانت تضحك.

إذا ماتت- سأقتل نفسي على الفور.

فولوديا.

لفظت اسمه أخيرًا عبر السعال.

فولوديا. أنا... J'ai[1]

همست، تمتمت متعثرة بالكلام باللغة الفرنسية، متوقفة بعد كل عبارة- مستعجلة قليلًا،

Quoi?![2]

أحنى بورياتينسكي رأسه- ناسيًا الكونياك، والوجه المبلل بالدموع والفم المتهدل المنتفخ كفم المرأة تقريبًا.

---

(1) عندي... (بالفرنسيّة)

(2) ماذا؟!.. (بالفرنسيّة)

C'est vrai?! Mais... mais enfin, cen,est pas possible.
Cen'est vraiment pas possible![1]

أقسم أنه كان من الأفضل لي لو قطعت لساني.

وصل نيكولاي وليزا بعد شهر، في نهاية شهر آب،- وصلا بسرعة خارقة، إذا أخذنا بالحسبان أن ليزا اضطرت للمجيء من روما، ونيكولاي اضطر إلى طلب إجازة عاجلة من الفوج (هذا يعني الانتظار عامين، إيخ!).

لقد اتفق الاثنان على الالتقاء في فورونيج، كي يناقشا جيدًا أمور مزرعة الوالدين الجديدة وهما في الطريق إليها، لكن تبين لهما أن ليس هناك ما يستحق النقاش. البرقيتان اللتان أرسلهما الأب يطلب فيهما حضورهما من دون تأخير أو عوائق، كانتا متطابقتين حرفًا، حرفًا- يبدو أنهما أرسلتا في ساعة واحدة. الرسالتان الجوابيتان (دمدمة الأسئلة القلقة، والسخط الخفي، والغضب المهذب) اللتان جاءتا في برقيتين أيضًا، تضمنتا كلمة واحدة، وحيدة- فورًا. ولكي يفهما أنه ما من شيء هنا يمكن أن يفسّر ويُفهم، احتاج الاثنان إلى بضع دقائق، قضيا بعدها اليومين (اللانهائيين، اللانهائيين!) المتبقيين في صمت، وفي داخل كل منهما يتصاعد التوتر تجاه الآخر.

هما، عمومًا، كانا غير متوادين منذ الطفولة- كل منهما نما مستقلًا عن الآخر. كل منهما كبر على هواه.

ولسوء الحظ كان الطقس في تلك الأيام رديئًا، سيئًا- لم يكن أبدًا الطقس المعتاد في شهر آب، وهو بالتأكيد لم يكن الطقس المعتاد في فورونيج. كان المطر يهطل في كل الجهات، والأرض موحلة، يخف المطر ويتحول إلى رذاذ، ثم ينسكب من جديد، وعند كل محطة كانا يضطران إلى خوض معركة لتبديل الخيول، فيشهر نيكولاي سيفه أو يمسك بخناق سائس محطة تبديل الخيل. أضف إلى ذلك أن هذا التنقيل الشيطاني الذي لا يطاق لعلب قبعات ليزا وأحذيتها التي لا

(1) أنت؟!...هذا غير ممكن، غير ممكن أبداً!.. (بالفرنسيّة)

حصر لعددها، وصناديق السفر، كان يستغرق وقتًا طويلًا، لو أنهما استقلا عربة بريد لوصلا إلى المكان الذي يقصدانه قبيل المساء! ليزا كانت تكتفي بالطواف بعينيها الواسعتين اللتين تشوب لونهما زرقة فتبدو حدقتاها زرقاوين، وبالشكوى من متاعب الطريق، والضغط على عنق زجاجة الـ Houbigant الكريستالية، بمنديلها القماشي الصغير بحيث لا تترك للمرء مجالًا يهرب إليه من رائحة العطر الرديئة الملحاحة.

ابعدي هذه الزجاجة الشيطانية!

رفرفةٌ إضافية للرموش، وهزٌّ للزجاجة الثقيلة بالأصابع النحيلة. الزجاجة فارغة! ليس فيها نقطة عطر!

Mademoisell, donnez- moi le parfum. Non, pas celui- ci, pas celui, vou? Dis![1]
Appotez- moi le necessaire! Jele ferai moi- meme![2]

إن هذا مستحيل!

أعطتها الخادمة الأجنبية، الحذرة، ذات الأنف الحاد، والوجه الشاحب، ما طلبته، وهي تميل من جنب إلى جنب كالعرجاء. إنها غبية مدهشة، كائن لا يطاق!

Au nom de quoi, au nom de quoi dois - Je supporter tout cela?![3]

راحت ليزا تنبش ما في الصندوق الصغير الأنيق بقسوة، مخرجة منه قطع فراء، وزجاجات في علب مذهبة، وفراشٍ، وبكلات، وأمشاط. لم ينتظر نيكولاي بخّة جديدة من العطر، فخرج من باب كوخ المحطة التي توقفوا فيها وصفق الباب خلفه.

أنت الغبية المدهشة! تزوجت قنصلًا، وراحت تجول في أوروبا، وتصفع الخادمة.

إنها غبية! ليتني أشدها من ضفائرها- كما في الطفولة.

---

(1) هاتي العطر يا مدموزيل. ليس هذا، ليس هذا، لا. (بالفرنسيّة)

(2) أعطني العلبة! سأجده بنفسي.

(3) لماذا، لماذا يجب أن أحتمل هذا كلّه؟! (بالفرنسيّة)

لم يصلا إلى المزرعة إلا بعد منتصف الليل. استقبلهما هناك خادم لم يكن واضحًا أهو نعسان، أم أصم، أبكم،- عمومًا، كانت كبرياء نيكولاي، لا تسمح له بسؤال الخدم عن الأمور المنزلية، وليزا تعبت أخيرًا، إلى حد الخرس التام، فنامت مسندة رأسها كطفلة إلى كتف أخيها، طول الطريق المعتم الموحل إلى المزرعة. كانت تانيوشكا تقف في مدخل المنزل، وقفة ترحيب، رافعة عاليًا مصباحًا يضيء المكان، وسرعان ما انهمكت برشاقة، في إطلاق التأوهات والتنهدات، وتقبيل الأكتاف والأيدي، فلم يتسع لها الوقت لأكثر من الإشارة إلى مواقع الغرف. لقد وضعت لك يا نيكولوشكا أربع وسائد، أنت دائمًا تنام بشكل أفضل إذا أسندت رأسك إلى وسادة لينة، أما أنت يا ليزونكا، فقد أمرت بأن يدفئوا غرفتك جيدًا...

كانت تخاطبهما بلغة المفرد- من دون تكلف. يجدر القول إنها رعتهما منذ ولادتهما، رعاية تعجز عنها أية مربية. أضف إلى ذلك أن كل ما كان يحدث في البيت، إنما كان يتم بإشرافها. لم يستطع نيكولاي تمالك نفسه- انتهز فرصة وسألها عما يجري، فاكتفت تانيوشكا بالتلويح بيديها- نم، نم الآن يا يمامتي، فالديكة صاحت للمرة الثانية، الوقت متأخر، ماما وبابا سيشرحان لكما كل شيء غدًا صباحًا.

هما، إذن، على قيد الحياة، إذا جاز القول، شكرًا لله.

ماما وبابا لم يستقبلاهما

ولم يلتقيا بهما عند الإفطار في الصباح أيضًا.

نيكولاي وليزا، اللذان تفقدا البيت (بدا البيت للاثنين قديمًا وقبيحًا)، طاش صوابهما من الضجر والقلق في غرفة الضيوف المفروشة فرشًا ريفيًا رديئًا. كان من الممكن أن تبدد نزهة كآبتهما، غير أن المطر كان ينهمر بحبات كبيرة على الحديقة خلف النوافذ. لقد استمر هذا الطقس السيء منذ المساء، وظل بعد ذلك ثلاثة أيام إضافية. مرّ نيكولاي بإصبعه على الزجاج الذي كساه الضباب، وأصغى إلى زقزقة

إصبعه معجبًا - Cesse imme diatement[1] صرخت ليزا بصوت كصوت زقزقة الإصبع على الزجاج، وأخذت عن الطاولة المجلد الساكن- يبدو أنه الكتاب الذي تقرؤه أمها- ورمته خائرة القوى.

Bonjour, les enfants! Je vous remercie d,etre venus. Entrez. votre me,re et moi, nous avons quelque chose a, vous dire.[2]

نيكولاي وليزا قفزا معًا- الأب الذي وقف في الباب، كان كما عرفاه سابقًا، لم يتغير فيه شيء، لمس كلًا منهما بشاربيه كأنه يدغدغه، وقد فاحت منه الرائحة المعتادة التي عرفوها منذ الطفولة، رائحة مدغدغة طازجة. غير أن اضطرابًا غريبًا كان في عينيه، الأمر الذي جعل ليزا ونيكولاي يسرعان في إثره إلى غرفة نوم الأم، وقد قررا أن بابا بخير، والحمد لله، وهذا يعني أن الأم مريضة مرضًا شديدًا، بل ربما هي تحتضر.

لم يشعرا بشيء، لم يشعرا بأي شيء على الإطلاق.

استقبلتهما الأم نصف ممددة على أريكة، شاحبة أكثر من المعتاد، وقد أكسبها ذلك بعض القبح. على كتفيها- لاحظت ليزا ذلك على الفور- شال والدة جدتها الشهير، ذو اللونين الأسود والأحمر، الرقيق، المنسوج من الوبر المجموع عن أعناق حيوانات الماعز الكشميرية. وفي عام 1800 والد جدها دفع ثمنًا بهذا الشال قرية كاملة تساوي اثني عشر ألف روبل- كان يتباهى بهذه الصفقة الرابحة، لأنهم كانوا آنذاك يطلبون عشرين، بل خمسة وعشرين ألف روبل، ثمنًا للشال الكشميري الأصيل. وقد سمحت الأم لليزا أن تقيس هذا الشال مرة واحدة- حين كان عمرها خمسة عشر عامًا، ومنذ ذلك اليوم وليزا تحلم بأن تهديها أمها الشال عند زواجها.

هي لم تحصل على الشال، رغم أنها تزوجت زواجًا موفقًا، من ديبلوماسي لامع بحسب رأي والديها، ورأيها هي أيضًا. لم يكن ذلك الديبلوماسي فتيًا جدًا،

---

(1) توقّف فورا (بالفرنسيّة)

(2) مرحبًا يا أولاد! أشكركم على قدومكم. هيّا بنا. أمّكم وأنا نريد أن نتحدّث إليكم. (بالفرنسيّة)

لكنه كان قبيحًا جدًا، وثريًا جدًا، وذكيًا جدًا- كان كل المكونات الضرورية لسعادة المرأة مستقبلًا، في جسد واحد، لذلك وافقت ليزا على الزواج، بغض النظر عن رائحة فئران خفيفة، لكنها لا تطاق، كانت تفوح من العريس،- ولم تكن مخطئة. مرّت الحياة الزوجية سهلة، من دون أطفال، ومن دون هموم. كان الزوج يحب ليزا حتى العبادة، ويدللها دلالًا فوق العادة. الشيء الوحيد الذي كان يؤسفها هو أنها لم تحصل على الشال، الذي تجرأت مرة، خارقة كل قواعد اللياقة، وطلبته من أمها فرفضت الأم طلبها وقالت ببساطة: لا.

والآن، حان أخيرًا الموعد المنتظر.

تخيلت ليزا الضجة التي ستحدثها في روما حين تظهر بهذا الذهب الأسود والأحمر القاني،- هذان اللونان يليقان بها، وليس بأمها، بعينيها السوداوين، وشفتيها الداكنتين المنتفختين، لكن لا بد لها من أن تخيط ثوبًا مناسبًا على الطراز الشرقي، يعرّي كتفيها وأعلى ظهرها حتمًا.

نعم، يجب أن يكون القسم العلوي من الظهر عاريًا حتمًا.

شدها نيكولاي من يدها، ثم قرص جلد ذراعها، كما في الطفولة- القرصة مؤلمة. تأوهت ليزا، وقالت الأم بصوت أعلى قليلًا:

Votre pe're et moi, nous voulons vous fair partager une joie immense. Ti se trouve que tre's bientot votre nouveau petit fre're ou votre nouvelle petit soeur verra le jour.[1]

أرادت الأم أن تضيف شيئًا، لكن وجهها تقلص، كما لو أنها فهمت من تلقاء نفسها فظاعة ما قالته وعدم لياقته،- فمن غير المعقول، من غير المعقول وقد بلغت هذا العمر، أن يحدث ذلك، والمجتمع لن يفهم أبدًا حدوثه!- وفجأة تقيأت زبدًا ولعابًا لزجًا مقرفًا.

تقيأت مباشرة على الشال الكشميري الباهظ الثمن، مباشرة على الشال.

---

(1) أنا وأبوكما نريد أن نبلغكما نبأً ساراً جداً. إنَّ وضعي الحالي يدلُّ على أنّي، في وقت قريب جداً، سأنجب لكما أخاً جديداً، أو أختاً جديدةً. (بالفرنسيّة)

تأوهت ليزا مرة ثانية وهي تضغط صدغيها بكفيها. وفجأة ظهر رجل قوي البنية، مستدير الرأس من مكان ما، كأنه كان مختبئًا خلف الأريكة، وشد أطراف سترته ثم قال بلهجة حازمة- اتركونا من فضلكم، فالأميرة تحتاج إلى الراحة.

وحين تبادلت ليزا ونيكولاي النظرات وقد أدهشتهما هذه الجرأة، أضاف الرجل بوضوح- انصرفوا من هنا!

لقد قلت- انصرفوا جميعًا على الفور!

طأطأ الأمير رأسه مستسلمًا وأسرع يخرج من الغرفة بخطوات جانبية غريبة.

وأخيرًا في هذه اللحظة بالذات، أصابت ليزا نوبة هستيريا.

بعد أربعة أيام غادر الاثنان المزرعة بعون الله. ليزا كانت أول من غادر، ثم تبعها نيكولاي. ناديجدا ألكسندروفنا رأتهما مرتين أخريين في خلال هذا الوقت- مرة لمحتهما لمحًا من النافذة، ومرة رأتهما في غرفة الضيوف حين دخلتها مصادفة. هي لم تقصدها، بل جرّت إليها ساقيها المتورمتين المتعثرتين جرًا. كانت عطشى عطشًا شديدًا وتريد أن تشرب. غير أن تانيا لم تكن تلبي طلبها دائمًا. فميزيل كان يمنع ذلك بإصبعه الملطخة باليود مشيرًا إلى انحناء الساقين الشاحبتين شحوب الشمع- هذا نزيف يا أميرة، أترينه؟ لا يجوز أن تشربي كثيرًا، فهذا يضرّ الجنين. لكن يجب عليك أن تمشي كثيرًا، كثيرًا، كثيرًا جدًا! كي تقوي عضلات بطنك.

هي بذلت جهدها، ومشت. غير آبهة بهندامها، يعذبها التقيؤ الذي لا ينتهي، مستندة تارة إلى الجدار، وتارة إلى كتف تانيوشكا، إلا انها كانت تفضل الاستناد إلى يد ميزيل الصلبة الدافئة، عند ذلك كانت تشعر ببعض السهولة في المشي.

حين دخلت إلى غرفة الضيوف كانت ليزا تجلس على الأريكة محنية رأسها ذا الشعر الأسود المسرح فوق قطعة قماش مطرزة، وهي تشرح همسًا شيئًا ما لنيكولاي، الواقف قرب النافذة، يحيط به زناران أزرقان من دخان السجائر، وهو يهز رأسه موافقًا، ويفتل شاربه الفتي الأشقر بإصبعه. وفي لحظة طالت وتضخمت بشكل عجيب، استطاعت ناديجدا ألكسندروفنا أن ترى تفصيلة فستان ليزا، وشفتها

الحمراء العليا الشامخة إلى أعلى- كما في رواية الحرب والسلام"- وحتى الشعيرات الشقراء على عنق ابنها الذي لوحته الشمس، ثم تراجعت بهدوء، كي لا تسمع ما لا يرضيها، من دون أن تغلق الباب خلفها، متسائلة في سرها عما يفعله هذان الشابان الجميلان الغريبان في غرفة ضيوفها.

لا شك مطلقًا في أن الحديقة ملكها. أما هذان الشابان فغريبان.

Quelle honte[1]، قالت ليزا بغضب،

وأضافت: quelle abomination[2]

سمعت الأم، على الرغم من أنها لم تكن راغبة بذلك.

مخجل ومقرف. مخجل ومقرف.

هذا ما كان الآخرون يشعرون به وهم ينظرون إليها. حتى هي نفسها، كانت تشعر الشعور نفسه. فتشيح ببصرها، وتحني ظهرها، كما لو أنها حملت إلى المنزل مرضًا خبيثًا، كما لو أنها كانت المذنبة الوحيدة في هذا الأمر كله.

منذ الأيام الأولى سارت الأمور كلها على نحو مختلف عما سارت عليه حين أنجبا الولدين الأولين. لقد جاءت مختلفة بشكل عام. في الحملين الأولين- المبكرين، حين كان الزوجان شابين- كانت ناديجدا ألكسندروفنا تكاد لا تلحظ أنها حامل. كان حبلها سهلًا، وكانت، حتى موعد الولادة تقريبًا، تظهر في المجتمع، وتخترع أزياء تبدو معها الأثواب الفضفاضة للغاية مذهلة بأناقتها وبساطتها. لقد كان ذوق بورياتينسكايا متميزًا دائمًا- وذلك نتيجة حتمية تقريبًا، لعيشها، منذ أيامها الأولى في رفاه، وثراء. إن ناديجدا ألكسندروفنا المولودة في بيتربورغ، أجمل مدن أوروبا، والتي كبرت في قصر أبويها، وأمضت شبابها المبكر في القصر الإمبراطوري، كانت تعرف وتحب الجمال، وتحرص على ألّا تحيط نفسها إلا بما يسرّ العين، ليس فيما يتعلق بالأثاث، والأقراط والملابس فقط، بل أيضًا في اختيار

(1) أمر مخجل (بالفرنسيّة)

(2) أمر مقرف (بالفرنسيّة)

الخدم، الذين لم تكن تسترشد في اختيارهم بالمنطق، وإنما بالانسجام الفني. فقد كان من الممكن أن ترفض بورياتينسكايا خادمًا مجربًا، ممتازًا يقترحونه للعمل عندها (لا، لا ولا، ألا ترون؟ إنه معوج الأنف!) وأن تستأجر خادمة غبية، ذات عينين واسعتين، لا تتقن تقديم الطعام، وتتكسر في يدها الأواني الباهظة الثمن، لكنها، هي نفسها، تشبه تمثالًا من البورسلان- ملفوفة القوام، مقبولة المنظر، تشع كلها من الداخل بنور ناعم أبيض.

انظر كم هي جميلة! وكم جميلة رموشها! يمكنك أن تضع فوق رمشها عود كبريت! تضحك بورياتنسكايا- لو كانت ذات نمش، لكانت أفضل! والله! لقد نجوت منذ يومين بصعوبة من إبريق القهوة- هي سددته مباشرة إلى بنطالي. ليت نسوري من الرماة يتقنون التسديد مثلها. إنها رامي مدفع ممتاز!

كانت ناديجدا ألكسندروفنا تضحك، لكنها عنيدة، تتصرف على طريقتها. هي تعرف أن هذه الغبية ستتقن عملها خلال عام أو عامين، وتتعلم بإشراف تانيوشكا كل تفاصيل عمل الخادمة المحترفة، وتصبح غير ملحوظة، لكنها ستصير تفصيلًا مهمًا جدًا في لوحة الموزاييك التي شكلتها بورياتينسكايا بتصميم يكافئ تصميم لومونوسوف. كان كل شيء، كل شيء في مكانه: أدوات التزيين، وتنوع ملامحها، بل تداخل أحجامها- بحيث كان الضيوف يشعرون في مضافة آل بورياتينسكي انهم في مكان مختلف، متميز، بين أناس مختلفين متميزين. ناديجدا ألكسندروفنا وحدها هي التي كانت تعرف أن الأمر لا يتعلق فقط بفرش صالة الضيوف المدهش، ليس فقط بالحرير الفاخر الذي يغطي الجدران (ظلت تبحث ثلاثة أشهر عن اللون المناسب الذي يمنح الجدران تموجات حقيقية) بل يتعلق أيضًا برموش الخادمة التي تدخل في اللحظة المناسبة وهي تحمل صينية يلتمع فيها إبريق قهوة صغير فوق (بابور) كحولي يشتعل رأسه بلهب حقيقي حيّ، أزرق اللون. رموش الخادمة كانت زرقاء أيضًا، أطرافها معقوفة إلى أعلى، ثقيلة كأنها تحمل في ثناياها عيدان كبريت لا تراها العين.

كان هذا النهج، على الرغم من سخافته، يعمل بشكل رائع، فقد كان بيت بورياتينسكي يعدّ واحدًا من أفضل البيوت في بيتربورغ، رغم أنه لم يكن أكثر البيوت ثراء، أو أكبر البيوت حجمًا. وبورياتينسكايا نفسها- النحيلة، الشاحبة، الجذابة- كانت تعدّ من أوائل الجميلات والأنيقات في المجتمع الراقي، مع أنها لم تكن تملك أي مكون جسدي يؤهلها لذلك. وهذا ليس أمرًا يسهل تحقيقه، في عالم لا تهتم فيه النساء إلا بتدريب أنفسهن على حسن التصرف في المجتمع، وارتداء الملابس المناسبة لإطلالتهن.

وما من أحد- حتى بورياتينسكايا نفسها- كان يدرك أن في أساس هذا الحب للانسجام يكمن شعور عادي بالنفور. ناديجدا ألكسندروفنا كانت تنفر من كل قبيح، وتنفر من كل شيء وسخ،- وهذا التعالي كان غير مستساغ من فتاة ورثت العطالة، ولم تضطر، لو مرة واحدة في حياتها، أن تنظف ذيل فستانها، أو تحمل شمعدانًا ساخنًا تفوح رائحة احتراق الشمع الخفيفة منه. لا، لقد كان هذا الشعور صعبًا، لا يبعث على الاطمئنان، كان شعورًا مرضيًا يدفع أناسًا راشدين إلى التجمد خوفًا، وإطباق العينين عند رؤية أشياء عادية للغاية- الصراصير السوداء اللامعة مثلًا، أو الدمى الفخّارية العادية، الباردة، الصلبة، التي لا حياة فيها مطلقًا.

كان الوسخ والتشوه يبعثان الرعب في نفس ناديجدا ألكسندروفنا. والآن، حين بلغت الرابعة والأربعين، صارت هي نفسها وحلًا أصفر، مقرفًا، لزجًا.

ففي أواخر القرن التاسع عشر لم يكن مألوفًا في المجتمع الراقي أن تظل المرأة تلد إلى ما لا نهاية.

كانوا يعدّون ذلك أمرًا غير لائق يمنع المرأة من تأدية واجبها- واجب المرأة الراقية.

كثرة الأولاد كانت من نصيب الأسر الفقيرة. ولم يكن يسمح لنفسه بالإنجاب غير المحدود والتكاثر، إلا القساوسة، والناس البسطاء، والإمبراطورة التي كان واجبها الشخصي أن تؤمن للعرش العدد اللازم من الورثة. أما بقية الناس فكانت

لديهم أمور أكثر أهمية. وإنجاب ولدين أو ثلاثة، على الأكثر، ثلاثة في سن الشباب، كان في نظرهم أمرًا مثاليًا، وقد راعت بورياتينسكايا ذلك مراعاة تامة في البداية. هي كانت تدرك السخرية المهينة التي كانوا في المجتمع الراقي يتحدثون بها، متظاهرين بالإشفاق، عن موردوفينوفا التي أنجبت ثلاثة عشر ولدًا، وكأنها تعيش في عصر جدتي!

كانت السيدات يتداولن سرًا الوسائل القادرة على التخلص من رزقة الربّ وتثبيت الوضع المطلوب. والأمير كان يعرف هذه الأسرار جيدًا- وكانت بورياتينسكايا ممتنة له بصدق على مراعاته ذلك. لقد كانا سعيدين معًا، ومعًا، يدًا بيد، راحا يستعدان للدخول في شيخوخة هادئة، لائقة، طويلة، كخريف ذهبي. لكن الحمل المتأخر بدد ذلك كله دفعة واحدة. كان الحمل ذنبًا لا يغتفر، أشبه بارتكاب فعل شنيع علنًا. لقد كان على المرأة الراقية أن تنصرف بعد سن الأربعين إلى أعمال الإحسان، لا أن تنصرف إلى ممارسة الحب. أما الرجل فكان من حقه أن ينجب أي عدد من الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين.

Sic

لقد دمرت بورياتينسكايا هذا العالم المنتظم، المفهوم. هي دمرته بيدها.

إنها، لولا ميزيل، لانتحرت بالتأكيد، أو لانهارت. لكنه كان بجانبها- يجيء في كل يوم صباحًا ومساء، دقيقًا في مواعيده، مدعبلًا، قوي البنية. وكان، أحيانًا، يبقى لتناول الغداء، وكأنه يتفضل عليهم بذلك، وليس العكس. إنه، عمومًا، لم يكن مهذبًا: كان يقطع حديث الآخرين، ويصدر الأوامر، كان بمقدوره أن يثير على المائدة حديثًا صاخبًا عن الإجهاض - وكان الأمير يتحمّل ذلك قدر استطاعته، ثم يرمي بمنديل المائدة، ويخرج، وهو يبحث في جيوبه عن بابيروسة بيدين مضطربتين. غير أن ناديجدا ألكسندروفنا لم تكن تلاحظ شيئًا- ما عدا كون ميزيل الشخص الواحد- الوحيد الذي ينتظر بمرح وفضول الوليد الذي لم يظهر بعد، الوليد الذي لم يكن أحد في العالم يرحب بقدومه.

حتى هي نفسها لم ترحب به في البداية.

لكن بعد مرور ثلاثة أشهر وشهر رابع آخر، أخذت تشعر بالارتياح. هما- لأسباب مفهومة- قررا عدم العودة إلى بيتربورغ، وهكذا عاشت الأميرة، للمرة الأولى في حياتها، الخريف الروسي الرائع يومًا بعد يوم في قرية- فورونيجية، مشرقة، كأنها لوحة مرسومة. الغثيان زال تمامًا بفضل جهود ميزيل غير الملحوظة، وبدأت ناديجدا ألكسندروفنا، كما لو كانت تتّبع نظام حديقتها الصارم، تشبع نومًا، وتأكل بشهية ممتازة، وتتنزه ساعات كاملة في كل يوم، وتلف حول بطنها الآخذ في الاستدارة حزامًا دافئًا أحمر مرقشًا بألوان ذهبية وصور أرانب. ميزيل هو من أحضر الحزام، وامتدح الخياطة- الخياطة محترفة من العامة اسمها "أربوزوفا" (أربورزيخا- باللهجة المحلية)، تتقن عملها بامتياز، وهذا ما جعل ناديجدا الكسندروفنا، التي استعادت، مع شهيتها للطعام حبها للأشياء الجميلة، تبتكر لهندامها ملابس جديدة، مستقاة كلها من الذوق الشعبي، كانت النساء المحليات يرتدين ملابس تناسب الخريف- الوانها بهيجة وساطعة، وتخطط لتحضير غرفة الطفل، التي يجب أن تكون حتمًا في الطابق الأول، وأن تكون واسعة، جدرانها مزينة بالتافتا والحرير، وتفكر في تعديل بناء البيت، بل المزرعة كلها. كان ميزيل يضحك، ويهز رأسه بالموافقة، وهو يلتقط من بين الأعشاب تفاحة كبيرة، أو إجاصة متشققة امتلأت شقوقها بالنمل، يعض الثمرة مصدرًا صوتًا، إنها لذيذة، يمدها بيده إلى بورياتينسكايا- ببساطة كما لو كان أمًا تمدها لطفلها، فتغرس هي فيها أسنانها ببساطة أيضًا، خالطة في فمها عصارة الثمرة ولبها بلعابها ولعاب ميزيل. لقد كان ذلك أكثر من قبلة، كان تقاربًا حقيقيًا، تقاربًا لا يغيره شيء، لكنهما لم يكونا آنذاك يفكران بذلك.

لقد كانا، ببساطة، ينتظران ولادة الطفل. هما الاثنان كانا ينتظران ذلك.

هل يمكنني أكل هذه الثمرة البرية؟

تستطيع الأميرة أكل ما تشاء ما دامت ستصبح أمًا. لقد كان لدي زبونات يلتهمن في أثناء حبلهن الحوّار أو حتى السمك المتعفن. قد لا تصدقين أنهم كانوا

يعلّقون لإحدى البياعات سمكة كاملة في مكان دافئ حتى يسقط ذيلها. حتى الكلاب كانت تهرب من رائحة العفن، ولا تستطيع احتمالها. أما هي فكانت تأكلها وتبالغ في امتداحها. لقد أنجبت تلك البياعة عملاقًا خشيت ألا أستطيع حمله بين يدي. كان وزنه لا يقل عن أحد عشر فونطًا. لذلك عليك إذا رغبت في...

أبعدت ناديجدا ألكسندروفنا صورة المشهد عنها بحركة من يديها اختلط فيها المرح والخوف، ولملمت من كفها بشفتيها الثمرات البرية المرّة التي انكمشت قليلًا بسبب قرب الشتاء. كان الجو يبرد قليلًا في الأماسي والأصباح، لكنه يسطع بالشمس ويتمدد، ويشوي قيظًا في النهار، وكان الهواء المر الذي تعشى منه العين يعج بالعناكب الطيّارة، أما السماء فشاسعة، كثيفة الزرقة، تبعث البهجة. هي لم تر من قبل أبدًا سماء كهذه السماء. ردتّ ناديجدا ألكسندروفنا رأسها إلى الخلف، وضحكت، وحاولت، وهي مغمضة العينين، أن تحصي عن طريق الأصوات، عدد اللقالق غير المرئية، فتخطئ، وتعود إلى الضحك من جديد.

كان بورياتينسكي يتأمل ذلك من نافذة مكتبه بعينين ذئبيتين من شدة الغضب. لقد كان الشك في إخلاص زوجته أسهل عليه من هذه الحالة التي ليس فيها ما يدعو للشك. إنها حالة أكثر إثارة للخوف، وأكثر سوءًا. نادينكا لم تعد تشاركه الضحك، بل لم تعد تلاحظه، رغم عدم وجود أسباب للزعل– والله! – لم تكن هناك أية أسباب، ولم يكن هناك، عمومًا، ما يمكن أن يفرّق بينهما. هو كان يعتقد ذلك دائمًا– لكن، ها هو ذا يخطئ. وكانت تانيوشكا تتأمل من نافذة أخرى المشهد نفسه بنظرات ساخطة، فهي أيضًا أُهملت من دون شفقة، وحُوّلت، لأول مرة إلى وضعية الخادمة العادية– هاتي، خذي، انصرفي، لا أحتاجك الآن.

لا أحتاجك...

حوّل الأمير وتانيوشكا أنظارهما، من دون اتفاق مسبق، إلى ميزيل. إنه هو السبب في كل شيء! هذا واضح. هو وحده السبب. إنه، في بضعة أشهر، سيطر ليس فقط على روح الأميرة وجسدها، بل على البيت كله. وكان أكثر ما يثير الخوف في

سلطته الخفية، هو أنه لم يكن يستغلها، لم يكن يستفسر عن أمر أو يقدم اقتراحًا، أو يطلب شيئًا. لم يكن يرسم مشاريع، ولا يحرك أي حجر على لوحة الشطرنج، ولا يأخذ في الحسبان، طبعًا، الملك والوزير المهملين المرميين تحت طاولة اللعب. لم يكن يهتم حتى بالنقود، فهو لم يكن يأخذ أجره المتواضع نسبيًا في كل زيارة، بل فقط، حين يقوم بفحص الأميرة، وهذا كان يحدث مرة على الأكثر، في أول يوم "اثنين" من كل شهر، كان يفعل ذلك دون صلوات، ومن دون حضور الزوج، أو شهود محترمين من الجنس النسوي. كان يفعل ذلك منفردًا، خلف باب مغلق.

كان بورياتينسكي يسمع في أثناء هذه الفحوص ضحك الأميرة الكثير. هو لم يكن يغار. هذا إنكار لا مسوغ له!– لقد كان يغار، يغار بشدة، غير أن شعوره بالكره أقوى من غيرته. كان يكره هذا الطبيب الريفي، وهذه المزرعة، وهذا الجنين الذي يقبع في رحم زوجته. إنهم جميعًا سرقوها منه. لكن إذا كان التخلص دفعة واحدة من الجنين، ومن المزرعة أمرًا مستحيلًا، فإن التخلص من ميزيل أمر ممكن بالتعاون مع تانيوشكا.

سمعه الرب، ولم يهمل صلواته ودعاءه بأن يخلّصهم جميعًا من ذلك المحتال، ويجعلهم برعاية الأم العذراء المقدسة.

وقعت، وقعت، يا إلهي، بكل قوة. ضحكت، لوحت له بيدها غير مبالية– تعثرت بقرمة شجرة ووقعت وقعة مخيفة، على بطنها كله. اجتازا الحديقة والبستان، الذي صار في طرفه البعيد أشبه بالغابة، وصارت الطرقات الممهدة يدويًا دروبًا ضيقة ثم اختفت تمامًا. كانت بورياتينسكايا قد جددت حذاءها اللبادي الذي نسج من اللباد كي يتناسب وأول هطول للثلج. لقد كان لا بد لمن هم في وضعها أن يحافظن على دفء أقدامهن. هو كان يعرف ذلك، يعرفه، لذلك كان قبل كل نزهة يساعدها في ارتداء ملابسها، كأنها طفل صغير– يلبسها طبقة فوق طبقة من الملابس، كي يحمي ذلك الطفل الحقيقي، الجنين. لكنه لم ينجح في حمايته. مشى خلفها، يتأمل تلك البرك الصغيرة الممتلئة بالسواد، التي تخلفها قدماها، وهو شارد

الذهن. يا للغبي! لقد كان فرحًا بالريح التي لم تصبح صقيعية بعد، لكنها كانت تلسع الخدود.

حسب الزمن وموعد الولادة. الولادة ستكون في الربيع، في آذار، وليس قبل ذلك. أهي مستعدة؟ هل ستصمد حتى ذلك الوقت؟ ثم قال لنفسه: ستصمد حتمًا، وستلد. هي كبيرة في السن، وضعيفة، وغير متناسقة. إنها ما كانت لتصمد وتلد مع أي طبيب آخر. لكنها معه- ستصمد.

هل حان وقت البحث عن مرضعة؟ هل المرضعات هنا جيدات يا غريغوري إيفانوفيتش؟ ما رأيك؟

أظن أنك أنت نفسك سترضعين طفلك يا ناديجدا ألكسندروفنا.

الأمير تولستوي كتب أيضًا أن ذلك واجب مقدس على كل امرأة. أنا لم أتشرّف بمعرفته يا ناديجدا ألكسندروفنا، لكني أرى أن صاحبك تولستوي ليس غبيًا، مع أنه أمير.

هنا ضحكت، والتفتت نحوه، حرّكت يدها، وتعثّرت فوقعت. هو نفسه أحس بصدمتها- كانت صدمة صماء مخيفة. ثم سمع مجددًا ما سبق أن سمعه في المرة السابقة، سمع ذلك الصوت الذي سمعه آنذاك.

أوم- م-م. أوم- م-م.

لا، لا، قال في ذهنه، الحمد لله. شمر تنوراتها، هناك مباشرة، في الغابة التشرينية المعتمة، على الثلج الرطب الذي سقط لأول مرة في هذا العام[تنوراتها كثيرة- واحدة، فثانية فثالثة، قماشها رمادي موبر من الفانيللا. وصل في النهاية إلى التنورة الأخيرة- كانت مدعوكة، ساخنة، من قماش ناعم، تفوح منها رائحة دفء رطب، رائحة خوف مستنقعي لزج. رأى ميزيل الدم على الفور، زمّ عينيه وراح يبحث في جيوبه، فوجد بأصابعه التي أصابها الخدر زجاجة يود إسعافية، ضغطها، فأحس بالراحة.

حمل بورياتينسكايا على ذراعيه،- كانت مبللة، ولم يكن حملها مريحًا، مضى بها مسرع الخطا، لاهثًا. تدلت يدها بشكل غير مريح- سيسقط الكم الإضافي

الذي يحمي ذراعيها من البرد. سقط. لا، لن أرفعه، ليبق على الأرض. ذيل ثوبها يعيق حركة ساقيه- الوضع مربك،- ذيل الثوب ينجر على الأرض يمتص ماء الثلج الذائب، قد يكون ما يمتصه دمًا، ذيل الثوب يزداد ثقلًا. لكنه لا يتوقف- مشى من دون توقف ما يزيد على فرسخين ووصل إلى البيت- لم يقل لها أية كلمة، لم يجرؤ على الكلام. هي أيضًا ظلت صامتة. كان طول الوقت يظن أنها لا تتنفس. لكنها كانت تتنفس. تتنفس. تبذل جهدًا كبيرًا، كأنها كانت تدرك أنها تفعل ذلك من أجل إنقاذهما، هما الاثنين، لا بل الثلاثة. لقد كانت تجاهد من أجل الجنين أيضًا.

هو كاد يقع ثلاث مرات، آخرها عند مدخل البيت، لكنه صمد، ولم يقع. جو البيت كان لا يطاق، الجو مدفأ جدًا، والكل يروح ويجيء ويصرخ ويتدافع أمامه، لكنه، رغم ذلك، أوصلها بنفسه إلى السرير. أنزلها عن يديه، وأراد أن يفحصها مرة ثانية، غير أن الأمير لطمه على صدره ودفعه حتى الباب. أما هي فظلت تنظر إليه حتى الباب، بعينين فارغتين من كل شيء، فارغتين من الحياة ومن الأمل، ومن الإيمان. ليس فيهما غير الخوف، والأسى...

أسى كذلك الأسى بالضبط، مثله بالضبط، كما في تلك المرة، حين...

لكنه الآن لم يهرب، لا. إنهم، ببساطة، طردوه. أمسكوه من عنقه ودفعوه بعيدًا.

ولكي يقتنع بأنه قام فعلًا، بكل ما يستطيع القيام به، تتبع ميزيل أثر أقدامه حتى مكان سقوط ناديجدا ألكسندروفنا- مشى وحيدًا في العتمة التي لا يضيئها غير هذا الثلج، وخط أسود في هذا الثلج، كأنهم جرّوا أحدًا ما فوقه. كان المكان تحت الشجرة ممهدًا، كما لو أن من سقط هناك، لم يكن الأميرة، تلك المرأة الصغيرة الحجم التي تحمل في داخلها جنينًا، بل وحشًا ضخمًا، حارًا، مهّد المكان وهيأه ليكون مأوى له في سباته الشتوي. كان الدم لا يزال حيًا وكثيرًا، وكان أكثر سوادًا من التراب، لا، لم يكن أكثر سوادًا، بل كان مختلفًا، وهنا فهم ميزيل الأمر، فصرخ متألمًا، وركض عائدًا يتتبع الأثر نفسه، مقوّسًا ظهره ككلب عجوز سقط على

قائمتيه الأماميتين. لم يمتد أثر الدم أكثر من فرسخ، بعد ذلك ظهرت هنا وهناك بعض نقاط منه، ثم اختفى. لم يبق غير أثر خطواته. تراب أسود- وثلج أبيض، ولا شيء غير ذلك. لا أثر لأي دم، حتى في مدخل المنزل.

أراد أن يقرع الباب، كي يحدثهم، ويهدئ قلقهم، لكنه لم يجرؤ. لم يكن يتهددها أي خطر، والحمد لله. يجب أن ترتاح، وتأخذ كفايتها من النوم.

غدًا، كل شيء سيتحدد غدًا.

لم يسمحوا له بالدخول في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه أيضًا.

بعد ذلك كفّ هو عن المجيء. كف من تلقاء نفسه.

وبعد أسبوع وصل طبيب تم استدعاؤه من بيتربورغ–وكان أول ما فعله هو أنه منع الاميرة من النهوض من الفراش. فظلت ناديجدا ألكسندروفنا من شهر تشرين الثاني حتى نهاية آذار ممددة في الفراش مصالبة ذراعيها على بطنها، ناظرة عبر النافذة.

خلف النافذة كانت الحديقة

هذا كل ما بقي لها الآن فعله.

لقد نجا الطفل والحديقة

بأعجوبة.

في صباح 31 آذار من عام 1870 بات واضحًا أن ناديجدا ألكسندروفنا بورياتينسكايا لن تعيش حتى المساء.

كانوا جميعًا يدركون هذا- الأمير وتانيوشكا، والأب الذي يغالب النعاس في الصالون بصبر. الطبيب البيتربورغي الذي قضى خمسة أشهر في المنزل، وبقي رغم ذلك، مجهول الاسم، غريبًا، صلى الصلاة الأخيرة على المحتضرة مرتين من دون أن تلحظ هي ذلك، واختبأ الخدم الخائفون المرتبكون في الزوايا والمنعطفات التي لا يعرفها أحد غيرهم، أما المنزل نفسه فجمد وانكمش كأنه ينتظر ضربة قوية من خارجه. الحديقة وحدها كانت تضج غير آبهة بما يحدث- مبتلّة، سوداء، يغمرها

ضوء الشمس الصقيل، وهي تمضغ الطين السائل بصوت مسموع، وترفرف فيها الغربان التي عادت إليها منذ فترة وجيزة، بأجنحتها، نافضة عنها نقطًا من المطر كبيرة وبهيجة، بين الحين والحين.

كانت الحديقة تستجمع قواها.

أما ناديجدا ألكسندروفنا، الوحيدة التي تجهل أنها تموت، فكانت تصغي إلى صوت الهسهسة ورفيف الأجنحة خلف النوافذ.

إنه اليوم الثاني الذي تقضيه في حالة الولادة. لقد فقدت في الساعات الأخيرة الإحساس بالألم، لأنه صار أخيرًا في داخلها، كأنه نواة كرة سائلة رقيقة، محمّاة حتى الاحمرار، ينفخ، وينفخ فيها حداد ضخم من مورانو عبر خرطوم يحمله بذراعين نحاسيتين. كانت ناديجدا ألكسندروفنا وفي كل مرة تدور فيها الكرة ببطء وتشتعل بلهب ناري، ذهبي، تصفق بيديها مندهشة، وتشدّ ناسية قواعد اللياقة، كمّ سترة زوجها الفتي، الذي يتحول فجأة، وفي برهة لا تلحظها، إلى أب، يحمل نادينكا الصغيرة على ذراعيه، بينما ينفخ الحداد خديه ككرتين، باذلًا جهده، فتصبح الكرة الزجاجية أكبر، فأكبر، إلى حد تخشى معه نادينكا أن تنفجر، وترغب في الوقت نفسه في انفجارها. وعبر الاحمرار المديد تلوح لها، في أحيان نادرة وجوه مجهولة، بعيدة، غريبة، وتختفي، ثم يختفي الأب أيضًا، وتظل ناديجدا ألكسندروفنا التي أغمضت عينيها من شدة الحرارة، وحيدة في داخل الكرة الملتهبة.

لا، هي ليست وحيدة، إنها، الآن، تحمل بين يديها طفلًا- بنتًا عمرها يقارب الخمس سنوات، ساخنة، ثقيلة ثقلًا غير عادي، هي، بشكل غير معقول، بنتها، وهي نفسها، في وقت واحد. قفزت البنت ومدّت يدها نحو شيء لا تراه ناديجدا ألكسندروفنا، ولم تكن قادرة على رؤيته، لكنها كانت في كل مرة تلامس فيها خصلات الشعر الطفلية اللينة المضمومة ببعض الشريطات، خدها، تشعر برعشات حادة، مديدة من السعادة.

احتضار بورياتينسكايا من دون أن تعرف كان رحمة عظيمة، كان يحمل فكرة كبيرة تحس بها إحساسًا أكيدًا، كما تحس بثقل الطفل الذي على ذراعها الأيمن، فكرة ملأت سريعًا، وفي الوقت نفسه، الحديقة المبتلة خلف النافذة، بعصارة حية، فصخب هذه الحديقة التي أيقظها الربيع، هو وحده الذي كان يبقي ناديجدا ألكسندروفنا في هذا العالم، والأدق، هو أنها كانت تتشبث بهذا الصخب، كأنه كفّ باردة برودة منعشة، ورطبة قليلًا، هي كف أهم وأعز إنسان في حياتها.

كل حياة الموت الكبيرة، المتوترة، لم تكن ظاهرة، وكان جميع من حول ناديجدا ألكسندروفنا ينظر إليها كامرأة متألمة ذات وجه شاحب، خال من التجاعيد، ترقد في السرير، تحت ثقل بطنها الذي كان يتحرك من وقت لآخر، وتطلق كل ربع ساعة صرخة مرعبة تجعل الخيل في اصطبل المنزل الذي يبعد عنها قرابة المئة خطوة، تجفل كأنها سمعت صوت طلق ناري، فتقتلع بحوافرها قطعًا ثخينة من طلاء الحائط. سرير ناديجدا ألكسندرروفنا كان متينًا، باردًا، ثقيلًا، مبللًا بالعرق، وكانوا يغيرون شراشفه كل ربع ساعة أيضًا، وكل خشيتهم تنحصر في أن هذا الربع ساعة، الذي يفصل بين نوبة ألم وأخرى، لم يكن يتغير أو يتناقص، مع أنه كان يجب أن يفعل. هذا أمر كان الجميع يدركه، حتى تانيوشكا التي لم تحبل ولم تلد. كانت تانيوشكا شخصيًا تبدل الشراشف المكوية، وتمسد براحة يدها كل ثنية في كل قميص كي لا تسبب تلك الثنية للولّادة المزيد من الألم، لا سمح الله.

تانيوشكا التي تورمت عيناها من كثرة البكاء، حتى صارت لا ترى الضوء تقريبًا من خلال جفونها المتنفخة، قضت هذه الأيام المخيفة كلها من دون أكل أو شراب، ولا تخرج من غرفة الأميرة إلا لكي تكلف الخادمة المنهكة بعمل ما، بلهجة تعبر عن حزن حقيقي يملأ عروقها.

لكنها، مع ذلك، كانت تغتر في صمت، بكون طلبات سيديها كلها مؤمنة تمامًا- الشراشف، والمناشف والمناديل. لقد استخدموا العشرات بل المئات منها، لكنها ما زالت تملأ رفوف الخزائن المعطرة، وما زال المرق الكثيف يغلي على نار

هادئة لليوم الثاني في القدور النحاسية في المطبخ، لا يحتاج إلا لتقوية النار قليلًا حتى يغلي في دقيقة. لقد شبع الجميع في هذه الأيام، بفضل توجيهات تانيوشكا الذكية غير الملحوظة. غير أنها كانت تكره نفسها بسبب هذا الغرور الذي تعدّه آثمًا. وقد حاولت التكفير عنه بشتى الطرق- بالصلاة مثل أليكسي، راهب الرب، أو تتلو الأدعية التي في كتاب الصلوات، وتقرص بطة ساقها قرصًا شديدًا حتى تزرق،- ومع ذلك ظلت تغتر وتتعالى. أضف إلى ذلك أنها كانت، من حين لآخر، تحاول أن تخمّن- بسرعة كأنها تسرق شيئًا عن الطاولة- ما الذي سيحدث حين... فالأمير سيتزوج بعد أقل من عام، وعندئذ سينتهي كل شيء- السلطة، والأمان، والاحترام. وقد يطلبون منها مغادرة البيت عمومًا، أو أنها قد تغادره قبل أن يطلبوا منها ذلك، فهي لا تريد أن تذل. لكن إلى أين؟ إنها عند الأميرة منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. لقد عاشت حياتها كلها في خدمة ساقيها الأبيضين. أجهشت تانيوشكا ببكاء مكتوم، بصوت منخفض، مؤلم، كثيف- إي- إي- إي- إي- إي! دسّت رأسها في حافة السرير الذي بدّلت أغطيته لتوها، باحثة بشفتيها عن يد ربة المنزل، التي كانت أصابعها قبل قليل، في منتصف نهار الحادي والثلاثين من آذار، مضمومة في خدر، فإذا بها انفردت فجأة، ومرّت بسرعة، مضطربة، فوق اللحاف والشراشف ثم مسّدت شعرها، وأصلحت وضع أشرطة الدانتيل والزينة على كمّي قميصها كأنها تستعد للقاء قريب، مهم إلى حد يصعب تخيله.

كانت ناديجدا الكسندروفنا تصلح هندامها

نظرت إليها تانيوشكا- وأعولت هذه المرة بصوت مرتفع صريح، ناسية الأفكار المنحطة التي كانت تراودها،- وفي الوقت نفسه صرخت ناديجدا ألكسندروفنا وقد انتابها إحساس حيواني بألم لا يطاق نتيجة مغصة عاضة، فبدت صرختها كأنها جواب على صراخ تانيوشكا- ولدى سماع هذه الصرخة المزدوجة هبّ بورياتينسكي في مكتبه عن الديوانة التي أرقده عليها اليأس مذهولًا في هذه الأيام، ركض مترنحًا دمدم، يا إلهي، وسقطت من يد الطباخة المذهولة كومة غير مستقرة من أطباق البورسلان،

وهمهم الخدم متدافعين- إنها تموت، آه، رحماك يا رب، إنها تمووووت!!! وبدت حتى على وجه الطبيب الأملس المزرق لمحة من الشعور الإنساني.

تكرّموا بالابتعاد أيها السادة! أنتم، يا سادة، تعيقون فحصي للأميرة.

لم يلاحظ أحد، في أثناء هذه الفوضى التي لا معنى لها، كيف انفتح باب المدخل الرئيسي وانصفق منغلقًا،- ثم انفتح وظل مفتوحًا بشكل موارب. لكنهم حين انتبهوا تساءلوا- من دخل؟ ومن خرج؟ - لم يحصلوا على جواب، ولم يكن هناك على الأرض أي أثر- أي أثر إنساني أو حيواني، لم يكن هناك سوى بعض الأوراق التي تغطي منذ العام الماضي الموقد المرمري- أوراق جافة، كأنها تعرضت للنار، فانثنت أطرافها إلى أعلى.

لقد دخل الموت، أخيرًا، إلى المنزل.

هزّ الموت الستارة، نفخ على المرآة، صعد إلى أعلى دون أن يلمس الإفريز، جال في الغرف كلها- هادئًا، رحيمًا. الضجة تعيق عمله كثيرًا، وكذلك الضوء، والرعب الإنساني، والفوضى. الموت يحتاج إلى الظلمة والعزلة، لكنه لم يرد أن يعذب ناديجدا ألكسندروفنا حتى حلول الليل. إنه، عمومًا، لا يحب أن يعذب أحدًا بل لم يكن، في ظني، يستطيع أن يعذب أحدًا. الذي يعذب هو الحياة. الموت لا يبعث إلا الطمأنينة. لذلك، حين ملأ الموت المنزل كله في الساعة الثانية، في منتصف النهار، نام الجميع- الخدم، السادة، والكنار الذي تحبه الطباخة، وحتى الكلاب، تكوّم الجميع- كل حيث كان يقف أو يجلس- وقد أرهقهم التعاطف مع ألم غير ألمهم. حتى الحديقة خلف شباك ناديجدا ألكسندروفنا جمدت، ووقفت على رؤوس أصابعها محاولة ألّا يصدر عنها أي صوت.

أغمضت بورياتينسكايا، وهي في داخل كرتها، عينيها من شدة الحرارة القادمة من الخارج. هي لم تعد ترى أي شيء في خارج ذاتها- جدران الكرة الزجاجة تكثفت بسرعة، وصارت غير شفافة، والبنت التي كانت تحملها صارت أثقل، وراحت ترفس بقدميها السمينتين، محاولة الإفلات. لكن ناديجدا ألكسندروفنا

عرفت بشكل ما أنها لا يجوز أن تفلت البنت من يديها، وأن ذلك مستحيل، لذا راحت تضمها إلى جسدها بشكل أشد، فأشد، محاولة تهدئتها- إش- إش- إش ها- ها- ها-، إش- إش- إش، ها- ها-ها.

الدكتور البيتربورغي كان الإنسان الوحيد الذي لم ينم، لم يخضع للموت، بل أظنه لم يلحظ ظهوره، لذلك انحنى على بورياتينسكايا وراح يصغي إلى تنفسها المتقطع الذي يشبه الأنين.

إش- إش- إش- ها-ها-ها، إش- إش- إش، ها-ها-ها.

لم يتوقف المغص، لكن ناديجدا ألكسندروفنا توقفت عن الصراخ- هو، في الحقيقة، لم يكن يعجبه في هذه المزرعة التي تحمل اسمًا غريبًا هو "آنّا"، أي شيء، لم يعجبه ذلك البيت القديم غير المتناسق، ولا تلك الولّادة، غير المتناسقة أيضًا، التي تجرأت على القيام بعمل لا تستطيعه دائمًا النساء الفتيّات الصحيحات جسديًا، ولا الأمير الذي أرهقه شهورًا بشكاواه ومخاوفه. حتى الأجر المتواضع حقًا الذي أخذه الدكتور لقاء قدومه لم يعد يفرحه، بل صار يوتّر أعصابه إلى أقصى حد. لقد كان يرغب منذ زمن في أن يعتذر ويرحل، بعد أن يسلّم علاج الأميرة إلى أي زميل يوافق على الحلول محله، لكنه لم يأخذ في الحسبان أن الربيع في بيتربورغ يختلف عنه في الريف، كشدة الاختلاف بينهما في الأمزجة و(الموضة).

آذار كان في العاصمة رنّانًا وناعمًا في آخر موجات الصقيع، لكنه تحول في مقاطعة فورونيج إلى كارثة حقيقية. ففي أيام معدودات جرت الأنهار بسهولة ومن دون صوت تقريبًا، والتهم الضباب بعناية بقايا الثلج كما يلتهم القط اللبن- انتفخ كل شيء، وفاض الوحل عبر حواف الحفر قويًا، وقحًا يضج بالحياة. وهكذا سجن وحل فورونيج السميك، الدبق، الدكتور في المزرعة- فلم يعد يستطيع الوصول إلى العالم المأهول، في قارب، أو على ظهر فرس، أو سيرًا على الأقدام.

أخذ الدكتور سماعة طبية على شكل أنبوب طويل أملس، وانحنى على شكل قوس يصغي إلى حركة البطن الكبير المنتفخ. كان القلب الصغير يدق بقوة وانتظام

في داخله، لكن دقاته صارت أسرع قليلًا مما يجب. وكان الطفل حيًا، يرغب في أن يولد. كان مستعدًا لذلك، وكان يستطيعه. لكن الأم لم تكن تتركه يخرج من رحمها. العقل السليم، والواجب، وإرشادات كيتير في دراسته لأمراض النساء، كل ذلك كان يفرض بالإجماع إجراء عملية قيصرية على الفور وإخراج الجنين من الرحم، لكن- وضع الطبيب فوهة الأنبوب على بطن بورياتينسكايا مرة ثانية، ومر بأصابعه الحساسة على الجلد المشدود- فات الوقت. لقد تأخر كثيرًا. رأس الجنين صار داخل قناة المهبل، والجنين بات في وضع لا مخرج منه. إنه، بعد ساعتين، سيبدأ بالاختناق، ثم يموت. تموت الأم أولًا، وبعدها يموت هو.

الميتة ستكون طويلة، طويلة جدًا، وفظيعة.

تخيل الدكتور الجنين المدفون حيًا في داخل الأم الميتة، فأحس بارتعاش في حلقه.

إنه، ابن عصره، كبر وهو يسمع الحكايات الكئيبة عن الكثيرين الذين بعثوا إلى الحياة بعد دفنهم، وأكثر منها الحكايات عن عذاب ما بعد الموت، ويخاف في طفولته الخمول وقلة الحركة أكثر من خوفه من العقوبة والجلد.

كان يحتاج الملاقط، طبعًا. ملاقط قديمة، جيدة ماركة "سيمبسون"، لكنه نسيها. تركها في بيتربورغ. في العيادة، في درج الطاولة الأعلى إلى اليمين. يا له من غبي! لا بل غبي "مربّع"- لأنه لم يتذكر ذلك إلا اليوم صباحًا، نبش متاعه كله من دون رحمة: الكتب، والحمّالات، والملابس الداخلية، ومناديل الأنف، وحذاءه المفضل الذي يصرّ نعله تحت قدميه. فلم يجدها هل يطلب إرسالها إليه؟ (إلى أين؟ إلى فورونيج؟ إلى المدينة التي تبعد عن مكانه أكثر من تسعين فرسخًا؟) إن ذلك ممكن نظريًا، لكنها، على كل حال، ستصل متأخرة، لا سيما بوجود هذا الوحل المتراكم على الدروب...

انتفضت الحديقة، خلف النوافذ التي تغطيها ستائر سميكة، بصخب- كأنها تقهقه بشماتة ورمت الزجاج بكرات كبيرة من نقاط المطر.

نظر الدكتور إلى بورياتينسكايا بكراهية. ليت هذه العاجزة النبيلة النسب، تساعده! ليتها تكلّف نفسها عناء شدّ عضلات بطنها قليلًا!

يا صاحبة السموّ!

إش- إش- إش، آ- آ- آ- إش- إش- إش، آ-آ- آ.

كفّت البنت، أخيرًا، عن محاولة الإفلات من يدها، ووضعت رأسها الساخن الثقيل، على كتف بورياتينسكايا، وهدأت. إنها ستنام الآن والحمد لله. حاولت بورياتينسكايا أن تعدّل وضع الطفلة كي تكسبها المزيد من الراحة، لكنها لم تستطع- يدها اليمنى كانت ميتة تمامًا، ومتخشبة. وكذلك صار الجو الآن ميتًا ومتخشبًا من حولها. اختفت النسمات البهية، الحارة، وزادت قتامة الهواء وبرودته بشكل ملحوظ.

أخذت الكرة تبرد بسرعة خاطفة، وكذلك أخذ يبرد عالم بورياتينسكايا أيضًا.

هذا جيد. انظري! لقد غابت الشمس. وتانيوشكا أسدلت الستائر.

نامي، يا ملاكي. نامي! وماما ستنام قليلًا أيضًا.

إش- إش- إش، آ- آ-آ-، إش- إش- إش، آ- آ- آ.

هل تسمعينني يا صاحبة السموّ؟

ظلت بورياتينسكا صامتة. وزحف من الأنف إلى الشفتين ببطء، ظل يلتمع. مغصة، قصيرة، كرعشة فوق الماء، ومن جديد تقلّص الجسد الممدد على السرير. ألقى الدكتور نظرة لا إرادية إلى ساعته- الوقت تجاوز الربع ساعة الذي قدّره سابقًا، وبلغ العشرين دقيقة. إنها لم تعد تريد أن تلد، لا تستطيع، لقد تعبت. قضت حياتها كلها على أرائك لينة- وتعبت!

فتح الدكتور حقيبته، وأخرج منها زجاجة ثقيلة سوداء. مدّ يده إلى جيبه يريد إخراج منديل، لكنه غيّر رأيه. بحث بعينيه في المكان- هوذا ما أبحث عنه! التقط عن الأرض منشفة مدعوكة. نزع بأسنانه سدادة الزجاجة- أرسل الزجاج تحت الأسنان صريرًا مزعجًا، ولسعت البرودة فمه الجاف. وفاحت في الغرفة رائحة

حادة، حلوة المذاق، وقوية. ضغط الدكتور وهو يحاول ألّا يتنفس عبر أنفه، عنق الزجاجة بالمنشفة المطوية أربع طيّات.

هو لم يكن الأول، ولم يكن يسعى إلى ذلك، من المؤسف أن الآخرين سبقوه في هذا المجال، فقد كان جيمس سيمبسون أول من استقبل ما يزيد على عشرين عامًا، أول مولود تحت تأثير المخدر الأثيري، جيمس سيمبسون، الطبيب الأسكوتلندي المختص بالأمراض النسائية، صاحب الجرأة الخارقة، والموهبة الفطرية، الذي كان العاملون في القبالة والتوليد يقدسونه إلى حد العبادة، وكان القساوسة يتمنون أن يفصفصوا عظامه ويلتهمونه حيًا. لقد مات الجنين الأول الذي ولد بهذه الطريقة.. كان بنتًا، لكن لسبب غير مفهوم لا يحزن الناس كثيرًا لوفاة البنات. آنذاك أقدم سيمبسون على استخدام الكلوروفورم- ونجح. وفي عام 1853 أنجبت الملكة فيكتوريا نفسها مولودها السابع الأمير ليوبولد تحت تأثير المخدر- وزالت بشكل رسمي عمليًا عذابات الولادة في أوروبا. لكن انتقال هذا كله إلى روسيا كان بطيئًا، بطيئًا جدًا، فظلت حتى أشهر وأرقى زبونات الدكتور تفضل الولادة عبر الألم، لذلك لم يستخدم الدكتور المخدر الأثيري أو الكلوروفورم في التوليد لو مرّة واحدة في حياته، وكان كل ما يعرفه عنه، هو ما قرأه في "النشرة الطبية" عن طريقة استخدامه.

هو، على كل حال، لم يكن يحمل الكلوروفورم في متاعه، كما لم يحمل الملاقط، بل لم يكن لديه أيضًا أي قدر من الثقة بأنه يتصرف التصرف الصحيح.

تشبّعت المنشفة أخيرًا بالأثير، فأغلق الدكتور الزجاجة التي فرغت تقريبًا. لقد كان عليه، طبعًا، أن يحصل على موافقة الزوج، والولّادة نفسها، وأن يعدد لهما الأخطار، ويستمع إلى شكوكهما. كان عليه أن يسألهما على الأقل، لكنه لم يجد إلى جانبه من يسأله. تخيّل الدكتور كم سيضيع من الوقت في إيقاظ مرافق صاحب السموّ، المرافق الذي لا يجرؤ أحد غيره على إيقاظ السيد من نومه المقدس، وتخيل كم من الوقت سيظل صاحب السيادة يرفض الاستيقاظ، وكم من الوقت

سيستغرق بعد ذلك في زينته وشرب القهوة، لأن تقاليد المجتمع الراقي، لا تسمح للأمير بأن يظهر أمام الناس إلا بكامل زينته ونضارته، لكنها كانت تسمح لزوجته بالموت في مكان منعزل، ناء، لأن ذلك العجوز الغبي لم يتكرّم بنقلها كي تلد في بيتربورغ.

ناديجدا ألكسندروفنا!

أدرك الدكتور فجأة أنه ينادي زبونته، ربما للمرة الأولى باسمها، هذا أيضًا لا تسمح به تقاليد المجتمع الراقي، وقواعده المتشابكة كبيت العنكبوت، وغير الظاهرة مثله أيضًا. لقد كان إنسانًا من الدرجة الثانية، هنا، في هذا البيت. مكانه في أبعد زاوية من زوايا المائدة، هذا إذا دعوه عمومًا.

نعم، لقد كانوا يطلبون مساعدته، ولا يجرؤون على إهمال نصائحه. إنهم، في نهاية المطاف، كانوا يخافونه، بل يكرهونه كممثل مفوض للموت، له كامل الصلاحية في تنفيذ الحكم. لكن ذلك كله لم يعطه الحق في أن يعدّ نفسه إنسانًا مكافئًا لهم.

حمل الدكتور في كفه المنشفة محاولًا تقدير وزنها.

حسنًا، ليكن. إنه، على الأقل، سيحاول.

حاولي يا ناديجدا ألكسندروفنا أن تتنفسي بعمق ولا تخافي سأخدرك.

رفعت بورياتينسكايا حاجبيها قليلًا كأنها دهشت من هذه الوقاحة. وغطت غمامة من الزرقة وجهها كله- إنها غمامة الموت التي دخلت إلى الغرفة منذ زمن، ووقفت قرب السرير منحنية انحناءة تعاطف.

أخذ الدكتور نفسًا عميقًا ملأ صدره بالهواء، كأن المخدّر كان معدًّا له هو، ثم ضغط المنشفة الباردة المثقلة بالأثير على وجه ناديجدا ألكسندروفنا.

عشرة، تسعة، ثمانية.

انفجرت الكرة دفعة واحدة- تشققت كلها مصدرة أصواتًا كأنها قطعة جليد صباحي داستها قدم عن طريق الخطأ، ولكن، بدلًا من أن يندفع الماء الموحل،

الثقيل، من شقوقها، اندفع ضوء قوي لا يطاق، جعل ناديجدا ألكسندروفنا تصرخ، مغمضة عينيها، وقد أدركت على الفور تقريبًا، أنها فقدت الجنين.

سبعة، ستة، خمسة.

البنت اختفت، رغم أن ناديجدا ألكسندروفنا كانت متأكدة من أنها لم تفرد يديها، فهي لم تكن قادرة على ذلك بسبب التعب من بقائهما معقودتين لساعات كثيرة. إنها لم تكن قادرة على بسطهما، لم تكن قادرة فيزيقيًا، لكن البنت اختفت. اختفت! ابنتها اختفت! تقلبت بورياتينسكايا في قلب الضوء الذي لا يرحم- عشواء، خائفة، ترفرف بجفونها المبللة العارية.

يا إلهي! أنا لا أرى. لا أرى شيئًا. لماذا كل هذا الضوء؟!

أرادت أن تنادي- لكنها لم تعرف كيف. اسم الطفلة الذي اختارته بنفسها، وكانت تتذكره بوضوح قبل بضع دقائق، سقط من ذاكرتها، وحلّ محلّه في رأسها اسم "ليزا" الذي طواه الزمن، فحرّكت بورياتينسكايا يدها، تبعده عنها كأنه نحلة برية ملحاحة.

ليس ليزا، لا.

كيف؟!

عامت أمام عينيها نقاط تتجمّع حمراء وسوداء.

ماما! ماما- آ- آ- آ- آ!

اندفعت ناديجدا ألكسندروفنا التي صارت الآن عمياء تمامًا، نحو تلك الصرخة، ويداها تتعثران ببعض الأغصان العارية- الاغصان من حولها كانت تطقطق وتتساقط، وتتقصف، والقشرة السميكة غير المرئية كانت تنفجر وتتشقق، والبنت تنادي وتنادي من مكان ما في أعماق الضوء البارد الحلو- ماما! ماما!

وفجأة تذكرت بورياتينسكايا.

نتاشا!- صرخت تردّ على ندائها، فانطفأ الضوء دفعة واحدة.

وفي العتمة السائدة التي، كما كان الضوء، لا يمكن اختراقها، قال الصوت الطفلي بوضوح وغضب.

أنا لست نتاشا بل توسا.

اصطفق باب في مكان ما في البعيد- فهبت على الفور نسمة ربيعية رقيقة، لامست على عجل شفتي ناديجدا ألكسندروفنا المشدودتين، الباردتين، وداعبت بمودة جبينها وحاجبيها.

إنه الموت- قالت ناديجدا ألكسندروفنا في سرها من دون أن تشعر بأي خوف.

انصفق الباب مرة أخرى.

انغلق.

بعد ذلك لم يبق شيء غير العتمة.

* * *

حين استيقظ الأمير أخيرًا- هو كان آخر من ظهر من سكان المنزل في هذه الفوضى النهارية التي سادته- كان كل شيء منتهيًا. كانوا يهمهمون في غرفة نوم زوجته، فأسرع نحو تلك الضجة خائفًا من سماعها (أتراهم يبكون؟ فلتبعد عني هذه الكأس يا يسوع!). شدّ الباب إليه، وقفز ينظر بعينين خائفتين: الطست مقلوب، والشراشف مبللة، والدكتور يبحث بعنف في متاعه، ويداه ترتعشان بشدة فلا تطيعانه،- ولاحظ الأمير بشكل آلي إن المكان يشبه أرضًا بعد المعركة، ثم نسي ذلك على الفور، لأنه رأى أن نادينكا حية، والحمد لله. رآها تجلس في السرير، ترفع بحدة قميصها المدعوك العالق بركبتها، وقد أمالت رأسها بشكل غريب وراحت تنظر إلى أسفل. شعرها الأشقر، الجميل، تجمع في هذه الأيام بسبب العرق، في كتلة راحت تانيوشكا، وقد ازداد نحيبها، تحاول فكّها وهي تدندن: ضفائري، أيتها الضفائر هل سأضطر إلى قصّك؟

هي، إذن، من كان يعول. يا لها من عجوز غبية!

Ma che're ame![1]

أزاحت ناديجدا ألكسندروفنا يدي تانيوشكا، كأنها تزيح غصنًا ناشزًا يوشك أن ينغرس في عينها، ورفعت عينيها نحو زوجها الأمير بورياتينسكي- عيناها سوداوان تقريبًا، بسبب اتساع حدقتيها.

هس!- قالت بلهجة صارمة.- هس! اذهب من هنا! لا تتجرأ... لا، لا، اقترب! أنا... يجب أن أخبرك.

أطبقت بجهد واضح شفتيها غير المطواعتين إطباقة غريبة، غير رشيقة، كأنهما مخدرتين، وحرصت حرصًا شديدًا على النظر إلى عيني بورياتنسكي مباشرة، فبدا للأمير للحظة أن زوجته سكرى حتى الموت- كانت الفكرة وحشية إلى حدّ أنه لم يجرؤ على إدراكها حتى نهايتها.

لقد مت!- قالت بورياتينسكايا بصوت رنان.- مت تمامًا.

ألقى بورياتينسكي نظرة عاجزة على الدكتور. إنها سكرى- هذا مؤكد.

هي شربت حتى انطفأت- شربت أكثر من قائد سرية في سلاح الفرسان، أتراها فقدت عقلها؟

لم يرفع الدكتور رأسه واستمر في نبش حقيبة متاعه.

لقد تنبأت بذلك. أنا الآن أعرف كل شيء. كل شيء! ما بالك تقف هناك؟

اقترب!

اقترب بورياتينسكي- بحذر، كأن زوجته يمكن أن تنقضّ عليه، نشق بأنفه، لكن لا- ليس في جو الغرفة غير رائحة العرق، والدم الذي يموت، رائحة ما بعد المعركة، ورائحة شيء ما آخر- نضر وحلو.

لقد انكشف لي الآن معنى الحياة. هاك، انظر!

---

(1) يا روحي! (بالفرنسية)

بسطت ناديجدا ألكسندروفنا ركبتيها- يرقد على بطنها طفل صامتًا، معوجّ الفم، يتشبث بها بقوة، محمرّ الوجه، منكمشًا ككل المواليد الجدد.

Je le trouve a dorable, cet enfant![1]

المولود ليس صبيًا. إنه توسا. ابنتي. هذا هو معنى الأشياء كلها. تقلص وجه بورياتينسكايا برعشات سعادة كادت تشوهه.

نظر بورياتينسكي مجددًا إلى الطبيب، فاغلق الأخير حقيبة متاعه، وجلّس قامته، وقد كفّت يداه عن الارتعاش أخيرًا.

Mon Dieu, qu',est- ce qu'il lui arrive? Je...[2]

أنا... أنا لا أفهم، هل هذه حمى؟

أدرك الأمير أنه أخطأ بتحدثه بالفرنسية، فانتقل إلى اللغة الروسية التي يخاطب بها عادة الأناس المنتمين إلى مستوى اجتماعي آخر. فاحمرّ وجه الدكتور بشدة وردّ بلغة فرنسية سليمة رغم أنها خشبية.

La pricesse et le bébé se portent bien. C'est le ré sultat de

تلعثم الدكتور لحظة ثم تابع،

- d'une extrême tension et d'un accouchement trés long.
Dans quelques heures tout ira pour le miex.[3]

ردّ الدكتور رأسه إلى الخلف فجأة وطلب بلهجة حادة تكاد أن تكون مهينة.- تكرّم ومرهم أن يقدموا لي خيولًا. فهذا البيت لم يعد بحاجة لخدماتي. أنا سأعود إلى بيتربورغ.

أحنى الأمير رأسه بلا مبالاة، وراح يتأمل ناديجدا ألكسندروفنا. أما ناديجدا ألكسندروفنا فلم تحد ببصرها عن الطفلة- إنها زينة جديدة لحياتهما منذ الآن، ولأعوام طويلة قادمة، لكن بورياتينسكي لم يكن بعد قد أدرك ذلك.

---

(1) أنا أجد هذه الطّفلة رائعة. (بالفرنسيّة)

(2) يا إلهي، ماذا أصابها؟ أنا... (بالفرنسيّة)

(3) فخامتها والطفلة بخير. ما بها... هو نتيجة التوتر الشديد والولادة العسيرة. بعد بضع ساعات سيكون كل شيء على ما يرام.

فالمهم عنده هو أن نادينكا حية وسليمة، سليمة وحية.

لم يستطع الدكتور مغادرة "آنّا" الغارقة في الوحل إلا بعد يوم كامل، لكنه لم يصل إلى بيتربورغ، رغم أنه أنفق الجزء الأعظم من أجره الأسطوري، كي يشحذ همة الحوذيين المحليين الأغبياء واليائسين للغاية. لقد اضطر، على الرغم من جريان نهر إيكوريتس بسخاء نهر النيل، إلى سحب القارب في بعض الأماكن، وإلى الخوض في بعضها الآخر حتى الخصر في الوحل الكثيف الأسود، الروسي تمامًا بقسوته، ودبقه، وصقيعه.

رحماك يا رب، ما أشد هذا البرد! ما أشد البرد! آه ما أشد الألم في رأسي!

فقد وعيه وهو على بعد خمسة فراسخ من فورونيج. لكنه استطاع، قبل ذلك، أن يأمر بأخذه حتمًا إلى المستشفى. كان يخاف من التيفوس، وشتى الأمراض المعدية، لم يكن ينقصه إلا الخوف من الطاعون. في المستشفى تبين أن الدكتور يعاني من التهاب الرئتين الذي مات بسببه بعد ثلاثة أيام في مشفى مقاطعة فورونيج الواسع، وهو بكامل وعيه الإنساني والطبي، بين يدي كبير الأطباء قسطنطين فاسيليفيتش فيدايفسكي.

وكانت آخر كلماته على هذه الأرض: "لا تدفنوني في هذا الوحل. اعطوا كل شيء للعلم".

كان فيدايفسكي رجلًا رقيق القلب وعمليًا (مكّنه هذا من أن يبني لنفسه مكانة اجتماعية مرموقة)، نفّذ إرادة زميله- فقام شخصيًا بتقسيم جثة الطبيب البيتربورغي إلى شرائح قدّر فيدايفسكي أن الأطباء الفورونيجيينن الشباب سيستكملون بدراستها ما ينقصهم من معلومات عملية. لكن، إما لأن فيدايفسكي المختص عمومًا بعلم البصريات، كان سيء المعرفة بعلم النسج، وإما لأن الحراس المحليين ذوي الأرواح الخاوية، لم يحتملوا طويلًا مجاورة بواتق ملأى بالكحول، تم بعد عدة أعوام، الإقرار بأن هذه الشرائح قد فسدت ولا يمكن إصلاحها، وتم إرسالها إلى مكب النفايات (وبرحمة من الرب، جرى ذلك في صيف حار وجاف). ولم يبق

مقبول المنظر من الجثة سوى جمجمة الدكتور المائلة إلى الصفرة، يزين فمها صف من الأسنان السليمة، وقد عاشت هذه الجمجمة طويلًا، طويلًا، لأن قسطنطين فاسيليفيتش أبقاها عنده محفوظة على الطاولة في مكتبه، وذلك احترامًا منه لذكرى زميله. (بالمناسبة الآخرون فسروا محافظته عليها تفسيرًا يناقض ذلك إلى حد بعيد). لقد كان فيدايفسكي يستشير الجمجمة في الحالات الصعبة- ليس لأنه يؤمن بالخرافات، بل انطلاقًا من ذلك الاحترام نفسه الذي تحول عنده بمرور الأيام إلى عادة مستغربة من عاداته.

في عام 1895 زارت فورونيج توسا، شابةً في الخامسة والعشرين من عمرها، نشيطة، مهتمة لبعض الوقت بالحياة الاجتماعية (كان فيدايفسكي قد افتتح لتوه في ماليشيف مدرسة لأبناء الفلاحين، وقد أرادت توسا أن تفتتح مثلها في "آنّا")، فظل فيدايفسكي بذقنه الممشطة جيدًا، يطرح عليها نظرياته بحماسة طيلة الدقائق العشر التي استغرقها لقاؤهما وهو يمسد بشكل آلي جمجمة سلفه، الموضوعة على الطاولة، بيده الصغيرة القوية، المبسوطة، كقطعة جلدية رقيقة، سمراء، ساخنة.

المصادفة المستحيلة في الرواية، حدث عادي جدًا في الحياة البشرية.

بمناسبة الحديث عن فوائد التعليم يا صديقتي اللطيفة نتاليا فلاديميروفنا، أقول لك إن هذه الجمجمة هي جمجمة رجل من أسعد الناس الزائلين حظًا، استطاع أن يحوّل حتى موته إلى حدث مفيد للعلم، اسمه...

تلعثم فيدايفسكي وهو يحاول أن يتذكر الاسم، فانتهزت توسا الفرصة وقطعت حديثه الذي أضجرها. شمت في العربة وهي في طريقها إليه قفازًا، فتقلصت قسمات وجهها، ورمت القفاز على الرصيف.

إتير! أنا لا أطيق هذه الرائحة.

أما فيدايفسكي فترنح كمن يعاني من ألم الأسنان، وراح يمشي ساعات في مكتبه جيئة وذهابًا إلى أن التقطت ذاكرته التي شاخت اسم الدكتور البيتربورغي.

ميخائيل بافلوفيتش ليتونوفسكي.

هذا هو اسمه.

إنه بالفعل أسعد الناس الزائلين حظًا.

* * *

بعد ثلاثة أشهر من ولادة توسا، في تموز، شعرت ناديجدا ألكسندروفنا ليلًا بأنها أتعس امرأة على الأرض. لكن لماذا انتابها هذا الشعور؟ هي فعلًا أتعس امرأة. فقد تدلى يأسها ضفائر، ولحق بها في كل مكان، مالئًا غرفتها- شعرًا مصفرًّا أغبر، نصف أشيب، يخنق أنفاسها ويمنع عنها الحياة.

بدا لها أن الأمر كله كذب، كله كذب- من أول كلمة إلى آخر كلمة.

رفعت ناديجدا ألكسندروفنا الشمعدان الذي بللته الدموع إلى مكان أعلى- لم يطرأ على إحساسها أي تحسّن، يا إلهي! كم هذا مقرف، مظلم، لا يطاق!- ألقت متوترة رزمة أخرى من الكتب على الأرض، كتب الفرنسيين المراوغين، والألمان الصارمين، وجين أوستن، والأختين برونتي، اللتين من أجلهما درست الإنكليزية بعد أن كبرت. أما كان عليهما، وهما امرأتان، أن تفهما ذلك! لا، هما لم تفهما، واكتفيتا بثرثرة الصالونات التي لا قيمة لها، ولا يحتاجها أحد. استعرضت بورياتينسكايا في ذهنها مئات الروايات التي قرأتها، ومرّت عليها كما تمر الأصابع على حبات السبحة، وتلت بصرامة دعوات الاستغفار عن ذنوب مجهولة. تلت أربعين مرة- "أبانا الذي في السموات"، ومئة وخمسين مرة- دعاء "الأم العذراء"، ثم أربعين مرة دعاء- "آمنت بك يا رب".

لا، ما من كلمة صادقة، ما من كلمة واحدة صادقة!

الأمهات في الروايات، الماتوشكات، والمامات، وحتى الأمهات النبيلات الثقيلات الظل، اللواتي ذرفت عليهن بورياتينسكايا أحلى دموع استدرتها الكتب، لم يكنّ مجرد اختلاق، بل مزحة شريرة، ثرثرة مجنون حاقد، تقبّله الجميع ظنًا منهم أنه مكافئ لهم، كواحد منهم، كأنه، يا إلهي، لقد تقبّلوه ببساطة.

درّ صدرها الحليب دفعة واحدة، اندفع من داخلها بشكل مزعج- حيًّا، دافئًا، لا يحتاجه أحد. شدت بورياتينسكايا حمالة ثدييها ثم شدتها ثانية، وهي تشعر كيف يتبلل القماش الرقيق على صدرها،- هذا أيضًا لم يتحدثوا عنه في الكتب، لم يتحدثوا عن تلك البقع المهينة الحلوة المذاق، التي تجف بسرعة، وعن ألم خصرها وهي تنحني فوق السرير وكم هي مقلقة أنفاس الطفلة التي تتردد قصيرة، مخرخرة في العتمة. وكم هو مخيف أن تهدأ تلك الأنفاس فجأة.

لماذا لم يكتب أحد عن هذا الأمر؟ لماذا لم ينذر أي كاتب الآخرين بحدوث ذلك؟

حاولت ناديجدا ألكسندروفنا أن تتذكر كيف كان يتنفس ولداها الأكبر سنًا،- لكنها لم تستطع. كان قسم الأطفال في الممر- غرفتان صغيرتان جدًا، جوهما شديد الحرارة، في زاوية كل غرفة مصباح صغير، وعلى كل سرير صغير غطاء من الباتيستا. وكانت هناك مرضعات، وحاضنات، ومامات. في هذا العالم الحليبي الصغير كعالم الدمى، كان يسود نظام نموذجي، لكن بورياتينسكايا لم تكن تزوره عمومًا، رغم أنّه كان بمقدورها أن تدخله في أية دقيقة.

كان الجميع يعرف ذلك. لم تكن ناديجدا ألكسندروفنا ترفع صوتها أبدًا، ولم تكن تكرر الملاحظة التي تبديها. الجميع كان يعرف ذلك أيضًا. حتى هسيس تنورة الأميرة، البارد الهادئ، كان يثير لدى الخدم حذرًا يشوبه الاحترام- إنه فن تحلم به كل ربة منزل.

كانوا يجيئونها كل صباح، وكل مساء، بنيكولكا وليزا- بثوبين فاخرين متماثلين من الموسلين، وجهاهما مغسولان محمران، يبدو عليهما الارتباك. كانا في السنة الأولى من العمر. وكان الأمير- في تلك الدقائق التي يمنحها للقاء الطفلين،- لا يميز في أحيان كثيرة البنت من الصبي، فيضحك لذلك بطيبة قلب. لقد كان بوجه عام، أبًا رقيقًا. نيكولكا وليزا لم يُضربا تقريبًا، قبل بلوغهما سن الثالثة، بل حتى بعد ذلك، لم يُضربا إلا نادرًا، فهما لم يكونا بحاجة لأن يضربا، لقد كانا

يكبران هادئين ومهذبين من دون ذلك- في مكان ما في الطابق الثاني، في النصف المخصص لإقامتهما. وكانت بورياتينسكايا أحيانًا- في زمن الاحتفالات، أو إذا كثرت الزيارات- تنسى حتى أن لديها ولدين، تنسى وجودهما عمومًا. هما على ما يبدو، لم يعانيا المرض أبدًا. وهي، على كل حال، لا تتذكر أنهم أبلغوها بمرضهما في يوم من الأيام.

حلت المربيات محل الحاضنات، فيما بعد عيّنوا رجلًا لمرافقة نيكولينكا، ومما يجدر ذكره أن الطفلين واجها متاعب كثيرة مع المعلمين المضجرين جدًا، لكن التربية أعطت ثمارًا لا عيب فيها. فحين سمحا لنيكولا وليزا بالجلوس إلى مائدة الأسرة، وقد بلغا السابعة من العمر،- في البداية جلس الصبي، ثم تلته ليزا التي ظهر رأسها ذو الشعر الأسود على الطرف البعيد من المائدة،- أعجب الجميع إعجابًا شديدًا بمهارتهما في استخدام أدوات الطعام، وبقدرتهما على سؤال أمهما بمجرد النظر عما إذا كان مسموحًا لهما الإجابة عن سؤال مطروح، فقد كان محرمًا على الأطفال تحريمًا صارمًا أن يتكلموا إلا إذا وُجّه السؤال إليهم. وكان محرمًا أيضًا طلب المزيد من الطعام، أو إصدار أي صوت في أثناء الجلوس إلى المائدة. لقد كانت ناديجدا ألكسندروفنا حريصة جدًا على المحافظة على المستوى اللائق في المنزل حتى في هذه التفاصيل الصغيرة.

الضرب في الخاصرة، والعض، والكوابيس في الليل، و"الشقاوات" في النهار- كل ذلك، كل ذلك مرّ بعيدًا عنهما.

هي لم تحبهما في يوم من الأيام، لم تحب ابنيها الأولين. هذا بات الآن واضحًا تمام الوضوح. وهما لم يحباها- ولماذا يجب أن يحباها؟ الأبوان موجودان فقط من أجل إصدار التوجيهات. إن أم ناديجدا ألكسندروفنا وهي عصبية المزاج، طويلة القامة، وجميلة، لم تحملها على ذراعيها سوى مرة واحدة، حين غلبها النعاس وهي في الثامنة من عمرها، ونقلتها من غرفة الأطفال القديمة السيئة إلى غرفة الأطفال الجديدة، وقد ظلت نادينكا تتذكر طول حياتها دفء أمها

الثقيل اللطيف، وعنقها الطويل، والقرط المحلى بجوهرة حمراء وردية رأتها في نومها، تترجح أمام جفونها المطبقة المبللة. لقد ظلت بورياتينسكايا أعوامًا بعد ذلك تتذكر تلك اللحظة- تتذكر ذلك الإحساس الحاد بالسعادة الخارقة، بل ذلك الإحساس الذي لم يكن حتى إحساسًا بالسعادة، وإنما بالقرب الغريزي الحي من كائن كانت، هي نفسها، جزءًا منه.

عمومًا، لا بد من أنها كانت تحلم بذلك كله.

كانت في طفولتها، لا تلتقي بأمها تقريبًا. المربية هي التي كانت تحملها على ذراعيها. مربيتي الحبيبة. وحين صرفوا المربية من المنزل، كما كانوا يصرفون كل الخدم عاجلًا أو آجلًا،- الأم كانت سريعة الغضب. لا يرضيها عمل أي من الخدم،- أجهشت نادينكا بالبكاء إلى حد جعل أمها تضربها بالعكاز الذي تستعين به في نزهتها الصباحية.

أما المربية فراحت تصرخ متوسلة- كرمى للمسيح يا سيدتي، وتخاطب الطفلة أيضًا- سنونوتي، يا سنونوتي، مادة يديها أمام العصا كي تتلقى الضربة وحدها، دون البنت. كان الإصبع الإبهام في يدها معوجًا ومشوهًا. ما الذي أغضب إصبعك هذا يا مربيتي؟ لقد أردت، في طفولتي أن أصنع لنفسي مزمارًا، فانفلتت السكين من يدي. هذا الإصبع ليس غاضبًا بل منكوب تعيس.

وماذا بعد؟ مضت الحياة. هي نفسها الآن أم، أم جيدة. إنها تحب طفلتها- صحيح أنها تحب هذه البنت الأخيرة وحدها، ولا تحب ولديها الآخرين، لكن الرب رحيم، لا يعاقب على مثل هذه الأمور الصغيرة. وما جدوى ذلك؟ ما الذي أصلحه هذا الحب؟ بماذا ساعدها؟ أتراه حفظ ذلك الإصبع المنكوب؟

رمت بورياتينسكايا كومة أخرى من الكتب عن الطاولة. هي لم تمرّ بهذا المكان منذ أن قامت هي وزوجها بـ... ليس هذا مهمًا. إنها لم تمرّ منذ ذلك اليوم. أقفر المكتب، ولم يعد يألفها، وهو الآن يخفي ما تبحث عنه، معبرًا بذلك إما عن زعله، وإما عن سخريته منها. أين أنت أيها الكتاب الملعون؟ أدركت بورياتينسكايا

فجأة أنها لا تذكر عنوان الكتاب الذي جاءت لأخذه من هنا، بل لا تذكر ما الذي تبحث عنه عمومًا.

لا بد أنه كتاب الأمير تولستوي. "الحرب والسلام". إنه الوحيد الذي ذكر "اللفافة" الملطخة، لكن ناديجدا ألكسندروفنا كانت تعرف بالتأكيد أن الأمر ليس كذلك. ليس كذلك أيضًا.

أخذت كتابًا مهترئًا من كثرة القراءة. أهو مونتين؟ لقد كان مونتين يساعدها دائمًا.

انفتح كتاب "التجارب" على المكان المفضل. هي عمومًا، كانت تحب مونتين كله. اقتربت بورياتينسكايا من الشمعدان، وقرّبت الكتاب من دفء الشمع المنتظم. كان صدرها يخفق على نحو يبدو معه أن جلدها لن يصمد- وأنه سينفجر.

"إن من يتعذب طويلًا مسؤول، هو نفسه عن عذابه، فالمعاناة يلدها العقل".

أدهش ناديجدا ألكسندروفنا أنها استطاعت ذات يوم أن تصدق هذا الكلام الغبي. قلّبت المزيد من صفحات الكتاب، وهي تبلل إصبعها بلعابها متوترة.

الأوراق كانت ثقيلة، رطبة، منفرة. هذا يعني أنهم لم يدفئوا المكتب جيدًا في الشتاء، حين كانت تحمل سعادتها في رحمها، حين كانت...

أحنت بورياتينسكايا رأسها فجأة وأصغت. كان الهدوء سائدًا في غرفة الأطفال- سمعت الهدوء وهي على بعد بابين، وثلاث غرف واسعة، هي لم تسمع، بل كانت، ببساطة، تعرف ذلك.

غير أن هذا الهدوء كان مختلفًا، ليس كما يكون، ليس كما يكون الهدوء عادة. إنه هدوء شديد جدًا.

لا!

ألقت بورياتينسكايا الكتاب من يدها على الأرض وخرجت من الغرفة مسرعة، من دون أن تلاحظ أنها نسيت الشمعدان، وأنها ما زالت تميل برأسها جانبًا في وضع غريب.

مونتين المتروك، قلب، بعد تفكير، صفحة جديدة.

"كفينت ماكسيم فقد ابنه الذي كان قنصلًا، ومارك كاتون فقد ابنه الذي اختير لوظيفة رفيعة، ولوتسي بافل- مات ابناه واحدًا بعد الآخر،- لكنهم جميعًا احتفظوا بمظهرهم هادئًا، ولم تبد عليهم أية مظاهر حزن".

قلب تيار هواء صغير تسلل إلى المنزل خلسة، الصفحة سعيًا إلى معرفة المزيد.

"أنا نفسي فقدت اثنين أو ثلاثة أولاد، ماتوا صغارًا، أنا لا أقول إني لم آسف لفقدهم، لكني لم أجاهر بذلك".

قلّب تيار الهواء الصفحات ثانية، ثم أصابه الضجر فرمى الكتاب تحت الطاولة، آخذًا معه أقرب شمعة ضعيفة، مشتعلة.

بقيت في الشمعدان الثقيل ثلاث شمعات

علامة شؤم.

وهناك، في أعماق المنزل كانت امرأة تصرخ بصوت منهك جريح، متقطع، ذي إيقاع ثابت.

* * *

كانت عصفورة رمادية لا تلفت النظر تقبع منكمشة في العشب الرمادي أيضًا، لم يلحظها بورياتينسكي وكاد أن يدوسها، إلا أنه وثب مرتدًا عنها، فتعثر وكاد يقع... العصفورة لم تتحرك، لكن كان واضحًا من عينها السوداء التي تحركت، أنها ما تزال حية. هل جننت يا عزيزتي؟ أم أنك تحاولين خداعي؟ دقق بورياتينسكي النظر- الأمر كما توقع. كان يرقد إلى جانب العصفورة عدد من كتل الزغب- فراخ تبذل جهدها كله في التظاهر بالموت.

انحنى بورياتينسكي محاولًا لمسها بإصبعه، فانتفجت العصفورة على الفور، ونفشت ريشها محاولة إخافته أو حماية الفراخ كلها بجسدها. لكنها أدركت في

الحال أن ذلك لا يجدي، وأنها لن تستطيع تحقيقه. وسرت في ظهرها كالموجة رعشة- هي لم تكن رعشة، بل ألم ظاهر، محسوس، جعل بورياتينسكي يسحب يده. أشفق عليها، رغم أنه كان صيادًا مولعًا بالصيد، خبيرًا، يصطاد في الموسم عددًا كبيرًا من الطيور البرية، إلى حدّ يخجل من المفاخرة به.

جمدت العصفورة من جديد، كأنها كانت تأمل في ألّا يكون بورياتينسكي قد جاء لاصطيادها، أو أنه غير موجود، كأنه الموت الذي لا يكون موجودًا بالنسبة للمرء شخصيًا. الذين يموتون هم دائمًا الآخرون. وكل منا واثق في نفسه سرًّا بأنه خالد لا يموت... تذكر بورياتينسكي، من دون مناسبة، رحلته الموفقة جدًا إلى المستنقعات، حفيف الأجنحة، والصخب، وألم الكتف اللذيذ الذي يسببه أخمص البندقية، والعودة الهمجية المظفرة إلى المنزل، حاملًا غنائمه. ونادينكا، التي كان بطنها منتفخًا آنذاك انتفاخًا ظاهرًا بسبب الحبل، وقد خرجت، فرأت كومة غنائم الصيد التي بلغت ذروتها حافة الدرجة الأخيرة من درج المدخل الأسود اللون، تطوف حولها النسوة بارتباك، والطباخ الفرنسي الألثغ يصدر أوامره وهو ينزع ريش الطيور الناعم فيتطاير في الهواء،- والطيور المقتولة التي بدا لها آنذاك أنها تتحرك كما لو كانت حية. هي نظرت أولًا إلى كومة الطيور، ثم نظرت إليه...

كيش،- تمتم بورياتينسكي وهو يدفع العصفورة الغبية بمقدمة حذائه.- كيش، انقلعي من هنا، يا غبية، وخذي معك فراخك.

انتفضت العصفورة كمن استرد وعيه، وزحفت فراخها، وهي تجمد تارة، وتلتصق بالأرض تارة أخرى، واختفت بين الأعشاب، كحية صغيرة. كان كل شيء ساكنًا بسبب الحر، وثمة طنين يكاد لا يسمع كطنين أوراق الشجر المغروسة في إكليل حديدي. لا شيء سوى الشمس التي لا ترى تقريبًا، وهي تذوب في السماء الرمادية، من دون صوت، ومن دون حركة أيضًا.

ركض نحوه الكلب غونتشاك وصدره الأبيض العريض يخفق بصوت مسموع. اشتم أوراق العشب التي داستها العصفورة، ثم رفع نحو سيده عينين مذنبتين.

لقد أفلت منك كل شيء، أيها العجوز الأبله- قال بورياتينسكي يعاتبه بمودة، فتهدل ذيل غونتشاك وأذناه على الفور خجلًا. مسّد بورياتينسكي رأس كلبه الأشقر الساخن، وحكّ بقعة على عنقه، بقعة غريبة الشكل، كأنها فراشة حطت على جلده وفرشت جناحيها الأبيضين، فبدا وبر الكلب تحت أصابعه غريبًا، ميتًا.

رفع بورياتينسكي رأسه- وشعر فجأة أن الغابة ميتة أيضًا، كأنها مرسومة رسمًا، لا، لم تكن مرسومة، بل مطبوعة على السماء الرمادية كصورة في أحد كتب الأطفال. وبدا له أن البرج الذي في الأفق- البرج كان مسننًا، ذا الطابع غير روسي- منسوخ أيضًا من ذلك الكتاب الذي نسي اسمه منذ زمن بعيد. ازدادت كثافة اللون الرمادي من حوله، وعلا عواء- حقيقي، خطر أحس به غونتشاك فألصق خاثرته بساق سيده، وهرّ هريرًا أصم. ماذا حلّ بك! اهجم يا بيلات،- قال بورياتينسكي يلومه. لكن الكلب الذي كان يغص من الخوف، هرّ بصوت أعلى، ثم صوت بلهجة تكاد تكون بشرية- تحت، تحت، تحت،

تحتضر- قال صوت طفلي رفيع.

كان نائمًا على الديوانة في مكتبه، وقد تدلى رأسه في وضع غير مريح، ولا بد أنه كان يشخر شخيرًا عاليًا. وكان إيجور مرافقه، يقف في الباب محتارًا فتلتقط الشمعة من الظلمة سالفيه الأشيبين تارة، وأغلفة الكتب المرصوصة على الرفوف تارة أخرى. جلس بورياتينسكي، ومسّد عنقه الذي احتقن فيه الدم، ثم حرك قدميه باحثًا عن حذائه المنزلي. أين اختفى هذا الحذاء الشيطاني... آها! هذه فردة، وهذه الفردة الثانية.

لقد رأيت بيلات في المنام، هل تتصور ذلك يا إيجور؟ لا بد من الاعتراف بأنه كان أفضل كلابي. ثماني سنوات أبحث عن بديل دون جدوى...

إنها تحتضر يا فلاديمير أناتوليفيتش،- كرر إيجور بصوت غير صوته، صوت رفيع، راجف، يغص بالدموع.- ناديجدا ألكسندروفنا تريد...

لم يستمع بورياتينسكي إلى بقية العبارة، صاح "آخ"، ثم دسّ نفسه في معطفه المنزلي على عجل ومضى سريعًا.

الجو في غرفة الأطفال كان حارًا- كما رآه في المنام منذ قليل، وثمة نساء لم يعرفهن أبدًا، يرحن ويجئن أمامه جامدات الوجوه. لكنه عرف، بعد لأي، تانيوشكا التي كانت منبوشة الشعر، يتصبب منها العرق وهي تبعد إحدى النساء بهدوء شديد مخيف، عن سرير طفل. لم يكن يسمع في الغرفة أي صوت، لم يكن هناك أي صوت. كان الجو خانقًا تمامًا، يستحيل فيه التنفس، كما لو دسّ المرء رأسه تحت لحاف من القطن. وكانت تملؤه رائحة عفن، يا إلهي! ما هذا العفن! بحث بورياتينسكي بعينيه عن زوجته- فلم يجدها. هل خرجت من الغرفة؟ هل نقلوها إلى مكان آخر؟ تانيا! صاح بأعلى صوته، تانيا، ما هذا بحق الشيطان؟ أين ناديجدا ألكسندروفنا؟ التفتت تانيوشكا نحوه، فانتهزت المرأة التي كانت تحاول إبعادها، الفرصة فحملت من المهد الطفل الصغير المتخشب الذي كان من الواضح تمامًا أنه ليس حيًا.

بسطت تانيوشكا ذراعيها- ما هذا! هاتي الطفل! غير أن المرأة دفعتها عنه، ولجأت إلى مكان في الزاوية، بين الأرائك، وحمت الطفل بجسدها كله وكشّرت، عن أسنانها فجأة. لقد رأى بورياتينسكي هذا المشهد مرات كثيرة في أثناء الصيد، رأى هذه الحركة في الجذع والقفا التي تحجب وتحمي، وهذه الشفة العليا المقلوبة إلى أعلى في وضعية تهديد، وذلك اليأس والهيجان اللذين ينتابان الأم العاجزة، رأى على هذه الحال أناث الذئاب، والدببة، والأرانب، وحتى العصافير، حتى تلك العصفورة غير الحقيقية اتي رآها في المنام، كان يسعدها أن تقتله، لكنها ببساطة لم تستطع. كان ما تستطيعه هو فقط أن تموت، وكانت تتمنى أن تموت، كل أم تتمنى أن تموت إذا كان ذلك...

أبعد الموت بالموت، تكتشف أساس الحياة، جوهرها.

أصدرت المرأة فجأة فحيحًا من خلال أسنانها المطبقة، المكشرة-

Meisel, faites veneer Meisel immê diatement![1]

---

(1) استدعوا ميزيل، استدعوه في الحال. (بالفرنسيّة)

في هذه اللحظة عرفها بورياتينسكي.

إنها ناديا. نادينكا زوجته.

الأميرة ناديجدا ألكسندروفنا بورياتينسكيايا.

التي كانت تحمل عند ولادتها اسم آل فون ستينبوك.

* * *

زاد النعاس غباء السائس- كان يتجشأ، ويرسم على صدره شارة الصليب، ويخطئ في شد عنان الفرس، ولم يزدد ذكاء حتى حين لطمه الأمير على أسنانه لطمة شديدة. فحمل بورياتينسكي السرج بنفسه وهرع إلى مربط الفرس. لكن المهر "بورياغن" الذي أحس برائحة الدم، راح يكشر عن أسنانه ويدق الأرض بحافره، ثم انتفخ بطنه بشكل فاضح، واتخذت الرحلة شكلًا مضنيًا لا يمت إلى الإمارة بصلة، لكن هذا لم يكن مهمًا، ليس مهمًا، المهم أن يصل في الوقت المناسب.

كان ميزيل يقيم على بعد عشرة فراسخ، وقد بدا لبورياتينسكي أن الرحلة استغرقت دهرًا حقيقيًا، متشعبًا، خاويًا. كل شيء كان ليليًا، مخيفًا، مجهولًا، يصدم عينيه تارة، وتارة يتردد صوت تحت حوافر الفرس الذي يحمحم، مطلقًا أنفاسًا رطبة، دافئة. وغير بعيد أطلق طائر صرخة قصيرة متحشرجة، كأنه مخنوق، ثم صمت فور نزول بورياتينسكي عن ظهر الفرس فوق العشب الأسود المبلل. كانت نافذة بيت ميزيل تشع بضوء ساطع ثابت. وحين ركض بورياتينسكي نحو ذلك الضوء- علا صوت الطائر الأبح من جديد، وبدا كأنه يطير بالقرب منه في العتمة، مخيفًا، ملحاحًا، غير مرئي. ولم يدرك بورياتينسكي أنه لا وجود لأي طائر، إلا عند باب المنزل حيث توقف صوت الطائر، ولم يبق سوى صوت قرع الباب.

لقد كان الصوت الأبح صوت أنفاسه، صوت أنفاسه هو.

خرج ميزيل على الفور، نضرًا، هادئًا، كما لو أنه لم يكن نائمًا- من المحتمل أنه فعلًا لم يكن نائمًا، بل كان جالسًا في غرفته، أو لنقل في كهفه الممتلئ بأشياء

غريبة، يقرأ نصًا ذكيًا مكتوبًا بلغة لا أحد يعرفها سواه، ويفكر. لقد كان من غير الجائز أن يتخيل بورياتينسكي أن الشخص القادر على إنقاذ نادينكا إنسان يلعب الورق، ويأكل المعكرونة المسلوقة، أو يدس نفسه في السرير تحت غطاء سميك محشو بالريش. وقف بورياتينسكي محتارًا، لا يعرف كيف يمكنه أن يوفق بين سلوكه وتلة أساليب التخاطب الغبية في المجتمع الراقي يا سيد! لا. أيها السيد الفاضل لا. هلّا تكرّمتم... لا. هلّا غمرتموني بلطفكم... لا. يا للشيطان! يجب ان أقدم نفسي أولًا! أدرك بورياتينسكي فجأة أنه يقف في مدخل بيت غريب، بمعطفه المنزلي، وثوبه المدعوك، وحذائه المنزلي- يقف وقفة شخص خائف، منبوش الشعر، لا يعرف كيف يطلب المساعدة من إنسان آخر.

لقد عرفتك أيها الأمير- قال ميزيل ببساطة.- ماذا حدث؟

حاول بورياتينسكي أن يشرح له، دفعة واحدة، كل شيء- بما في ذلك الطائر، والرحلة الليلية، وكيف كشّرت نادينكا عن أسنانها بشكل وحشي، مخيف، لكنه أخفق أيضًا، فصمت وهو يشعر بأنه أبله، عيّ اللسان كحوذيه، ويأسف لعدم وجود من يلطمه على أسنانه.

الأمور كلها سيئة جدًا،- قال ذلك بصعوبة.- جدًا! أرجوك بكل ما هو مقدس...

وقف ميزيل صامتًا عدة ثوان، ثم ذهب فجأة- ذهب ببساطة وأغلق الباب خلفه، وانطفأ على الفور تقريبًا الضوء في النافذة.

بقي بورياتينسكي وحيدًا تمامًا في العتمة، كما كان في طفولته، بل اشتم أيضًا رائحة الشمعة التي أطفأتها أصابع ثخينة قبل لحظة، وسمع أنفاس أخوته النائمين الرتيبة، وخطوات عمه الذي لا يهدأ، وهو يسرع إلى غرفته. وإذن، فالرعب الذي كان آنذاك، الرعب الطفولي، لم يفارقه إلى أي مكان، بل ضرب حنجرته، وما تحت ركبتيه، وأفقده قواه كلها، فأحس بأنه سيسقط الآن أرضًا، سيتمدد ببساطة في المدخل، ويدثر رأسه بمعطفه المنزلي، ويبدأ التكشير والصراخ، مبعدًا شياطين غير

مرئية، إلى أن يبزغ الفجر، لم يكن لديه أي أمل، لم يكن لديه أبدًا، أي أمل في أن ينجو، وينقذ زوجته وابنته، بل لم يكن يأمل في أن يكبر، لأنه اكتشف أن نموه إلى ما بعد الطفولة أمر مستحيل.

انفتح الباب من جديد وخرج ميزيل يحمل حقيبته.

هيا بنا بسرعة يا أمير - قال له.- أين عربتك؟

* * *

يبدو أن بورياتينسكي كان مندهشًا جدًا من ميزيل، الراكب الثاني في العربة الذي كان يتصرف في طريق العودة ببساطة، فلا يطالب بزيادة سرعة عدو الخيل، الأمر الذي جعل بورياتينسكي يندهش من قدرته على التفكير بأمور صغيرة في هذا الوقت غير المناسب، فيفكر بأنه قد يبدل الفرسين "لاستوشكا" و"أودا"، أو قد يشتري فرسين جديدين، ويستخدم حوذيًا يقظًا، يجيد قيادة العربة، فلربما اضطر مستقبلًا إلى القيام برحلة جديدة.

كان ميزيل يجلس في الأمام، فتلوح في العتمة نقرته الخشنة التي خطها الشيب، وكان ظهر السيد بورياتينسكي الدافئ، العريض يترنح بشدة. لكنه، على الرغم من الحرج الذي شعر به نتيجة التصاقه إلى هذا الحد برجل يكاد لا يعرفه، أدرك فجأة أنه، هو نفسه، قد هدأ هدوءًا تامًا تقريبًا. كانت تفوح من ميزيل رائحة لذيذة تماثل تقريبًا الرائحة التي تفوح من السيد- رائحة عشب جاف، ساخن، تتقافز فيه حشرات جافة، فواحة، إيطالية، غير مرئية، ضلت طريقها، كما حدث معه ذات مرة، هو ونادينكا، ما بين بيزا وفلورنسا، في أعماق ليلة في أرض أجنبية، ليلة عسلية، ساخنة كشفتي نادينكا، كأول رحلة لهما وقد صارا شابين- بعيدًا- بعيدًا في عربة تهيم بهما في أرض غريبة هائمة...

كيف حالها؟ سأل فجأة شخص ما، قريب جدًا، بصوت مرتفع، وللمرة الثانية في هذه الليلة التي لا نهاية لها، استيقظ بورياتينسكي خائفًا، فاغرًا فمه كورق حف

الزجاج. كان الجو لا يزال مظلمًا، لكن ضوءًا ضعيفًا لاح عند طرف الحقل. كرر ميزيل سؤاله من دون أن يلتفت، فارتبك بورياتينسكي من جديد (ألا تراه يكثر الأسئلة؟) ولم يعرف من أين يبدأ. إنها ضائعة تمامًا. لا تخرج من غرفة الأطفال. وقد حاولت إرضاع الطفل بنفسها...

أنا أسأل عن البنت. لقد قالوا لي أن ناديجدا ألكسندروفنا ولدت طفلة أليس هذا صحيحًا؟

تقلصت قسمات وجه بورياتينسكي وهو يتذكر كيف أمر شخصيًا بطرد ميزيل خارج المنزل. الأمير طلب إبلاغك أنهم لا يحتاجون إلى خدماتك. وأن طبيبًا حقيقيًا سيأتي لعلاج الأميرة- من بيتربورغ.

أنا ملزم بأن أقدم لك اعتذاري...

قاطعه ميزيل، باستهانة تفوق الحد:

أنت لست ملزمًا تجاهي بشيء يا أمير. وكذلك أنا لست ملزمًا تجاهك بشيء. هل البنت مريضة منذ مدة؟ ماذا بها؟

أنا لا أعرف... لقد قالوا لي أنها تحتضر، لا بد أنها قد ماتت الآن، لترحمها السماء.- رسم بورياتينسكي بسرعة وخجل، شارة الصليب، كي ينفي عن نفسه أنه لا يكنّ تجاهها أية مشاعر. ولماذا يجب أن يكنّ أية مشاعر تجاهها؟ إنها بنت! وهو لم يرها طول هذا الوقت أكثر من مرتين. نادينكا لم تكن تسمح لأحد بدخول غرفة الأطفال، وهي، نفسها، كانت تظل هناك أسابيع طويلة...

توقّفْ،- أمره ميزيل فجأة. بورياتينسكي لم يخطئ السمع- هو لم يطلب منه التوقف بل أمره بذلك. وبدا كأن العربة أيضًا أحست بهذه الإرادة الهادئة، فاهتزت ومشت خطوة إلى الأمام ثم وقفت أمام مدخل حديقة البلدة كأنها شريحة معدنية رقيقة قصّت وألصقت على ورقة سوداء أيضًا، لكنها مخملية. وأسرع ميزيل (بمهارة مزعجة- لا تنسجم ولقبه، أو فئته الاجتماعية، أو مرتبته) ومشى إلى الوراء على عجل.

Je vous linterdes![1]

لم يصرخ بورياتينسكي، بل "أعول" بصوت لا يطاق، كأرنب جريح يموت، وقد فهم أن كل شيء انتهى، كل شيء، كل شيء تمامًا.

نادينكا، يا إلهي! لأول مرة بعد شهور طويلة تلاحظه وتتوجه إليه بطلب! فماذا سيقول لها؟ وكيف سيشرح لها الأمر؟

قفز بورياتينسكي من العربة وركض في إثر ميزيل.

أنت لن تجرؤ على الذهاب! قف أيها السافل، وإلا أطلقت النار! ضرب الأمير بذراعيه جنبي معطفه المنزلي الخالي من السلاح. إحدى فردتي حذائه الثمين، الرقيق، هربت فورًا عن قدمه بشكل مخجل وامتلأت الفردة الثانية بالماء وراحت تصدر أصواتًا شاكية. أما بورياتينسكي فانزلقت قدمه وكان يسقط أرضًا.

سافل! سافل! – صاح من جديد بصوت مرعب، رفيع، متقطع كأنه طفل، موجهًا شتائمه إما إلى ميزيل، وإما إلى ذاته، وإما إلى القدر، لكنه لم يتلق ردًّا على صيحاته إلا من ميزيل من مكان ما بين الأشجار.

- تعال إلى هنا،- أمره بصوت عادي.- من هنا نستطيع أن نصل مباشرة إلى البيت. أنا أعرف الطريق.

توقف بورياتينسكي برهة، ثم اندفع نحو مصدر الصوت.

* * *

لم يتغير شيء في غرفة الأطفال، حتى بورياتينسكايا لم تبدل جلستها على ما يبدو- ظلت جالسة ضاغطة إلى صدرها، بقوة الطفل في "لفّافته". المختلف هو فقط أن النسوة كففن عن الذهاب والمجيء، ووقفن الآن صفًا بمحاذاة الجدار، تانيوشكا، والمرضعة، وحاضنتان، وقد عقدن جميعهن أيديهن، وأطبقن شفاههن، وجوههن قاسية، خالية من التعبير، كأنهن حرّاس شرف، لا- كأنهن في دورية ليلية،

---

(1) أنا لا أسمح لك (بالفرنسيّة)

لأن الشمعة الوحيدة كانت ترتعش ارتعاشًا ضعيفًا في دائرة ضوء صغير، أسمر ريمبراندوي تمامًا.

فتح ميزيل الباب بعنف، كأنه أراد أن يخلعه، فتراقصت الشمعة على الفور، وتحركت محولة "ريمبراندت" إلى فنان ظلال: تأوه ميزيل من رائحة العفن، ومن الحر، أخذ البنت من يد بورياتينسكايا بفظاظة، انتزعها. خلع قبعتها، فبدا تحت القبعة رأس أسود الشعر، وحاجبان متهدلان وخصلات شعر مبللة. وحاول ميزيل فك (اللفّافة) فارتطم إصبعه بدبوس مغروس في القماش، بشكل يلامس الجلد، يا إلهي، ها هو دبوس آخر، وآخر! واللفافة لا تنتهي، أمتار وأمتار من قماش الكتان القاسي تتثنى (كشاكش) زنّار حول جسد الطفلة. ويحهم كيف لفّوها بكل هذا القماش! أليسوا بشرًا! كانت أصابع يدي ميزيل الملطخة أبدًا باليود، ترتعش، وكانت موجات رائحة العفن، والغضب، وضيق النفس، تلفحه بالتناوب، حتى بدا له في لحظة من اللحظات أنه لن يستطيع الصمود، وسينفجر. لكن الطفلة تحركت في هذه اللحظة، وأصدرت صوت بكاء، كان في البداية ضعيفًا، مخنوقًا، ثم صار يزداد قوة وثباتًا دقيقة بعد أخرى، كأنه يعلم ميزيل بأنها ما تزال حية، وأن الأمل في إنقاذها ما يزال موجودًا.

أخرج ميزيل الطفلة من اللفافة أخيرًا، أخرجها وهو يتأوه إشفاقًا: بشرة كامدة اللون، بطن صغير منتفخ، أصابع صغيرة مزرقة، ترتعش. ما أكثر ما رآه من مشاهد كهذا! يا إلهي ما أكثرها– لقد كان عليه أن يعتاد على رؤيتها، ويكبت مشاعره الداخلية، لكنه لم يستطع، هو، ببساطة لم يستطع. كان يعالج الكبار بقلب مطمئن– الكبار المطعونين بآلة حادة، أو الذين تهشمت عظامهم، أو المتجمدين في الصقيع بعد السكر، ومحاولي الانتحار من الكآبة، والميتين نتيجة ضربة أو مرض أو مرض في الأمعاء، أو انسداد في الأوعية الدموية، أو المصابين بورم في العين، يفعل ما يستطيع فعله، وكان إذا لم يفلح في إنقاذهم، يتنحى جانبًا شاعرًا بالأسف، لكن من دون ألم. لقد كان لدى الكبار خيار، بغض النظر عما يختارونه، كان لديهم خيار.

الرب أعطى، الرب أخذ- هذا ما كان يقوله لنفسه بشأن الكبار. أما الأطفال، فلم يمنحهم الرب خيارًا، لذلك كان الواجب ألّا يأخذهم. وهذا ما جعل ميزيل يعدّ موت كل طفل تحديًا شخصيًا وبصفقة انتقامية مسددة إلى وجهه هو.

كان إنقاذ الأطفال حملته الصليبية الشخصية، حملة، هي في الواقع معركة لا تنتهي مع طواحين الهواء. طبعًا، الأطفال كانوا يموتون. أطفال الفلاحين كانوا يموتون بالآلاف! الملاريا، والخناق، والجدري، والكوليرا، والتيفوس. قبل إصلاح عام 1864 لم يكن في مقاطعة فورونيج كلها سوى سبعة أطباء. بعد ذلك انضاف إليهم أربعون آخرون، لكن الوضع لم يصبح أفضل. كان الصيف أسوأ الفصول،- ميزيل كان يكرهه كرهًا شديدًا. شهور حزيران وتموز وآب هي أوقات أصعب الأعمال الفلاحية، وإذا استطاع المولودون في الخريف والشتاء أن ينجوا بمعجزة من الجرب والتهاب الرئتين، فإن المولودين في الصيف كانوا يموتون جوعًا. يموتون كلهم تقريبًا، كلهم تقريبًا! وكان المشفى الوحيد في المقاطعة يأخذ من كل مريض ستة روبلات وثلاثين كوبيكًا في الشهر. وهذا ثمن باهظ إلى حد غير معقول.

كان ميزيل يتنقل في الصيف من عزبة متعفنة إلى أخرى، محاولًا أن يفعل شيئًا، أن يقدم مساعدة ما، لكن ما يفعله كان عبثًا. فالأمهات كن يذهبن إلى الحقول قبل الفجر، ويرجعن بعد حلول الظلام، يتركن المواليد الجدد برعاية أبنائهن الأكبر سنًا الذين بقوا أحياء بأعجوبة، أو برعاية كبار السن الفاقدين نصف وعيهم، أو يتركنهم وحدهم في المنزل. سعيد الحظ جدًا من تكون في بيته بقرة. أما إذا لم تكن... كنّ، في أفضل الحالات، يلكن لأطفالهن الخبز ويضعنه في خرقة مخلوطًا بـ "الكفاس" (شراب من الخبز المخمر- المترجم)، وفي أسوأ الحالات، يعطين المولود قرنًا- قرن بقرة عادي تمامًا يعلقون به ضرعًا مقطوعًا من بقرة أيضًا، يملأنه بحبوب مسلوقة كثيرة المرق. فيتحول الضرع بحلول المساء إلى قطعة من اللحم الفاسد بسبب الحر، وتفسد الحبوب المسلوقة أيضًا، وكثيرًا ما كان يتحول المولود نفسه

إلى لحم فاسد، ملفوف أيامًا لفًا محكمًا باللفافة، فيظل ميزيل، ساعات بعد ذلك، ينظف الدمامل المتفخة من دون أي أمل بأن ذلك سيساعد الطفل. لقد كان يقوم بهذا العمل بدافع الواجب فقط.

والله، هو فهم كل شيء: عمل كالأشغال الشاقة، وتعب، وجهل، وأي جهل!- إنه جهل مطبق. ما لم يكن يفهمه هو أمر واحد- ما سبب هذه القذارة الفظيعة التي يصعب تخيلها، في أكواخ الفلاحين؟ لماذا توجد الصراصير وغيرها من الحشرات في القدور مع الحبوب المسلوقة السيئة أصلًا؟ لماذا يدوّد الأطفال وهم أحياء؟ حسنًا، لماذا، إذا استحال غسيل الفرشات، لا يتم على الأقل، تعريضها للهواء؟ لماذا لا تنفض فرشاتهم التي تعج بالقمل والبق؟ إن هذا لم يكن سؤال طبيب، بل سؤال رجل ينفر من القذارة نفورًا مطلقًا.

صحيح أن زملاء ميزيل ابتعدوا عن الفلاحين، لكنهم لم يبتعدوا أكثر من خطوتين. كانوا يجيئون من برّاد الجثث إلى مهجع التوليد بالمعاطف نفسها، ثم يذهبون بنفس المعاطف لحضور وليمة مع الأصدقاء. زيميلفايس الذي حاول أن يغرس في نفوس العاملين في الطب حبّ غسل اليدين بمحلول الكلور، مات في مشفى للمجانين في الخامسة والستين من عمره، وقد فقد عقله وصار موضع سخرية. ميزيل لم يسمع به طبعًا، ولم يتنبأ بأن الأطباء بعد ثلاثة عشر عامًا فقط سيتكلمون دفعة واحدة، عن العدوى وتعقيم الجروح واليدين كأنه لم يسبقهم إلى ذلك شخص يدعى زيميلفايس، سممت سخريتهم حياته كان لا يطيق فيزيقيًا الوسخ، والأشلاء، والدم، لا سيما الدم، وهذه سمة لا تنسجم مطلقًا والاختصاص الذي يمارسه.

تلمس ميزيل البطن بحذر- البطن منتفخ. واليدان ناحلتان وكذلك الساقان. والرأس كبير، كانت البنت تتنفس تنفسًا متقطعًا، سطحيًا، لكنها تتنفس، وكانت تموت من الجوع أيضًا، يا إلهي! غرفة أطفال أميرية. وأغطية من الباتيستا، وديوانات مغلفة بالحرير. الوحشية نفسها، والجهل نفسه. والعفن نفسه. أخرج

ميزيل من حقيبته حقنة وملأها بالسيروم وراح طويلًا ينتقي مكانًا في جسد الطفلة ليحقنها به، لكنه أدرك أنه لن يستطيع تفضيل مكان على آخر. غرس الإبرة تحت جلد الطفلة الجاف المشدود، فكفت عن البكاء. أطلقت آهة قصيرة ثم هدأت من جديد.

رسمت النسوة شارة الصليب على صدورهن. وظلت بورياتينسكايا جالسة، ساكنة، في مكانها مسبلة يديها الخاليتين، وناظرة أمامها بعينين فاتحتي اللون، مجنونتين.

يا للقذارة!- صاح ميزيل فجأة.- لماذا كل هذا الوسخ هنا؟! ولماذا هذا الجو الخانق؟!

تبادلت النسوة النظرات.

الجنيات تطوف بالمكان، إنها ساعة شؤم...- تمتمت إحدى المرضعات بصوت منخفض، وهي امرأة شابة، متينة البنية، سمراء، وملساء ككلبة أصيلة. حتى نظرتها كانت كلبية- وحشية، خانقة، قاتمة. لقد كادوا أن يطردوها من هذا المكان الدافئ.

النوافذ! افتحوا النوافذ فورًا!

تبادلت النسوة النظر مرة أخرى. لم يكن ميزيل رجلًا مهمًا في نظرهن، مجرد رقم، من المؤسف أنه عالم. إنه طبل، عنزة مهملة، هو حتى ليس العنزة نفسها. عند ذلك راح ميزيل بنفسه، من دون أن ينزل الطفلة عن ذراعه، يفتح النوافذ فترسل أطرها صريرًا، يتعثر بين قطع الأثاث الثقيلة، ويطلق الشتائم، إلى أن لفح نسيم ما قبل الفجر أخيرًا كتفه داخلًا غرفة الأطفال- كان نسيمًا قويًا، باردًا ببرودة منعشة، مشبعًا برائحة العشب الرطب، وصخب الطيور التي استيقظت لتوها.

ارتعشت الطفلة وتنهدت، ثم بكت مجددًا.

حرّكت بورياتينسكايا رأسها مصغية للحظة، ثم عاد وجهها فانغلق مجددًا وجمد. لوّحت بيديها الفارغتين، وشرعت تغني بصوت حنون- ها- ها- ها!

فوضع ميزيل بحذر الطفلة في سريرها، واقترب من بورياتينسكايا، وصفعها صفعة قصيرة، قوية، فارتد رأس الأميرة إلى الخلف، وصرخت تانيوشكا آخ، ثم رسمت شارة الصليب على صدرها مجددًا.

ضغطت بورياتينسكايا خدها بكفها، فازداد سواد عينيها وهما تمتلئان بالدموع، وانبعثت فيهما الحياة. تبدد غضب ميزيل وصار الآن يشفق عليها إشفاقه على الطفلة. إنها، على الأقل، تتألم لألم طفلها، وتبكي عليه، وميزيل لم ير من قبل فلاحة تبكي على جسد طفلها الميت سوى مرة واحدة، حيث في آب، في أوائل الصيف القائظ، راح الآخرون يرسمون الصليب على صدورهم ويقولون: الحمد لله الذي أنهى هذا العذاب. مشوّهون! مشوّهون حقيقيون! إنهم ليسوا بشرًا!

لماذا لا يطعمون طفلتك يا صاحبة السمو؟- طرح ميزيل سؤاله كلمة، كلمة، وبصوت مرتفع، كأنه يخاطب امرأة صماء.

كيف لا يطعمونها!- صرخت المرضعة، وراحت فجأة تنبش ما في عبها، كأنها تبحث في قاع كيس عن شيء مهم، غالي الثمن- خاتم زواج سقط فيه، أو أيقونة صغيرة انقطع سلسالها.- كيف لا يطعمونها!

زاد ميزيل في انحنائه.

هل تعرفين أن طفلتك تموت من الجوع؟

نظرت بورياتينسكايا إليه في خوف- وقد استردت وعيها كاملًا والحمد لله.

أنا أردت،- قالت بلهجة تنم على الشعور بالذنب.- أردت أن أطعمها بنفسي. لكنها ترفض حليبي ولا تلتقط الثدي.

أنهت المرضعة أخيرًا عملية البحث، وأخرجت بكفها ثديين عاريين- ضخمين، أسمرين، ممتلئين. من الجوع!- قالت محتجة.- إن لدي ما يشبع رجلًا بالغًا، إذا لزم الأمر!

انفتح الباب، فالتفت ميزيل نحوه- كان القادم الأمير بورياتينسكي الذي لحق به أخيرًا، بعد أن ضل طريقه في حديقة منزله، وفقد فردة حذائه الثانية نهائيًا. كان

وجهه ممتلئًا بالخدوش، ينضح بالعرق، وقد علقت به خيوط شبكات العنكبوت، وغبار تموز الخفيف الوزن. فقفزت عيناه مباشرة إلى ثدي المرضعة الرائع- طرفت عيناه في ارتباك، وهو لا يعرف ما الأكثر تهذيبًا: أن ينظر إليه، أم يشيح البصر عنه. إن كل ما غرس فيه منذ الطفولة من قيم المجتمع الراقي التي تجعل العالم مفهومًا وبسيطًا عنده، لم يكن يعمل في تلك الليلة، وهذا ما جعل الأمير يشعر بأنه يعيش حكاية مخيفة.

اقترب ميزيل من المرضعة، نظر إلى ثديها ونقره بإصبعه- فهمت المرضعة قصده فورًا، فدرّت في راحته جدولًا صغيرًا من الحليب الساخن. لحس ميزيل الحليب ثم بصق بصقة قصيرة. هل تتقيؤه؟- سأل ميزيل بورياتينسكايا، فأحنت تلك رأسها بالإيجاب. هل غيرتم المرضعة؟ هذه هي الثالثة- قالت تانيوشكا متدخلة في الحديث، وقد شعرت مجددًا أن ميزيل منافس خطر، لكنها لم تقرر هل تنهيه أم ترضيه...

تفحص ميزيل الخادمة العجوز بنظرة ثقيلة، ثم أشار بإصبعه مجددًا، ففهمت بورياتينسكايا قصده على الفور وشرعت تفك حمالة صدرها.

ماهذا بحق الشيطان!- قال بورياتينسكي متذمرًا. كيف تسمحين لنفسك بالتصرف على هذا النحو!

غير أن بورياتينسكايا أكملت تعرية صدرها. بشرة شاحبة، وعروق منتفخة زرقاء. إنها في الرابعة والأربعين. عجوز بكل المقاييس الإلهية والبشرية. لحس ميزيل الحليب الذي استقر في كفه وبصقه مرة أخرى. خفضت بورياتينسكايا رأسها، فلمس ميزيل أعلاه لمسة خفيفة، كأنه كاهن يغفر لها ذنوبها، أو يحمل عنها تلك الذنوب. فشرعت بورياتينسكايا تبكي.

طاف ميزيل ببصره على غرفة الأطفال، ثم أصدر أوامره بلهجة جافة- يجب أن تظل النوافذ مفتوحة دائمًا، أيا كان الطقس. انسوا أمر "اللفّافة".

ماء محلى بالسكر؟- سألت تانيوشكا مستفسرة.- كشراب السعلة؟

فكّر ميزيل، وعبس- أحضروا لي سكرًا، و"بابور سبيرتو"، وماء، كثيرًا من الماء. الآن فورًا! أنا سأعد الشراب بنفسي.

أسرعت النساء، وهنّ يتدافعن، ويتعثرن، وتنحّت بورياتينسكايا بحركة لا إرادية، كأنها شخص لا علاقة له بما يحدث، تاركة الجمع يقوم بعمله.

رفعت بورياتينسكايا رأسها ومست عينيها وأنفها بكمّها كالأطفال، بل تمخطّت أيضًا.

ما سبب رفضها للطعام يا غريغوري إيفانوفيتش؟

الحر، والجو الخانق، والحليب الرديء، وهذه "اللفافات" الفظيعة التي تمنعها حتى من، أرجو المعذرة، إخراج الغازات من بطنها، ناهيك عن تناول الطعام.

هي لن تموت، أليس كذلك؟

اقترب ميزيل من سرير الطفلة، حملها بين ذراعيه، مقدّرًا وزنها، وبدا أنه يفكر.

آمل ألّا تموت. لكنها لن تعيش على الماء المحلى وحده. لا بد من اقتناء عنزة...

عفوًا!- صاح بورياتينسكي منتفضًا.- ما الذي لا بد من اقتنائه؟

عنزة. سنخفف الحليب بالماء- مقدار من الماء ومثله من الحليب. أنا سأخلط الماء والحليب بنفسي. سنطعمها.- حمل ميزيل الطفلة بيديه وقدّر وزنها ثانية.- ما أجملها! ماذا سميتها يا أميرة؟

ابتسمت بورياتينسكايا ابتسامة ضعيفة- توسا. نتاشا، تيمنًا بنتاشا روستوفا. أنت قرأت تولستوي طبعًا؟ "الحرب والسلام".

لا،- أجاب ميزيل بهدوء.

- أنا لا أقرأ السخافات. وأنصحك بألا تقرئيها.

* * *

بعد خمس سنوات، في عام 1875، حين نشر في مجلة "روسكي فيستنيك" الجزء الأول من كتاب تولستوي "آنا كارنينا"، كانت ناديجدا ألكسندروفنا تجلس في غرفة الأطفال نفسها، تتأمل الحديقة عبر النوافذ الكبيرة المفتوحة، وكانت توسا تلعب مع ميزيل لعبة "الاستغماية" بين أشجار التفاح، وقد شمّرت عن ساقيها السمينتين، وهي تصرخ بصوت حاد. كانت ترتدي قميصًا واحدًا فقط، تظل تركض فيه حتى حلول الصقيع- وذلك تنفيذًا لتوجيهات ميزيل. هي، والحمد لله، لم تصب أبدًا بأية أمراض. ارتبكت ناديجدا ألكسندروفنا، ورسمت على صدرها شارة الصليب خلسة- ميزيل لم يكن يحب التدين، والإيمان بالخرافات، لكن ذلك لم يمنع ناديجدا ألكسندروفنا من أن تؤمن به الآن، أكثر من إيمانها بكل الخرافات.

لم يبق، بعد تلك الليلة الفظيعة، أي كتاب في أي منزل من منازل آل بورياتينسكي، أو في أية مزرعة من مزارعهم. المكتبة الضخمة التي استغرق جمعها أعوامًا أهديت كتبها، أو نهبت، أو تحولت إلى نفايات، أو أتلفت. أما هم فلم يغادروا مزرعتهم الفورونيجية بعد ذلك اليوم.

لقد كانت ناديجدا ألكسندروفنا سعيدة، نعم، سعيدة، رغم أن توسا- وقد صار عمرها خمس سنوات- لم تنطق بكلمة واحدة، لم تنطق بأية كلمة. ميزيل أكد للوالدين أن ذلك أمر طبيعي تمامًا، فالطفلة تتمتع بسمع رائع، وهي مرحة، وذكية، وتنفذ كل التوجيهات، وتهتم بكل شيء. والصمت في هذه الحالة هو دليل على تميّز العقل، لذلك دعونا لا نتدخل في عمل الطبيعة، فهي ستنظم كل شيء من تلقاء نفسها. ميزيل كان يكذب بلا خجل ولا حياء.

لم يكن في صمت توسا أي شيء طبيعي. كانت خرساء تمامًا بكماء. علبة مغلقة.

وأفظع ما في الأمر أن ميزيل لم يملك أي تصور عما يجب فعله في هذه الحالة.

الفصل الثّاني

الأب

سلفه الطبيب الهادئ يوغان ميزيل علقّوه بسيخ وشووه حيًّا.

روسيا العظيمة، موسكو الصقيع، جيش القيصر، القوات الخاصة، كل هذا استنفر صيف عام ألف وخمسمئة وتسعة وسبعين بعد ميلاد المسيح.

ألقوا القبض على موزيل في الشارع. كان نحيلًا، خائفًا- أطلق صرخة أرنب يائس، سقطت قبعته وديست في الثلج القذر. كان كل ذنبه أنه من مواليد فيزيل في ويستفاليا- وهذا يعني أنه من بلد إيليزيوس بوميليوس الكليّ القوة، هو فاشل علميًا بالتأكيد، وقد يكون محتالًا، هنا يكمن الغباء، هنا يكمن ذنبه الحقيقي!- إنه الطبيب الخاص لإيفان الرهيب، الحاكم، قيصر روسيا كلها، وأميرها العظيم. وقف موزيل، وقد شارف على الموت، يقسم بالله على أنه لم ير بوميليوس في حياته، لا من قريب، ولا من بعيد، لكن، حتى الرب لم يكن راغبًا في سماع قسمه.

ربي لا تشح بوجهك المقدّس عني، لا تنتزع ما غرسته فيّ من روحك المقدسة.

لا، الرب لا يستجيب لتوسله. أشاح بوجهه عنه، وذهبت توسلاته كلها هباء.

لقد ألقوا القبض على الناس بالعشرات في قضية تسميم القيصر. وكان الجالس على العرش مريضًا نفسيًا واسع الخيال، ملطخًا بالدم، مولعًا بدخان أوراق الاتهام المحترقة.

الأمر نفسه كان يحدث دائمًا. دائمًا كان يحدث الأمر نفسه.

حين عادت زوجة موزيل من القداس، وقبل أن تخلع معطفها الفرائي (هي لم

تفعل ذلك كانت ترغب في الاحتفاظ بعض الوقت بشحنة الإيمان الصغيرة التي تدفئ صدرها)، اندفعت إلى الغرفة ابنة الطباخة مذعورة تتمتم خالطة الكلمات الألمانية بالروسية. فهمت زوجة موزيل ما تقوله فورًا، فأطلقت صرخة ألم قصيرة، مخنوقة، كأنها تلقت ضربة، وهرعت إلى الغرفة- إلى أطفالها.

كانوا ثلاثة.

آنخين في المهد، وهي في السنة الأولى من عمرها- احمرّ خداها من جديد، وظلت طول الليل تئن بصوت ثخين، تنمّي لنفسها سنًا جديدة. وغيورغ ابن الأربع سنوات، وهو أجعد الشعر كأبيه وجدّي مثله. وآنسيلما بنت العشرة أعوام التي قفزت عن المقعد، وحدقت إلى أمها بعينيها الناعمتين، الفاتحتي اللون تسألها: ما الأمر يا ماما؟ إنها الوحيدة المولودة في وطنهما وجلباها معهما من هناك إلى موسكو.

يدا يوغان موزيل، وقلبه الطيب، وحقيبة أدواته.

وأنسيلما

ثلاثة

اهتز الزمن عدة مرات، ثم انتصب كالخازوق في وسط الغرفة الضيقة، المدفّأة حتى الاحمرار. أمسكت زوجة موزيل حنجرتها بكفيها، ضغطتها بأصابعها التي بدت باردة، غريبة، كأن ذلك يمكن أن يساعدها. وعبر النافذة أطلت شمس كانون، صغيرة، شحيحة، تبتسم ابتسامة منحرفة كأنها مريض بالبارانويا،- ثم اختفت، اختبأت خلف سرب من الطيور المرقّشة الألوان، كأنها تسدل ستارًا على النافذة.

كانوا ثلاثة

ما الأمر يا ماما؟

زوجة موزيل لم تجب، اكتفت بإطلاق صرخة ألم ثانية- ثم ركضت، ركضت، ركضت، وقفزت متجاوزة درجات المدخل، ثم الساحة، ثم منحن معوجّ كالقدر، وبعده آخر قصير وقبيح مثله، ثم ركضت في الطريق أبعد فأبعد- شعرها

الأشقر صار منبوشًا، وعيناها ابيضتا، لكنها ظلت تركض من دون توقف حتى وصلت إلى ريفيل، وهي تخبئ بصدرها رأس غيورغ الصغير، الدافئ، الثقيل قليلًا- لا تنظر يا بني، لا تنظر.

لكنه كان، رغم ذلك، ينظر، وقد رسخ في ذاكرته إلى الأبد المنظر المدهش المخيف للمعان الثلج وسماء الغروب الملتهبة المصحوب بدويّ كرنين الأجراس.

توقفت الأم أخيرًا في ريفيل وماتت في ثلاثة أيام- استردت فيها رشدها. التقط تاجر ويستفالي مرّ من هناك غيورغ. كان التاجر أحمر الشعر، بدينًا، وجيه المظهر. لفّ الصبي بمعطف من الفراء وحمله، ضمه إلى بطنه الضخم الرجراج كأنه سائل. ابتعد، ابتعد عن الحرب الليفونية، عن روسيا- احرص على الابتعاد عن الموسكوفيين أيضًا، إنهم شعب متوحش، متوحش وجبان، إنهم جميعًا عبيد لقيصرهم، والقيصر عندهم وحش حقيقي.

كانت تفوح تحت معطف الفراء رائحة حامضية كثيفة، تدمع لها العين، وغيورغ يشعر بالاختناق، أما التاجر فكان يدمدم ويدمدم، ويهدر بطنه الرجراج في أذن الصبي مباشرة-، وكانت الحرارة والقذارة تزدادان مع كل فرسخ يجتازانه، كانا يتنقلان في الربيع، يزحفان فيه ببطء في طريق اللاعودة، كأن العالم ذاب فعلًا منفصلًا عن موسكو. في البداية كانا يتوقفان أحيانًا عن الزحف بسبب بعض العوائق، بعد ذلك، صارا يخرمشان الأرض كما يخرمش كلب تجمد بردًا بابًا مغلقًا، وأخيرًا صارا يسمعان طرق الدواليب وهي تدور على الأرض. الثلج الذي يضعف طويلًا- طويلًا، اختفى كليًا، كأنه لم يكن. لم يعجب غيورغ بذلك، فتململ، وحاول أن يحتج، لكنه لم يستطع.

أضف إلى ذلك أن التاجر لم يكن يسمع أحدًا إلا نفسه.

كانت الأرض الويستفالية خضراء، جعداء العشب، حتى الطيور هنا لم تكن تصيح، بل تغرّد محتفلة، مبتهجة، تغريدًا منسجمًا كأنها أرغن.

النقطة غير المرئية في الأفق، التي كان غيورغ والتاجر ذاهبين إليها، برزت معالمها أخيرًا كحلم يتحقق: جدار أسود، متداع قليلًا جدًا في بعض الأماكن، وكنيستان بأسقف حادة الزوايا. انسابت المدينة أمامهما، وانسابت، وأخيرًا تحول طرق العجلات الأصم إلى ضجيج، ودخلت العربة إلى ساحتها الرئيسية.

فيزيل،- أعلن التاجر بلهجة مظفرة، وأجلس غيورغ على المقعد الأمامي. رفع الصبي رأسه- كانت السماء خالية من الغيوم، ساطعة وفارغة تمامًا. وقد فاحت في الجو رائحة الخبز الساخن، وحب البركة، والبخور، والوحل الطري، ورائحة روث الحيوانات الطري، القوي. وعند برج الكنيسة تمامًا كان ثمة قفص يترجح، فيه شمعات تحترق آخذة بالانطفاء.

زمّ غيورغ عينيه.

اعتمد على الرب دائمًا يا بني- دمدم التاجر ناصحًا، وهو يمسك بعنان الفرس.- كن دائمًا مع أبناء بلدك، وتذكر دائمًا أنك مواطن حر في مدينة حرة.

أحنى غيورغ رأسه بالإيجاب وزاد في إغماض عينيه. لقد أنهكه الطريق، وأضعفه، حتى أنه نسي كيف يبكي. لم يبق له أي أهل. لا أحد تمامًا. التاجر، الذي أرضاه أنه تخلص من العبء الذي حمله إرضاء لله، تمطّق، وشد الفرس ظهره الموبر، وبعد بضع دقائق لم يبق من ماضي غيورغ شيء، حتى الضجيج.

مو وا طـ ن حـ رّ،- حاول أن يكرر العبارة، لكنه لم يستطع. صارت أصوات الحروف كثيفة، لزجة، تلتصق بسقف حلقه كصمغ الخوخ. لقد علّمه أبوه أن يأكل صمغ الخوخ. كانت عندهم في موسكو حديقتهم الخاصة، وكانت فيها أشجار خوخ.

كل ما كان يريد غيورغ- هو العودة إلى البيت.

حين فتح عينيه في المرة التالية، رأى الثلج مجددًا، وموسكو، وقد استقرت عند قدميه حقيبة أدوات طبية.

ما اسمك؟

رجل في الخامسة والعشرين، نحيل كأبيه، وعنيد مثله. صحيح أنه لم يكن أجعد الشعر كأبيه، كأن الزمن والريح التهما شعره، فظهرت ذروة رأسه صلعاء، عاجزة، وردية اللون. ذروة رأس أبيه كانت غير ذلك. كان الأب يحمل غيورغ ويقذفه عاليًا، فيرى الصبي من الأعلى ذروة رأس أبيه مكسوة بالشعر الأجعد الكثيف.

غيورغ يذكر ذروة رأس أبيه وصمغ الخوخ

والثلج- أيضًا.

لقي الموظف بعض المعاناة في استقباله في السفارة، حاملًا قلمه في ترقّب، ثم سأله بلغة ألمانية صماء جامدة، عما إذا كان يحتاج إلى مترجم.

غيورغ لم يكن بحاجة إلى مترجم بعد اثني عشر عامًا من الدراسة في لايبزيغ، وستراسبورغ، وليدين، وإكسفورد، وباريس، وبادوف، أتقن فيها ست لغات، وكان يتأتئ فيها كلها تأتأة فظيعة، يتأتئ باللغة تسيسارسكية واللاتينية، والفرنسية، والإيطالية، والهولندية.

والروسية أيضًا. نعم، هو لم ينس الروسية.

كان وهو في أول فتوته، يهرع إلى التجار الموسكوفيين النادرين- أهـ- لّا وسهـ- لّا! يقول مرحبًا بفرح، وهو يتعثر نحيلًا، غير متناسق. كثيرون منهم يعبسون في وجهه، ويبتعدون عنه بوصفه فتى شاذًا، وينهالون عليه، من خوفهم، بأقذر شتائم الساحة.

ليأخذك الشيطان أيها الشاذ، الأحول.

غيورغ لم يكن يزعل، ولم يكن يستسلم. كانت له طباع أبيه- كان سهلًا في التعامل، ضعيفًا، عنيدًا: الوحل- تراب أيضًا. والشتائم- كلمات أيضًا. كان يجمعها واحدة إلى جانب أخرى، ويكررها في داخله- حيث كان دائمًا يتكلم مع نفسه بسهولة، وبطلاقة، ومن دون تأتأة.

الشتائم الروسية كانت طليقة دائمًا على لسانه، فهو، لم يكن يتأتئ في نطقها أبدًا.

طيب، ما اسمك؟

غبي منتهٍ.

ماذا؟

رفع الموظف رأسه مذهولًا.

هل يتوهم أنه سمع ذلك؟

هل جنّ الرجل؟

هل التهم الكثير من الحبوب المسلوقة بالحليب في المساء؟

م- م- م- مو- أوي- أوي.

أطلق غيورغ، كالعادة، صوتًا كالخوار، خاليًا من اليأس،- كان عليه أن يسحب الكلمات من داخله، كمن يسحب من جوفه حبلًا ابتلعه، يسحبه بصعوبة وتكاد تخنقه الرغبة في التقيؤ. أخشى أن أتقيأ عليك من شفتيّ. مسّد الموظف بطنه بحركة آلية، وارتسمت على وجهه علائم الإشفاق والضجر. إنها الحبوب المسلوقة طبعًا. إنه، والحق يقال، أكل منها قدرًا كاملة ولم يردعه أحد.

غي- غي- غي- يور- ر

حسنًا، فهمت، أنا فهمت، أنت مريض. وما اسم أبيك؟ هل عندك أب؟

ما اسمه، هل تعرف ما اسمه؟

ضحك غيورغ، وهزّ رأسه بالإيجاب.

إي- إي- إيو- أو- أو- أو...

هزّ الموظف رأسه، وقد فقد الأمل في انتهاء هذا العذاب اللفظي، مدّ لسانه خارج فمه، وكتب بحسب معرفته: ميزيل غريغوري إيوانوفيتش، أي أيفانوفيتش.

لم يصحح غيورغ له عبارته. ولماذا يصححها؟

خرج غريغوري إيفانوفيتش، الجديد الذي نشأ في السفارة، زامًّا عينيه في ضوء الشمس الغاربة، ومشى فوق الثلج الملون بلون النار. كانت كرات روث الخيول اللامعة تبدو كحبوب كستناء ناضجة. ودخان المواقد يغطي السماء كستارة

سميكة. كل شيء كان كما حفظته ذاكرته، لكنه كان أكثر وضوحًا. في الجو كانت تفوح رائحة القش اليابس، وخشب أشجار البتولا، والخيول الساخنة. وكانت موسكو تهدر، تعلو بصوت حاد صيحات عرباتها ونسائها، وتتأوه، فيتحول صوتها إلى صخب مرح في داخل الكرملين، تحشد الناس تارة في شلال هادر، وتارة تهدأ فاتحة عينيها الوقحتين على اتساعهما، وفاغرة فمها.

أطلقت امرأة ذات خدين بارزين، حمراء الشعر، بمنديل مهترئ، أغنية طويلة، قوية، وهي تمشي، لكنها قفزت مبتعدة عن بعض الجنود الرماة المخمورين، واندست، غير ملحوظة، خلف أحد الأبواب- كأنها ثعلب في جحر. غير أن صوتها العالي، الجميل، ظل يرن في الصقيع بضع ثوان أخرى، إلى أن برد وتبدد في الجو الصقيعي.

لم يلاحظ ميزيل أنه، هو نفسه، كان يمشي مبتسمًا. هو الآن في السادسة عشرة. سن جيدة، وتاريخ مناسب لبدء حياة جديدة. كان في انتظاره الجوع الكبير، واستمرار الضياع، والبكاء، وصرير الأسنان، والقيصر الدعي ديمتري، وسيميبيارشينا، وأول فرد في آل رومانوف وآخر مدافع عن مدينة لافري المحاصرة، لكن غيورغ لم يكن يعرف أي شيء عن كل هذه الأمور- ولذلك لم يخف.

لقد عاد إلى وطنه. هو استطاع أن يعود.

هو استطاع!

* * *

غريغوري إيفانوفيتش ميزيل المولود باسم غيورغ موزيل في عهد القيصر إيفان الرهيب مات في عهد أليكسي ميخايلوفيتش رومانوف، في منزله محاطًا بأبناء أحفاده الشباب، وأحفاده كبار السن، مات نحيلًا، أبيض البشرة، بارز العظام، عن عمر ناهز الثالثة والثمانين. وذلك في عام / 1658/ . هو لم يبحث أبدًا عن أختيه، بل إنه حتى لم

يحاول أن يبحث- ولم يتكلم أبدًا عنهما بينه وبين نفسه، أو مع الآخرين، لكنه سمى ابنتيه آنخين وأنسيلما، وكان يتعاطف دائمًا مع النساء- مع كل النساء، مع كل امرأة سواء أكانت عجوزًا أم شابة، كأنه كان يأمل أن يمحو بذلك ذنبًا عظيمًا.

لا بد أن والدته اختارته وسعت لإنقاذه لأنه كان صبيًا، ذكرًا. وقد أدرك غيورغ هذا الأمر بسرعة، بسرعة كبيرة.

إن كل من عاش في ذلك العالم التجاري كان عبدًا لرجل ما- للسيد أو للحاكم، أو لسيدنا عيسى المسيح، أو، على الأقل، لبيته أو حقله، أو مهنته. لقد كان ذلك العالم سلّمًا حقيقيًا، فظًا، مخيفًا، يمتد من القاع حتى السماء، لكن النساء المسكينات كن أدنى مكانة من القاع نفسه- وكنّ في خدمة الجميع. كانت، حتى الأنبل أصلًا بينهن، أقل، في نظرهم، قدرًا من الحيوان الأبكم. لا حاجة بنا إلى الذهاب بعيدًا- لقد كانوا يحافظون على البقرة الجيدة أكثر من محافظتهم على ابنة أمير، مولودة في قصر، لكنها لا تستطيع، من دون إذن أبيها أو زوجها، أن ترفع صوتها، أو عينها، أو رأسها. البقرة مفيدة-حليب، وإنجاب، ولحم، أما المرأة، حتى أحلاهن، هي، ببساطة، امرأة أداة للإنجاب. إنها عبدة أكثر الرجال عبودية.

هذه الحال لم تكن في روسيا وحدها، طبعًا. "المرأة، سواء الجيدة أم السيئة، يجب أن تذوق طعم العصا"- هذا ما كانوا يقولونه في كل مكان في أوروبا كلها.

وهكذا كانوا يتصرفون في كل مكان.

أما غيورغ فلم يستطع مجاراتهم. إن هذا المتأتئ، الأخرس تقريبًا (المجنس ألمانيًا مرتين) كان يتذكر بالاسم النساء وأولادهن (حتى الموتى الذين نسيت أمهاتهم أسماءهن)- كان يعرف تلك الأسماء مع أنه لم يكن قادرًا على نطقها بشكل مفهوم، والأمهات كن يعرفن ذلك، يشعرن به. النساء اللواتي عايشن كل شيء، إلا التعاطف القلبي البسيط، أصبن بالحيرة في البداية، فرحن يبحثن عن أطماع غيورغ، أو، على الأقل، مصلحته في الأمر، وحين لم يجدن شيئًا من ذلك، تعلّقن به تعلّقًا شديدًا. كان كل شيء ممكن الحدوث، لكن ميزيل ضبط نفسه

بشدة، وتزوج، ليس بدافع الغريزة، بل بالاعتماد على العقل- تزوج ألمانية صغيرة الحجم، شاحبة، غير متألقة، شبيهة بضوء شمعة في النهار. وكضوء شمعة في النهار كان يشعر بدفئها الرتيب، ويحس بنورها رغم انه لم يكن ظاهرًا.

كانت تشبه أمه. تشبهها كثيرًا.

هكذا رآها غيورغ.

لقد عاش حياته بحسب نصيحة التاجر الذي تخلى عنه في فيزيل، من دون أن يلحظ ذلك- كان يتمسك بأسرته، ويقدّر، أكثر ما يقدر، الحرية الشخصية. أولاده كلهم كانوا متعلمين، بمن في ذلك بناته. كانوا يعرفون قدر أنفسهم- وهذا يعني أنهم يعرفون قدر الآخرين أيضًا، وكانوا يعدون أن خدمة القضية والناس أكثر أهمية من خدمة الوطن، وحتى العبادة. إن اتباع القواعد البسيطة في الحياة أمر من أصعب الأمور. لكن أفراد أسرة ميزيل كانوا عنيدين، لذلك بقوا أكثر من مئتي سنة، ألمانًا، لا يندمجون بالعالم الروسي، كأنهم عصير الليمون الحامض الذي لا يندمج بالزبدة.

زوجة غيورغ أنجبت له، عدا البنتين أنسيلما وآنخين، صبيين، سميا الأكبر "يوغان" تخليدًا لاسم جده، وسميا الأصغر باسم أبيه "غيورغ" وصار الابنان، حين كبرا، طبيبين. ومنذ ذلك الحين صاروا في كل جيل من آل ميزيل يسمون البنت "آنّا" و"أنسيلما"، والصبي "يوغان" أو غيورغ- غير مهتمين بكون الآخرين يسمون "يوغان" "إيفان" و"غيورغ" "غريغوري"، والتزموا، أيضًا بأن يصبح أحد صبيان الأسرة، على الأقل، طبيبًا. لقد كان ذلك نوعًا من الثأثأة، ثأثأة جنس كامل تكريمًا لذكرى الفتى اليتيم، الذي كان يأكل فضلات الطعام، كي يبقى حيًا ويعود إلى المدينة التي أحرقوا فيها أباه حيًّا. وحين مشى التاريخ، كمن يصعد درجًا، على عهود البطارسة واليكيترينات والألكسندرات ووصل، أخيرًا، إلى منتصف القرن التاسع عشر، استعصى على غريغوري إيفانوفيتش، الطبيب بالوراثة، فهم أمر واحد- لماذا عاد هذا الصبي كي يداوي، وليس كي يغرس بين عيني إيوان

فاسيليفيتش الرهيب، حاكم روسيا كلها، وقيصرها، وأميرها العظيم، رصاصة مسدس؟

لماذا لم يفعل أحد ذلك؟ لماذا لم يفعل أحد ذلك أبدًا؟

حامل جنسية أقوى امبراطورية في أوروبا، الموسكوفي العريق، الذي درس في بيتربورغ العاصمة، الوارث الأخير للطب، عن أجيال لا يعلم عددها إلا الله، آخر ميزيل، كان يكره السلطة في كل مظاهرها- بدءًا من سلطة معلم المدرسة إلى الضابط القوزاقي الطيب القلب، حتى كلمة "القيصرية"- الهامة، والثقيلة، والتاج المزين بالفضة- ذلك كله كان يثير لديه قرفًا غير متكلّف. كان يكره "الدولة ذات الحكم المطلق" ويحب الثلج. يحب الثلج- وكل الظواهر غير الساطعة، التي تكاد لا تلحظ، ويزداد تفسيرها صعوبة: المستنقعات الصغيرة الباكية، والأماكن المعزولة الخجولة، والليالي الملأى بتغريد البلابل، والبخار فوق ظهور الخيول القوية، والتمعي، التمعي يا نجمتي...

من الواضح أن حب هذه الظواهر ينتقل أيضًا بالوراثة.

* * *

يوم وفاة غيورغ موزيل كان حارًا.

الربيع جاء متأخرًا، عبوسًا. موسكو التي جوّعها الصوم صارت ضعيفة، يكاد يسد خياشيمها الوحل المتجمد الكثيف. لكن، فجأة، في حزيران، ذاب الجليد كله، وأورق كل نبات، وأزهرت أشجار الخوخ، ونهضت المدينة بيضاء رشيقة، معجبة بنفسها، كأنها فتاة شابة. الناس المتنهدون بحزن تجمعوا عند البوابة. لقد أحبوا المتأئئ العجوز- راحت النسوة اللواتي يهدأ حزنهن، يعولن هنا وهناك، أما الرجال فراحوا يبلعون غصاتهم بتهذيب، منتظرين كؤوس النبيذ، فيوغانيتش، رغم أنه ليس مسيحيًا، لم يكن شحيحًا، وسيقام له، إن شاء الله، حفل عزاء- وتسلّق الأولاد، الذين تركوا بلا رقابة، السور خلسة، ثم انتشروا بين الأشجار علنًا، صاخبين، وقد

تلطخت أفواههم بصمغ الخوخ الطريّ الساطع اللون. لقد كان موزيل أول مالك لحديقة في منطقة ألمانية- حديقة لم تزرع على الطريقة الروسية، لكنها كانت سخية كحدائق موسكو.

موزيل الذي لم يتحرك منذ المساء، ولم يكن يربطه بهذه الحياة سوى خيط رفيع من الأنفاس المتقطعة المتحشرجة، فتح عينيه فجأة، وحاول الجلوس. الابن الأكبر، يوغان، الذي يكاد يكون عجوزًا، هرع لمساعدة أبيه، أمسكه من كتفيه النحيلين، وأنقذه بصعوبة من السقوط.

Watt is loss mit dir, vatter? Haste ping? Willste jet drinke?(1)

اختلطت الكلمات الألمانية، بالهولندية، والساكسونية، والروسية، ولهجة أهل "كولن"، وفجأة برزت الكلمات الإيطالية واضحة، حية. لقد كانت هذه سمة خاصة بلغة أسرة ميزيل الموسكوفية، اللغة التي اضطرت الأسرة، بعد جيلين، إلى التخلص منها كليًا، واعتماد اللغة الروسية اعتمادًا نهائيًا.

Ich w-w- will dà sehnine. M-m-mngen- n-n schnie. D- d- do hingen dàm...

لم يتمكن العجوز من الجلوس، أتعبته المحاولة- اكتفى بإحناء رأسه مشيرًا إلى مكان: هناك، خلف النافذة.

كان نحيلًا إلى حدّ الشفافية، أصلع تمامًا، وبلا أسنان.

Es es doch sommer hinger dàm finster, vatter.(2)

Das ist nicht r-r-r- recht t-t-t... nicht r-r-recht-t-t...(3)

Dat is netr- r-r-r-à... netr r-r-r-à...(4)

ابتلع يوغان دموعه. لقد فهم أخيرًا- هذا ظلم.

نعم، هذا ظلم. الأب يموت بسبب الشيخوخة، وهو لا يستطيع أن يساعده بشيء، لا بأية أعشاب، ولا بأي تدليك، ولا بنقل الدم. ببساطة: لقد جاء أجله.

---

(1) ما بك يا أبي؟ هل تشعر بألم؟ هل تريد ماء؟ (بالألمانية بلغة أهل كولن)

(2) أنا أريد الثلج، أريد ثلجي. هناك..

(3) الدنيا صيف أمام النّافذة يا أبي

(4) هذا ليس صيد... هذا ليس صيد...

أسند غيورغ رأسه إلى الوسادة، وأغمض عينيه، أما الابن فابتلع دموعه ثانية.

هذا كل شيء. إنها النهاية.

تحركت شفتا العجوز الرقيقتان، الجافتان.

مثلّث،- قال بالروسية بصوت يكاد لا يسمع، وضحك.

Wat hàs du jesaht, wattwr? Ich has nix versande[1]

انحنى يوغان. كان يبكي. هو لم يستطع أن يضبط نفسه أكثر مما فعل. لم يستطع.

مثلّث،- كرر غريغوري إيفانوفيتش ميزيل عبارته.

كانت هذه العبارة آخر ما قاله في حياته- وقد نطقها بسهولة، وطلاقة ومن دون تأتأة.

* * *

بعد مئتين وسبعة عشر عامًا، في صيف عام 1875، بلغت توسا، بنت الخمس سنوات، ذروة بكمها.

إنه لأمر مضحك، كل ما حولها كان يضج بالأصوات- يصخب، يغني، يصفق، يصرخ، يطلق صريرًا، يدمدم ساخطًا، حتى المساء- بعيدًا، بعيدًا حتى الأفق الآخذ في التكاثف. في هذا العام حلّ تموز مدهشًا- فقد أعطى الله في الربيع الأرض ما تحتاجه من مطر ودلاء، لكنه في أيام الحصاد أوقف الزمن بلطف، وملأه بقيظ مديد بطيء الحركة، فكان الزمن حين يبلغ منتصف كل يوم يتوقف عن الحركة، ويجمد فترة طويلة، على شكل كرة نارية ضخمة تتأرجح ببطء شديد، مدلاة بحبل سماوي غير مرئي. وكان (عقص) الحشرات الواضح، الجاف، الذي لا يحتمل، يسبب الحكّة في الجسد كله- الحوض المتعرق، والجبين، والعينين، وحتى الأفكار.

كثيرون من الفلاحين كانوا يسرعون في إنجاز موسم الحصاد فيبقون في الحقول ليلًا- كانت ساعات ما بل الفجر الشاحبة ملأى أيضًا بالأصوات التي لا

(1) ماذا قلت يا أبي؟ أنا لم أفهم.

تصمت: خيول ترعى في مكان قريب، تشخر شخيرًا مزعجًا كشخير أرنب يختنق، وهي تطرد الحشرات عن جسدها، وبومة تنعق، وأغنية تنطلق هنا أو هناك- تشترك في إنشادها عدة أصوات منسجمة، ثم تنقطع فجأة، وتختفي خلف عربة تغادر مسرعة، تتلامح مع انطلاقها صدور نساء ناضجة حليبية اللون، باردة ببرودة منعشة، أما الوجوه المسمرّة من لفح الشمس فلم تكن ترى عمومًا، غير أن هسهسة رتيبة، ملحاحة كانت تسمع خلف الشجيرات على طول ضفة النهر الصغير، حيث تعلو حمحمة الرجال وتتناثر ضحكات النساء وتأوهاتهن، الأمر الذي جعل ميزيل، الواقف أمام النافذة المفتوحة، وقد هجره النوم أيضًا، يحصي بشكل آلي عدد المواليد الذين سيأتي بهم هذا الحصاد في الربيع القادم، وكم سيظل حيًّا منهم حتى الصيف.

الإحصاء كان عقيمًا وبلا فائدة كوجوده هو شخصيًا.

فتوسا ظلت خرساء- إنها الوحيدة التي ظلت صامتة في هذا العالم الذي تضج جوانبه الكثيرة بالأصوات- لا يصدر عنها ثغاء أطفال، أو كلمات غير مفهومة، أو تقليد لكلام الكبار كما يفعل الببغاء. كانت فقط تصرخ صراخًا غاضبًا، أبح، والأدق أنها لم تكن تصرخ بل تجأر إذا ما حدث شيء يخالف إرادتها الطفلية، الأميرية بكل ما للكلمة من معنى.

وكانت تضحك في بعض الأحيان.

إن أشد ما يثير خوفه، لم يكن صمت توسا، بل ضحكها طبعًا. لم يكن يخيفه أن هذه البنت ذات الخمس سنوات، ما زالت طفلة تعتمد على رعايته غير الرشيقة، وأنها لم تتعلم بعد من مربيتها تلك الأشعار الفرنسية الأولى التي كان من واجبها أن تتعلمها. كل هذه أمور يمكن إصلاحها، وتغييرها. ما كان يخيف ميزيل هو أنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك. كان يتهم نفسه ببلادة التفكير تارة، وبالجهل تارة، وبضعف الإحساس بالحب تارة ثالثة، وكان هذا الاتهام الأخير يؤلمه أشد الألم.

توسا لم تتكلم لأنه كان فاشلًا علميًا، وغبيًا. قناعته كلها كانت تستند إلى هذا

الأساس. لا، ليس كذلك. قناعته كانت على حافة هاوية، تتشبث بكل قوتها بهذا الأساس الضعيف، المشرف على الموت، كباقة من أعشاب العام الماضي.

كان العشب يتساقط من الباقة كلما قهقهت توسا- ويتساقط معه قلب ميزيل، وقناعته، لأن ذلك الضحك لم يكن ضحكًا، بل عويل غير مفهوم، عويل خشن يصدر من كائن مجنون.

لقد سمع هذا العويل للمرة الأولى حين كانت توسا في الشهر التاسع من عمرها- حينها ضربت الحاضنة التي أذهلتها المفاجأة، الطفلة على خدها، فصرفوها من العمل في ذلك اليوم نفسه. بعد ذلك صرفوا حاضنة أخرى، ثم أخرى. وحين لم يبق أمامهم من يقبل أن يخدم في منزل يدير كل شؤونه ألماني نصف مجنون، استقدمت بورياتينسكايا بصعوبة كبيرة، ومقابل مبلغ خيالي من المال، مربية من سويسرا ضخمة، وغبية، وتحب النظافة كبقرة سيميتالية. لم تكن هذه المربية الأجنبية تعرف اللغة الروسية، ولم ترد أن تعرفها، ولذلك لم تهتم بكون الطفلة خرساء، وهذا ما كان يغضب ميزيل أشد الغضب.

وأخيرًا منع ميزيل المربية من الاقتراب من توسا- راح يقوم شخصيًا بكل شيء: ينهض في الليل، يبدل قمصان الطفلة الملوثة، يطعمها الحبوب المطبوخة، ينام بالقرب من سريرها على بساط من شعر الماعز، على الرغم من أن بورياتينسكايا خصصت له غرفة مستقلة في المنزل، وأفرزت له في خطة إعادة بناء المزرعة جناحًا كاملًا، لكن- لا، هذا كله سيجعله بعيدًا جدًا عن توسا.

وهو لم يرد ذلك. لم يكن قادرًا على احتماله.

ترك ميزيل عمله في استقبال المرضى، وأكسبه النحول الشديد منظرًا قبيحًا، ومع ذلك، كان سعيدًا، نعم، كان سعيدًا لأنه، أول من رست عليه نظره توسا الطفلية، وأول من منحته ابتسامتها.

هي لم تمنح ابتسامتها الأولى لأمها، أو لأبيها الذي ترتبط معه بوحدة الدم، أو للألعاب والدمى الفضيّة العائلية التي كانت رائجة في عهد يليزافيتا. منحتها له.

صرفوا المربية الأجنبية أيضًا.

صار ميزيل السيد الوحيد في غرفة الأطفال- ولم يكن يتحمل معاشرة أحد إلا الأميرة الصغيرة. كانت الأميرة الأم قليلة الفهم، وغير رشيقة، ترتكب أحيانًا غباوات فظيعة، لكنها كانت تحب توسا حبًا قد لا يقل عن حبه لها.

غير أن الأمر استفحل إلى حد لا يطاق.

سرت في البلدة إشاعة رفعت رأسها الأملس كرأس الحية، تقول: إن الأميرة أنجبت طفلة- (على البركة)، وبلغت هذه العبارة مسامع ميزيل ذات مرة، في أثناء نزهته اليومية مع توسا فتقلصت قسمات وجهه العاجز.

يا حسرتي عليك أيتها المسكينة التي (على البركة)!

المرأة التي كانت تنظف الفرن استندت إلى مكنستها ذات العصا، وهزت رأسها في أسى، ولمعت من بعيد في وجهها المستدير، المسودّ من الغبار المبلل بالعرق، أسنان فتية مرحة لمعانًا قبيحًا.

كان شهر أيلول جافًا، تقصفت فيه أغصان الأشجار وأوراقها واشتد القيظ، وخاف الجميع من اندلاع الحرائق.

انظروا كيف شوّه الرب هذه البنت البريئة.

توقف ميزيل. تردد لحظة، ثم وضع توسا، بنت السنة والنصف، على فسحة مستوية من الأرض، كي لا تسقط في حفرة. مشى خطوة، لكنه شعر بأنه لا يرى شيئًا-كان كل ما حوله كثيفًا لا يخترقه البصر، وأحمر قانيًا من شدة الغضب، كأن أحدهم لفّه، وهو حيّ، بغطاء من اللحم الرطب، المضرج بالدم، فاستعان بيديه، ووجد بصعوبة، في هذا الغطاء الأحمر الكثيف، المرأة التي كانت عمومًا، مشفقة أصدق الإشفاق على حال البنت، أمسك بحنجرتها وضغطها مبتهجًا بصوت غضاريف عنقها القوية، والمرنة، والحية، والتي تكاد تنكسر تحت ضغط أصابعه.

المرأة التي، إن لم يكن قتلها، فقد أفقدها بالتأكيد، القدرة على الإنجاب، شخرت خائفة، وكشطت التراب بكعبيها العاريين، المعوجين، محاولة الإفلات من

قبضته، لكن ميزيل استمر يضغط، ويضغط، وهو يرتجف من الكره والسعادة. الانفعال الوحشي، الفظ، الذي نسيه منذ زمن، ملأ الآن حوضه، وصار أسفل بطنه ينبض منسجمًا مع إيقاع نبض حنجرة المرأة، حتى أنه كاد، هو نفسه، أن يصرخ- وفجأة أحس بأنه سيتبوّل فورًا، فهزه هذا الإحساس الذي زاده فظاظة، وحدة- وعاد العالم العائم، غير الواضح، يتضح من جديد، ببطء كأنه اسطوانة تدار بسرعة بطيئة.

جلست توسا على الأرض- هناك حيث وضعها هو، محاولة أن تحمي بكفها، زيزًا، يفتقر إلى الرشاقة مثلها، تلوح على جناحه خضرة نفّاذة، تارة، وزرقة ملساء تارة أخرى. هي مع ميزيل لم تر من قبل مثل هذا الزيز، فرفعت عينيها الفاتحتي اللون إليه مستفسرة.

Geotrupide،- قال لها ميزيل موضحًا، ثم فرد أصابعه عن عنق المرأة أخيرًا.

تكومت المرأة المتهالكة، المنهارة رعبًا، كأنما قطعها أحدهم بمنجل، ودست يديها اللتين لم تكن تسيطر عليهما، في الغبار، وقد سرحت على خديها المتسخين جداول صغيرة، لامعة، متلاحقة من الدموع. وهرعت من الكوخ فتاة خائفة، بيضاء الرأس، في حوالي العاشرة من عمرها، فاغرة فمها بصرخة مكبوتة- لا بد أن ميزيل كان يعالجها أيضًا.

انحنى فوق المرأة، هادئًا تمامًا، تمامًا، متمالكًا نفسه. وقال لها بوضوح وبطء وصبر- كأنه يحدد لها عملًا.

إذا قلت ثانية أية كلمة سيئة عن الأميرة الصغيرة بورياتينسكايا- سأقتلك. سأقتلك أنت، والجميع، حتى أصغر طفل. سأسلط عليكم الكوليرا، إنها طاعون أجنبي، وأنتم لن تعرفوا ما مرضكم الذي ستموتون به. أخبري الجميع بهذا. هل فهمت؟

قالت المرأة شيئًا ما وهي تسعل، وتغص. كانت شفتاها مزرقتين، وثمة زرقة مماثلة تشوبها حمرة تغطي عنقها- دليلًا ظاهرًا على غضبه الذي أنفثأ، فراح ميزيل يفكر بشكل آلي بأنه قد آذى حتمًا غضاريف حنجرتها، لذلك سيكون من الصعب على المرأة أن تنقل إليهم رسالته urbei et orbi.

أضف إلى ذلك أنه قد يضطر إلى اكتساب خبرة عملية جيدة في سجن الأشغال الشاقة. لأن مكانه هو، طبعًا، سجن الأشغال الشاقة.

مرة ثانية. هذه ستكون المرة الثانية.

أخيرًا وصلت البنت، ورمت نفسها على ركبتيها بالقرب من المرأة، وهي ترتعد من دون صوت، كأنما أصابها الخرس هي الأخرى. الخناق، قال ميزيل في سره متذمرًا، لقد عالجتها من الخناق، ومن الحصبة أيضًا. وقد أكون عالجتها من أمراض أخرى قبل ذلك، وعالجت المرأة نفسها أيضًا.

لقد طالت إقامتي هنا. طالت إقامتي.

فردت توسا أصابعها فاستغل الزيز الفرصة وانزلق من يدها. رفع ميزيل توسا ونفض عن ثوبها وساقيها الصغيرتين الساختتين نثرات التراب المزعجة. طوقت بيدها عنقه، وأسندت رأسها، كالعادة، إلى كتفه، أما ميزيل فمشى عائدًا إلى المنزل وهو يترنح، شاعرًا ببقعة ساخنة تتوسع بشكل فاضح بين ساقيه. هو لم يتبوّل لا– لقد كان ذلك شيئًا آخر، بللًا من نوع آخر، جفّ قبل أربعين عامًا، فاعتقد أنه جفّ إلى الأبد، لكن، ها هو ذا عاد الآن، عاد كي يختفي ثانية، إلى الأبد بالتأكيد هذه المرة.

كان ميزيل يترنح بشدة فكادت توسا أن تسقط من يده. وكان يشد نقرته ببطء حزام شائك من الصداع– الهادئ، المنذر بالصدمة المقبلة. سيعتقلونني اليوم، مساء على الأرجح، أو في الليل. سيعتقلونني، ويرسلونني إلى السجن. خمس سنوات؟ هذا قليل. إذن، عشر سنوات. هي ستكون قد كبرت تمامًا حين أعود. إنها ستنمو من دوني. هذا مستحيل. إنه ببساطة، أمر مستحيل. الأفضل أن أفعل ذلك بنفسي. الميشياك؟ لا، إنه سم بطيء الفاعلية، مربك، ومثير للتقيؤ. وقد يتمكنون من إنقاذي. السيانيد أضمن. إنه في الدرج الأعلى من الطاولة. زجاجة سوداء في درج الطاولة العلوي. لا داعي لإخافة أحد.

الأفضل أن أضع الزجاجة في جيبي فورًا.

لم يعتقله أحد، لا في المساء ولا في صباح اليوم التالي. لا أحد.

في اليوم الثالث، توجه ميزيل معتمدًا على بطء حركة جهاز الأمن الجنائي الروسي، إلى القرية نفسها. دخل إلى الكوخ من دون أن ينظر إلى أحد، فوضع حقيبته على الرف. غطّت المرأة بطرف منديلها وجهها المستطيل الداكن، وألقت عليه نظرة من عينيها الداميتين، ثم رسمت شارة الصليب على صدرها. دسّ يده في جيبه، فلامست أصابعه مندهشة زجاجتين بدلًا من زجاجة واحدة. سيكون حدثًا طريفًا مسليًا أن ينتحر هنا، أمام عينيها، مكفّرًا عن ذنبه، ومقدمًا عبرة للآخرين. أخرج ميزيل من جيبه الزجاجة الضرورية من دون خطأ، وقام لأول مرة، بدهن أصابعه علنًا وببطء بسائل اليود، ثم أمر المرأة بالاقتراب من النافذة- فنهضت المرأة طائعة ووقفت في بركة الضوء، ثم أطاعت حركة من أصبعه، فنزعت المنديل وردّت رأسها إلى الخلف. تفحص ميزيل بسرعة رقبتها وحنجرتها، ملاحظًا، في الوقت نفسه، أن الكدمات المحمرة التي تتطابق تمامًا وبصمات أصابعه المصبوغة اليوم ببقاع اليود الطازجة الحمراء كالنار.

علائم تمزق كثيرة في الخلايا الحية، ونزيف طفيف في الجفون. الغضاريف سليمة والحمد لله، والعظمة تحت اللسان سليمة أيضًا.

هل تستطيعين الكلام؟

هزت المرأة رأسها- لا.

هل جمعتم البطاطا؟

هزت المرأة ثانية رأسها، لكن مجيبة بنعم هذه المرة. هم فعلًا جنوا محصول البطاطا في شهر آب، وقد خزنوا في القبو مالا يقل عن مئة مُدّ (وحدة قياس- المترجم) منها- تنشّطت وأرادت أن تتفاخر- لكنها لم تستطع.

اسلقي قدرًا من البطاطا كل يوم- واستنشقي بخاره عبر الفم إلى أن يتبدد، لكن غطي رأسك بشال. هل عند شال؟

هزت المرأة رأسها مرة أخرى أخيرة.

وبعد أسبوع أو أسبوعين ستتمكنين حتى من الغناء.

حمل ميزيل حقيبته، وأحنى رأسه محييًا كالعادة، ثم خرج. أما المرأة فظلت واقفة قرب النافذة، وبتسريحتها البسيطة، تنظر إلى نقطة واحدة وعيناها داميتان، لم يكن لديها أي إحساس بالامتنان، أو الخوف، أو الكراهية أو حتى الغضب.

هي لم تستطع أن تتكلم بعد أسبوعين، بل لم تتكلم بعد ذلك أبدًا. وهكذا بقيت خرساء. لكن لم تكن هناك محاسبة لمن تسبب في ذلك. ما من أحد في المنطقة اشتكى على ميزيل إلى المشرف، أو حتى إلى القاضي المحلي، فكأن ما حدث أمر طبيعي يجب أن يحدث، وكأن ميزيل كان يملك الحق فعلًا، ليس بالإشفاق عليها، بل بمعاقبتها أيضًا.

لم يحقق هذا الأمر لميزيل الفرح أو الراحة- لكنه فهم فهمًا نهائيًا قاتمًا، أنه ليس روسيًا، ولن يكون روسيًا أبدًا. الألماني لا يتصرف على هذا النحو. هو نفسه ما كان ليتصرف بهذا الشكل. لقد تجاوز القانون الإلهي والقانون البشري. وهو فعل ذلك للمرة الثانية. وللمرة الثانية لم يهتم أحد للأمر- لا الناس ولا الرب. ولم يجد ميزيل في نفسه القوة ليعاقب نفسه في هذه المرة الثانية.

لقد تعب ميزيل من التفكير والتساؤل عما إذا كان هذا الصمت الشامل الذي غفر له كل شيء، جبنًا أم نبلًا، فقدّم عند حلول عيد الميلاد طلب استقالة من العمل، وحين حصل عليها، سافر إلى مزرعة آل بورياتينسكي. وهكذا انتهى عمله في المركز، وصار غريغوري إيفانوفيتش ميزيل منذ ذلك الوقت، الطبيب الخاص للأمير بورياتينسكي والأميرة بورياتينسكايا.

هو، في الواقع، صار أبًا لتوسا. صار أباها الحقيقي. لقد كفّ عن زيارة البلدة. لم يزرها أبدًا. ولم يرسل أحد أبدًا طلبًا لحضوره من "آنا" أو من غيرها، - فقد اكتفى الجميع بخدمات معالج جديد كان في الجيش، عينه مجلس المدينة، واسمه تشوريلكين، كان تشوريلكين قليل الخبرة، طيب القلب، بطيء الحركة. الخط البياني لموت الأطفال، الذي خفّضه ميزيل تخفيضًا رائعًا إلى حدود معقولة حتى في عصرنا، ظل يراوح في مكانه بعض الوقت في عهد تشوريلكين- ثم انفلت وأخذ

يصعد. يجدر القول إن الكبار كانوا في عهده يموتون أيضًا بنسبة ممتازة. هو كان يعالج مرضاه بعناية، لكن علاجه كان رديئًا- لم يكن يعتمد الكتب والمراجع، بل يعالج المريض بحسب نظرته الخاصة، لأنه لم يملك أية ثقافية طبية، مثله في ذلك مثل كثيرين. جرح في الحرب، فعدّوه بعد ذلك ضعيف البنية، وألحقوه بطبيب الفوج، الذي قام، من باب الإشفاق، وبسبب النقص الدائم في الأيدي العاملة في مجال الصحة، بتدريب ذلك الجندي المسالم، الجاهل، على حقن الإبر، وفتح الدمامل، وجر الأواني التي تحتوي الأطراف المقطوعة. لقد كان هناك نقص حاد حتى في هؤلاء الأطباء المزيفين، لذلك، حين أنهى خدمته العسكرية، وجد بسهولة، وهو الذي لم يدخل حتى مدرسة تمريض، وظيفة معالج في أحد الأماكن، ثم انتقل إلى مكان آخر. وأخيرًا وصل إلى مقاطعة فورونيج.

الراتب الذي حددوه له كان عاديًا- ألف روبل في العام، يضاف إليها ثلاثمئة روبل كنفقات مواصلات.

منحت الأميرة بورياتينسكايا ميزيل راتبًا سنويًا قدره عشرون ألف روبل في العام تضاف إليها نفقات إقامته كاملة. أبدى ميزيل موافقته على ذلك بإحناءة لا مبالية من رأسه، وحين كان ذات مرة في فورونيج فتح حسابًا في البنك الحكومي. وفي عام 1894 مات، فورثت توسا بناء على وصيته، وكانت قد بلغت الرابعة والعشرين، مئتين وستة وسبعين ألف روبل- هي كل ما تقاضاه حتى آخر كوبيك في خلال ثلاثة وعشرين عامًا. مضافًا إلى ذلك أحد عشر ألفًا وأربعين روبلًا فوائد مصرفية.

لقد بنيت مزرعة تربية الخيول في "آنّا" بنقود ميزيل.

كانت هذه المزرعة حلم توسا المنشود.

وآخر حلم حققه لها ميزيل.

ساد الهدوء الخاوي، من جديد في غرفة الأطفال بعد رحيل المربية الأجنبية- لم تكن هناك حاضنات جديدات، والخدم، حتى أولئك الذين ينظفون الغرف، كانوا يلوذون بالصمت، خشية أن يثيروا غضب الدكتور، وهذا ما زاد في سوء حالة

توسا، لقد كان الكلام واجبًا، وضروريًا، وكان ميزيل يدرك ذلك ويشعر به، فمئات ومئات الأكواخ الفلاحية التي زارها كانت ملأى بالضجة الإنسانية الحية: كانوا يصرخون فيها، ويتحادثون، ويغنون، ويدمدمون، ويطلقون النكات والشتائم. ولم يكونوا في هذا الجو الصاخب يحجبون قسم الأطفال، عن قسم الكبار بأية ستارة، حتى لو كانت شكلية، لذلك كان الطفل يكبر وهو يسمع شخير جدته وهي تحتضر، وثرثرة إخوته وأخواته، وشجار أبويه، وهمساتهما الاستسلامية الليلية. الحكايات (وبعضها كان مخيفًا وفظيعًا) والألعاب، والحياة، والموت- كل ذلك كان عامًا، وواحدًا بالنسبة إلى الجميع. لذلك كان أبناء الفلاحين يبدؤون الكلام- وإن كان بشكل غير متقن- على طريقة الكبار مباشرة، متجاوزين ثغاء الأطفال.

المقوّس ابني، سماني اليوم "كلبة" - بهذا النوع من الأحاديث كانت الأمهات القرويات الشابات يتفاخرن.

لكن توسا كانت صامتة.

عند ذلك بدأ ميزيل نفسه يتكلم- من دون انقطاع، ومن دون توقف، خالطًا ما كان يسمعه من أقوال الفلاحين، مع الحوارات حول تنظيم أجهزة العناية بالصحة، والحكايات عن الطفولة التي، والحق يقال، لم يكن يذكرها جيدًا، لذلك كان يسبغ عليها شاعرية ويحبها كما يحب المرء ما يختلقه، لا ما يعيشه فعلًا. كان يسمي كل شيء ويصفه- البناء، والدببة الصغار المرسومين على السرير فوق رأسه، والذبابة التي حطّت على صورة أولئك الدببة (انظري، إنها Musca domestica- إنها نوع من أسرة الذباب الحقيقي ذي الجناحين والقصير الشاربين). كان يخلط الألوان والأصوات، ويروي أساطير منسية، ويتحدث عن مظاهر طبيعية، من دون أن يحاول تأليفها (هو، أصلًا، لم يكن يستطيع التأليف) أو حتى يبسّطها لتتناسب وسنّ المستمعة إليه. لقد بدا كأن ميزيل يبني لتوسا العالم من جديد- وكان هذا العالم المصوغ بوضوح، وعدالة، وبهجة، والذي تفوح منه رائحة قشر الشجر الطازج، والصمغ الذي لم يجف، يعجبه هو شخصيًا.

كـان ميزيـل حـين يتعـب مـن التحـدث والتـذكر، يجلـس علـى الأرض، محاطًـا بالمجلدات والكتب الطبية والمجلات الشهرية- هو، من حيـث المبـدأ، لـم يكـن يقـرأ شيئًا غير ذلك. أما توسا فتجلس قبالته وتنظر بفضـول إليـه وهـو يمرر إصبعه الملطخة باليود فوق السطور. وكان ميزيل، المندمج بالقراءة، يشير بظفـره إلـى الأمـاكن الهامـة في النص ثم يثني الصفحة، ويتحاور ذهنيًا مع الكتّاب، ويتخاصـم، ويفكـر خالطًـا الألمانيـة بالروسية واللاتينية، ثم يمسك فجأة بمجلـة "أوتيشيسـتفني زابيسـكي:- مهـلًا، اسـمعي فقـط مـاذا يكتـب!- ويقـرأ لتوسـا الجميلـة، بنـت السـتين، ذات العينـين المسـتديرتين "رسـائل مـن القريـة" للكاتـب إينغلغـارد التـي كـان الجميـع يتحـدث عنهـا آنـذاك. كـانوا ينتظرون كل عدد من المجلة كأنهم ينتظرون كلام الرب. ميزيل لم يكن يطيق إينغلغارد، لـم يكـن يكرهـه شخصـيًا، طبعًـا،- بـل يكـره إيمانـه بـالفلاحين، وبقـدرتهم علـى العمـل المشترك. تصوري فقط- العمل المشترك! أتعجب ما الذي يعرفه عن الفلاحين، مجرد معلومات مكتبية! إنهم وحوش، كائنات بدائية! يستطيعون في حالـة السـكر سـلخ جلـد ثور حي، وتعليقه على أسياخ الشواء- هذا هو كل عملهم المشترك، ولا شيء غيره.

كانت توسا تسمعه باهتمام وحيوية، ولا تقاطعه، الأمر الذي لم يحظ به ميزيل من أحد أبدًا طول حياته. كانت تنظر إليه بعينين صافيتين، ذكيتين، وأحيانًا تمدّ يدها لتمسك بصورة أعجبتها (كانت تحب بشكل خاص مجلة "نيفا" الموجودة مصـادفة في المكتبة الصغيرة في غرفة نوم ميزيل)، وكانت تعبس أحيانًا، ويتذمّر ميزيـل، لكنـه يوافق من باب اللياقة على أنه أخطأ، وأن خصمه في النقاش ليس غبيًا حين يؤكـد أن الطبيب يمكن أن يخلط عند الجراحة بين تضخم القلب والأنيفريزما.

أذكـر يـا سـيدتي اللطيفـة نتاليـا فلاديميرونـا، أننـي واجهـت في حيـاتي العمليـة حالـة... لا- لا، تخيلـي أننـا نجلـس إلـى المائـدة، ونضـع علـى أحضـاننا مناديـل (السفرة) حتمًا، فالإنسـان المتمدن يجب أن يكون أنيقًا في كل شيء.- يلقمها ميزيل ملعقة ممتلئة بالحبوب المسلوقة بالحليب، ويمسـح بطـرف يده حـواف فمها التي تلطخت، من دون أن يلاحظ أنه هو نفسه، يفتح فمه، ويشاركها المضغ.- أنـا، إذن،

واجهت في حياتي العملية حادثًا يكشف بشكل رائع طبيعة الغباء البشري...

توسا بعد أن تبتلع الحبوب المسلوقة، تحني رأسها بجدية تامة- تريد المزيد من الحبوب، ومتابعة الحديث الذي مازال يثير اهتمامها- ميزيل لم يكن يشك في ذلك. إنه لم يلتق في حياته جليسًا أفضل منها، لم يعرف جليسًا أفضل، وصديقًا أفضل من توسا، بل لم يكن لديه، قبل توسا، من يتحدث إليه عمومًا.

في المساء كان الاثنان يتعبان من الأحاديث، والنزهات اليومية الطويلة، ومن التمارين الرياضية- كان ميزيل، المؤيد لنظرية لوك، يقدر النمو الجسدي عاليًا، كتقديره للنمو العقلي،- ومن حركات الهواء والضوء القوية التي لا تهدأ، لذلك كانت توسا تقف في الطست متهالكة، يغالبها النعاس، بينما يغسل ميزيل ساقيها بماء البئر الصقيعي- كانت هذه العملية مستمرة في كل أيام السنة، فلا شيء يبني الجسد ويجعله قادرًا على التحمل، إلا الاعتياد على تحمّل البرد.

لوك، لوك مرة ثانية.

كان الماء يندلق من الإبريق جدولًا رفيعًا، يصدر صوتًا، كأنه يغني، وكانت توسا تترنح قليلًا مسندة خدها إلى زر سترة ميزيل. كانت تتمايل باطمئنان كقط صغير. أما الأميرة الأم التي تأتي لتتمنى لابنتها ليلة سعيدة، فكانت تقف في الباب تعذبها الغيرة والسعادة. تزم توسا عينيها متحاشية لهب الشمعة، وتتثاءب، مظهرة سقف حلق وردي محزز، شبيه جدًا أيضًا بسقف حلق القطة. يحملها ميزيل على يديه وينقلها إلى السرير. يصبر قدر الإمكان على بورياتينسكايا وهي تتمتم إما بأدعية، وإما بصلوات، ثم يسعل سعالًا يوحي بالسلطة- هيا- هيا، أسرعي! فتغادر الأميرة الأم طائعة، بعد أن تصلح وضع اللحاف الموسلين الذي يغطي الطفلة. ميزيل لا ينتظر حتى تغادر وتغلق الباب خلفها، بل يصلح الغطاء مرة ثانية يراوده شعور بالغيرة- ويعيده إلى وضعه السابق.

جلس على كرسي ثقيل يصدر صريرًا. لقد باتت ركبتاه تؤلمانه في المساء، وصار خيط الألم يمتد حتى حوضه. النساء المحليات يقلن- جسمي كله يؤلمني. وهذا قول دقيق جدًا. أدار ميزيل المصباح، وفتح المجلة الرافدة مغلقة منذ البارحة،

فأرسلت خشخشة. كان يقرأ لتوسا الصماء مقالات من الكتب القديمة، بدلًا من أغاني المهد، ومقالات كانت المجلة قد أخذتها من كتيبات طبية- عسكرية نشرت في عام 1857. "قرحات السفلس باتت أقل حدوثًا أو أنها صارت أقل إثارة للقلق مما كانت عليه في السابق،- تمتم برتابة،- ومن المحتمل، نتيجة ذلك، أن يوقف استخدام اليود في علاج، حالات الصرع"...- أما توسا فكانت تدير ظهرها وتغمض جفونها الثقيلة، من دون أن تسمع وصفة لقرحات السرطان.

كانت تنام جيدًا- بهدوء، واطمئنان، حتى الصباح

إنها طفلة رائعة، صحيحة الجسم، متينة البنية.

نموذج تتمناه كل أم.

اعتاد ميزيل منذ زمن بعيد، على السهاد، كما يعتاد المرء على أية عاهة ثقيلة، كان عادة يقف قرب النافذة، وأحيانًا، يظل هناك حتى الفجر تقريبًا، يتأمل الحديقة السوداء كأنها قطعة ساكنة من المعدن. لقد كانت الحديقة دائمًا اغمق لونًا من السماء، حتى في تلك الأيام التي تخلو فيها السماء من النجوم. غير أنها، حين يخرج المرء حاملًا مصباحًا، تصبح فاتحة اللون فورًا، وتصبح السماء، على العكس، قطعة مخملية- قاتمة، ليست مرسومة رسمًا، بل ملصقة... غريبة عجائب علم البصريات.

كان ميزيل لا يعترف في المزرعة كلها إلا بالحديقة، لكنه لم يكن يحبها. كانت الحديقة ضرورية لتوسا- لنموها، وألعابها. وكانت الحديقة تمنحها الفيء، والبرودة المنعشة، والتفاح اللازم لفطيرة توسا المحببة، والخوخ الذي يساعدها في هضم الطعام هضمًا مثاليًا. كانت الحديقة تمكنها في الشتاء من التزلج على تلة أعدت لهذا الغرض، وتتركها في الربيع في قبضة الطيور المرحة الصاخبة. لكن حين كان ميزيل يدخل إلى غرفة الأطفال مع توسا، كان يرى نفسه في مرآة جدارية ضخمة، منبوش الشعر، سيء الهندام، مذهولًا، فيكره الحديقة، لأن الحديقة كانت تضحك، أما توسا- فلا. هي لم تكن تضحك أبدًا بحضور ميزيل، كأنها كانت تفهم أنه يعاني، ولا تريد إخافته.

هي حتى لم تكن تبتسم إلا نادرًا.

ترى كم سيعيش معها في غرفة أطفال واحدة، ينعم بطفولة سعيدة طالت. عامًا آخر؟ عامين؟ ما المدة التي تسمح بها حدود اللياقة؟ وماذا بعد؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ماذا ستكون عليه حال الغرفة الصغيرة البيضاء، الخرساء، الأبعد في المزرعة؟ هل ستكون ديرًا متساهلًا، مستعدًا لإيواء مستمعته الخرساء، النبيلة الأصل، لقاء أجر سخي. إنها، حين يموت، ستصبح وحيدة، وحيدة تمامًا، لا تستطيع أن تشكو لأحد، إذا أساؤوا إليها، أو أهانوها، أو ضربوها.

إنها بلا لسان، وبلا دراسة، وعاجزة، ومشوهة.

أطلق ميزيل زفرة من شدة الألم الحاد الذي انتابه، وهزّ رأسه بلا تحديد، كما يهز المرء إصبعًا أصيب بصدمة مصادفة. هو لم يكن قادرًا على السماح بحدوث هذا الأمر، لم يكن يملك الحق بذلك. إنه، على كل حال، لا يملك الحق حتى بالموت الآن. ما من أحد كان يستطيع السماح برفاهية من هذا النوع- لا الأميرة الأم، ولا الأمير نفسه. أما هو شخصيًا- غريغوري إيفانوفيتش ميزيل، الرجل غير الموهوب، وغير المتعلم، والمحتال التافه، فمهتم بهذه القضية اهتمامًا خاصًا، إنه، كما بات واضحًا، لا يحب الناس أبدًا، هو على العموم، لا يحب أحدًا. وكل ما كان يفعله كان يخدع به نفسه، متصورًا أنه يقوم بعمل عظيم. ما جدوى أن يكون أنقذ مئات، بل آلاف الأطفال من براثن العالم الآخر؟ إنه مستعد الآن لأن يخنقهم جميعًا بيديه- جميعهم واحدًا بعد واحد، من دون أن يشفق على أي منهم.

المهم أن تتكلم توسا.

لكن توسا ظلت صامتة.

حين بلغت توسا الخامسة كان ميزيل قد استنفذ كل الوسائل، بما في ذلك أبسطها وأكثرها بدائية، حتى أنه سافر مسافة تزيد على أربعين فرسخًا للقاء طبيبة أعشاب، وهي عجوز فضولية، شبه نائمة،- كان يرتجف سرًا من الإحساس بالإذلال وهو يلقّم توسا ملعقة من الشراب المقرف الذي أعدته العجوز، وكان أكثر ما يخجله هو أنه يؤمن بأن هذا يمكن أن يساعد، رغم أن رائحته ومذاقه يدلّان على أنه مجرّد مغلي أوراق عشبة

Matricaria chamomilla، هي نوع من الأقحوان المستخدم في الصيدلية، اقتطفت العجوز أزهاره النامية قرب كوخها. هو، طبعًا، جرّب هذا الشراب قبل أن يسقيه لتوسا، شرب كأسًا كاملة منه جرعة واحدة- من دون أن يتوقع أن يصاب حتى بإسهال.

ميزيل لم تدفعه لهفته إلى حد اللجوء إلى الشيوخ، والإيقونات التي تصنع العجائب، وذلك فقط، لأنه كان يفضل طول حياته أن يناجي الرب شخصيًا، في كل مساء- يقدم له تقريرًا موجزًا يعرض فيه جوهر الموضوع من دون أن يحاول تسويغ ما فعله، أو يبرئ نفسه، أو يتوسل. لكنه كان يطالب، مقابل ذلك، بتلقي التوجيهات النزيهة والواضحة التي اعتاد هو نفسه أن يقدمها للآخرين، يطالب بالاحترام في نهاية المطاف. وماذا كانت النتيجة؟ لقد ظل الرب صامتًا، وبدا أن توسا تتنفس بعناد وصعوبة. عندئذ كفّ ميزيل عن مناجاة ربه.

إنه، ببساطة، كفّ عن مناجاة ربه في الأماسي.

إلى أن أعاده ربه إلى صوابه في 16 تموز عام 1875 وأظهر له وجهه الضاحك الرحيم.

فعل ذلك لثانية فقط.

غير أن ميزيل فهم. هو، طبعًا لم يفهم على الفور. لكنه فهم.

أدرك الحقيقية.

كانا في الصباح يلعبان في الحديقة- بالحصى، بالغميضة. كان ميزيل يوقظ توسا في الساعة السابعة- وكان الخدم يستيقظون قبلهما. كان من يستيقظ قبل الأطفال ينجز عمل كل ما يجب عمله، فليس هناك أصعب على الإنسان من البطالة والكآبة. وفي الساعة العاشرة، كانت بورياتينسكايا التي استيقظت لتوها، تخرج إلى الحديقة مهسهسة بذيل ثوبها المغسول حديثًا- تستفسر عن موعد فطور الصباح. وكانت توسا تهرع، فتدس أنفها في كف أمها، ثم تسرع إلى حيث الشجيرات المثمرة، أما ميزيل فيقول: (رحماك يا أميرة! عن أي فطور تسألين؟ لقد حان وقت الغداء، وأنت تسألين عن قهوة الصباح)

ثم ينهمك بعد ذلك في تحضير بركة الاستحمام التي لم تكن تريدها ناديجدا ألكسندروفنا فحسب، بل كانت ضرورة لا بد منها بالنسبة إليها. هاهو ذا العام الثاني الذي يدور فيه الحديث حول هذا الأمر، من دون أن يقوم أحد بأي عمل. الحوض ضحل، مريهم يا سيدتي أن يضعوا جسورًا صغيرة، ويجيئوا برمل نظيف، أو يستخدموا الرمل القديم. يجب أن تتعلم توسا السباحة. أتعرفين ماذا كان الإغريق القدماء يقولون عن الناس الجهلاء؟

ويكاد ميزيل يجيب عن سؤاله بقوله: إنهم لا يجيدون القراءة والسباحة.

لكنه يصمت في الوقت االمناسب.

يا له من غبي!

حسنًا، ماذا كانوا يقولون؟

فتلت بورياتينسكايا نحو الضوء غصنًا من الخوخ الناضج، فأطلّت عبره أشعة الشمس حمراء مرحة، مضيئة وجه الأميرة الشاحب. أما الأميرة فزمت عينيها كمن يعاني من قصر النظر وراحت تبحث عن ابنتها.

من؟

اليونانيون القدماء.

اليونانيون القدماء عاشوا في الماضي يا ناديجدا ألكسندروفنا. فما فائدة ما كانوا يقولونه؟ أما بركة الاستحمام فضرورية اليوم، الآن. وفي الشتاء أيضًا. يجب أن ينبني جسم الطفلة كما يجب. لذلك لا بد لمواجهة زمن البرد، ببناء ملحق وحوض سباحة كامل. سأرسل لك القياسات الضرورية. أستطيع أن أجد بنائين أيضًا إذا أمرت بذلك، فأنت، اعذريني لصراحتي، ملأت المنزل بأناس عاطلي الأيدي، ليس فيهم من يستطيع تثبيت رف في مكانه.

أنهى ميزيل عمله، واستدار بحركة لا تنم على الاحترام ومضى مسرعًا إلى الشجيرات المثمرة، حيث كانت تتقافز لتوها ذرى الأغصان الخشنة الأوراق- ثم توقفت فجأة كما لو أنها عثرت على شيء ما، أو أنها تقصفت.

لا، إنها، والحمد لله، لم تتقصف- هي ما تزال سليمة.

قفزت توسا للقائه، أمسكت يده، لكنها أفلتتها في الحال من بين أصابعها الساخنة، وهرعت إلى شجرة تريه جذعها، وهي تتلفت بفضول. خصلات الشعر الأسود مبعثرة، وقد التصق بعضها على جبينها الصغير المستدير الشكل. يبدو أنها فقدت في حوض الأزهار إحدى الشرائط التي كانت تضم شعرها. وهي الآن تفقد الثانية التي بدأت تنزلق عن رأسها.

أشارت توسا مرة ثانية إلى جذع الشجرة مطالبة ميزيل أن ينظر إليه بجدية.

اقترب ميزيل، وانحنى يتأمل نقطة كثيفة، نصف شفافة، ذات لون بني غامق.

أها، هذا ما وجدته إذن. إنه صمغ، صمغ الخوخ. إنه كامد اللون من حيث المبدأ. قولي- كامد.

توسا ظلت صامتة، لا تحيد ببصرها عن النقطة التي أشارت إليها.

إنها، على كل حال، تنظر بشكل غير عادي. كأنها عمياء. وهذا لأن عينيها فاتحتا اللون جدًا، تشبهان عيني أمها، إنهما ليس حتى زرقاوين. هما، ببساطة شاحبتان، عيناها غريبتان،- لكنها، والحمد لله، ترى جيدًا، يكفيها عيبًا أنها لا تتكلم. رموش عينيها سوداء، كثيفة، وشعرها كذلك أسود وكثيف أيضًا، إنه شعر أنثى، لا يشبه شعر الأطفال. لقد حاولت الأميرة الأم وتانيوشكا أن تضما هذه الخصلات الأنثوية المرنة، وتسرحاها بشكل يتناسب وسن توسا، ووضعها. كان يجب أن ينسدل شعر توسا على كتفيها. لكن الأميرة الصغيرة كانت ترفض ذلك بشكل قاطع، وتحاربه بشجاعة أسد. وأخيرًا ملّ ميزيل من سماع العويل الغاضب في الصباحات، فتعلّم هو نفسه أن يضفر شعر توسا كيفما اتفق، ويضمه بشريطين. كان يستطيع أن يفعل ذلك، فقد سمحت له بفعله.

إنها، عمومًا، تشبهه. جدًا. هذا مدهش. هي قوية البنية، سمراء زلقة كالزئبق، تضج بالحياة، كأنها ابنته.

من فضلك يا نتاليا فلاديميروفنا كوني رفيقتي. أنا أقترح عليك أن نقوم بنزهة طويلة- توسا تحني رأسها بالإيجاب.- ضعي، إذن، هذا على رأسك.- توسا تحني

رأسها بالإيجاب مرة ثانية، عندئذ يضع ميزيل منديلًا أبيض على رأسها، ويعقده عند أسفل عنقها على الطريقة الفلاحية. لقد كان ميزيل يعرف جيدًا ما الذي يمكن أن تفعله الشمس هنا، كان يعرف ذلك جيدًا.

عند حلول منتصف النهار كانا قد قطعا نحو ثلاثة فراسخ بعيدًا في الحقول، في الدرب المعتاد حول القرية. كانت توسا تركض إلى الأمام مسرعة تارة، مثيرة الغبار بكعبيها العاريين الصلبين، وتارة تلقي بنفسها وسط سنابل القمح كي تجد بينها ما تتسلى به- سنبلة مشوهة عارية، أو قطعة ما قذفتها الريح بين السنابل تصدر صوتًا، أو بزّاقة متوترة خائفة. في حوالي الساعة الواحدة كان ميزيل يرغمها على انتعال الحذاء الصغير الذي خيط خصيصًا من أجلها، من الجلد والنعل اللين الخفيف- على طراز الخفافات الهندية. إنه، هو شخصيًا، أحضر لأفضل حذّاء في بوبروف صورة ذلك الحذاء المرسومة في لوحة كوبر، وتأكد من أن هذا الغبي فهم ما يطلبه منه. وقد فهم الغبي، وحاك حذاء ممتازًا يستطيع المرء بمثله أن يمشي عشرة فراسخ. كانت توسا تتذمر كالعادة، رافضة انتعال الحذاء، لكن ميزيل كان يعرف كيف يجعلها تفعل ما يريد. تنتعل توسا الحذاء غير راضية ثم تركض مجددًا بين سنابل القمح. لا بد أنها كانت تحلم بمصادقة قنفذ. كانت تحب القنافذ. أحدها كان يعيش بالقرب من بيت السيد، لكنه لم يكن يدعها تمسكه بيدها، يهرب منها، مع أنه كان يلعق الحليب بامتياز من الإناء الذي تقدمه له.

فلتركض، ستجوع كما يجب. وستأكل بشهية، كما يأكل القنفذ.

مدّ ميزيل تحت شجرة سنديان كبيرة منديلًا، ووضع عليه الخبز، والفطائر، وصحونًا، في أحدها قطع من الخيار المخلل، وفي آخر مرتديلا باردة من لحم العجل، وقشّر بيضتين، ثم قشّر ثالثة، وراح يقسّم صفار البيض مبتهجًا. لقد كان عليه أن يجلب شراب (الكفاس). لكنه نسي. يا له من غبي. لا بأس. قريبًا ستكون البئر جاهزة، وسيشربان منها. قسم ميزيل قطعة من الفطيرة وشمّها متفحصًا، وفجأة قرقع بطنه الخاوي، فشعر بالخجل. شمّ الفطيرة مرة ثانية- كانت تفوح منها رائحة

الملفوف، والفلفل، والبصل الأخضر، وذلك في قلب الصيف، وفجأة فكّر كم سيكون فظيعًا ألّا يجد طفلك ما يأكله، ليس الآن، ليس في هذه الدقيقة، بل ليس في هذا اليوم أو غدًا، وإنما دائمًا، وألّا تجد مكانًا تجلب له منه الطّعام غير جسدك.

الفلاحون جميعًا كانوا يجوعون في شهر شباط، فيرسلون النساء والاولاد ليشحذوا قطع الخبز"، يطوفون على البيوت ويشحذون، لكن في صمت. كانوا يدخلون إلى البيوت متدثرين بأسمالهم، يرسمون على صدورهم شارات الصليب ويتنهدون، ينتظرون الحصول على قطعة خبز بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت صاحبة البيت تحضّر قطع الخبز الصغيرة سلفًا، إذا كان لديها ما تحضره، وتترك لأهل بيتها شيئًا، لأنها كانت تعرف أنها، هي نفسها، قد تطوف غدًا على البيوت للحصول على قطعة خبزها. إينغلغاردت الشيطاني كتب عن هذا أيضًا. غير أنّه لم يسجل كم عدد الأطفال الذين يموتون في الربيع بسبب الجوع، لأن إشباع أطفال البلدة يحتاج الطواف على مئة منزل، والبلدة لم تكن تضم مئة منزل، بل نحو ثلاثين منزلًا، وفي كل منها هناك أطفال متورمون من الجوع. أنا لن أشحذ قطع الخبز، لا، سألجأ فورًا إلى النهب والقتل، أو أي شيء آخر. المهم هو ألّا تكون توسا جائعة أبدًا. أنا، بالتأكيد، لن أسمح بذلك.

ميزيل صحح وضع المنديل مهدئًا وضع يديه الراعشتين. هو أيضًا حضّر الخبز للجياع، ليس قطعًا صغيرة بل كبيرة، لكن الذين يأخذون خبزه كانوا قلة. لعلهم كانوا يخجلون منه، أو (يقرفون). هو لا يعرف السبب. لقد كانوا لا يلجؤون إليه تقريبًا. غير أنهم كانوا يجرّون بعضهم بعضًا نحو بيت السادة. هو يذكر كيف صرخ في وجه طباخ آل بورياتينسكي، الذي طرد من دون تفكير طالبي الخبز من المطبخ. لم تكن توسا قد أتمت السنة الأولى من عمرها آنذاك. لقد كاد الطباخ الفرنسي المسكين أن يموت من الخوف، وأراد أن يترك الخدمة في المنزل. لكنه الآن صار يموّن الخبز مسبقًا بشكل جيد، يحمّصه منذ الخريف في الفرن، يحمّره، ويضعه بنفسه في أكياس صغيرة من الخام. ولا يعطي هذا الخبز المحمص الطيب إلا للأطفال. Tiens prends ca, mon

pauvre petit[1]. لقد كان رقيق القلب، ومن المؤسف أنه كان فرنسيًا.

شعر ميزيل بحكة شديدة، وبلفحة حية من الحرارة فوق أذنه، فانتفض وكاد يقع أرضًا كجندي أصيب بطلقة نار. لكن تبين أن ذلك عربة تجرها ثلاثة خيول تلتمع أجسادها بالعرق ظهرت من مكان ما، وقد علّق في مقدمتها جرس كان صامتًا أيضًا. وثمة بياع فتيّ، أحول العينين، أحمر الشعر، يتشبث بمقعد القيادة ويصرخ طالبًا شيئًا ما عبر عمود كثيف من الغبار المتصاعد.

ماذا؟ أنا لا أسمعك.

أين هنا، يا طيب، المنعطف المؤدي إلى خرينوف؟

بعد ثلاثة فراسخ- أجاب ميزيل بشكل آلي- إلى اليمين، بعد الشجرة المحترقة مباشرة. لكنك لن تجد هناك خرينوف، بل خرينوفسك.

بحث بعينيه عن توسا التي اختفت حتى رأسها بين سنابل القمح المشوربة. أين تراها اختفت؟ لقد حان وقت الطعام منذ زمن.

خرينوف، خرينوفسك، لا فرق،- قال البياع بلهجة مسالمة،- ما يهمني هو أن أجد الطريق، فقد اجتزت عشرة فراسخ، أطوف هنا وهنالك بحثًا عنه. لقد أنهكني البحث، والخيول عطشى.

يبدو أن البياع قال شيئًا آخر يشبه خشخشة حبات الحمّص في خشخاشة، غير أن ميزيل لم يسمعه، لأن سنابل القمح اهتزت وعلا صوت ضحك توسا المختفية بينها.

يا إلهي.

لقد ضحكت!

شرع ميزيل يفتح فمه الذي جف فجأة، كي يناديها، لكن توسا ظهرت فجأة من تلقاء نفسها، وهي تضم في قبضتها حفنة من السنابل الجافة ككل النباتات التي من حولها، وراحت تنظر من تحت حافة منديلها إلى البياع بعينين مرحتين شفافتين، ثم ضحكت مرة ثانية- ضحكة رنانة، قصيرة، واضحة.

---

(1) خذ هذه القطعة أيها الفتى البائس (بالفرنسيّة)

إنها تضحك كما يضحك الناس تمامًا.

حملها ميزيل بيديه، وضمها إلى صدره راعشًا وهو ما يزال غير مصدق ما يحدث. لقد ضحكت.

لديك بنت جميلة، يا طيّب،- قال البياع يحسده من كل قلبه. وهي تشبهك- ملامح وجهيكما واحدة.

تابع البياع كلامه عن زوجته التي كانت في كل عام تضع مولودًا ذكرًا، وأي رعاية يجد المرء حين يكبر في السن من الأولاد الذكور! يجب، إذن، أن أنعطف إلى اليمين بعد ثلاثة فراسخ. أما أنا، ذو الرأس الغبي، فكنت في كل مرة أنعطف إلى اليسار،- أنهى كلامه وغادرهما في طريقه إلى "خرينوفسك" تحوّل في البداية إلى ما يشبه البقة، ثم إلى نقطة عند التقاء خطين من سنابل القمح الصفراء، المهسهسة المتمايلة، أما الغبار الذي أثارته العربة حتى السماء، فهمد وتوضّع على جانبي الطريق مترجرجًا، لماعًا، بينما ظلّ ميزيل يقف جامدًا كعمود، مبتسمًا يضغط إلى صدره توسا، ولم يعرف أنها تبكي، إلا حين أسندت رأسها إلى كتفه.

لقد ضحكت.

* * *

هو حتى لم يطعمها، أهمل وجبة منتصف النهار تحت الشجرة. ترك المنديل، والمأكولات، وكل ذلك. ولم يتركها تنزل من بين يديه- حملها وعاد بها إلى المزرعة، كما حمل ذات يوم أمها، وحملها، هي توسا أيضًا التي كانت في رحم تلك الأم، وكانت حية تضج بالحياة. استاءت توسا في البداية، وراحت ترفسه برجليها السمينتين الصغيرتين، وتضربه على كتفيه ورأسه وهي تصرخ باكية، ثم، ببساطة، نامت- من التعب والزعل، أما ميزيل فكان يمشي مسرعًا كأنه يعدو، كي يروي للأميرة وللجميع كل ما حدث، وكان أكثر ما يخافه هو أن يموت في الطريق بسبب الحر- فلا يعرف أحد المعجزة التي حصلت.

سمعه الرب، ورحمه. أما الطبيعة فأخذت حقها- ليس مهمًا كيف حدث ذلك، وما هو ذلك الحق. المهم أن توسا ضحكت، هي، إذن، ستتكلم الآن. إنها ستتكلم حتمًا.

استيقظت توسا من نومها حين صارا قرب البيت. حاولت مرة جديدة أن تفلت من يديه، فتركها ميزيل أخيرًا. وضعها على الدرب، وأصلح وضع منديلها الذي انزاح، ثم مسح بأصابعه الخطوط المتسخة التي ارتسمت على خديها، ولمس بشفتيه للحظة أعلى رأسها الذي دفأه المنديل.

كانت تفوح من رأسها رائحة الشمس، وأعشاش الطيور، والشعر. إنها طفله الحبيب الوحيد في العالم.

أمسك بيد توسا وقادها إلى المنزل مارًا بالقرب من الاصطبل، فلفحتها من باب الاصطبل رائحة لذيذة رطبة دافئة: رائحة الروث الطريّ، والقش، المبلل بالبول ذي الرائحة اللاذعة، الذي دفأته أوراق الأشجار الذابلة في خلال النهار. كان ذباب الصيف نصف الغبي يئز بصوت غليظ، والسائس أندريه الأجعد الشعر بصدر أصواتًا كئيبة، رتيبة من آلة غير مرئية، وينشد:

لقد بدأ البحر الأزرق يزهر، أوي، نعم، بدأ البحر الأزرق يزهر بزهور حمراء قانية...

صهل أحد الخيول- لا بد أنه فعل ذلك بسبب الألم- رفس الأرض بقدمه، فتأوه أندريه، وظل صامتًا، لكنه قال بعد ذلك بصوت غير واضح، من بين أسنانه المطبقة- آه منك أيتها القحبة الفاجرة!- ولم يكتف بهذه الشتيمة، بل أتبعها بشتائم أخرى أكثر تعقيدًا. عبس ميزيل، لكن توسا توقفت، سحبت يدها من يده- وضحكت من جديد.

في هذه اللحظة فقط، صارت كل مراكز الدماغ في رأس ميزيل تعمل بشكل منسجم.

لقد خصصوا في الصباح زاوية لتوسا في الاصطبل- مدوا فيها بساطًا، وأحاطوه بقش طازج. ميزيل تحدث شخصيًا إلى العاملين في الاصطبل، أمرهم أن يقوموا

بعملهم كالعادة، كما يفعلون دائمًا، فالأميرة الصغيرة بحاجة لأن تشتنشق رائحة الروث الطازج، هذا مفيد لرئتيها. ما بالكم تمسكون بقبعاتكم! لقد قلت: افعلوا كل شيء كما تفعلونه دائمًا- كما تفعلونه دائمًا، عليكم فقط ألّا تدعوها تقترب من الخيول. إذا داستها سأشنقكم بيديّ هاتين.

أخذ توسا إلى الاصطبل. أجلسها على البساط، ونثر عليه حفنة من الألعاب الخشبية الصغيرة، وتأكد من أن القش خالٍ من الشوك. تلفتت توسا حولها بفضول، والتمعت عيناها بوحشية، في الجو الفوّاح نصف المظلم. قبّل ميزيل جبينها ثم خرج وجلس عند باب الاصطبل مسندًا ظهره إلى الحائط، وراح يدخن على مهل متلذذًا.

ساد في الاصطبل هدوء أصم غير عادي. حتى الخيول خافت أن تتحرك. وتوسا التي أصابها الملل، أغفت بسرعة، فحملها ميزيل الذي راح يلوم نفسه لأنه أخطأ مرة أخرى، ثم يهدئها زاعمًا أنه لم يخطئ- لا، لم يخطئ. حدوث أمر مرة واحدة لا يعتمد عليه في الإحصاء، ولا في التجربة. يجب أن نكرر ذلك، هل تسمعين؟ يجب أن نكرره، ونكرره. وهذا ما لم نفعله حتى الآن.

اعتادت الخيول وجود توسا في اليوم الثالث، واعتاد عليه العاملون في الاصطبل في اليوم الرابع. وعاد أندريه ينشد أغنيته عن البحر الأزرق وزهوره الحمراء، ثم انهال بالشتائم على فرس لم تطعه، وهو يمرّ بالقرب من سرب عصافير طار إلى المكان كي يلتقط ما يأكله من الروث.

امتلأ الاصطبل بالضجة الكثيفة النشطة المعتادة.

نسي الجميع توسا، وما عادوا يلاحظونها.

الكلمة الأولى التي نطقتها الأميرة الصغيرة نتاليا فلاديميروفنا بورياتنسكايا في حياتها كانت كلمة "تحرّر!"

الفصل الثالث



الابنة

كانت توسا حتى سن الست سنوات تؤمن بأن أباها أمير إقطاعي. هي لم تكن تعرف ما معنى ذلك، لكنها كانت تؤمن به. هو كان، طبعًا، أبًا- لا يعني شيئًا تقريبًا بالنسبة إليها. صورته، اللوحة المعلقة على الجدار في الصالون، وصورته الصغيرة المؤطرة على طاولة زينة ماما، تتنافسان وتتسابقان في إبراز عدم التشابه وتربكان المشاهد. شارباه مختلفان في الطول، وسالفاه مختلفان في اللون. الشيء الوحيد المتطابق هو الزي الرسمي في الصورتين. وثمة أيضًا رزمة من الرسائل- جمعت كلها في علبة ليست كبيرة جدًا. لم تكن الرسائل مربوطة بشيء أو معطرة بأي عطر. إنها رسائل عمل.

كانت الأم تتفحصها بسرعة بعد الغداء، تمر عليها مرورًا سريعًا، وهي تمسك بيدها ورقة عليها كتابة بحروف كبيرة. كل أمور سعادته بخير والحمد لله. تحني تانيوشكا. التي جاءت بالورقة على طبق من الفضة، رأسها بارتياح- الآخرون جميعًا كانوا يظهرون لا مبالاة واضحة بمصير الأمير. ميزيل ينهي طبق الغداء الساخن، وتوسا تنظر عبر النافذة، أو تصنع أشكالًا كروية من لبّ الخبز الطري- لا يجوز أن تترك للطفل الذي في مثل سنها، ومكانتها، حرية التصرف. المربية التي تجهد نفسها حتى اليأس كي ترغمها على التزام أبسط حدود اللياقة، صارت تفضل أن تتناول طعامها في غرفتها،- وسرعان ما طلبت إعفاءها من العمل.

حلّت في مكانها مودموزيل مجهولة الاسم، جديدة، لكنها لم تبق طويلًا. الذي ربى توسا هو ميزيل، بحسب تصوراته عما يجب أن يكون عليه سلوك الأميرة

الصغيرة. وقد قويت سلطته مئة ضعف بعد أن تكلمت توسا. صار عمليًا صاحب القرار في كل ما يحدث في البيت. لقد صار هذا الرجل القصير القامة، المتين البنية، الذي يتحرك من دون ضجة، موجودًا في الوقت نفسه، في كل الأماكن، وأصبح عمليًا، مدير المزرعة.

كان باستطاعته، على الأرجح، أن يصبح صاحب المزرعة، لو أراد، لكنه لم يكن يريد ذلك.

الأمير غادر "آنّا" قبل أن تبلغ توسا الثالثة من العمر. هرب هربًا مخجلًا. لقد هرب ببساطة، في البداية إلى بيتربورغ للالتحاق بالوظيفة، التي لم تساعده في شيء، كما لم يساعده القيصر ألكسندر الثاني رفيقه منذ الطفولة- أكثر رفاقه وأصدقائه إخلاصًا. ساشكا وفولودكا- كبرا معًا، وعوقبا بالضرب أكثر من مرة بسبب لهوهما غير المنضبط، وطاردا في صباهما الفتيات- تارة بوروزدينا، وتارة دافيدوفا، كانا يتبادلان العشيقات بأخوّة، وعن طيب خاطر، ثم تزوجا في وقت واحد تقريبًا، وكانا سعيدين بزواجهما، لكنهما الآن...

رفّت عينا الأمير بسرعة، واستدار بشكل مربك، كذلك فعل الإمبراطور وهو يربت على كتفه- كفى، كفى يا أخي، ما بالك انهرت كامرأة. هيا بنا إلى فتاتي كاتينكا، إنها خير من سيواسيك. ذهبا إليها، لكن كاتينكا دولغوروكوفا لم تنفعه، رغم أن بورياتينسكي ابتسم لها بإخلاص، وشرب الشاي، وأجلس على ركبتيه الولد السمين، غير الشرعي "غوغو" محاولًا صرف عقله عن التفكير بالإمبراطورة الشرعية وأطفالها الذين هدهدهم على ركبتيه وعلى عنق حذائه، أيضًا في وقت ما.

ترى، هل كان هذا الـ "نيكولا" يحب ذلك؟ أم أن ليزا هي التي كانت تحبه؟ ترى كيف استطاع هذا الشيطان ساشكا أن ينظم حياته بهذه المهارة، بينما ضيّع هو حياته بشكل مخجل؟ ثم، ما هذه الزيارات التي لا تحتمل، ومن ابتكرها؟

على كل حال، لم يجرؤ بورياتينسكي على زيارة الإمبراطورة، لأنه لو فعل، سيضطر إلى تسويغ سلوكه أمام نادينكا التي كانت منذ الطفولة صديقة قريبة لماريا

ألكسندروفنا، فقد كانوا، هم الأربعة أصدقاء ذات يوم- هو مع ساشكا، ونادينكا مع ماشا، كانوا شبابًا جميلين، أثرياء، يحب بعضهم بعضًا. كانوا يلهون ويمرحون. هذا أمر لا يمكن إنكاره. ونشؤوا أطفالًا حقيقيين. لقد بنوا مع ساشكا قصرًا جليديًا متقيدين بكل قوانين العمارة، ثم حاصروه بحسب قواعد الفن العسكري واحتلوه، ثم ضحكوا من ذلك حتى كادوا بما في ذلك ماشا ونادينكا، يسقطون أرضًا. تقاذفوا بكرات الثلج حتى بعد الزواج. إنهم حكام العالم الأغبياء المحظوظين.

الجديد هو أن الشابين لم يعودا مضطرين إلى الدفاع عن سلوكهما أمام ماشا أو نادينكا. إنهما غير ملزمين بالدفاع عن سلوكهما أمام أحد، إذ ليس هناك ما يجب الدفاع عنه، وليس هنا من يطالب بذلك. لم يعد هناك ساشكا، أو فولودكا. لقد كانا لكنهما اختفيا.

... ماذا؟ عفوًا. هل تريد المزيد من الشاي؟ نعم، شكرًا، ولد رائع، لديك ولد رائع يا يكترينا ميخايلوفنا. ما أنشطه في الكلام! إنه ذكي ذكاء مدهشًا.

ارتعش الطبق الصغير ارتعاشًا خفيفًا بين أصابعه. إنه طبق من البورسلان الغالي الثمن، كورنيلوفيّ. كانت ناديا تحب دائمًا هذا النوع. حدّق ألكسندر الثاني فيه بصرامة- هل عدت إلى الشكوى. تمالك نفسك! ابحث لنفسك عن سعادة جديدة! سعادتك القديمة لن تحول دون ذلك. الحياة واحدة يا أخي. وأن نتذكر ونتحسّر، أفضل من أن نتحسّر لعدم وجود ما نتذكره.

حاول بورياتينسكي أن يجاريه بإخلاص، لكنه لم يستطع- انتقل من غادة إلى أخرى، ثم إلى ثالثة، وهو يتذمر بصدق من سماجة كل مغامرة جديدة، متعجبًا من الكلام الغبي الذي كان يقوله أو يسمعه، وذات مرة حين أعلن استسلامه، ووصل الأمر به إلى غرفة زينة امرأة، هرب ذليلًا، لأنه اشتم فجأة، وهو يعبث بيديه من دون حماسة تحت تنورات الثوب التي لا حصر لها، رائحة أقحوان أو ما شابه ذلك- ورأى على الفور بطرف عينه زجاجة الكريستال ذات الغطاء الثقيل، التي يعرفها، والتي كانت ناديا تتعطّر من مثلها دائمًا، لكنه لم يتذكر، هو الغبي، اسمها مع أنها

قالته له– ها أنتذا لا تتذكر شيئًا أبدًا. إنه عطري المفضل،– إنه العطر المفضل حتمًا على عنق هذه المرأة الشابة الطويلة القامة، الذي تحول في لحظة إلى رائحة قميئة لا تطاق تفوح من شعيرات نبتت عليه، فأبعد عنه التنورات كما لو كان يبعد صرصورًا ذا أذنين، وهو لا يحاول إنقاذ سمعته التي فقدها دون أمل في استردادها، بل يحاول فقط ألا يبكي أمام هذه الخاطئة من بنات المجتمع الراقي، ألّا يبكي أمام الجميع، أمام الجميع كلهم.

أدرك، وهو في الشارع يخنقه الصقيع، أنه قفز خارجًا من دون معطف، وأن الهواء من حوله أزرق، بيتربورجي، حقيقي، تفوح منه أيضًا رائحة نادينكا، إنما على شكل نفحات شتوية رسخ اسمها في ذاكرته لسبب ما– parfum defourrur من صنع باليه،– عطر يدغدغ الجلد، له رائحة الكريستال، طازج، رطب كندفة ثلج تطير من تحت حافر حصان. كم كان يحب النزهة في العربة ذات الثلاثة خيول مع نادينكا! لقد انطلقا ذات مرة في عيد الميلاد بسرعة جعلت الحوذيين يختبئون في القبو، فضحك الاثنان ما لم يضحكا في طفولتهما، كان هو يمسك بمقود العربة بإحدى يديه، ويضم بالأخرى نادينكا إلى صدره، وكانت رائحة هذا العطر المخملي المرح على شفتيها وفي أنفاسها، وفي الغمازات على عنقها قرب حنجرتها بالضبط، فدس أنفه كله في أنفاسها وغمازاتها وشعرها الأحمر الدافئ المرح.

هو لم ينجح في علاقاته مع البنات أيضًا، لم ينجح حتى مع أولئك اللواتي كن أفضلهن وأغلاهن، في الحصول على سعادة جديدة.

حمدًا لله أن حربًا نشبت. لقد أرسل الرب، رحمة منه، هذه الحرب الروسية التركية.

لكن الحرب لم تسعفه أيضًا. لا، لم تسعفه.

لم يبق له إلا أن يكتب– كان يفعل ذلك في حالات نادرة كي لا يملّ الكتابة.

طوت ناديجدا ألكسندوفنا الرسالة، ووضعتها إلى جانب المقص الملوّث بالزبدة السائلة. كانت الزبدة البقرية طازجة من إنتاج المزرعة. كل شيء كان من

إنتاج المزرعة، أما ما لم يكن من إنتاج محليّ- فصار ينتج محليًا. بورياتينسكايا نفسها لم تلحظ كيف تحولت تحت ضغط ميزيل الليّن غير الملحوظ تقريبًا، من سيدة مجتمع راق، وقارئة ذات ذوق رفيع، إلى إقطاعية حقيقية، صاحبة مزرعة تحقق دخلًا، تحوّلت في هدوء من حديقة رائعة للتسلية، غالية الثمن، إلى مصدر للرزق. من الطبيعي أن الأميرة كانت تملك من النقود ما لا يستطيع دجاج مزرعتها والمزارع الأخرى التهامه.

في البداية بدت لها المزرعة شيئًا موحشًا غريبًا، فلاحون سيئو الهندام، معوجو اللسان، سود الوجوه، كانت تشفق عليهم بإخلاص، من كل قلبها، يحاولون خداعها في كل خطوة، أو، على الأقل، يراوغون ويحصلون على ما يريدون، أما الأرض فكانت تترك خالية، أو يتم تأجيرها بغباء، على شكل خطوط، ظلت بروياتينسكايا طويلًا لا تعرف أيها للمستأجرين وأيها لها، ولا تعرف إن كان بمقدورها أن تقطف سنبلة من هذا الخط أو ذاك أم أنهم سيقودونها إلى الحاكم المحلي لتعاقب إن فعلت ذلك. كانت الأبقار في المزرعة نحيلة، والمواشي معتلة، وكانوا يضطرون إلى شراء البيض والطيور من القرية، فيحصلون على مشتريات ضحلة، فاسدة، أو نخرها الدود، مع أنك لو دهنت هذه التربة السوداء على قطعة خبز سوداء وأكلتها لشعرت بطعم الدهن الأسمر اللذيذ.

كانت تخفق في فعل أي شيء، وكان الجو يثير القلق، ويوتر الأعصاب.

الحمد لله على أن ميزيل إلى جانبها، يساعدها، يقدم لها النصيحة، ويشير إليها بعينيه متى يجب أن توافق، ومتى يجب أن ترفض. بل إنه كان في بعض الأحيان يتخذ القرار عوضًا عنها- ويكون قراره دائمًا صحيحًا، ليس فقط لأنه عقلاني، بل لأنه أيضًا يحقق ربحًا للمزرعة. وفي الأماسي حين كانت توسا تذهب إلى النوم، كانا يجلسان طويلًا معًا في الصالون- إما إلى جانب سماور صغير تركته ربة البيت السابقة، وإما مع كأسين من الشراب يحصلان عليه من مستودع البيت الذي لا ينضب.

إنهما ما يزالان يشعران بأنهما ضيفان في هذا البيت الذي لما يألفانه تمامًا. لا، هما لم يألفاه بعد.

كانت بورياتينسكايا تمسح بأصابعها الكأس الفضيّ، وتلحسه بشفتيها اللزجتين خلسة- فتشتمّ رائحة الكرز الأسود، والإجاص الناضج، وحرّ الصيف المتثاقل. أما ميزيل فكان يتخذ وضعًا مريحًا على الأرائك، ويشرح لها أو يحدّثها عن بعض الأمور، ويرسم الخطط للمستقبل.

انظري بنفسك يا ناديجدا ألكسندروفنا. إن لديك تحت النوافذ حديقة ضخمة، لكنك لا تحصلين على أي ربح. ترى، هل تعرفين كم صندوق تفاح جنوا منها هذا العام؟ ماذا تعني بكلمة "جنوا"؟ تسأله بورياتينسكايا شاردة الذهن، لقد أثار الشراب لديها الرغبة في النوم، والرغبة في الضحك من دون سبب.

أعني أنهم نقلوا التفاح، وأخذوه. أنا لا أتكلم على الخوخ وغير ذلك مما يصنعون منه المربى. إنهم يسرقون من عندك كل شيء، كما يسرقون السكارى. ومع ذلك يبقى بعد هذا ما يتلفونه، وقد كان من الأجدى أن يطعموه للخنازير. لكن ليس لديك خنازير.

هذا سيء- سيء ألّا يكون عندنا خنازير! نحن ندفع ثلاثة أضعاف الثمن الحقيقي للحم الذي نشتريه. ضحكت بورياتينسكايا أخيرًا وهي تتخيل نفسها مربية خنازير.

أنا لا أريد خنازير، إنها قذرة يا غريغوري إيفانوفيتش.

مريهم أن يحمموها- فتصبح نظيفة. والأمر الأفضل من ذلك هو إقامة مصنع كونسروة خاص بالمزرعة، هناك مكان مناسب لذلك بالقرب من بركة المياه سنصنع كل شيء بأيدينا. المربى والفواكه المجففة، ويمكننا إذا أردنا، أن نبني مصنعًا للخمور...

صمت الاثنان لحظة يصغيان، ليعرفا هل استيقظت توسا!

لا، هي لم تستيقظ، إنه الأمير وقد عاد من نزهته- خطواته سريعة، سريعة جدًا كي توحي بأنه رب البيت، وتعبر عن رجولته.

ينغلق الباب بهدوء في الأعلى.

فيشعر الاثنان- بورياتينسكايا وميزيل- بالارتياح، ويلتقطان أنفاسهما.

حمدا لله على أنه لم يمر بهما، لم يزعجهما.

صححت بورياتينسكايا وضع شعرها بحركة شبابية جميلة، لكن ميزيل تجاهل ذلك، ومن المحتمل أنه لم يلحظ فعلًا، إذ يكفيه، في نهاية المطاف، أنه يحب توسا، وأنهما هما الاثنان، يحبانها، يتوحدان في نقطة واحدة، كأنهما وجهان لجسم هندسي مدهش. لماذا مدهش؟ ثلاثة أضلاع- هو إذن مثلث، رنان، مرح، موسيقي، ما إن تلمسه بالعصا الصغيرة، حتى يرن- دزينك...!

انتفضت بورياتينسكايا خائفة وفتحت عينيها. ما زال رنين الساعة الطويل، الأخير، عالقًا في الهواء. عقربا الساعة مجتمعان معًا، يشيران إلى منتصف الليل، وميزيل لا أثر له- لا بد أنه يجلس الآن عند سرير توسا، أو لعله نام منذ زمن.

لقد حان وقت نومها هي أيضًا!

إلى النوم، النوم، النوم.

أدركت بورياتنسكايا فجأة وعلى الفور- كمن يحاول أن يدرك الألوان الغامضة في لوحة يمتدحها الجميع، ثم اكتشف أخيرًا الزاوية التي يجب أن ينظر منها فرأى بيتًا صغيرًا رائعًا تحت سقف مائل، وطريقًا متعرجة تدور بهضبة مستديرة تغمرها سماء متعددة الألوان. لقد خضعت المزرعة لمنطق يرى أن كل شيء في الحديقة يغذي كل شيء، وأن كل شيء يتعلق بالأشياء الأخرى كلها، لذلك كان كل شيء يسلك دربه الوحيد ويلتزم بهذا المنطق الذي هو طبيعي كالحياة عمومًا- ولادة، فنمو، فتكاثر، ثم اندثار هادئ في الأرض الشبعى، التي تطعم الجميع. لقد أدركت بورياتينسكايا معنى الجهود الجماعية للبشر والطبيعة، وفهمت الجريان المستمر المنسجم للدورة السنوية الكبرى، المكونة من حلقات صغيرة كثيرة، كل منها مهم ولا يمكن تبديله. لقد ساد في الحديقة والحقول وحظيرة الأبقار والاصطبل انسجام لم تجده ناديجدا ألكسندروفنا من قبل، لا في الكتب، ولا في حياتها اليومية.

والأهم، هو أنه بحسب هذا الإيقاع الشامل، الحي، الحيواني، تعيش ابنتها توسا.

إن إكساءهذا العالم الجديد بالتفاصيل لم يكن أبدًا عملًا صعبًا. معرفة الأسعار والمقارنة بينها. إيجاد الناس الضروريين، المريحين، والمخلصين. إطلاق عجلة العمل غير الملحوظة بيسر. المنزل نفسه كان يتطلب منها مثل هذه الجهود، وكانت بورياتينسكايا تنجح دائمًا بشكل رائع في إدارة شؤون البيت. الشيء الوحيد الذي وجدت صعوبة، وما يشبه العذاب في تحقيقه هو العلاقة مع الرجال. لقد كان ميزيل يؤكد أنهم حريصون دائمًا على مصالحهم، ولا يعدّون طيبة القلب إلا نوعًا من الضعف.

إذا تنازلت لهم يا أميرة سيلتهمونك حتى العظم. لا تصدقي أبدًا أيًا منهم. إنهم فلاحون، ومن المفروض أن يكونوا قساة. الأرض تفرض عليهم ذلك. ولكنهم حين يفهمون أن هذا العمل مربح لك، وأن جزءًا من الربح سيبقى لهم، سيبدؤون على الفور باحترامك. وهكذا كان الأمر.

بورياتينسكايا، التي كانت في الماضي قارئة مغرمة بستيوارت ميل، تعلمت أن تساوم بحماسة حتى يبح صوتها، وأن تأمر من دون أن يرف لها جفن، باستبعاد العنيدين غير المهاودين، ورفض أي محاولة لاستجدائها بالركوع عند قدميها. "هذه حركات يمكنك أن تقوم بها في الكنيسة يا صاحبي، فليس من المعتاد عندي غسل الأرض بالمخاط".

هي لم تكن سخية في الإنفاق، لكنها كانت في المواسم تشغّل مئات الأيدي وتعد بأن تبني كنيسة جديدة في "آنّا"- وتفي بوعدها. لم يعد هناك أي حديث عن المدرسة- فنشر التعليم في القرية أمر لا معنى له فعلًا. الأمر الذي يعد له معنى هو غرس الكسل- فالكسل هو الثقافة الوحيدة التي تبيّن أنها مجدية.

في البداية تذمر الفلاحون، لكنهم استسلموا، فالقوة كانت إلى جانب بورياتينسكايا. إنها قوة النقود. لقد كانوا يفهمون هذه اللغة فهمًا جيدًا جدًا. أضف

إلى ذلك أن الأميرة لم تكن تبالغ في فرض الفوائد- كانت تسترد القروض على شكل أعمال تكلّفهم بها، وتدفع بسخاء لقاء العمل النظيف، وتلين دائمًا حين ترى امرأة تحمل طفلًا. وقد لاحظ الرجال المحليون ذلك، فصاروا يرسلون إلى الأميرة، في المطالب الهامة، نساءهم محملات بالأطفال، بل كان بعضهم يستعير الأطفال من جيرانه- وهكذا صار وجود المزرعة والمنطقة المحيطة بها متقاربًا بشكل مثالي. كان الفلاحون يفاخرون في الأسواق بسيدتهم- إنها كريمة إلى أقصى حد، أما سيدكم فجامد، حامض المذاق إلى حد لا يطاق.

هكذ تحولت الأميرة ناديجدا ألكسندروفنا بورياتينسكايا- ابنة آل فون ستيبنوك، في الخمسين من عمرها إلى سيدة إقطاعية حقيقية. هي، طبعًا، لم تتعلم كيف تميّز الزرع من الحصاد، وظلت كما في الماضي، تنام متأخرة، وتستيقظ متأخرة، وتقضي ساعات كثيرة في عطالة لذيذة- تطرّز قطعة قماش أو تعزف على البيانو، ولا تشعر بضرورة الاستعجال إلى أي مكان، لكنها صارت الآن تؤدي أعمالها في حينها، فقد زال التخبط والاضطراب اللذان كانا في وقت ما، يضيّعان أيامًا كاملة من حياتها في بيتربورغ في زيارات وحفلات تافهة.

لقد أسعدها أخيرًا العمل في الزراعة.

"الليبراليزم" و"الهيومانيزم" تركا جانبًا، لكن ظهرت فعلًا، بدلًا منهما، حظيرة خنازير، وصارت بورياتينسكايا شخصيًا تأتي كل يوم بعد الظهر إلى الحظيرة كي تتأمل الخنازير الصغيرة الوردية المتسخة كالأطفال وتحك الثور الهولندي الكبير خلف أذنه، ذلك الثور الفظيع الشكل، ذو الأنف السائل مخاطه، الذي اكتست رقبته بلبدة سوداء نادرة الوبر، والذي يشبه كرة منطاد مبتكر لشحن البضائع أكثر من أن يشبه كائنًا حيًا.

وانطلق معمل الكونسروة الصغير يعمل أيضًا، وكذلك آلة تجفيف الفواكه. هما لم يعملا بكامل طاقتهما بعد، لكن لم يعد أحد يأخذ التفاح إلى المكب. المربى والتفاح المجفف راجا في فورونيج بشكل جيد. أما الأمير فمارس رحلاته

كما كان يفعل من قبل في أكثر الأحيان، فالرجال لا يحبون البقاء في المنزل فترات طويلة.

من الواجب إبلاغ الأمير أن موسم القمح الأحمر سيء في هذا العام.

لكن هل ترين ذلك ضروريًا يا ناديجدا ألكسندروفنا؟ لقد كنا دائمًا نتدبر أمورنا بأنفسنا- وفي هذه المرة، سيعيننا الرب على تدبر أمرنا. سنزرع الفطر. يقولون: إنهم في أوروبا يصدرون منه أحمالًا، فهل نحن أسوأ منهم؟

أحنت بورياتينسكايا رأسها موافقة، ثم استدارت نحو توسا، التي ملّت من الضجر والأكل.

Perete salue, ma cheriex[1]

كان ذلك كذبًا، فالأب لم يكتب عن ابنته أية كلمة، ولم يسأل عنها أبدًا، كان يتصرف كطفل، يعتقد أن الصرصور لن يراه إذا أغمض عينيه.

Etil me- demande de te faire mille baisers[2]

مدت الأميرة ذراعيها عبر الطاولة- تريد أن تداعب وتمسد الشعر والشريطتين، وتقبل الجبين قبلة سريعة بشفتيها الظامئتين، وإذا حالفها الحظ- خدها الدافئ المشدود، لكن توسا اكتفت بهز كتفها غاضبة. هي لم تكن تحب التقبيل، ولم تكن تحب أبدًا التظاهر بالرقة، كما تفعل الفتيات. لم تكن تتصنع في جلستها، أو تمشي بخطوات قصيرة، أو تنظر إلى الآخرين نظرات ذات مغزى. إنها الآن لا تحب ذلك كله- ولا تحب الحلوى أيضًا.

كان ذلك يزعج الأميرة الأم بحق، فالحلوى التي كانت تصنعها ممتازة. في الصيف كانت تقدم الثمار مغطاة بمربى الخوخ، من حسن الحظ أنها تشرف الآن بنفسها على شجيرات الكرز الأسود، وتصنع البوظة من الحليب الذي تنتجه مع العاملات عندها. وفي الشتاء تقدم منقوع الفواكه الذي لا يخلو من لمسة خيال- مرافقًا بفطائر متنوعة تحبها بورياتينسكايا حبًا كبيرًا.

---

(1) أبوك يحييك يا عزيزتي (بالفرنسيّة)

(2) ويأمره أن يقبّله ألف مرّة (بالفرنسيّة)

بعد رحيل زوجها، امتلأ جسدها، وصارت أكثر نضارة، بل بدت أكثر شبابًا- حينها صار يزداد نفور ميزيل جسديًا منها. لكنه حين حبلت بتوسا رآها جميلة ككل حبلى معذبة، حية غير متصنعة، وراح يستمتع صراحة برؤيتها.

luv-as- tu, ma Cherie? Il nest pas convenable de quitter la table sans yavoir ete invite.(1)

لكن توسا غادرت مسرعة، وهي تلتقط بمهارة قطعة خبز عن الطاولة التي التهموا ما عليها.

ما رأيك إذا كانت البنت يا ناديجدا ألكسندروفنا مستعجلة لقضاء حاجة- هل تأمرينها أن تتبول تحت الطاولة! إن من غير اللائق أن تقيد حرية الكائن الحي من دون معنى- فهذا يسبب إصابة العقل بالعبودية.

ألقى ميزيل منديل مائدة ملطخًا على الطاولة- وخرج يلحق بتوسا، فكاد يصطدم في الباب بنادل يحمل طبقًا كبيرًا من الحلوى.

بوظة، إيخ!

ميزيل، على عكس توسا، كان يحب الحلوى. لكنه رافقها إلى الاصطبل، عادًّا ذلك من واجباته، بل ليس من واجباته، فهذا هراء. لقد كان من دواعي سعادته أن يرافقها هذه المئة من الخطوات. ليته يستطيع إضحاكها، فيسمع كيف تتكلم توسا وتقهقه، كيف تغرق بالضحك، وهي تقفز بحيوية من كلمة إلى كلمة، ويسمع صوتها البشري الجديد الحي.

بعد أن تحررت توسا من البكم تكلمت مباشرة بلغة سليمة فنطقت بجمل تامة- باللغتين الروسية والألمانية. الأدق هو أنها راحت تتكلم بذلك الخليط من اللغة اللاتينية الطبية، والمزيج من الكلام الموسكوفي- الألماني الذي اعتاد ميزيل أن يسميه لغة ألمانية. لقد اكتشف ميزيل مندهشًا، حتى قبل مجيء المربية (الأولى بين الأوانس التعيسات اللواتي كانوا يصرفوهن من العمل بكثرة، فلا يعلق اسم أية

(1) إلى أين يا عزيزتي؟ ليس من اللائق أن تتركي الطاولة دون استئذان (بالفرنسيّة)

واحدة منهن في ذاكرة أهل البيت)، أن توسا، ابنة الخمس سنوات، تجيد القراءة- تقرأ بسرعة في سرها أعقد النصوص، رغم أنها كانت تمسك الكتاب (بالمقلوب). هي، إذن، تعلمت من تلقاء نفسها، حين كانت تجلس قبالته، صغيرة، عابسة، في تلك الأماسي التي كانا يقضيانها على انفراد، فيشرع، بعد أن يتعب من الثرثرة، بقراءة كل ما يقع تحت يده بصوت مرتفع أبح، من دون أن يفهم جيدًا ماذا يقرأ، ولماذا.

أما هي فكانت، كما يبدو، تفهم ما يقرؤه. إنها ظاهرة معجزة أخرى. ولكن لماذا نسميها ظاهرة؟ إنها أمر سعى إليه، وصنعه بيديه.

غير أن ميزيل كان يجهل سر توسا الأهم- إنها لا تستطيع قراءة الكتاب وهي تمسكه (بالمقلوب) فحسب، بل كانت أيضًا تستطيع قراءة النص المنعكس في المرآة، بالمعنى الحرفي للكلمة- تقرأ صورة النص في المرآة الضخمة الممتدة من الأرض إلى السقف في غرفة الأطفال. ففي الأماسي، حين كان ميزيل يجلس على الأرض فاتحًا أحد كتبه، كانت توسا تتأمل، وفمها نصف منفرج، كيف ينساب الطيف الأسود للكلمات في المرآة، وكيف تنحني وتتقلب الصفحات بيسر، كيف ينسكب ضوء الشمعة ويذوب في الحديقة خلف النوافذ. هي لم تدرك أبدًا كيف تعمل المرآة وعجزت عن فهم سره، لذا راحت في البداية تتعلم القراءة (بالمقلوب)، ثم من تحت إلى فوق، ولم تتعلم النطق بالكلام البشري والقراءة والكتابة كبقية البشر إلا في نهاية المطاف.

وهي لم تبح بقدرتها الغريبة هذه لأحد أبدًا، واحتفظت بسرها حتى آخر أيامها، ولم تلجأ إليها إلا مرة واحدة في حياتها.

سترافقني حتى الباب فقط- قالت توسا بلهجة صارمة، فوافق ميزيل بإحناءة من رأسه. كان الاصطبل مكان ممارستها لحريتها الشخصية، وقد دافعت توسا دفاعًا صادقًا عن هذه الحرية بعناد ليس كعناد الأطفال. هو نفسه علمها ذلك، هو، عمومًا، علمها كل شيء، علمها أفضل ما يعرف ويتقن.

في الحقيقة هو كان منزعجًا في سره لأن الطب لا يثير اهتمام توسا أبدًا. هي لم تكن تهتم إلا بالخيول، لا شيء غير الخيول، كأن الاصطبل لم يكن المكان الذي نطقت فيه فقط، بل المكان الذي ولدت فيه أيضًا. إن هذا الوضع قد يتغير أكثر من مرة. هو نفسه كان يعشق في طفولته العزف ويحلم بالعزف في المطاعم وإسعاد الناس. ترى أين ذلك المزمار الآن؟ إن مجرّد تذكره الآن يثير الضحك.

حتى الباب فقط- كررت توسا كلامها، وتوقفا.

من المدخل ذي الزوايا القائمة، فاحت رائحة حرارة جسد حي يتحرك، وفي العمق صهل "بويارين" بمرح وقد أحس بمجيء توسا.

أخرج ميزيل من جيبه عدة قطع من السكر ومدّ يده بها إلى توسا.

لقد طلبوا مني إيصال هذه لصاحبك "بويارين"...

ضمت توسا القطع في قبضتها وضحكت- إنها الآن تحب أن تضحك- ودست أنفها في سترته تعبيرًا عن المودة، كأنها هي نفسها ذلك المهر.

شكرًا يا غريفا!

غريفا- هكذا كانت تسميه. لم تكن تناديه غريغوري إيفانوفيتش- كانت تناديه غريفا. إن هذه الكلمة وحدها "غري- فا" كانت توحي بالدفء مثل كلمة "با- با".

بل هي أكثر دفئًا.

صهل "بويارين" مرة أخرى، وضرب الأرض بحدواته نافد الصبر، وظهرت سحنة السائس أندريه من الاصطبل، فابتسم فور رؤيته توسا. كان في شعره بعض القش والوبر الأبيض- لا بد أن هذا السافل كان نائمًا.

سآخذك بعد ساعة. بعد ساعة بالضبط!

غير أن توسا لم تسمعه طبعًا.

سيكونان حسني الحظ لو استطاعوا إخراجها من هناك بعد ساعتين. إنها عنيدة كشيطان صغير، لا تفهم، عمومًا، ما معنى كلمة "لا"، ولا تستطيع أن تفهمه.

عاد ميزيل إلى المنزل، لكنه توقف فجأة، وجال ببصره قلقًا- أهي تصرخ؟ لا، مجرد خداع سمع. المدخل إلى الاصطبل من هذه الجهة، معتم جدًا، كأنه محفور في الحيط، فليس هناك سوى أعمدة إنارة مغبرة تقف مائلة وبسببها كانت عينا ميزيل تحمر احمرارًا مزعجًا. الأشجار، والسماء والاصطبل، كل ذلك انزاح جانبًا، كأنه قطار كان يوشك أن ينطلق من المحطة، لكنه عاد فاستقر في مكانه.

مسح ميزيل بقوة جبينه الحار، وأذنيه، وشتم نفسه لأنه تخلى عن المعطف.

قرب البيت نفسه لاحت بين الأشجار نقطة مضيئة- وشعر ميزيل بالدوار من جديد. هل ما يراه مجرد تهيؤات؟

مرحبا يا غريغوري إيفانوفيتش.

صوتها يكاد لا يسمع

وهي لم تفتح رموشها

تمتمت مشيرة إلى المدخل المعتم.

لم يتسع له الوقت كي يجيب

وهو نفسه لم يكن متحمسًا لذلك.

* * *

لقد أرادت جدًا أن يقال عنها- فتاة نظيفة، شاحبة الخدين، على رأسها منديل أبيض شاحب، وترتدي بلوزة منشّاة، حتى تنورتها بيضاء. إنها راهبة (بالمقلوب). فرحتها الوحيدة- عقد بخرزات زجاجية، كحبات من الجليد يطوق عنقها، لكنها حبات حادة الزوايا، تلتقط أحيانًا شعاعًا من الشمس، فتكوّن فجأة قوس قزح صغيرًا مرحًا، كأنها تبتسم بدلًا عنها.

كانت تدخل دائمًا من الباب الخلفي، وتظل واقفة منتصبة القامة، لا تجلس قبل أن يطلب منها ذلك. لم يكن سلوكها بدافع التكبر، أو تفادي تذلل لا مسوغ له.

عمومًا، لم تكن تعرف قدر نفسها- أبدًا. تجلس طول النهار، فتشعر ببعض الإرهاق في ظهرها. شكرًا، أنا لا أريد شايًا، لقد شربت كأسين في الصباح.

طيب، خذي فطيرة على الأقل، لا تقرفي. الفطيرة لذيذة، طريّة تتنفس كالكائن الحي.

حسنًا، سآخذها معي إذا سمحتم لي. أطعمها لابنتي ثم تقف مجددًا عند الجدار، ساكنة، هادئة، واضحة، منتصبة القامة، كأنها شعاع الشمس.

الطباخة، المستاءة من هذا التصرف الاستعراضي المخالف، صاحت باتجاه غرفة البنات- أربوزيخا جاءت!- واستدارت فقلبت بظهرها مجموعة من الأواني.

ما أعجب وقاحتها!- ليس في سلوكها ذرة من الاحترام!

اسم اربوزيخا لم يكن مناسبًا لها مطلقًا. السكان المحليون كانوا يطلقون على النساء دائمًا كنى أزواجهن: شيليخا، ستيبينخا، ليشيخا، كأنهم بذلك يمنحونهن مدًّا من القمح إكرامًا لكل منهن. وكان الجمال في مقاطعة فورونيج يقاس دائمًا بالوزن الحيّ المجرّد. لكن أربوزيخا لم تكن تملك وزنًا مرموقًا. كانت نحيلة، ضعيفة البنية، فمن الذي ستلفت نظره؟ لقد كانت كاترينا أندرييفنا أربوزوفا- في الواقع- أرملة من العوام، لكنها كانت، من دون مبالغة، خياطة عبقرية، تتقن كل فنون الخياطة- صدر الفستان على النمط الباريسي، والكمّ الإنكليزي، والتنورة ذات الثنيات السبع. كانت تستطيع أن تخيط أي ثوب بمجرد أن ترى صورته. الأمر الذي كانت لا تستطيعه هو فقط حياكة القبعات، وحتى هذا كانت لا تستطيعه، لأنها لم تكن تجد القماش المناسب لذلك.

في وقت ما (لفترة قصيرة فقط) كان ميزيل يحترم أربوزيخا- احترامًا حقيقيًا قلما يشعر به تجاه أحد. وذلك لصلابتها غير الملحوظة. لا، ليس لذلك، بل بسبب ثقتها بنفسها، وبصحة إيمانها، وعدم استسلامها، غير القابل للنقاش، ولأنها اختارت الطفل- ولم تختر نفسها.

ميزيل لم ير تقريبًا، مثيلًا لها بين السكان المحليين، وغير المحليين.

لقد فقدت اربوزيخا زوجها، وأنجبت طفلتها في اليوم نفسه- وكان ميزيل مشاركًا في الحدثين. كان الزوجان أربوزوف من عامة الناس، وكانا يحصلان على رزقهما، كالكثيرين في القرية، من مزرعة الخيل الشهيرة: أربوزوف الأحمر الشعر، الأحدب الظهر، المنمّش البشرة، يعمل في المكتب، اربوزيخا تظل في المنزل محنية الظهر، ترقع وتصلح الملابس لأسرتها وزوجها- للأخوة والكنائن، وللحمي والحماة، والأولاد- وحتى الغرباء. لم يرزقه الرب أبناء حتى الثلاثين من العمر. أما هي فكانت تتوسل إلى الله وترجوه جاثية على ركبتيها حتى تيبستا، لكنها استمرت في الدعاء، "سأموت إذا لم ترزقني أطفالًا"

حين علم أربوزوف بالأمر تأثر وبكى،- كانت دموعه تسيل في أحيان كثيرة، فهو إنسان عاطفي، طيب، لم يضع حتى إصبعه على زوجته طول حياته، بل أكثر من ذلك! إنه كان لا يستطيع ذبح دجاجة حتى بعد أن تزوج وصار صاحب بيت. بل يطلب من أبيه أن يفعل ذلك. من حسن الحظ أن بيته كان قريبًا بحيث تستطيع النساء استعارة الملح من بعضهن بعضًا من فوق السياج.

في أمسيات الصيف كان آل أربوزوف يجلسون على المسطبة التي نمت حولها الأعشاب العطرة، وتتحدث أربوزيخا، تقول لأمها: "لا تخيطي لي يا أمي معطفًا منزليًا أحمر". تغني ونغمة صوت زوجها الضعيفة، العذبة والمدهشة بصدقها في الوقت نفسه، تحيط ككلب حراسة بصوتها الضخم الذهبي الذي احتواه صدرها بمعجزة- فتبدو القرية أكثر إشراقًا.

كانت الجارات واحدة بعد أخرى يفتحن النوافذ على مصاريعها، ويتبادلن النظرات بعيون دامعة، ثم يشرعن بالمشاركة في الغناء بأصوات لا تكون في البداية منسجمة، لكنها، فيما بعد، تزداد انسجامًا وتماسكًا. وكان الرجال لا يتمالكون أنفسهم في بعض الأحيان، فينخرطون في الغناء.

وتظل الأجراس الصغيرة تصدح حتى يسود الظلام و"لا توقظها في الفجر"، بأغان شعبية كثيرة. ويأتي الناس من الطرف الآخر للقرية ليستمتعوا بالغناء.

لقد كانت حياتهم جيدة. مفهوم!

استدعوا ميزيل لاستقبال ولدها البكر، وذلك مقابل أجر. الحمد لله على أنهم لم يكونوا مفلسين تمامًا. كانوا من العامة الشرفاء. جاء ميزيل، ونقّر على بطنها الناتئ الصرة، ثم هز رأسه باستياء- لقد كانت الولّادة ضعيفة الصدر، ضيقة القفا ككلب الصيد، لا، هي لن تستطيع أن تلد، ففي أثناء ذلك سيموت أحدهما، إما هي، وإما هو.

استدعوني عندما تبدأ الولادة. أظن أنها ستكون بعد شهر، وليس قبل ذلك.

استدعوه في اليوم التالي، لمعالجة أربوزوف. المهر، حفيد الحصان الشهير "بلقان"، ذو الأصل العريق، حطّم رأس العامل الهادئ الذي يدير المكتب. لم يعرف أحد أي نحس قاد أربوزوف إلى المعلف البعيد، وما الذي كان يبحث عنه تحت حوافر المهر، غير أن الضربة التي تلقاها لم تسقطه أرضًا فقط، لكنها جعلته أيضًا يغرس ركبتيه في الأرض ويجعر كالكلب. هرع نحو الصوت العاملون في الاصطبل، فوصلوا متأخرين طبعًا، وصلوا متأخرين جدًا.

حين وصل ميزيل، لم يكن قد تبقى من أربوزوف حيًا سوى عين واحدة تعوم وسط سائل أسود- أحمر كثيف. كل ما تبقى من جسده كان مشوهًا، أرغم ميزيل، الذي سبق أن رأى صيادين مزقتهم الدببة، يشيح ببصره لحظة، وهو الذي من المفترض أن يكون اعتاد رؤية أبشع الإصابات. لكن، لا، فالرب يجد دائمًا ما يدهش به عباده.

عظام الصدغ والرأس أيضًا كانت محطمة. وكذلك، على ما يبدو، عظام الترقوة والكتفين، والأضلاع كلها تقريبًا. أضف إلى ذلك عضّات اقتطعت أجزاء من جسده وعلكتها فاختلطت بأسماله المتسخة، فصار لا بد من قصّ ملابسه لنزعها عنه.

تجمع في الغرفة بعض الناس، وتدافعوا، اختلطت أصواتهم، وحجبوا الضوء، أما أربوزيخا فظلت تقف صامتة، ملتصقة بقطعة من حطام الموقد.

كانت تغطي بطنها الكبير بقماش فستان لم تنته من حياكته. فلاحظ ميزيل، وهو يمر بجانبها انتفاخ عروق صدغيها، والذيل المقصوص لثوب أطفال طويل لم تتم حياكته، لا بد أنه كان ثوب عماد.

سيموت حتمًا- سيموت.

هو، وهي، والطفل أيضًا.

ميزيل لم يسبق أن فقد ثلاثة دفعة واحدة.

تجمع المساء بحذر خلف النوافذ- إنه ما يزال مساء صيفيًا، خفيف العتمة، كشاي مغلي للمرة الخامسة، وفي الغرفة فاحت رائحة حادة ولذيذة- لا بد أنها رائحة عرق الخيل، وتبعثرت في كل مكان فيها، خرق ملطخة بوسخ طازج مدمى، ولكن المكان، رغم ذلك، كان نظيفًا. كان نظيفًا كالمعتاد. وهذا أمر نادر، نادر جدًا. جال ميزيل بأنفه- لا، هذه ليست رائحة عرق الخيل. إنها رائحة أوراق شجيرات الخوخ، والبقدونس، والحطب الطازج المحترق، وشجرة السنديان التي غمرها بخار الماء المغلي. لقد كانت أربوزيخا تحضر الخيار المخلل. الكل يفعلون ذلك في شهر آب.

انفتح الباب، ودخلت عجوز منبوشة الشعر مسرعة- إنها أم أربوزوف. كانت تعول بصوت ذكوري منفر. وصرخت أخيرًا أربوزيخا نفسها، كأنها استردت وعيها- أطلقت صرخة قصيرة، مخيفة، خافتة، كمن يصرخ من ألم لا يحتمل أصابه فجأة.

ساعدني يا أبتاه! أنقذه كرمى للمسيح!

ميزيل لم يعرف من الذي يتوسل، ويتوسل من.

وقف مرتبكًا لحظة- ثم اتخذ قراره.

ظل ميزيل يعمل حتى الصباح تقريبًا- آلام عبثية لا يحتاجها أحد. ألم شامل في الظهر والركبتين، وحرقة في العينين بسبب العرق، عرقه هو بالتأكيد، فما من أحد كان يساعده- جميعهم كانوا يحتشدون في الغرفة المجاورة، يضجون، ويصرخون،

يرشون الماء، ويحرّكون شيئًا ثقيلًا، خدمة لأربوزوف الذي مات في حوالي منتصف الليل على الأرجح.

ميزيل فهم ذلك من توقف أربوزيخا التي كانت من قبل تهز السرير، توقفًا مفاجئًا عن الحركة والصراخ، واكتفائها بالفحيح نادرًا عبر فمها المطبق، فحيحًا لا يتضح منه أهي تستنشق منه الهواء أم تزفره. كان ميزيل يعتمد في عمله على الملاقط، لكن لم يكن إلى جانبه ما يمكن أن يضع الملاقط عليه. فارتكب بسبب التعب والغيظ، الخطأ بعد الخطأ، ثم كفّ عمومًا عن المشاركة في هذا العمل الغبي بأي شكل من الأشكال.

قد يكون من المفيد الضغط مرة أخرى على البطن؟ لا، هذا لا ينفع، لا شيء ينفع.

يا للشيطان! ما أشد ظمئي! أحس بعطش لا يحتمل.

هيه يا ناس! ليأت أحدكم بالماء فورًا.

* * *

لا بد أن الصباح قد حلّ، فهم يقرؤون المقطع التسعين من الكتاب المقدس.

نهض ميزيل وخرج من الغرفة من دون أن ينظر إلى أربوزيخا، فوجد في المدخل دلوًا وكأسًا، فشرب طويلًا وبصوت مسموع، الماء الدافئ، ثم خرج إلى الشرفة.

الظلام ما زال سائدًا، وفي البعيد في طرف السماء لاح شحوب مبشر بالضوء وبالقيامة من الموت، وراح ينبعث من هنا وهناك كالمعجزة صياح ديكة غير مرئية، وخارت بقرة استيقظت لتوها، خوارًا رقيقًا قصيرًا في الحظيرة تنادي صاحبتها. وفاحت في المكان رائحة التراب الرطب وأوراق شجيرات التوت البري المغسولة، النظيفة، النضرة. لقد انتظروا هطول المطر طول الاسبوع، وأخيرًا، هطل في الليل خجولًا في الموعد المقدّر له.

شعر ميزيل برغبة في التفكير بالله، هو يفكر به- بكلمات بسيطة غير ملزمة، من دون حزن أو أسف، يفكر به كما يفكر بالمطر. الله- كان، والمطر- كان أيضًا. وبينهما علاقة، علاقة صحيحة جدًا، وبسيطة إلى حد جعل ميزيل يدهش كيف لم يفهمها من قبل، هو لم يفهمها إلا الآن، ثم نسيها على الفور، غير أن هذا كان جيدًا وصحيحًا، وبسيطًا. السماء، والسور، وشجرتا تفاح عجوزان- ذلك كله اهتز فجأة، وتمايل، وانتقل من مكانه، وعام- ارتجف ميزيل، تمسك بإفريز الشرفة، وهو يرف بعينيه الرطبتين الزائغتين. ثم مسح أذنيه بصعوبة، ودخن سيجارتين- أذهله طعمهما اللذيذ الحاد،- قبل أن يرغم نفسه على العودة إلى الناس والموت.

أغلق الباب بحذر. ومشى في الغرفة محاولًا ألّا ينظر إلى الجثة الهادئة الممددة على الطاولة.

* * *

لم تكن اربوزيخا موجودة.

وكل ما كان يلتمع قرب النافذة المفتوحة على مصراعيها، سرير مدعوك، فقير، مبلل بالعرق والدم.

وجد ميزيل أربوزيخا في المطبخ بعد دقائق طويلة جدًا ومزعجة كادت تبعث في كيانه أبشع الأوهام وأسخفها. كانت الشمعة ترتجف في يده المتعبة، وترتجف معها ظلال عجيبة، غير عادية، ترتسم تارة على المصباح، أو طرف الطاولة، أو القدر النحاسي الصغير الذي يلتمع كنار سائلة- وتنطفئ على الفور. وكانت تملأ الجو رائحة رؤوس الثوم المقشر وأوراق الزعتر التي نقعت منذ البارحة ثم وضعت في صندوق مع الخيار الخشن الملمس.

جلست أربوزيخا على صندوق صغير مصالبة ساقيها، ضامة تنورتها في جحرها، حانية رأسها المنبوش الشعر- وظل ميزيل مدة ثانية كاملة، لا يرى إلا ساقيها، الأبيضين جدًا، العاريين جدًا، وشعيرات سوداء خشنة غير متوقعة، في

نهايتهما، أثارت لديه، لسبب ما، خجلًا شديدًا، فأطلق تأوهة ضعيفة وأغمض عينيه كطفل استطاع لأول مرة أن يصل إلى طاقة الحمام- رغم أنه قبل أقل من ربع ساعة كانت عورات أربوزيخا عارية تمامًا وقد أرهقتها الولادة وبطنها الأبيض الملطخ بالدم.

رفعت أربوزيخا رأسها وابتسمت، وزحفت على جنبها، كدمية من قماش، نحو الأرض، فتداركها ميزيل بصعوبة وساندها- لكنه تركها على الفور، فاندلقت أربوزيخا بيسر، على الأرض كما يندلق سائل. إنها ما زالت ضعيفة، ولا معنى لابتسامتها.

انحنى ميزيل.

في قاع الصندوق الذي يتصاعد منه البخار رقد طفل يحرك أطرافه الصغيرة كالصرصور، ملطخ بالأبيض والأحمر، وعلى رأسه ورقة من شجيرة كرز بري. كان الطفل حيًا.

التقطه ميزيل، مسحه أولًا بطرف معطفه، ثم جثا على ركبتيه، ومسحه بطرف تنورة أربوزيخا.

إنها بنت.

يا إلهي!

كم هي قوية!

تململت أربوزيخا، وتحركت عيناها، ما زال الألم الذي عانته يخدرهما، وقد اسودتا تمامًا كعيون الوحوش، فأعطاها ميزيل الطفلة بسرعة، بعد أن تأكد أنها بدأت ترضع، وتتغذى حتى قبل أن تصرخ.

هذا مؤشر جيد. أنها تأكل- هذا يعني أنها تتنفس، وهي تتنفس- معنى ذلك أنها ستعيش. ستظل حيةً هذا اليوم، الآن على الأقل.

لقد فعلت ما يجب عليها فعله.

لكن يا للشيطان. ما علاقته بكل هذا؟ إنها هي من فعل كل شيء. هي شخصيًا.

نظر ميزيل باحترام إلى أربوزيخا وهو (يتوخوخ)

برافو- لقد أدركت ما يجب فعله. هذه المرأة العامية، الهادئة، القليلة الثقافة- خضعت لقوى الطبيعة، فكرت بالجاذبية. أما هو، العجوز الغبي الذي تعلم كل شيء، فلم يفكر بذلك، بل راح كما هو وارد في الكتب يضغط على بطنها.

خرج ميزيل، شرب مرة ثانية في المدخل، ثم أحضر لأربوزيخا كأسًا مملوءة بالماء. وضع الكأس على الأرض قرب مرفقها. نزع عن رأس الطفلة ورقة التوت البري. وضحك ضحكة قصيرة حين لم تلحظ الأم أو الطفلة ما فعله- كانت الاثنتان غافيتين بعد العمل المضني، على وقع الأدعية التي كان الآخرون يتمتمون بها، وهما لا تعرفان أن أربوزوف الزوج الرقيق المحب، المؤهل لأن يكون أبًا ممتازًا، يرقد على طاولة صلبة انقحط طلاؤها عن آخره في الغرفة المجاورة، وقد تصلبت جثته.

يا لسعادتهما!

يا لسعادة الأرملة واليتيمة.

في المدخل التقى بالخوري المحلي، الذي بدا قاتم اللون من أثر السكر والنعاس، فحياه بحركة سريعة من حقيبة أدويته، وانطلق شاعرًا بالمتعة. فرد الصباح على البلدة أشرعة كبيرة زرقاء- وردية، باردة ببرودة منعشة، طازجة، ومشدودة. كانت الخيول المرتاحة جيدة جدًا في سيرها، فوصل ميزيل إلى بيته في ساعة، وتناول بشهية على الفطور كعكة ساخنة، وكافيارًا، وبيضًا، ثم أغفى وهو جالس إلى الطاولة دون أن ينتظر القهوة التي يحبها، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا.

العجوز مدبرة شؤون المنزل، ذات الظهر المحني، الغبية، غير النشطة، التي عيّنوها في عملها بدافع الشفقة، الأمر الذي لم يكن ميزيل يعترف به تحت أي ظرف، مسحت له ذقنه الذي تلوث بصفار البيض، وغطت ساقيه بحرام من الصوف، وفكرت برهة ثم رسمت على صدرها شارة الصليب.

تمت تسوية قضية المهر الذي هاجم الرجل بهدوء. العقل كان يقتضي جلد الحصان، أو قتله بالرصاص أو السم في نهاية المطاف، لكن ما من أحد فكّر في أن يزهق حياة الكائن الثمين المنتج مقابل حياة عامل المكتب التافه، الغبي، الذي تدخّل في أمر لم يطلبه منه أحد. أضف إلى ذلك أنه اتضح سريعًا أن الميت أربوزوف كان يراهن على السباقات، وكانت رهاناته خاسرة في أغلب الأحيان، وأنه كان غارقًا في التزامات لم ينفذها، وسندات وتذاكر مدعوكة فات زمن تسديدها، وقد بدأ يتردد عليه أناس من مستوى متردٍ، مقرف مطالبين بثمنها، وكان واضحًا أنه لو لم يمت في الوقت المناسب لأحيل إلى القضاء. وما أن اتضح أن أربوزوف قد أقدم على رهن بيته الذي يسكنه، حتى انطلقت الألسنة تزعم أنه لم يقترب من الحصان إلا لكي يعطبه، أو يقضي عليه... وقد انتشرت رائحة هذه المزاعم فطالت أربوزيخا التي لا علاقة لها بكل ذلك الأمر، بل إن بعضًا منها طار حتى أصاب ميزيل نفسه.

استولى الدائنون بعد أسابيع على المنزل مقابل الدين، أما أهل الزوج، الذين حقدوا على كنتهم، لأن كنتهم الكلبة ذهبت لتلد، بينما كان زوجها يموت، فقاموا بالتخلص منها كمخاطة علقت بإصبع، ولم يبق لأربوزيخا وطفلتها سوى طريق مستقيمة إلى مستنقع المدينة والانتحار غرقًا. لكنها تمكنت من إيجاد مخرج. جاءت إلى ميزيل، علنًا، في النهار، تحمل صرة ضمت الأشياء التي لم يرغب الدائنون في أخذها، فمددت الطفلة بشكل مريح عند مدخل المنزل، ثم قرعت الجرس. قالت، وهي مشيحة ببصرها- ليتك تسمح لي بقضاء الشتاء فقط في أي مستودع. المهم أن يكون هناك سقف. وسأقوم، مقابل ذلك بخياطة ملابس لك من الرأس حتى القدم. أنا خياطة ماهرة، ولن تندم على ذلك.

لكنها لم تبك. اكتفت بأن حركت أنفها بشكل طريف. كأنها أرنب.

في ذلك اليوم نفسه استأجر ميزيل لأربوزيخا غرفة في "آنّا"- عند عجوزين محترمين، قاطعًا الطريق على محبي التسلي بالإشاعات، ودفع أجر نصف سنة

مقدمًا- ناسيًا أمر انتشار الانفلونزات وحالات الخناق التي تنتشر في الخريف. غير أن أربوزيخا وطفلتها لم تصابا، لحسن الحظ، بأي مرض، بل قد تكونان أصيبتا وشفيتا من دون علمه. أربوزيخا، نفسها، زارته مرتين- حملت إليه في المرة الأولى سترة على مقاسه محاكة حياكة ممتازة. هي لم تأخذ قياسه، بل قدرته بالنظر. وجلبت له قطعة لباس جديدة في المرة الثانية، لم يأخذها ميزيل لأنه كان مستعجلًا لعيادة مريض، لكنه أمر بتقديم الشاي لأربوزيخا، وسألها وهو يغادر المكان: كيف حال الطفلة؟

الله رحيم يا غريغوري إيفانوفيتش. إنها تكبر وقد ظهر أول سن من أسنانها الأمامية. لكنها تبكي في الليل بكاء شديدًا يقطّع الأنفاس.

توقف ميزيل، وأخرج من حقيبته زجاجة من اللاودونوم.

هاكِ، أعطها في المساء ثلاث نقاط في كأس من الماء، ليس أكثر! ولا تسمحي لها بعلك بذور زهر الشقيق، هل تسمعين؟ لا تسمحي لها بذلك. إنها إن فعلت ذلك لا تؤذي إلا نفسها...

نظرت أربوزيخا إلى ميزيل بعينين خضراوين هادئتين- كأنهما بركة في غابة، وأحنت رأسها إحناءة صغيرة كمن يحاول أن ينقر شيئًا غير مرئي، منثورًا على الطاولة.

أطلقت على ابنتها اسم قديسة شهر آب "آنّا"

نيوتشكا.

نيوتا.

وتمسكت بهذا الاسم دون سواه.

وقد جاءت مرة أخرى، على ما يبدو، لكنها لم تجد ميزيل هذه المرة.

حين مر شهر شباط بالعجوزين كي يدفع أجرة سكنها في النصف الثاني من السنة، اتضح له أنه لا لزوم لذلك، فأربوزيخا تمكنت من تسوية أمورها، وميزيل هو الذي لم يجدها- لقد تكاثرت عليها طلبات الخياطة. فانطلقت تخيط الملابس للأطفال، والملابس النسائية، وكثر زبائنها.

ما ألطف هذه المستأجرة يا غريغوري إيفانوفيتش، إنها لطيفة لطفًا يفوق الوصف. لقد أحببناها كما لو كانت ابنتنا. أضف إلى ذلك نيوتشكا التي أرسلها الرب كي تؤنس شيخوختنا.

كانت نيوتشكا تجلس هنا، في الغرفة، على الأرض، تمصمص قطعة من الخبز، حمراء الشعر كأبيها، وممتلئة الجسم، جميلة. مسح ميزيل رأسها وتلمس يافوخها بشكل آلي، فشعر بطراوة تحت أصابعه- إنه حي، لكنه ما زال غير محمي. غير أن كل شيء على ما يرام، فعظام الرأس تنمو.

بعد ذلك اللقاء، لم ير أربوزيخا، ولم يتذكرها، بل لم يسع إلى ذلك، إلى أن التقى ببورياتينسكايا. كانت الأميرة التي تضاهي بأصالتها، أي فارس من فرسان النخبة، ممددة مثل الخياطة الأرملة تمامًا- أطراف ضعيفة، وصدر متهدل قليلًا، وردفان شاحبان كردفي طفل تقريبًا، تغطيهما عروق حمراء راعشة دائمًا. نظر إليها ميزيل فتذكر على الفور الصندوق الذي ولدت أربوزيخا بنتها وهي جالسة عليه،- إنه حل عبقري وصحيح بشكل مطلق، لكنه لن يستخدم أي صندوق، مع أن رؤية أميرة جالسة على صندوق أمر طريف. إنه سيبتكر شيئًا ما أفضل من ذلك.

وابتكر فعلًا- أريكة خاصة، عرشًا خاصًا للولادة، مريحًا للمرأة التي تلد، وله شخصيًا، مزودًا بأربطة للساقين، وذا شكل جميل بذراعين، وظهر ليّن، بحيث تستطيع الأميرة، وهي تلد، أن ترتاح، بل تغفو أيضًا إذا أرادت. النجار الذي جاءه ميزيل بالمخطط نظر إليه بدهشة ورسم شارة الصليب على صدره.

ما حاجتك إلى مثل هذه الأريكة؟ وأين المقعد فيها؟ أهي بلا مقعد؟

لا تسأل. نفّذ ما طلب منك.

رسم النجار شارة الصليب مرة أخرى، وصنع ما طلب منه.

ميزيل نفسه، لم يستطع أن يمنع نفسه من الجلوس على أريكة التوليد المصنوعة، وتجريبها. كل شيء كان جيدًا، مصنوعًا بمهارة وذكاء. وكان من المفترض أن يخرج المولود من رحم بورياتينسكايا كما تخرج السدادة من عنق

الزجاجة، ويرقد في السلة الخاصة التي فرشها ميزيل شخصيًا بقماش جديد.

لكن الأمر حدث على نحو آخر.

بالمناسبة، الأريكة كانت جافة جدًا، خشبها صالح جدًا للحرق. ميزيل نفسه قطّعه في الفناء بعناية من أجل تعميد المولودة. أطلق الخشب في الصقيع أصواتًا قصيرة، معبرة، كأنه حي، وتشكلت فوق رأس ميزيل، وعلى قميصه أيضًا غمامة من البخار الأشيب... الشبيه تمامًا بما يتشكل على عنق الفرس.

وبقيت أربوزيخا في منزل بورياتينسكي.

تكيفت معه، نظمت حياتها وعاشت فيه.

لقد جاء بها ميزيل، في حينه، ليس أملًا في أن تعجب بورياتينسكايا، التي يكلّفها كل زيّ تظهر به ثمن عزبة كاملة، بابتكارات أربوزيخا المصنوعة يدويًا، بل، ببساطة، من أجل أن يضع الاثنتين جنبًا إلى جنب، ويقارن بينهما، ويقدّر إمكانات النجاح والإخفاق. إنه جاء بها للمقارنة.

لكن أربوزيخا أصابت بخياطة شال للتدفئة للأميرة أعجبت به بورياتينسكايا أيما إعجاب. وقد عزا ميزيل ذلك، عمومًا، إلى الحالة البائسة الي تعاني منها، الحالة التي لا تؤثر، كما هو معروف، في جسد المرأة فقط، بل في عقلها أيضًا. وتلا الشال قميص رقيق جدًا، فضفاض، مطرّز بخيوط سوداء وطوق ذهبي على الكتفين. مثل هذه القمصان لم تكن النساء المحليات يرتدينه إلا في الأعياد الرسمية. وبعد ذلك بأقل من شهر، طلبت الأميرة من أربوزيخا أن تخيط لها شيئًا جديدًا، ثم طلبت منها بعد ذلك أن تخيط ملابس لتوسا. الأمر الأهم هو أن الأميرة صارت إحدى زبوناتها.

كان ذلك أمرًا غريبًا طبعًا. بورياتينسكايا التي كانت تشتري ملابسها في بيتربورغ من محلات "بيرزاك"، وتطلب زينتها في أغلب الأحيان من "وورت" وباريس مباشرة،- تطلب ذلك الآن من أربوزيخا ذات العقود الزجاجية، والمنديل الأبيض. غير أن الاثنتين انسجمتا من حيث الطباع والذوق وغير ذلك، إلى حدّ أن

بورياتينسكايا، التي لم تكن أبدًا تتخلى عن لهجتها الرسمية في الحديث مع من هم أدنى مكانة منها، كانت في بعض الأحيان تتحدث إلى أربوزيخا وهي تبتسم، ليس بداعي اللباقة، بل من القلب.

لقد صارتا، هما الاثنتان، تنتظران لقاءاتهما الشهرية من دون أن تلحظا ذلك.

تؤدي أربوزيخا التحية بكبرياء، فتدهش الأميرة في كل مرة، ثم تخرج من الحقيبة الملابس التي خاطتها وتضعها على الطاولة- فينفرد القماش وتنزلق أطرافه عن الطاولة ترافقه صيحة إعجاب. أو!

أين تعلمت هذا كله يا كاترينا أندرييفنا؟

لم أتعلمه في أي مكان يا سيدتي. أمي المرحومة كانت خياطة ماهرة، وأنا صرت أقلدها منذ الصغر.

أربوزيخا كانت فعلًا تجيد الخياطة بشكل غير معقول. تنظر إلى الصورة، وإلى طالبة الثوب. ثم تقول بصوت منخفض- يلزمك "كذا" ذراع من القماش، ومن الحرير ثلاثة أمتار، واثنان وعشرون زرًا، وكل ذلك ثمنه خمسة عشر روبلًا وثمانية كوبيكات. ولم تكن تخطئ أبدًا. لقد كانت عنيدة عنادًا هادئًا، غير ملحوظ تقريبًا. لكنه لا ينكسر. إنه ليس عنادًا، بل هو، على الأدق، إرادة مستبدة. إنها تستمع إلى كل ما تقوله الزبونة عن الموديل، والفتحات، والأكمام، وكيف يجب أن تكون، ثم تأتيها بعد أسبوع بفستان مختلف تمامًا عما أوصت به، لكنه يعجب الزبونة إلى حد يجعلها لا تستطيع أن تحيد ببصرها عنه، فقد أبرز صدرها، وأخفى نتوء جنبيها وبدا خصرها نحيلًا، مستقيمًا- كأنها خارجة من (الجورنال).

لكن كثيرين كانوا ينزعجون، طبعًا، يقولون: لقد خرّبت هذه الغبية كل شيء! هل هذا ما طلبنا منك أن تخيطيه؟ كانوا حتى لا يدفعون لها أجرها. أربوزيخا لم تكن تزعل، ولم تكن تردّ على احتجاجاتهم بأية كلمة، لم تكن لديها هذه العادة. كانت ترضى بما تحصل عليه، لكنها لم تكن تذل نفسها، لا تتصاغر كي ترضي محدثها، ولا تجامله. لم تكن تستطيع ذلك. وحين صارت الأميرة بورياتينسكايا

تخيط ملابسها عندها- ازداد دخلها كثيرًا، فاستأجرت بدل الغرفة، شقة من غرفتين. واشترت لنيتوتشكا سريرًا- سريرًا خاصًا، ومعطفًا من الفرو الرمادي. أربوزيخا لم تقم، هي نفسها، بخياطته هي، بل كلّفت بذلك أفضل خياط فراء في البلدة". ومع ذلك اضطررت، يا صاحبة السعادة، إلى تعديل الأكمام، فقد كبرت يمامتي في فصل الصيف- ولم أعد قادرة على مجاراة نموها".

هذا ما كانتا، هي وبورياتينسكايا، تتحدثان عنه- عن بنتيهما. أربوزيخا أيضًا كانت انفعالية، وصارت أمًا في وقت متأخر- وهي، مثل الأميرة، لم تكن قادرة على التحدث عن مشاعرها، لذلك كانت تناقش طلبها الجديد من الملابس على عجل (لقد اقتنعت بورياتينسكايا سريعًا أن عناد الخياطة هو دائما في صالحها، لذلك لم تكن تناقشها، بل تنتظر، ببساطة، كل ثوب جديد، كما ينتظر المرء مفاجأة في عيد الميلاد)، ثم تبدآن الحديث عن ابنتيهما- تتحدثان دفعة واحدة، تقاطع كل منهما الأخرى، ومع ذلك تتفاهمان بشكل رائع، وهذا أمر لا تستطيعه إلا النساء. لقد كانتا في هذه اللحظات امرأتين عاديتين جدًا، اثنيين سعيدتين فرحتين بما أنجبتا.

كانت الأمومة تزيل ما بينهما من فروق اجتماعية، فتناقش بورياتينسكايا وأربوزيخا بصراحة وبساطة جميلة، ومن دون خجل، حالة براز طفلتيهما، والغازات في بطنيهما، والتهاب الكلية المزعج، هذا الالتهاب الغامض الذي يرافق كل حالة حبل، بل تناقشان حالة الولادة نفسها.

لماذا على الصندوق؟ ما هذا الابتكار الغريب؟ هل أنت من اخترع ذلك يا كاترينا أندرييفنا؟

من أين لي أن أخترع ذلك يا صاحبة السيادة! لقد أردت، فقط، أن أصل إلى المطبخ- فأحضن أيقونة العذراء قبل أن أموت. عندنا في المطبخ أيقونة للأم العذراء مصنوعة في قازان، لكني شعرت بقواي تنهار، وبأني لن أستطيع الوصول إلى هناك، لذلك جلست على الصندوق. وما إن جلست على الصندوق حتى انتهى كل شيء في دقيقة. غريغوري إيفانوفيتش قال بعد ذلك- إنني اتبعت قانونًا أنا نفسي

لا أعرفه، يسمونه قانون "الجاذبية"، وأننا جميعًا نخضع له، لذلك سموه "قانون الجاذبية". لا أخفي عليك أن الأمر كان مؤلمًا جدًا. لقد رأيت الملائكة من شدة الألم-كانت الملائكة صغيرة جدًا، مجرد شرارات، لكنها لامعة جدًا. الحمد لله على أن غريغوري إيفانوفيتش كان إلى جانبي- لقد حماني، ولم يتركني أموت.

أما أنا فولدت طفلتي من دون مساعدة. ولدتها وحدي؟ وفكّرت بالموت أيضًا.

صمتت الاثنتان لحظة، كأنهما تنظران إلى كنيسة لا يعرفانها.

لكن الباب انفتح ودخلت تانيوشكا تحمل إليهما الشاي ورائحة الفطاير الساخنة- اللذيذة، الطرية الوردية اللون،- وحملت إليهما مع ذلك رائحة الحياة الحقيقية.

إنهم ينتظرونك هناك مع آلة البذار منذ ما يقرب من ساعتين يا ناديجدا ألكسندروفنا. كما أننا ننتظر توجيهاتك بشأن العشاء، فقد حان وقته.

أحنت بورياتينسكايا رأسها موافقة بعدم رغبة- لقد كان اللوم في مكانه، إنها للمرة الثانية تشعر بالضياع وتفقد القدرة على تحديد الوقت. هي نسيت أنها صاحبة المزرعة، وأن في بيتها قواعد وحقوق. نهضت عن الأريكة... ونهضت أربوزيخا أيضًا من دون أن ترفع عينيها، وأخذت تقلب الملابس المخيطة، أما تانيوشا فلم تكلف نفسها بالنظر إليها- لم تعرها أي اهتمام. لم تكن تغار منها لكنها ببساطة، لم تكن تطيقها.

الراضون القابعون في المنازل كانوا في الماضي يا سيدتي. نحن الآن نخجل من ذلك- نعيش نمطًا جديدًا من الحياة، نتنقل بالسيارة. وحين نضجر- يمكننا أن نقتني كلبًا منزليًا من هذا النوع أو ذاك.

تكلمت بصوت منخفض لكن أربوزيخا كانت تسمع ما تقوله.

كفى، اذهبي، فقد ثرثرت كثيرًا! أحضري من هناك، من غرفة نومي، عن الكومودينة ما تجدينه.

خرجت تانيوشكا، ثم عادت تحمل لفافة ورقية.

الشاي برد، لم يهتم به أحد. وذابت الزبدة الطازجة الرقيقة على الفطائر.

هذه هدية لنيوتشكا من حبيبتي توسينكا يا كاترينا أندرييفنا.

انحنت أربوزيخا معبرة عن امتنانها، ووضعت اللفافة الورقية في أحد جيوب ثوبها، وهي تعرف سلفًا أنها ستحملها إلى الدير من دون أن تفتحها- ستمنحها للفقراء ليس من باب التكبر والتعالي. لقد كانت بورياتينسكايا، ببساطة، مثل كثيرين من الناس الأغنياء، تحترم دعوة الكتب الذكية إلى الخير، فتعطي خادماتها فساتينها القديمة- مع أنها لم ترهن يرتدينها لو مرة واحدة، غير أنها لم تكن ترغب في معرفة مصير تلك الفساتين- وهكذا فعلت، ومن دون تفكير، فأعطت بنت أربوزيخا الثياب التي ضاقت على توسا، من دون أن تراعي، لو لثانية واحدة، أن أربوزيخا نفسها هي من خاطها، وأن توسا، عمومًا، أصغر من نيوتشكا، وأقصر منها، لذلك لم تكن أربوزيخا، حتى لو رغبت في ذلك، قادرة على أن تفرح ابنتها بملابس الأميرة القديمة. كانت تعدّ إعادة تفصيل وخياطة هذه الملابس الجميلة عملًا غير لائق، لذلك كانت، ببساطة، تتبرع بها للدير- تطلب من الدير في كل مرة إقامة قدّاسين لراحة روح إيفان إيفانوفيتش أربوزوف، ولدوام صحة وعافية الأميرة ناديجدا ألكسندروفنا بورياتينسكايا.

ظلت الأميرة بعد أن ودعت الخياطة ممتلئة بالفخار والفرح كأي إنسان يقوم بعمل من أعمال الخير.

لقد كانت كل منهما تتصرف بوحي من ضميرها، وكانت كل منهما تسامح الأخرى، وتغض الطرف عما تفعله.

كانت نيوتشكا أكبر من توسا بعام ونصف العام. ومنذ سن الخامسة صارت أمها تأخذها معها إلى بيوت زبائنها كلهم، إلا بيت آل بورياتينسكي. هي لم تأخذها أبدًا إلى هناك- كأنها كانت تخجل، أو تخاف شيئًا ما. ترى ممّ كانت تخاف؟ هل كانت تخاف أن تبدو نيوتشكا التي رسمتها بأحاديثها أفضل من نيوتشكا الحقيقية؟

لقد تعلمت نيوتشكا من الصغر أن تضبط سلوكها بصرامة. أربوزيخا لم ترفع صوتها في وجه ابنتها يومًا، ناهيك عن ضربها، ومع ذلك لم تكبر نيوتشكا مستهترة. كانت فتاة متواضعة، وتحب المساعدة، فتاة نحيلة، حسنة المظهر، تتزين دائمًا زينة تنسجم مع وجهها انسجامًا مدهشًا. تناول أمها (صابونة التفصيل) كي تحدد مكان الفتحة في الفستان، أو قلبًا من المخمل السميك تثبته بدبابيس كثيرة، وتستطيع، بتوجيه من أمها، أن تقصّر ذيل الثوب، فتثنيه وتثبت ذلك بقطب صغيرة، لكن لا بد من الاعتراف بأنها لم تكن تصلح للخياطة، فقد كانت تتذمر من الخياطة صراحة، والأهم من ذلك، أنها لم تكن تدرك العلاقة بين قطع القماش المقصوصة، وجسد الزبونة.

لم تكن قادرة على تخيل ذلك.

أربوزيخا كانت ترى ذلك، وتزعل في سرها، لأن حرفتها ستضيع هباء، وأنها ستضطر لتسليم هذه الحرفة إلى أيد غريبة، تملك المهارة. أربوزيخا، نفسها، كانت تتقن خياطة الأكمام وهي في سن الخامسة من العمر، ترى، ببساطة، كيف يجب أن تكون- وتخيطها. غير أن نيوتشكا كانت تتقن التطريز كما لا يتقنه أحد- بحيث لا يستطيع المرء التميز بين وجه القطعة المطرزة وقفاها، وكانت تستطيع أن تنفذ في البيت أي شيء يطلب منها- كانت، عمومًا، المساعدة الأولى لأمها في كل أعمالها. أضف إلى ذلك أنها ورثت صوتًا جميلًا- غناؤها كان جميلًا جدًا ومن دون أخطاء. لقد كانت تعد بأن تصبح بعد عدة سنوات غادة حقيقية.

ولم تكن أربوزيخا الوحيدة التي ترى هذا الرأي.

وجه أبيها الجزري اللون اكتسب عندها ظلًا نحاسيًا جميلًا. حتى حاجباها ورموشها كانت نحاسية لامعة، وكانت عيناها الزرقاوان تلتمعان أيضًا في وجهها الشاحب المنسجم القسمات، كأنهما من زجاج. العيب الوحيد عند نيوتشكا هو أسنانها الصغيرة النادرة، ونظرتها الوحشية التي تتراقص بسرعة تحت جبينها- كنظرة أرنب أو فأرة.

كأنها كانت تخاف أن تتلقى ضربة، أو أنها كانت تعرف كل شيء سلفًا، وتحاول أن تجاري قدرها.

كانت في التاسعة من عمرها حين ماتت اربوزيخا.

في العاشرة من شهر نيسان، عام 1877، في يوم الثلاثاء، في أسبوع الفصح.

قالوا في الدير- لقد صعدت روحها إلى الجنة مباشرة، فقد شقيت كثيرًا في حياتها.

إنها أمي.

ماما.

لم تتمالك بورياتينسكايا نفسها إلا بعد شهر ونيّف- حين بدأت ورشة بناء ضخمة في "آنّا"، فعلا ضجيج المشرفين، وجماعات العمال، كانوا يبنون حاجزًا للماء من القرميد الصلب- في هذه الفوضى المرحة، الحية، ليس من المستغرب أن ينسى المرء زينته المعتادة. لقد قررت بورياتينسكايا أن تبني منزلًا جديدًا، والأدق، أنها استجابت أخيرًا لطلب ميزيل، الذي صار منذ أن بدأت توسا الكلام، يهاجم الأميرة باستمرار كنحلة برية خريفية لا تحتمل لسعتها.

تستطيعين، إذا كنت ترغبين يا ناديجدا ألكسندروفنا، أن تظلي تعيشين في منزلك الضيق، بل أن تنتقلي إلى "عزبة" ما دامت روحك تطلب الزهد، أو، عمومًا، إلى الحظيرة، لكن النظافة لن تكون مثالية فيها. غير أن لديك بنتًا تكبر، وأنت لا تستطيعين تربيتها في عزلة موحشة، أنا أود لو أنهاك عن فعل ذلك.

ونهاها طبعًا، وكان محقًا، محقًا!

صححت بورياتينسكايا، للمرة المئة، كما يبدو، تسريحة شعرها على النقرة وياقة الثوب، وتلمست الأشياء الصغيرة التي على الطاولة، واحدًا بعد آخر، وأخيرًا وضعت كفها على زجاج النافذة البارد، هذه الشبكة من الحركات الصغيرة التي لا يحتاجها أحد، يمكن أن تخلصها من القلق والكآبة.

أما الحديقة، فبدلًا من أن تساعدها، راحت تسخر منها، تغمز لها بعينها ممازحة، تهز رأسها، تقهقه، تتنهد بصخب. أغلقت بورياتينسكايا النافذة بإحكام،

ثم أسدلت الستائر وابتعدت غاضبة على العالم كله، وعلى نفسها. صرّت أطر النوافذ، ولم تطاوعها وتنغلق بيسر، وقد تراكم عليها غبار ناعم، وأوراق شجر، وعيدان، وحتى أجنحة ذباب جافة.

هي لم تكن تريد تغيير أي شيء. كانت خائفة.

كانت تحب هذا البيت كما هو- قديمًا، مقسمًا تقسيمًا غير منطقي، فريدًا في شكله. كانت تحب الروائح التي تفوح من المطبخ، وتتسلل تهريبًا إلى غرفة الطعام، وطقطقة أغصان الأشجار في الليل، وحتى، مكان مكب الزبالة الذي بني- كعادة أهل الريف- إلى جانب المدخل، الأمر الذي يجعله يلفح الزوار بنفحة دافئة، مفاجئة من رائحة العفن.

عمومًا، لم يكن لديهم زوار.

هذا بالضبط ما تكلم عليه ميزيل.

لقد كانوا يعيشون في جزيرة معزولة.

أثار شراء آل بورياتينسكي للمزرعة "آنّا" حركة وفرحًا في المجتمع المحلي، فمجاورة زوجين يحملان لقبًا أميريًا، وينتميان حقًا إلى المجتمع الراقي، يعد المحيطين بهما بكثير من الفوائد، ويحقق، على الأقل، متعة متبادلة. وهكذا راح الجيران، القريبون والبعيدون، يتشوقون لمصادقتهما، ويطلقون الإشاعات، وينتظرون الدعوات إلى الحفلات الراقصة الصيفية، المفاجئة، الصاخبة.

لكن آل بورياتينسكي لم يكونوا في عجلة من أمرهم.

منحهم الجيران شهرًا كي يألفا المكان- فهما سيقضيان شهر آب في "يابلوتشني سباس"، أو في "ميدوفا"، أو، على الأقل، في "خولشوفا".

لكن شهر آب انتهى، تطهروا بالماء، وجنوا التفاح، وفرحوا بموسم الحبوب الجديد، غير أن القاطنين في "آنّا" لم يرسلا أية رسائل أو دعوات. الخطابات التي أعدها أهل البلدة للترحيب بهما، والأزياء التي خاطتها السيدات لهذه المناسبة ذهبت هباء. كان ذلك منهما سلوكًا، استفزازيًا، وغير لطيف، بل كان مهينًا. بعض

السكان تنازل عن كبريائه فسأل حتى الخدم عن هذا الأمر- لكن سؤاله ذهب عبثًا، فالمزرعة ظلت صامتة منغلقة على ذاتها بشكل استعراضي، ككتلة من الصخر. لذلك اضطرب المجتمع المحلي حين سرت في الخريف فجأة، إشاعة تزعم أن آل بورياتينسكي سيقيمون في "آنّا" بشكل دائم.

وأخيرًا قرر بورياتينسكي في شهر تشرين الأول أن ينتقل إلى فورونيج كي يقوم بالزيارات الثلاث التي يجب على كل نبيل أن يقوم بها إلى كبير نبلاء المقاطعة، وإلى بطرك الكنيسة، وحاكم المقاطعة، إذا قرر الإقامة في إحدى قراها.

قابله الثلاثة ببرود شديد.

الحاكم فلاديمير ألكسندروفيتش ترويبتسكوي، وهو رجل ثري وداهية، سمح لنفسه. حتى بلومه صراحة- مابالك أيها الأمير اللطيف تستخف بمجتمعنا المتواضع؟ هذا ليس جيدًا- أنت جعلت الجميع يزعل منك. مدينتنا ليست بيتربورغ طبعًا. لكن حتى كارامزين- أتذكر كارامازين؟- قال: الفلاحات أيضًا يعرفن الحب. اسمح لي، بالمناسبة، أن أسألك: لماذا جئت وحدك، ولم تصطحب معك زوجتك الغالية؟ زوجتي ماريا ألكسندروفنا تحلم بالتعرف إليها بالمعنى الحرفي للكلمة. إن زوجتي عضو في لجنة رعاية الفقراء، وهكذا ستجد الأميرة، زوجتك، مجالًا مناسبًا تبذل فيه جهودها، إذا كان يهمها، طبعًا، مصير الفقراء. وأنت أيضًا ستجد مجالًا غير قليل لأعمالك. مقاطعتنا تحتاج إلى أيد نشطة، وعقول عظيمة- ونحن كلنا، نعوّل عليك أيها الأمير.

قضى بورياتينسكي الربع ساعة المخصص للزيارة بصعوبة، وخرج تلطخ وجهه حمرة الخجل... ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ ما الذي وجده في هذه الـ "آنّا" الشيطانية غير الدجاج والمصاعب، وهو الآن لا يعرف على من يستند؟ هل سيقول لهم إن زوجته الغالية لا تستطيع أن ترعى أحدًا، لأنها في كل صباح تتقيأ فتملأ البيت كله؟ وأن مصير الفقراء لا يقلقها، بل يقلقها مصيرها، لأن بطنها انتفخ وهي في الخامسة والأربعين...

غص بورياتينسكي بالدخان، فرمى السيجارة وداسها بحذائه كما اعتاد في الجيش، سحقها حتى لم يبق فيها بصيص نار. ثم نظر بحقد إلى جزمته. إنها تتسخ كالشيطان بعد كل خطوتين.

الساحة الكبيرة لم تكن مغسولة. كانت، ببساطة، مفروشة بحصى فظ يصر تحت الأقدام. وكان الجو مشبعًا بذرات من الضباب الرطب، وخيوط العنكبوت التي تلتصق بالوجوه، أما المسؤول عن الساحة فكان يصرخ بصوت حاد كالمذبوح. فساتين السيدات كانت فظيعة، وهنّ يجرجرن خلفهن ذيولها المدعوكة، المبللة. وبالقرب من الكلب "بويارين" احتشد فضوليون بسحن كسحن الخنازير يناقشون سلوك إحدى الأنانيات المستهترات، أو إحصاءات سباق الخيل. كان كل شيء رماديًا، مستكينًا، مثيرًا للشفقة، وكذلك كان سيادته أيضًا.

شعر بورياتينسكي برغبة جامحة في العودة إلى بيته في بيتربورغ، وبرغبة أكبر- في العودة إلى الحرب. في الحرب الأمور جيدة تمامًا، فهناك يستطيع أن يسكر مع أصحابه حتى الثمالة. أزاح الفضوليين، وجلس في العربة فأصدرت صريرًا. ثم أمسك بعنان الخيل و(تمطّق)- أما "بويارين" الذي بللت الرطوبة جلده، فرفع ذيله باعتزاز، ومضى بخطا طويلة متسارعة...

بعد ذلك لم يغادر آل بورياتينسكي "آنّا" أبدًا.

لم يعد هناك وقت للقيام بالزيارات بعد ولادة توسا، ولم يعد القيام بها مهمًا، حين اتضح أن البنت ولدت مريضة، مشوهة، وهذا أمر لم يكن بورياتينسكي يشك في صحته، ولم يستطع ميزيل إقناعه بغير ذلك، فظل تشوهها عبئًا ثقيلًا، لزجًا، يضغط قلبه، كأنه هو، الأمير نفسه، يعاني ضعف العقل، والخرس، والعجز حتى عن إصدار أي صوت مهما ضؤل.

لقد كان مهينًا

أن تكون لديه هذه البنت.

كان ذلك مهينًا ومحزنًا.

وكان الأكثر إثارة للشعور بالمهانة، أن نادينكا كانت تتظاهر بأنها لا تلحظ أي شيء غير عادي، بل تسرع بين الفترة والأخرى إلى غرفة الأطفال، وكان وجهها في هذه الأثناء يكتسي غباء من فرط الإحساس بالرقة، فيصبح منفرًا، بل قبيحًا.

ظلّا، كالسابق، لا يدعوان أحدًا لزيارتهما، كما أن أحدًا لم يكن يدعوهما لزيارته. وكذلك ظل باب غرفة نوم الزوجة مغلقًا. في البداية استمر بورياتينسكي بتفحصه كي يتأكد من ذلك، وبعد فترة كفّ عن تفحصه واستسلم. إنهما الآن لا يلتقيان إلا على المائدة، وكان عليه، حتى في هذا اللقاء، أن يكتفي برؤية شعر نادينكا من الخلف مسرّحًا في كل مرة تسريحة جديدة مختلفة. لكنها بعد ولادة توسا، كفّت عن تسريح شعرها، وصارت تكتفي بضمه كيفما اتفق، وتجمعه في عقدة بسيطة. كأنها فتاة غير متزوجة.

كان كل شيء ينسجم ووجهها، لكنه لم يكن يرى ذلك الوجه.

ثم ظهرت توسا فيما بعد.

في الماضي كانوا يضعون الأطفال في غرف خاصة بهم إلى أن يظهر عندهم الوعي، أي أن يتحولوا من حيوانات صغيرة، ملحاحة، لا تملك وعيًا، إلى بشر. هكذا تربى ولداه، وهكذا تربى هو نفسه. غير أنه كان لميزيل رأي آخر في هذا الشأن، فهو يرى أن حرية الطفل يجب أن تكون مطلقة لا يحدها شيء. وهكذا ملأت البنت المنفرة، السمراء، السمينة نوعًا ما، الصامتة صمتًا مخيفًا، البيت كله بشخصها. إنها ابنته الضعيفة العقل. لقد كانا في كل مكان وفي وقت واحد- الطبيب المرتفع الصوت و... وهي، كمن يضغط على بورياتينسكي لإخراجه من المزرعة، بل ليس من المزرعة، وإنما من الحياة نفسها.

كان الأمير لا يجلس إلى مائدة الطعام إلا نادرًا، فهو، في أغلب الأحيان، يغادر المنزل باكرًا- يتجول في المنطقة كظلّ، بلا هدف، وبلا معنى، كان إذا رأى عربة، أو (طنبر) فلاح، أو أحد المشاة، يغير طريقه فورًا متجهًا إلى الغابة، أو الحقل، أو إلى أي مكان، يستعجل "بويارين" المعتاد على السير خلفه، فيسيران مسرعين إلى أن تحتبس أنفاسهما.

بعد ذلك يقف طويلًا، داسًا وجهه في رقبة الحصان الساخنة.

كأنه مجرم.

إنه يشعر بالخجل

أول مرة في حياته.

الأمر غير معقول، غير محتمل، مخجل إلى حد فظيع.

بورياتينسكي لم يسبق أبدًا أن ارتكب فعلًا يخجل منه، حتى في طفولته، سوى أنه، ذات مرة، وهو في الرابعة من عمره، ركل بقدمه أمه التي كانت تحاول إلباسه جوارب دافئة، وشتمها قائلًا: ابتعدي أيتها العجوز الغبية. آنذاك جلده أبوه بقوة زائدة، وبعد ذلك وضعه أمامه، وهو يبكي، محمرّ الوجه، متجشئًا بشدة كالكبار، وراح يشرح له ما معنى أن يكون المرء أميرًا، وما معنى أن يكون رجلًا، ينتمي إلى آل بورياتينسكي.

كان الأب يستند إلى جدار غاضب من لوحات تصور مئات المقاتلين العظماء، وأبطال الأساطير، ورجالات الدولة المكللة رؤوسهم بالغار، ذوي السوالف الطويلة، والشوارب، والأوسمة والميداليات وتزين ملابسهم الحريرية أشرطة نجوم ماسيّة، لوحات ذات أطر ذهبيّة كمد لون قماشها يفصلها عن ريوريك ستة عشر جيلًا، وخمسمئة عام من فعل الخير، والشرف والنّزاهة، والنبل الأميري.

لم يحدث أبدًا أن انحط أحد من آل بورياتينسكي فأساء إلى ضعيف.

لم يحدث أبدًا أن كذب أي منهم.

أو سكت على خطأ.

أو باع نفسه، أو ربه، أو وليّ أمره.

إن خطأً واحدًا ترتكبه سيلطخ بالعار شرف العائلة التي ننتمي إليها.

هل فهمت؟

كانت الأم الخائفة تحدث ابنها بصوت منخفض خلف الباب المغلق، وقد تملكتها الخشية من أن يجدوا ما يعيب فولودينكا، يمامتها، صغيرها، طفلها الذهبي.

ارحمه واحفظه يا صاحب القدرة الكلية.

ابتلع بورياتينسكي ريقه مرة أخرى. مسح بطرف كمه المخاط والدموع بحركة واحدة، عريضة.

لقد فهم.

فلم يتذلل في حياته أبدًا، ولم يكذب، ولم يخن عهدًا.

هو لم يكن متكبرًا على عامة الناس، ولم يكن متذللًا أمام النخبة. كان لا يرحم في الحرب، لكنه لم يكن ظالمًا، يطلق النار على من يساويه في المكانة، لكنه يحافظ بشدة على الجنود، على الرغم من أنه كان يضربهم أحيانًا على وجوههم بسبب غبائهم، أو كسلهم، أو عصيانهم. وكان في شبابه "يركّب" عن طيب خاطر "قرونًا" للأزواج غير اليقظين، لكنه لم يهن زوجته أبدًا، فيشك في إخلاصها له. هو لم يكن يسرق المال من خزينة الدولة، أو يبحث عن صداقة مربحة، رغم أنه كان في طفولته صديق الإمبراطور الإسكندر الثاني، كان من القلائل الذين يخاطبون القيصر بلغة المفرد من دون كلفة، فقد كانت العلاقة بينهما علاقة زمالة حقيقية.

هو بذل دمه في سبيل روسيا والإمبراطور، ليس بالكلام، بل بالفعل. ها هو ذا عطاؤه المشرف، جراح سيف، وآثار طلقات نارية، وكل ذلك مرسوم على جلده، ندبًا، وتشوهات فظة، كانت نادينكا تضغطها بخدها، أو تتلمسها بأصابعها- مسكين، هل تؤلمك كثيرًا؟

إنها الآن تؤلمني كثيرًا.

لقد عاش حياة جيدة، نزيهة، وواضحة.

لم يكن في حياته ما يخجل منه.

لم يكن في حياته ما يخجل.

قبل أن تلد زوجته طفلتها المشوهة.

لقد أنجب طفلة مشوهة.

هذا يعني أنه هو مشوه أيضًا.

لقد عاقبه الرب من دون أن يرتكب ذنبًا، عاقبه من دون أي ذنب. هذا أمر لا يحتمل، أمر مهين مخيف، لا يحتمل، يشعره بأنه كمن غطّس رأسه في براز ساخن.

هو لا يستحق ذلك. عشيرته كلها لا تستحق ذلك. إنهم، كلهم ملطخون الآن، دمهم رديء، ضعيف، فاسد.

مسح بورياتينسكي وجهه بكل كمه، كما كان يفعل في طفولته، وألقى بنفسه على السرج، وراح يجول من جديد في الحقول حتى وقت متأخر جدًا، كي يتسلل بعد ذلك بهدوء، وعلى رؤوس أصابعه، من الباب الخلفي إلى البيت النائم الذي يكرهه، فيرقد طويلًا، طويلًا، ويصغي علّ الطفلة تصدر صوتًا.

لكن الطفلة كانت خرساء حتى في نومها.

هي كانت تضحك أحيانًا- إنها لا تضحك، بل تجأر بصوت خشن، كأنها كائن فظيع بعثت فيه الحياة بعد غيبوبة طويلة.

اللعاب يغطي ذقنها وفمها صغير أحمر اللون.

أما بورياتينسكايا فلم تكن تلاحظ شيئًا، بل لم تكن تريد أن تلاحظ شيئًا، حتى حين كان الأمير يختلق على عجل سببًا مقنعًا من حيث المظهر، بضرورة سفره إلى بيتربورغ،

وحتى حين لا يعود من سفره من دون أن يبدي أي سبب.

توسا كانت معها، إلى جانبها، حية، ممتلئة الجسم، مرحة. نعم، لقد كانت صامتة في البداية، لكنها تكلمت فيما بعد. تكلمت بشكل ممتاز! وأخيرًا اكتشفت المربية مندهشة أن توسا تتقن القراءة، وأنها تستطيع القراءة بطلاقة بالروسية والألمانية، وقد تعلمت ذلك بنفسها من دون أن يساعدها أحد.

إنها معجزة.

توسا، نفسها، معجزة. هدية من الله.

ولدت من أجلها بالضبط. أضاءت حياتها.

هذا هو الأمر الأهم.

وبورياتينسكايا لم تكن تريد أكثر من ذلك.

لكن ميزيل كان محقًا، فالعيش في عزلة صار مستحيلًا. و"آنا" التي قُدّر لها أن تصبح مزرعة رابحة، والتي لم يكن مالكوها يزورونها سوى شهر أو شهرين في كل خمس سنوات- إما بسبب الأوضاع المالية، وإما بسبب الضجر- لم تكن أبدًا صالحة للإقامة الدائمة. فالبيت الذي بني فيه جناحان إضافيان، لم يصبح أكثر اتساعًا بعد ولادة توسا، ولم يصبح مريحًا. الغرف المحشورة جنبًا إلى جنب، والضيقة، كانت قليلة الشبه بغرف معدّة لاستقبال ضيوف يأتون لقضاء يوم، ثم يبقون، كما هي العادة، أسابيع، بل شهورًا. وبورياتينسكايا التي كانت مائدتها مفتوحة في بيتربورغ، كانت تدرك عدد الخدم، وغرف الخدمة، والجهود التي ستحتاج إلى بذلها كي تستضيف من يرغب في زيارتها.

لقد كانت مضطرة إلى العيش في المستوى الذي يليق بها، وأن تعلم ابنتها ذلك.

استدعوا من فورونيج مهندسًا معماريًا بدينًا، ذلق اللسان، محتالًا، اقترح على الفور التخلي عن فكرة إصلاح البناء- إن هذا سيكلف كثيرًا يا صاحبة السيادة، الأفضل أن نبني، مباشرة، بيتًا جديدًا على الطراز الكلاسيكي مثلًا. وقام برسم عدة أشكال غير مفهومة غمرها بكومة من المصطلحات، وأرى الأميرة صورًا تبدو فيها أعمدة رائعة يلفّها الضباب، لكن بورياتينسكايا حين فهمت أنها ستضطر لا محالة إلى التخلي عن الحديقة رفضت اقتراحه على الفور.

جلست إلى المكتب أدارت مدة أسبوعين تقريبًا ماكنة علاقاتها الضخمة- بأقاربها وأصدقائها. إن ما احتفظت به بورياتينسكايا من حياتها السابقة هو، عمومًا، الرسائل، وحب الأزياء الجميلة فقط. هذا ما كان يربطها بالعالم الذي تخلت عنه طوعًا. لقد ظلت كل هذه الأعوام تقضي ما لا يقل عن ساعة يوميًا في تبادل الرسائل- هذا واجب روتيني عادي لكل سيدة من المجتمع الراقي، وهو واجب لا يمكنها التخلي عنه، مثلما لا يمكنها التخلي عن الملابس التي تناسب مظهرها،

ومثلما لا يمكنها إظهار حالتها النفسية السيئة أمام الناس. لكن بورياتينسكايا كانت تملك موهبة بث الحياة في أبسط الأشياء- فهي لم تكتف بالمحافظة حتى على أضعف خيوط الصداقة، بل، على العكس، حاولت أيضًا أن ترسخ في أذهان جميع معارفها فكرة أنه لا شيء أكثر طبيعية بالنسبة لامرأة ثرية راقية، من أن تصبح أمًا في الرابعة والأربعين من عمرها وأن تعتزل المجتمع وتعيش في الريف.

هم لم ينسوها، بل قدموا لها المساعدة.

وصل المهندس المعماري الجديد في الأيام الأولى من شهر أيار عام 1877. كان بطيء الفهم، متوترًا، مرتبكًا وغير مناسب. قدّم نفسه بإيجاز، كنباح كلب،- بويتسوف

أين بويتسوف؟

هذا بتوجيه من بويتسوف.

وما حاجة بويتسوف إلى هذا؟

هل تم الاتفاق على ذلك مع بويتسوف؟

كان الحوار يدور، كأنه موضوع إنشاء في دفتري في مدرسي.

لم يكن عمره أبدًا عمر مهندس معماري. إنه في الثامنة والعشرين من العمر، فتىً لا يصلح إلا لبري الأقلام وتحضير ريشات الرسم لمهندس. لكن يجدر الإقرار بأنه سبق أن بنى لروكافيشنيكوف "فيللا" في نيجني نوفغورود، يقولون إنها جميلة جمالًا مدهشًا، مع أنها لم تكلف الكثير من المال. الصور التي عرضها أكدت وجود "الفيللا"، وامتلاكه لمواهب معمارية لا شك فيها. لم تكن كلفة العمل تقلق الأميرة أبدًا- لكنها، في أول لقاء معه، قالت له: يجب أن تحتفظ بالحديقة. أنا أعرف أن البناء محكوم بالهدم، لكني لست مستعدة للتضحية بالحديقة.

نهض بويتسوف (بشكل فظ جدًا) واقترب (دون استئذان) من النافذة، نظر وهو يتكئ إلى حافتها، بطريقة طفلية. هو لم يكن جميلًا، وكانت البثور تغطي جبينه وخديه كالأطفال، وفمه متهدل، متطاول مضطرب الشكل، لكنه كان ينظر جيدًا، وبذكاء.

هل تسمحين لي يا أميرة برؤية المزرعة؟ لا، لا، أنا لا أريد مرافقة، أفضل أن أكون وحيدًا.

اكتفت بورياتينسكايا بهز كتفيها- بعد تعاملها مع ميزيل لم يعد يدهشها شيء.

في مساء اليوم التالي أحضر لها بويتسوف نحو عشر مخططات مرسومة بالألوان المائية، وفي كل منها تلوح فيها صورة قصر أسطوري ملوّن بالبنفسجي والأزرق، فيه صالات وممرات، زواياه حادة، وحجمه ضخم، لكنه يوحي بالراحة، كأنه انتزع من كتاب أطفال، تحيط بصورته صورة لحديقة خضراء- بيضاء، ربيعية، مرسومة بالألوان المائية أيضًا.

مرّت بورياتينسكايا بيدها على الصور قلقة.

لكن هذا، لو سمحت...

هذا بيتك الجديد يا أميرة. وهنا،- أشار بويتسوف بظفره الأملس إلى الجناح الأيمن،- هذا بيتك القديم. سنخفيه داخل البناء الجديد. سنعدّله قليلًا، ونعيد إكساءه. وسنبني الجناح الأيسر بالأسلوب نفسه. لا تقلقي، لن يلحظ أحد الفرق بين الجناحين، فالناس لا يرون إلا ما يريدون رؤيته.

لم تجد بورياتينسكايا ما تعترض به على كلامه.

كان ما قاله حقيقة، حقيقة رائعة، تستحق أن يؤمن بها الناس.

وماذا عن الحديقة؟

الحديقة القديمة ستبقى في مكانها. وسنزرع حول الجناح الأيسر حديقة جديدة، كي نحافظ على التناظر، وهكذا سيكون عندك بيتان- حديقتان.

فجأة ضحك بويتسوف فرحًا، وضحكت معه بورياتينسكايا، كأن بناء البيت قد تمّ، ولم يبق سوى أكثر الأشياء إثارة للبهجة والسعادة: حياكة الستائر، وانتقاء الموبيليا، وتوزيعها توزيعًا ينسجم مع المكان، وتزيين المكان بالنثريات، والعلب والمزهريات المملوءة بأزهار قطفت لتوها من تحت النافذة.

نعم، يمكن طبعًا، أن نضع حوض الزهور هنا، لكني أنصح...

انحنى الاثنان كالتلاميذ فوق الرسوم، وقد مدّ بويتسوف لسانه خارج فمه من شدة الحماسة، وخط فوق الألوان المائية الرقيقة، خطوطًا بالقلم الرصاص، واضحة وجافة، وكتب أحرفًا صغيرة، وأرقامًا، بينما كانت بورياتينسكايا، التي كان هو أحيانًا ينسى فيزيحها بكوعه كي لا تعيق عمله، تقف قريبًا جدًا منه إلى حد أنها تشم إما رائحة سترته غير الأنيقة، وإما رائحة عرقه، أو رائحة الألوان المائية التي لم يمض وقت طويل على جفافها.

انفتح الباب ودخلت منه توسا كعادتها دائمًا من دون أن تستأذن- كانت منبوشة الشعر، محمرة الخدين، متهدلة الجوارب. وكانت تلطخ ذيل ثوبها الجميل، وأصابعها، وحتى أنفها، بقع من التراب الأسود. وظهر خلفها طيف المربية الغاضبة، غير أن ميزيل الحاضر في كل مكان هدأها بحركة من يده، ودخل في إثرها.

لكن المودموزيل لم تسمح لي بأخذ الجزرة!

الجلدة الأولى! قال ميزيل بصوت منخفض، فتذكرت توسا وصححت وضعها. مري بإعطائي الجزر دائمًا، لإطعام الخيل يا ماما، وإلا فإني سآخذه بنفسي كما فعلت اليوم.

حسنًا يا عزيزتي، سآمر بذلك.

التفتت توسا نحو ميزيل التفاتة منتصر.

انظر يا غريفا، لقد سمحت لي أمي.

لا تراوغي،- أجاب ميزيل بهدوء،- أنت ما زلت لا تجيدين لهجة الطلب. أنت تأمرين أمرًا. وهذا شيء آخر.

ليكن شيئًا آخر- قالت توسا. لكني سأحصل على الجزر.

اقتربت من بويتسوف ومدّت له يدها مباشرة بطريقة رجولية.

وقدمت نفسها: نتاليا فلاديميروفنا بورياتينسكايا.

بويتسوف، الذي جلده أبوه آخر مرة وهو في السادسة عشرة- لأخذه قطعة خبز من دون إذن،- هز الكف الدافئة، المتسخة، التي امتدت له. وبدا له للحظة أنه يرى

حلمًا أو يهذي- من التعب والتوتر العصبي. هو ظل طول الليل يرسم هذا البيت ويفكر به. لا، لقد ظل طول الليل يلده، وبمعجزة نجا وأنجب حمله الثقيل.

هو كان بحاجة إلى هذا الطلب. كان ضروريًا له.

كما أن الأميرة لم تعرف بعد، الأمر الأهم.

شدته توسا من طرف بنطاله.

هل ستبني اصطبلًا؟ الاصطبل يجب أن يكون مضيئًا، واسعًا، "بويارين" الآن، يعيش في ضيق. لقد شكا لي ذلك هو نفسه. والخيول الأخرى تعيش في ضيق أيضًا.

هل خيولك كثيرة العدد يا أميرة؟

كان بويتسوف يتحدث مع بورياتينسكايا تلقائيًا، وهو لا يستطيع أن يصدق أنّ محادثة عن العمل يمكن أن تقوم فعلًا في هذا العالم مع طفلة تكاد لا تبلغ ركبته طولًا، لكن قد يكون هذا أمرًا عاديًا عند الأمراء. لقد ولد بويتسوف في قرية غير بعيدة عن مدينة نيجني. كان والده فلاحًا من الطبقة الدنيا، كان نصف فلاحي القرية أفضل منهم حالًا.

أنا عندي خيول كثيرة- أجابته توسا باعتداد- ماما لا تحب الخيول ولا تفهمها. لكني أريد المزيد منها. أرني أين سيكون الاصطبل.

قلب بويتسوف الأوراق،- تجاوز صور الحديقة والمبنى،- وبدأ بسرعة وثقة يرسم الاصطبل. وراحت توسا، التي ثنت ركبتيها فوق المقعد، تراقبه مراقبة جدية جدًا، بعينيها الفاتحتي اللون.

هذا الشكل خطأ،- قالت فجأة،- بهذا الشكل سيكون من الصعب أن نسقي الخيول. انقله من هذا المكان! الاصطبل، يا أبت، يجب أن يكون هنا. ألا ترى، أنت نفسك، ذلك؟

عدّل بويتسوف الرسم في خضوع، ورسم بخطين برجًا مستديرًا بطاقتين صغيرتين. أطراف سترته التي كانت من قبل غير نظيفة، صارت رمادية بفعل هباب الفحم المتطاير من القلم. أخرج لسانه من فمه ثانية من شدة حرصه، وجارته توسا

في ذلك بشكل آلي، فبدا الاثنان عند ذلك كأنهما في سن واحدة.

تبادلت الأميرة وميزيل النظرات. وزمت بورياتينسكايا شفتيها تكتم ضحكة.

هل هكذا جيد؟- قرّب بويتسوف الورقة من توسا.

فكّرت برهة ثم أحنت رأسها بالإيجاب.

نعم، جيد. لكن يجب أن أسأل "بويارين" رأيه أيضًا.

قفزت عن الكرسي بحركة ماهرة، دقيقة، ومنسجمة انسجامًا غير عادي، حركة واحدة بينت أنها بنت أسرة ثرية، وعريقة، أعضاؤها كلهم يتقنون التحرك كآلهة الإغريق. "لماذا"؟- بويتسوف لا يعرف السبب. هو نفسه لا يتقن التحرك بهذه الطريقة، ولم يحاول ذلك. لم يحاول.

ما اسمك؟- سألته توسا وهي تدير نحوه رأسها الأجعد الجميل، فبدا لبويتسوف، من دون سبب واضح، أنها أطول منه قامة.- ماما ذكرته لي لكني نسيته.

بيوتر صمويلوفيتش بويتسوف.

لا، هذا اسم طويل جدًا. أنا لا أحب ذلك. سأدعوك ببساطة- بويتسوف. هيا بنا، سأقدمك إلى بويارين.

أمسكت توسا يد بويتسوف وشدته إليها

نظر بويتسوف محتارًا إلى بورياتينسكايا.

أنا لم أخبرك بالأمر الأهم يا أميرة،- تمتم بويتسوف.- أنا لا أملك تصريحًا رسميًا بالعمل بالبناء. والسبب هو أني لا أملك الشهادة اللازمة لذلك...

هذا كله ليس مهمًا! هيا بنا!

أحنت الأميرة رأسها بالإيجاب. هذا فعلًا ليس مهمًا الآن.

انغلق الباب بعد خروج توسا وبويتسوف.

اقترب ميزيل من الطاولة، تأمل الرسوم، ثم هزّ كتفيه بطريقة معبرة.

يا لهذا الخليط! فليكن، إذا كانت هذه رغبتك يا ناديجدا ألكسندروفنا...

لقد أعجبت به توسا.

نعم، أنا لاحظت ذلك. دعيه يبنِ. وسنستأجر مهندسًا آخر للحصول على الترخيص الرسمي. هذا سيزيد النفقات طبعًا.

بدؤوا البناء في أوائل شهر حزيران. ووعد بويتسوف أن ينهي العمل في خلال سنة- ونفّذ وعده. انتصب البيت الريفي الجديد في "آنّا" ضخمًا وجميلًا، واحتفاليًا. وقد سعدت به بورياتينسكايا سعادة لا توصف.

أما بويتسوف الذي اكتسب شهرة ممتازة، فسرعان ما درج أسلوبه في البناء، فبنى في أنحاء روسيا نحو عشرة قصور ريفية رائعة. كل قصر فيها أروع، وأطرف من سابقه. وفي كل قصر كان يبني في الاصطبل برجًا كالبرج الذي بناه لتوسا، معتقدًا أن ذلك يجلب الحظ.

هو لم يحصل على رخصة للعمل بالبناء، كما لم يحصل من قبل أبدًا على التعليم المناسب لذلك.

لقد علّم نفسه بنفسه. إنه طفرة.

مات في عام 1918، أو ربما في عام 1919.

لا أحد يعرف كيف مات، وأين مات.

آنذاك كثيرون ماتوا ميتته.

في الأيام الأولى من شهر حزيران أحضروا للأميرة "جورنال الموضة الباريسية"- فتحته بورياتينسكايا وفي نيتها أن تتصفحه على عجل، لكنها غرقت في تأمله ساعة كاملة- البيت الجديد، الذي لم يشيد بعد، يتطلب ما يناسبه لذلك راحت تقدر عدد الفساتين التي ستحتاجها نهارًا: إنها لا يمكن أن تكون أقل من خمسة عشر فستانًا في كل فصل، أما عدد فساتين السهرة... لا هذا غير معقول- صارت التنورات أضيق، إنها تعيق المرأة في المشي، فيصبح كل همها ألا تقع. وإذا جمعنا غرسات الزهور على طول هذه الحافة سيكون ذلك عملًا ذكيًا جدًا، أما إذا وضعنا بدل الزهور نباتات زينة ذات أوراق خضراء فسيكون ذلك تعبيرًا بسيطًا، عن ذوق رفيع.

إن أربوزيخا ستبتكر، هي نفسها، شيئًا أفضل من ذلك.

رفعت بورياتينسكايا رأسها فجأة وأخذت تفكر، وهي تفتّل بين أصابعها جرسًا صغيرًا فضيًا قديمًا. لقد وعدها بويتسوف بالكهرباء في البيت الجديد، وبـ (نوّاسات) مغلفة بالحرير وغير مرئية، تضاء كهربائيًا أيضًا. رنّت الجرس، وأخذ توترها يتصاعد. رنّت الجرس مرة أخرى. ثم خرجت هي نفسها. ما هذا؟ هل أربوزيخا هنا منذ زمن؟ ما معنى هذا؟ وما السبب؟ أشاح الجميع بعيونهم، وبسطوا أيديهم- لا فائدة أبدًا من كثرة الخدم في البيت، فأنت مضطرة إلى عمل كل شيء بيدك.

ضحك ميزيل ضحكة مكبوتة- كان من الممكن تفسيرها بأشكال مختلفة. هو أيضًا لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن يتقن تبادل المقترحات مع الآخرين.

من فضلك، أرسل فورًا من يستطلع الأمر.

أبلغوها بعد ساعة، مباشرة بعد الغداء. تانيوشكا، نفسها، من أبلغها، انتظرت اللحظة المناسبة، بعد أن نظفوا الطاولة، وذهبت توسا إلى الاصطبل، وخرج ميزيل مع بويتسوف إلى الحديقة: كان تبغ بويتسوف شديد الرائحة، فقالت له الأميرة على الفور أنه يجب ألّا يدخن إلا في الهواء الطلق، فخرج وانضم إليه ميزيل الذي راح يناقشه في موضوع الحرب مع الأتراك، وكيف أنهم أعلنوا حربًا جديدة، كأن الحروب القديمة لم تكفهم، إننا نهزم الأتراك ونضربهم منذ أقدم العصور، وسنفعل ذلك في المستقبل، وليس الأمر في حاجة إلى أي كلام.

أحنت تانيوشكا رأسها بطريقة كلبية، وراحت تصغي إلى أصوات الرجال الطالعة من النوافذ المفتوحة على مصاريعها. تصور! إن هذا الألماني الخالي البال. يبحث أنواع القرميد المناسبة. يا له من كلب ملحاح.

لقد كنت تسألين عن أربوزيخا يا سيدتي...

لوحت بورياتينسكايا بيديها وقالت بصوت رفيع، كما كانت تتكلم دائمًا في طفولتها،- ما هذا الهراء كيف ماتت! لماذا ماتت؟ ثم سكتت وراحت تعبث

بالأشياء التي على الطاولة، كالعمياء أو المجنونة. وهذا بسبب خياطة. رحماك يا رب!

صمتت الأصوات التي خلف النافذة في الحال، ودخل ميزيل مسرعًا- الكلب، يظل كلبًا. ترى كيف سمع، وكيف عرف؟- جلس إلى الطاولة، وهمس بشيء ما في أذن بورياتينسكايا مباشرة. ثم هدل كالحمامة المهتاجة، وبرقت عيناه- انقلعي من هنا! اخرس يا تافه. أنا لن أتحرك من مكاني ما لم تأمرني سيدتي، حتى لو تغوّطت تحتك...

كفى

لوّحت بيدها والدم ينهمر على خديها وقد علقت منه على أنفها نقطة عكرة، بل إن أنفها نفسه احمرّ- كأنما اندلق عليه عصير خوخ،- المنديل يا سيدتي في كمّك، خلف ثنية الكم مباشرة، لقد وضعته هناك، كالعادة، في الصباح،- قالت ذلك ثم لوحت بيدها مرة ثانية،- كفى، كفى، أنا لم أعد موجودة، لا... والكلب مازال يدمدم، ويهمهم بكلام غير مفهوم. إلا أن تانيوشكا سمعت، من وراء الباب الذي انغلق، كيف صرخت السيدة ثانية- وكيف حال البنت؟

ولم تسمع بعد ذلك شيئًا.

في ذلك المساء أحضروا البنت.

وقفت نيوتشكا في عتبة غرفة الضيافة، منكمشة كلها، متخشبة، على رأسها منديل أسود لم يعقد بعناية، وعليها ثوب مشوه من أثواب الأديرة، تفتقت أجنابه. وكانت متعبة جدًا. كانت تنظر مباشرة إلى ما أمامها بعينين زرقاوين واسعتين- ولا ترى شيئًا كبومة في النهار. تغمض عينيها بين فترة وأخرى، كأنما بسبب الضوء. وتأمل بأن كل ما حولها سيختفي تلقائيًا، ويتصحح كل شيء، فيعود كما كان.

تفضلي، يا إلهي، تفضلي

امرأة حسنة الهندام، ثيابها تصدر حفيفًا، هرعت إليها، عانقتها، دغدغتها بصخب، لفتها بتنوراتها البنفسجية، ومرت بتول ثوبها الرقيق على خديها، فشعرت

بشيء واخز يؤلم خدها- أهو قرط؟ نعم قرط، وسلسال بخرزات صغيرة كالذي عند ماما. لكنها مضجرة، لا تلمع. ثبتت نيوتشكا عينيها لحظة على الخرزات الثمينة الباردة، وحاولت عدّها، لكنها لم تفلح- فأغمضت عينيها من جديد. وفاحت رائحة الليلك في الجو- ثقيلة، رطبة، عاصفة، إما من المرأة الصاخبة، وإما من المزهرية الضخمة التي برزت من عنقها متهدلة أغصان السيرين غير النضرة.

ضمت المرأة كتفيها متلفتة إلى هنا وهناك،- هذا هو ميزيل، طبيبنا، وهذا... تانيا، ما بالك تقفين جامدة؟ أين توسا؟ أحضري توسا فورًا!

افتحي عينيك يا نيوتشكا، ما بالك؟ افتحي عينيك! هل تشعرين بألم؟ يا إلهي، يا لليتيمة المسكينة، يا للطفلة المسكينة التعيسة!

أطاعتها نيويشكا وفتحت عينيها- إنها منذ ولادتها، لم ترَ، لا هي، ولاهي وأمها، إلا لمحًا، ذلك الرجل العابس، المعقوف الأنف، ذا السترة الرمادية والتجعيدات الدائرية حول ذقنه المنفّرة غير الحليقة. فيما بعد وهي فتاة في السابعة، سمراء، ممتلئة الجسم، سوداء الشعر، ترتدي فستانًا ورديًا حاكته أمها، أخذت الأم تعلمها كيف تصنع من القماش الرقيق باقة من الورد الاصطناعي. يجب أن تثني القماش هكذا، وتزميه من هنا. انظري كيف تشكل كزهرة حية، لكنه ما زال يحتاج إلى درزة هنا، ودرزة هنا. ثوب المرأة كان أيضًا من حياكة الأم- حريره البنفسجي كان حينها يملأ المنزل، ينفرد فوق الطاولة، وعلى الأرض، كقطعة جليد ملساء.

ابتلعت نيوتشكا ريقها، وأطاعت الكف التي تربت على كتفها بود وتصميم، فجلست مرتبكة- بدت كأنها تنحني، أو تسقط- ثم أغمضت عينيها من جديد. وظلت الأيدي الغريبة قرابة شهرين تنقلها من مكان إلى مكان كأنها شيء من أشياء البيت. كانت الأصوات الغريبة تقول لها أين تجلس، وماذا تأخذ، وتطلب منها الركوع على ركبتيها في الكنيسة، تجلسها إلى مائدة صغيرة، تدس في فمها قطعة شطيرة لزجة باردة. الفطائر، قدّموا لليتيمة فطائر! الفطائر باردة أيضًا وغير لذيذة. كانت تقلي مع ماما (سنبوسك) بالزيت في مقلاتين دفعة واحدة، (سنبوسك)

بالتفاح وغيره، وتضحكان، تتلطخان بالطحين وغيره من الهباب في المطبخ. بعد ذلك تشربان الشاي طويلًا، طويلًا، وتظل أمها تنفخ الهواء على إصبعها الذي لسعته المقلاة الساخنة، تنفخ وتنفخ، ثم تقبله وتقول- لا تقلقي، سيشفى قبل موعد عرسك،- وتستمر تحلم بالبيت الصغير الذي سيشتريانه قريبًا، وبالأحواض التي ستزرعها في حديقته، وبشجيرة الكرز التي ستزرعها تحت النافذة لتستفيد من رائحتها الزكية ومن ثمارها في صنع المربى، وصنع الشاي العطر الذي تحبه، فتحتفظ دائمًا بأوراق الكرز التي تجففها في الصيف لتستخدمها شتاء، وتطلب من الجيران أن يسمحوا لها بقطفها عن شجيراتهم. لقد حلمت دائمًا أن تكون لديها شجيرتها، وتشتاق جدًا لاقتنائها. لكنها في أول سبت صيام سعلت لأول مرة. كان ذلك في العاشر من آذار، وهي تزور قبر الوالد؟ كانتا تزوران قبره في كل أيام سبت الصوم. وكان الجو رطبًا جدًا، والأقدام تغوص في الوحل. لقد حلّ الربيع مبكرًا جدًا، وصار كل شيء خلف النافذة يغني، أو يسيل، أو يتساقط نقطة، نقطة، في جمعة الفرح لم تستطع ماما النهوض من الفراش، لكنها ظلت تؤمن بأنها ستشفى، وترفض استدعاء الطبيب- لماذا نشغل وقت رجل جاد بهذه الأمور الصغيرة، التي نستطيع، أنا وأنت يا نيوتشكا، أن نعالجها بأنفسنا. الله لن يتركنا. اغلي لي المزيد من الشاي يا حبيبتي، الشاي يريحني كثيرًا، ويجعل نفسي أسهل. هكذا انشغلت نيوتشكا بتحضير السماور. وتقطيع عيدان الحطب، وجلب الماء، كانت تفعل ذلك بمهارة أفرحت ماما فرحًا شديدًا. كانت ماما تجلس على الوسائد، تأخذ الكأس وتنفخ، تنفخ كي تبردها، ثم تشمها وتبتسم. كانت تبدو جميلة جدًا- كأن خديها وردتان، غامقتا اللون، وعيناها تضحكان. اشربي، أنت، الشاي معي أيضًا. ألم يبق عندنا سكر؟ هكذا راحتا تشربان الشاي، نيوتشكا تشربه مع الليمون الأصفر، وماما- مع المربى الوردي. لذيذ هذا الشاي، وحلو! كان إبريق الشاي الصغير عندهما أبيض اللون، نقشت عليه زهور، وكان جميلًا جدًا. لكن كل شيء ضاع بعد الدفن. كل شيء ضاع.

في عيد الفصح ذهبت نيوتشكا وحدها إلى الكنيسة كالكبار تمامًا. ظلت واقفة طول فترة القداس، تصلي، لم تلتقط أنفاسها لو مرة واحدة، ومشت مع الجميع في مسيرة الصليب، حاملة شمعتين- شمعتها وشمعة ماما- أوصلتهما إلى البيت مشتعلتين، لم تطفئهما، وكانت تقول في سرها: إذا لم تنطفئ شمعة ماما فذلك يعني أنها في طريقها إلى الشفاء في عيد الثالوث المقدس، بل ربما قبل ذلك. كان كل شيء من حولها جميلًا... سهلًا، مشرقًا مثل ماما، كأن السماء كانت تبتسم، والشارع يبتسم، وكذلك رذاذ المطر الذي لم يكن مطرًا، بل ما يشبه غيمة تسير في داخلها، فتحمي الشمعتين، وكان الناس الآخرون يمشون جميلين، طيبين، وتفوح من كل البيت رائحة خنزير مدهن، وخبز لذيذ الطعم، ورائحة برتقالية لذيذة تخالطها رائحة الفلفل، والزبيب، والحليب الشاحب اللون، واللوز. كانت هذه الرائحة تسبب لها الدوار، فتحس بأن كل ما حولها يدور بفرح ويسر. سمعت وهي على بعد ثلاثة مبان من منزلها، سعال أمها، فبدا لها أسهل وأقل حدة مما كان، وظلت الشمعتان مشتعلتين، تثيران البهجة- ظلت الاثنتان تشتعلان بانتظام، وثبات. أحست بالشال الذي يدثر كتفيها يدفئ ظهرها، وبقطعة لحم الخنزير، ورغيف الخبز المنكه، والبيض الملون، وقطع الحلوى الملفوفة بورق معدني.

لقد أعطتها الراهبات حصتها وحصة أمها، من ضيافة العيد.

أوصلت الشمعتين.

أوصلتهما.

لم تتعثر في مشيتها أبدًا، ولم تنفخ عليهما لو مرة واحدة.

لكن ماما رغم ذلك، ماتت بعد يوم.

ماتت يوم الثلاثاء في العاشر من نيسان، في منتصف النهار.

أرسلت نيوتشكا لتحضير السماور، وماتت وحيدة.

لاحظت نيوتشكا، وهي في المطبخ، أن أمها توقفت عن السعال، فقالت في سرها: ها هو شفاؤها قد تحقق قبل الثالوث المقدس. لقد رحمنا الله، وساعدتنا

الراهبات. لقد وعدن أمي بأن يصلين من أجلها دائمًا- لم يخلفن وعدهن، فاستجاب الله لهن، وشفيت. هرعت إلى أمها، فعلق إصبعها بإحدى حطبات السماور وأصيبت بحرق. يا لهذا السماور الملعون! لكن لا يهم. ماما ستنفخ على الحرق وتقبله- وسيطيب قبل العرس.

ركضت هكذا، من دون السماور، مادة إلى الأمام إصبعها المحروقة.

ماما، انفخي عليها!

كان الدم يلطخ ذقن الأم، وصدرها، واللحاف.

كان في كل مكان.

اللطخات الحمر كانت حمراء، لزجة، حية.

لم تر نيوتشكا شيئًا بعد ذلك، لأنها أغمضت عينيها. وظلت فترة طويلة جدًا لا تريد فتحهما. كانت فقط تسمع وتحس بأيد كثيرة، كثيرة، تحرك الأشياء من مكانها، تجرها، تأخذها إلى مكان ما. هي لم تفتح عينيها حتى في المقبرة، إلا أن وجهها وشفتيها ضغطتا مرتين بقوة وبرودة شيئًا ما- أحست بمطرقة تدق صدرها باستمرار وانتظام، وبجسم ينتفض فيصدر صوتًا كصوت برد يتساقط فجأة بحبات كبيرة، وناح الجميع، وبكوا، واختلطت وعلت أصواتهم. هي فقط، ظلت تقف في زاويتها الضيقة، المعتمة تمسك بيدها يدها الأخرى، تضغطها بكل ما لديها من قوة، ولا ترى شيئًا. هي لم تكن تريد أن ترى، لكنها سمعت صوتًا قريبًا جدًا منها يهمس لائمًا- انظر، إنها فاقدة الشعور تمامًا، لم تذرف دمعة واحدة، بل حتى لم تلق نظرة واحدة على قبر أمها، مع أن المتوفاة لم تكن لتبخل عليها بروحها. يبدو أنها ورثت عن أبيها عفن أسرته وإجرامها. لكنها، مع ذلك، لم تبك.

فيما بعد، توقف تساقط البرد، فقادوها من جديد، لكن طويلًا هذه المرة، وإلى مكان بعيد، لم تكن الأقدام هنا تخوض في الوحل، بل تمشي فوق تراب ناعم، وكان الجو دافئًا، جافًا، اخترق لمعانه حتى الجفون المغلقة، لمعان يختلط فيه اللونان الأسود والأبيض كما في بيض عيد الفصح. بيض عيد الفصح بقي هناك في

البيت، هي لم تأكل سوى بيضة واحدة، أكلتها خلسة، وقطعة صغيرة من الخبز المنكّه، هذا مؤسف، فالخبز الذي أعدته الراهبات كان لذيذًا، وكان ربيعيًا بشكل ما يبعث الفرح، الأمر الذي جعلها تنسى من أين هي آتية، وإلى أين هي ذاهبة، ابتسمت لأنها اشتمت رائحة أوراق الأشجار اللزجة، النضرة، والتراب الساخن، وبواكير الزهور الصفراء. لكن تلك الرائحة اختفت فيما بعد، فتمددت ببساطة على الأرض، ونامت نومًا عميقًا جدًا. كانت بحاجة شديدة إلى النوم- ماما تسعل بشدة طول الوقت، لا سيما في الليل، فلا تستطيع النوم، غضبت ذات مرة، وشتمت، والنوم يغالبها، وبكت من شدة الإرهاق- اهدئي أيتها الملعونة، دعيني أنام أخيرًا- فهمست ماما بلهجة المذنب- سامحيني يا بنتي، سامحيني يا بنتي، سامحيني يا بنتي- ومع ذلك استمرت تسعل، فخنقت سعالها بالوسادة، ثم كفّت بعد ذلك وهدأت، لقد أنقذتها شمعتا الفصح، اللتان أوصلتهما مشتعلتين إلى البيت، وهكذا حدثت المعجزة- تحسن وضع أمها، فزرعت غرسات الكرز تحت النافذة، وراحت تغني لأمها وللمعطف المنزلي، وبدا البيت أبيض، أبيض، مستديرًا وأملس كبيضة مسلوقة مقشرة، وكانت ستائره زرقاء، كذلك كان منديل ماما أزرق- أزرق واحتفاليًا أيضًا.

يا إله السموات.

أمسكت الأيدي الغريبة نيوتشكا وأخذتها، لكنها كانت فاقدة إحساسها بالأشياء. كانت لا تعرف شيئًا، غير أنها كانت تبتسم من أعماق نومها الكبير الذي انتظرته طويلًا- كان الوضع مريحًا ومفرحًا، فحتى القسيس الذي حملها، وهو رجل نحيل، وغير متناسق، تعذبه القرحة، وكثرة الأولاد، والفقر، وهذا ما جعله، طبعًا، متعبًا، قاسي القلب- حتى هذا، أزاح من طريقه غصنًا حادًا ناشزًا، وعدّل وضع البنت ليكون أكثر راحة لها، وأسند رأسها إلى كتفه. دمدم يخاطب العجائز السود اللواتي إلى جانبه- غطين وجه البنت بمنديل، سيشويه الجو الحار. لكنهن لم يسمعنه، فشتمهن ومشى، يغطي بظله وجه نيوتشكا، في الطريق المتعرج، الغريب

الغبي، الطريق الأطول والأغبى في حياته. وكان في أثناء سيره يردد في سره باستمرار حديث النبي إيليا عن غيمة بحجم راحة اليد غطت السماء فورًا بمشيئة الله، ويدعو الرب أن يرسل تلك الغيمة، لكن الغيمة لم تأت. وكل ما حدث هو أن قدميه اهترأتا وابتلتا تمامًا في جزمته الرديئة.

لكنه حمى وجه نيوتشكا.

وحمى نفسه أيضًا.

استيقظت بعد ساعات كثيرة وحيدة تمامًا، ممددة على سطح قاس، وضيق. فتحت عينيها، فلم يغيّر ذلك شيئًا، كان الظلام حولها دامعًا، ورطبًا، وساكنًا، فخطر في بالها فورًا أنهم دفنوها مع أمها- لأنها كانت بلا إحساس، ولأنها أطلقت الشتائم بحق ماما في تلك الليلة، فخافت خوفًا شديدًا، لم تستطع أن تصرخ، بل لم تستطع حتى أن تتحرك في مكانها. فكانت راقدة، ممددة تحس بخشبات التابوت من حولها قريبة، قريبة، رطبة، تفح منها رائحة الصمغ،- وتصر صريرًا خافتًا، تحت ضغط التراب عليها من كل الجهات، وتنحني، وتنكمش، وتسمع من خلفها صوت الديدان النشطة، وهي تقضم لنفسها طريقًا مخيفًا، ويأتيها من البعيد- البعيد صوت أمها الضعيف المعتذر- سامحيني يا بنتي سامحيني يا بنتي، سامحيني يا بنتي، فراحت تردد متمتمة: سامحيني يا ماما سامحيني يا ماما سامحيني يا ماما، إلى أن أدركت أنها ليست في القبر عمومًا، بل في جهنم، والنقطة الحمراء الصغيرة في الزاوية المظلمة- هي عين الشيطان التي تراقبها، مزمومة، صفراء- حمراء، فظيعة، غير حية، تقترب تارة، وتبتعد أخرى، فراحت تحدّق في هذه العين، دون أن تطرف عينها، وتكرر سامحيني يا ماما سامحيني يا ماما، حتى تحول السواد إلى لون رمادي خفيف، كأنه مسح بخرقة مبلولة.

وظهرت فورًا من اللاوجود جدران، وسقف مقوس، ونافذة عليها شبكة ثخينة، وكوّة في الزاوية فيها أيقونة، ومصباح بمظلة حمراء، مصباح ذو ضوء هادئ وغير مزعج أبدًا. ورنت خلف النافذة أجراس بصوت ناعم، رد عليها بقوة على

الفور صوت مطرقة رشيقة، وفاحت رائحة دخان حيّ لذيذ، ونبح كلب بمرح وهو يجرجر سلسلته، وقال صوت أنثي، منغم، ودود- آه منك "يا بنت الساقطة" ألم تجوعي؟ هيا، كلي، كلي- وعلى الفور، من دون أي فاصل ارتفع فوق قرقعة الصحن، وصوت المضغ يقول بحنان: "أنت دخلت إلى القبر أيها الخالد، لكنك دمرت قوة الجحيم وبعثت منتصرًا يا مسيح"، ثم انقطع الصوت كأن أحدهم قطع الخيط بينه وبين الحالة الاحتفالية.

انفتح الباب، ودخلت راهبة نحيلة، سوداء، كأنها مكونة من مجموعة من الزوايا الحادة، الجافة، وقالت- انهضي يا يتيمة،- فنهضت، لأن الراهبات احتضنها إكرامًا لماما، ماما التي ساعدتهن كثيرًا، بكل ما تستطيع، فحاكت للفقراء، ولغيرهم، الثياب مجانًا، الكل الآن صار يسميها اليتيمة، أما هي، المسحوقة بذنبها تجاه أمها، فصارت تبذل جهدها لإرضائهن، وتطيعهن في كل ما يطلبنه منها، لكنها لم تكن تفهم لماذا يسود الظلام دائمًا، ولماذا يبدو كل شيء أسود ورماديًا، كانت تزم عينيها دائمًا، وتغمز بهما، وقد وبّخنها لما ترسمه من تعابير شيطانية على وجهها، بل إنهن ضربنها مرة، ضربًا خفيفًا، كي تتصرف بحكمة، لكن عربة جميلة جاءت فيما بعد، عربة بدولابين، نقلوها عليها من جديد إلى مكان بعيد- على حصان أحمر، تشوك- تريوك- تشوك- تريوك. كانت الرحلة جميلة. هي لم تركب في مثل هذه العربة من قبل. كانت تنظر إلى ما حولها بكل عينيها، مندهشة، لقد حلّ الصيف، والحدائق مزهرة- خضراء، وليس كل ما حولها أسود- ها هو ذا ظهر الحصان يلتمع كأنه ذهب، كل شعرة فيه- شرارة حية، والمنزل الذي نقلت إليه كبير، أكبر من كنيسة، إنه بيت لا مثيل له، لا مثيل لغرفه، وللمرأة ذات الثوب البنفسجي، والرجل الغاضب في بزته الرمادية، والبنت التي ارتدت ثوب أمها، وراحت تنظر من تحت حاجبيها، كأنها لا تعرف ماذا تفعل، هي، نفسها، كانت أيضًا لا تعرف ماذا تفعل، لأن الأيدي الغريبة هي التي كانت تقرر لها ما يجب أن تفعله، قادوها إلى الغرفة وقالوا لها- هذه الآن هي غرفتك الجديدة، وهذا سريرك الجديد، وهذه ثيابك الجديدة،- تنحنح الرجل

الرمادي بصوت عال خلف الباب- هذيان! إنه هذيان التيفوس يرافقه ارتفاع بدرجة الحرارة! اعذريني يا أميرة، أنصحك بعدم ارتكاب أية أخطاء، هذا غير جائز! أعطها لمربية ترعاها في مكان ما. وتنتهي المسألة! هل فكرت بتوسا، وأي تأثير سيكون لهذه البنت عليها؟ هذا بيتي- أجابت المرأة ذات الفستان البنفسجي-وهذه ابنتي، أنا التي أقرر ما هو مسموح لها، وما هو غير مسموح!

اصطفق باب، ثم اصطفق باب آخر،- وتتالى صوت صفقات الأبواب أبعد، فأبعد، أخيرًا سألتها البنت التي ارتدت ثوب أمها- من أنت؟ هي لم تعرف بماذا تجيبها، اكتفت بأن أحنت رأسها ثانية كما علمتها أمها: احني رأسك هكذا، واخفي عينيك خلف رموشك، فالناس لا يحبون أن تنظري إلى عيونهم مباشرة، هذا يربكهم، ويشعرهم بثقل نظرتك،- كان يسرها ألّا تنظر، وأن تكتفي بالسمع فقط، عاد الهمس من جديد- يتيمة، طفلة مسكينة- فقالت المرأة ذات الثوب البنفسجي: إنها آنيت، فصارت آنيت. صارت تستجيب لهذا الاسم، وتطيع الجميع، الجميع من دون استثناء، وترضي كل واحد منهم. كانت تخفي عينيها خلف رموشها، ولا تنظر إلى عيني من يخاطبها مباشرة، تجلس حيث يأمرونها أن تجلس، وتنهض حين يأمرونها أن تنهض، وتمشي بهدوء. أخذت تتكيف وتعتاد، إلا أنها ظلت تغمض عينيها فجأة في منتصف الكلام، كأنها تنام. غير أنهم كفّوا عن توبيخها أو ضربها بسبب ذلك. ميزيل الوحيد الذي كان يزم فمه الرمادي، (ويتمطق) بانزعاج، كمن يمتص عفنًا من داخل سنه، ومع ذلك ظلت تغمض عينيها وهي تتكلم.

وهكذا لازمتها هذه العادة طول حياتها.

لم يعد أحد يناديها نيوتشكا.

لا أحد، ولا في أي وقت.

كرهها من أعماقه.

فور دخولها، لا، فور دخول توسا، وقف الجميع صفًا واحدًا- ففهم كل شيء على الفور، وكاد يختنق من شدة كرهه وخجله. لقد نسي الآن نبضات الدم الثقيلة

الراعشة، والكيس الذي ضمه تحت إبطه، وأصابع قدميه المضغوطة الملتوية في حذائه. لقد عاش ذلك وهو لا يريد أن يعيشه مجددًا، لا. هو لا يريد أن يقارن، أن يرى أن طفله ليس كالآخرين وأنه أسوأ منهم. صار يكره أبناء الفلاحين- كلهم، دفعة واحدة، كل الذين يتمتمون، ويصخبون، ويغنون، ويصفرون- لأنهم يتكلمون، وتوسا لا تتكلم. لكنها، رغم أنها خرساء، كانت أذكى من هؤلاء المتوحشين المشوهين، وعقلها أكثر حيوية. إنها، في نهاية المطاف، أجمل منهم، وأكثر سعادة، فقد كبرت في جو من الرفاه الزائد، ومن الحب الزائد أيضًا- كان يتشبث بهذا، ويدمدم ناقمًا، مخيفًا، ظالمًا كالقدر، بأن ذلك سيحميك من كل المصائب يا عزيزتي، لن تتلقى ضربات على قفاك، لا وجع أسنان، ولا صدمات، لا جوعًا، ولا فقرًا مدقعًا، أما هؤلاء فسيموتون جميعًا، سترين، سيموتون بلا معنى، وبلا فائدة، أغبياء، تافهين، وقبيحين كدملة انفلقت إلى نصفين ممتلئين بالقيح، أما أنت فستكونين رافلة بالحرير يا دبدوبتي، أنا لا أطيق هذا الحرير الشيطاني، الزلق، البارد، لكنك سترفلين فيه، وستكونين سعيدة- ستعيشين حياة مديدة- مديدة، لا يعكر صفوها شيء، لأنه إذا كان في العالم واحد يستحق أن يعيش في سعادة مطلقة، فهو أنت، أنت فقط، ولا أحد غيرك.

كل هذا زال حين نطقت توسا.

تمالك نفسه، وتجاوز هذه الحالة، تجاوزوها جميعًا.

لكن، ها هي ذي عادت، ضربته على وجهه مباشرة، كقضيب غليظ ضربته به يد شريرة، كصفعة على الخد، ظالمة، وسافلة، وعلنية، فعاد ميزيل يقارن كنزه بطفل آخر، ببنت أخرى، غريبة، منفّرة، فرأى أن هذه البنت أفضل.

أفضل من توسا

أفضل منها، لا مجال للمقارنة.

إنها أفضل!

وبعينين كأنهما ليستا عينيه، راح ينظر من الأعلى، من زاوية منحرفة إلى اليمين قليلًا، هو حتى لم يكن ينظر- كان يقيّم، كأنه ينوي شراء قطعة زينة فراح يختار من

بين القطع الكثيرة أثمنها. نعم، إنها جميلة، لا شك في ذلك- أنيقة حتى في الفستان القبيح، ذراعاها جميلان، وساقاها لينتا الحركة، بشرة وجهها رقيقة ونظيفة، رموشها طويلة، خصلات شعرها الناعم تنسدل حمراء، وردية بمحاذاة خدها الشاحب. إنها أشبه بتمثال صغير جميل. تنحني قليلًا باعتداد محبية، كأنها ولدت في قصر وليس في صندوق. توسا إلى جانبها- تبدو كخادمة مجهولة الأصل، عريضة المنكبين، معقوفة الأنف، تغطي ركبتيها الكدمات- القديمة والجديدة، وشعرها منبوش دائمًا، وقد انزلقت شريطتها فغطت عينيها. تنشق بأنفها وتنظر إلى البنت الجديدة بفضول مرح، كما تنظر إلى الأشياء كلها. تنشق بأنفها ثانية، وتصحح وضع شريطتها بحركة صبيانية حادة، ثم ترد رأسها إلى الخلف. على خدها آثار خدش، وتحت أظافرها دائمًا آثار وسخ من الاصطبل، لا يمكن تنظيفه بأية فرشاة.

فمَن، بعد هذا سيشك في أي منهما الأميرة؟

لقد كان على ميزيل أن يدرك، وأن يستنتج آنذاك مباشرة، في تلك اللحظة، أنه هو السبب في كل هذا، لكنه لم يستطع، لم يستطع أن يعترف بأنه هو وحده السبب وليس توسا أو نيوتشكا. كان صعبًا عليه أن يذهب للمرة الثانية، إلى المرآة، وينظر فيها إلى عينيه مباشرة، ويعترف بالحقيقة. لقد كان ذلك صعبًا صعوبة لا تطاق. إنه الآن يقف أمام المرآة ضئيلًا، شبه أعمى، لا يستطيع أي شيء أن يموّه ما فعله، أن يخفف لو قليلًا من بريقه الذي يخطف البصر... للحظة بدا له أن الذي يسطع ليس ما فعله، بل مبضع حاد، خطر، رفيع، بارد كالجليد، يشق طريقه تلقائيًا. هنا تذكر كيف كان آنذاك يرتجف كله من البرد والخوف والخجل، رغم الحر الشديد، وكيف لم يكن صلبًا فيه إلا أصابعه التي ظلت تتشبث بالمبضع ولم ترتجف.

لقد اعترفت أصابعه بأنه هو السبب

واعترف المبضع

واعترف، هو نفسه، في نهاية المطاف.

لكنه الآن- لا يستطيع.

من السفالة أن يحارب المرء طفلًا استقبله حين جاء إلى هذا العالم. ليس مهمًا أن يكون أخرجه من رحم أمه، أو من صندوق،- المهم أنه أخرجه بيديه، جسمًا ضئيلًا، دافئًا، حيًا. ميزيل ما زال يذكر حتى الآن كيف نزع عن رأسه ورقة الكرز البري. ويداه تذكران ذلك.

إنها مجرد طفلة، صغيرة جدًا، يتيمة لا يحتاجها أحد. هي نفسها فرضت نفسها، مثل ورقة الكرز البري التي التصقت برأسها. فلتبق، إذن، ولتعش. إن توسا تحتاج، في نهاية المطاف، بنتًا في سنها، صديقة تشاركها الصراخ واللعب بالحصى، والجلوس في السرير حتى الفجر، تتهامس وإياها عن الحب الأول- أتراها تحدثك أنت، أيها العجوز، عن ذلك السافل الذي سيظهر قريبًا، قريبًا جدًا، بعد حوالي عشر سنوات (ستغفل عنه- لن تراه) ويتجرأ فيخطف قلبها؟ إن هذه البنت ستصبح تانويشكا ثانية، خادمة متطوعة، وستحب توسا، سترعاها، وتدللها، وتربي أطفالها، وتعتني بها بعد موتي- أنا نفسي سأعلمها وأريها، وأشرح لها كيف تفعل ذلك، وأي عرق من عروق توسا يجب أن تدلّك، حين تصاب توسا بالصداع، وماذا ستسقيها إذا أصابها سعال. أنا سأزول، أما هي فباقية، وستحب توسا، يا ويلها إن لم...- أنا سأموت مهما راعيت صحتي وحرصت عليها، أما توسا فستبقى وحيدة، وحيدة تمامًا، قد يحدث هذا بعد ثلاثين عامًا، وقد يحدث- بعد ثانية، لأن قلبي. بوخ- بوخ- يقفز إلى هنا، وهناك، وإلى كل الأنحاء، لا، لا أستطيع، لا أستطيع، إن هذا فوق طاقتي.

ضغط ميزيل بنصر يده اليسرى، ضغطه حتى الازرقاق، محاولًا تخفيض دقات قلبه، التي لم تكن دقات بل ضربات.

من السفالة، والعيب، وحتى النذالة أن يكره المرء طفلًا.

لكنه كرهها.

لقد فعل كل ما يستطيع كي تختفي نيوتشكا، كي ينفوها، يطردوها، يعيدوها إلى المكان الذي جاؤوا بها منه- إلى الملجأ، إلى الدير، إلى الشيطان الأصلع.

لقد تمنى حتى أن تموت. وهيأ في ذهنه سبب الوفاة، وحلم به. تخيله اختناقًا شرسًا، انفلونزا. لا، ليذهب كل هذا إلى الشيطان- فهي قد تنقل العدوى إلى توسا. الأفضل أن تموت بالسل، بالنزيف الحاد كأمها، هكذا ستموت بسرعة، وبساطة، ومن دون ألم تقريبًا. لا، أنا حتى سأعالجها، هذا وعد. سأعالجها يا إلهي، أقسم بتوسا! رغم أن العلاج لن يكون مجديًا.

الأميرة رفضت أن تسمع أي اعتراض. تمسكت بنيوتشكا، أظهرت لأول مرة في حياتها، ليس عجائب في الرحمة، بل في العدالة (احتضان طفلة في بيت غني كان أمرًا عاديًا، لم يكن منّة أو رحمة، بل واجب عادي تمامًا). صار كل ما تناله توسا وحدها، يقسم بصرامة إلى نصفين: تسريحة شعر واحدة، وملابس متماثلة، وتعليم واحد عند نفس المعلمين. كانت بورياتينسكايا تقبل الاثنين قبل النوم، وتراعي في ذلك الدور بصرامة: القبلة الأولى اليوم لتوسا، وغدًا لنيوتشكا، كي لا تزعل أي منهما.

كانت كل حلوى تقسم إلى قسمين متساويين، فحين جلبوا عن طريق البريد من بيتربورغ برتقالًا (كان البرتقال معبأ في علب، وكانت كل برتقالة مغلفة بورق البابيروس الرقيق)، كانت الأميرة تقشّر كل برتقالة وتعدّ (حزوزها) ثم تقسمها بدقة إلى نصفين، كي لا تظلم أي بنت من بنتيها.

كانت الآن تسميهما بنتيها- عطية السماء التي تمنتها منذ زمن

غير أن توسا كانت تحشر حصتها من البرتقال في فمها على عجل، فتغص وتبلل أصابعها وذقنها بعصير البرتقال. وكانت تتساءل: "هل يأكل بويارين البرتقال؟ أنا، على كل حال، سأحاول أن أطعمه. أما نيوتشكا فكانت تأكل حصتها ببطء، وأناقة، فلا تتلطخ ملابسها أبدًا بأية نقاط عصير أو نثرات. هي لم تكن تستعجل في المضغ، أو تحاول أن تسبق أختها، أو تطلب المزيد. لكنها كانت في المساء أحيانًا تتنهد وترتعش وتسند خدها إلى ركبتي برورياتينسكايا كأنها تريد أن تختبئ. وكانت بورياتينسكايا تجيبها بتنهيدة، وتنحني فتلمس بشفتيها شعرها الأحمر الخفيف الدافئ.

Toussia, ma cherio, viens, maman veut t'embrosser, egge aussi[1]

توسا لا تستجيب- تفرد على السجادة الأحصنة الخشبية التي نحتها لها خصيصًا نجار من بوبروف، يجدر القول إنه كان ماهرًا. قبله طردت توسا نجّارين محليين دون رحمة، وعابت شغلهما- هل هذه حوافر خيل؟ لا جود لمثل هذه الحوافر عند الخيل! والرؤوس التي نحتاها صغيرة جدًا. أما نجار بوبروف، فهو نفسه كان مربي خيل. وقد أحسن صنعًا- صنع قطيعًا من الخيول: خيولًا عربية، وخيولًا من أرلوف، بل نحت حصانًا من سلالة قديمة، ذا مظهر عريض جدًا، مكسوّ بشعر كثيف، وغرة ضخمة، انسدلت موجة خشبية على جسم الحصان حتى ركبتيه.

لقد أنفقت الأميرة المال بشكل جنوني ثمنًا لهذا القطيع- وكانت توسا شخصيًا تلوّن الأحصنة، ظلت شهرًا كاملًا تمرّ عليها بالفرشاة يوميًا، ترسم كل تفصيل وكل عرق في جسدها مهما كان صغيرًا. لوّنت بعضها بالأسود، وبعضها بالرمادي، لكنها لوّنت أغلبها باللون الأحمر الفاتح. لون بويارين طبعًا. الأمر الذي يدعو للتساؤل هو من أين جاءت بهذا الصبر؟ فقد كانت دراستها سيئة، ولم يكن شيء يستهويها سوى هذه الخيول الدمى.

تنهدت بورياتينسكايا مرة ثانية، ومسدت رأس نيوتشكا- تمسيدًا خفيفًا جدًا، وبرقة حقيقية. أما نيوتشكا فخبأت رأسها في التنورة الدافئة وراحت تفكر- هذه رائحة ماما، ماما خاطت هذه التنورة، ماما، ماماي الحبيبة،- وهي تمسح خدها بالقماش السميك، وتضغطه راعشة إلى حد الاختناق. ظلت الحالة هكذا عامًا تقريبًا. بعد ذلك وجدت الأميرة خياطة أخرى، ووزعت الأثواب التي خاطتها أمها، وزعتها كلها، أما نيوتشكا فلم تعرف إلى أين بالضبط، لكنها كفّت عن إسناد رأسها إلى ركبتي ناديجدا ألكسندروفنا، وصارت تقبل يدها- وفي مرات كثيرة كانت قبلاتها لتلك اليد أشبه بالنقر.

الحمد لله على أن أحدًا لم يلاحظ ذلك.

---

(1) توسا، حبيتي، تعالي كي أقبلك، أنت أيضاً

حتى ميزيل.
هو كان صارمًا جدًا، كان لا يحبها
بل هي نفسها لم تكن تحب نفسها
سامحيني يا ماما سامحيني يا ماما سامحيني يا ماما.

في 26 حزيران عام 1878، انتهى أخيرًا بناء بيت مالكي "آنّا" الجديد، طافت فيه الأميرة مانعة نفسها من الاستعجال نحو الأماكن الباردة، المحمية من حرّ الشمس- كان الضوء والهواء يملآن جو البيت، الذي كان يعد بسعادة الأطفال فيه. كان البيت مبنيًا بإتقان حتى أدق التفاصيل- مبنيًا بعقل وذكاء. وكانوا قد جاؤوا ببعض الأثاث، وراح النجارون يزحفون في الغرف على ركبهم، حاملين مطارق صغيرة يثبتون بها الأغطية الحريرية التي كانت بعض قطعها السميكة والملونة تبدو كقطع خشب ملونة أسطورية منثورة في كل مكان بحيث لا يمكن تجنب المرور فوقها.

كان كل شيء يفوح برائحة لذيذة، رائحة الخشب والألوان الطازجة، ويضج بالحياة.

كان كل شيء ممتلئًا بالمستقبل

حُدّد الاحتفال بالانتقال إلى المسكن الجديد في الأول من شهر أيلول، وتمت التوصية على مئات من بطاقات الدعوة الصغيرة، الرشيقة العاجية اللون، فرحت بها بورياتينسكايا لأنها كانت ستوقع على كل واحدة منها، وأفرحها أيضًا أنها ستناقش قائمة طعام أيام الاحتفال الثلاثة مع الطباخ الذي تفقّد المطبخ لتوه، تفحّص الصواني المستديرة، وأطلق من حلقه صيحة إعجاب. الفساتين كانت جاهزة أيضًا للأميرة والبنتين، تكفيهن لثلاثة أيام الاحتفال، وهي على وشك الوصول من باريس، ملفوفة بورق حريري، وممددة في عشرات من العلب. وورث ساحر حقيقي طبعًا، ولكن المؤسف، المؤسف جدًا، أن أربوزيخا لم تعش حتى هذا اليوم، فهي من كان سيخيط لهن فساتينهن لو كانت حية...

شعرت بورياتينسكايا للحظة بالحزن القديم، حزن العام الماضي الذي عاشته، لكنه بات مألوفًا، ولم يعد مخيفًا- ثم نسيته- لا، لا، ماذا تفعلون؟ يجب أن تضعوا هذه المرآة مقابل النافذة. أليس هذا واضحًا؟ طيف الحديقة الفتية، المغروسة في أيار، الحديقة الصغيرة، النادرة الخضرة، تنقّل منعكسًا على سطح المرآة الأملس، ثم استقر أخيرًا في مكانه الجديد، والذي كانت بورياتينسكايا واثقة تمام الثقة بأنه سيظل فيه إلى الأبد. أين غريغوري إيفانوفيتش؟ هل رأى جناح إقامته؟ ما معنى أنه ليس هنا؟ جدوه على الفور!

26 حزيران كان بالنسبة لميزيل أصعب أيام السنة. لقد بلغ السابعة والأربعين. شيء لا يصدق حياة كاملة ضخمة، لا يتاح لكلّ إنسان زائل أن يحياها. أما هو- فعاشها. والله يعلم أنه عاشها بشكل لائق. لماذا، إذن، تتكوّم هنا، في أكثر زوايا الحديقة القديمة عزلة؟ لماذا تجلس والعرق ينضح منك، فوق العشب، وتسد أذنيك بكفيك؟

أوم- م- م-. أوم- م-م

انس. إن أي إنسان سينسى لو كان مكانك. لقد حان الوقت. كفى. كفى.

لكن- لا.

لكنه يعود من جديد، يا إلهي!

أوم- -م-م. أوم- م- م

كما في ذلك اليوم تمامًا، كما في 26 حزيران عام 1831

كفى يا إلهي! أنا لم أعد قادرًا على الاحتمال!

هذا مستحيل

لا يطاق، لا يطاق!

نهض ميزيل، متوترًا، محمر الوجه، مشى بخطا متسارعة وهو ينفض عن بنطاله العشب الجاف، وأوراق الشجر الذابلة. كان يبحث عن توسا-يودّ، ببساطة، أن يحملها بين ذراعيه، أن يمسك بيدها، يشتمّ رائحتها، يضغط

شعرها بخده، يريد أن تكون إلى جانبه، إلى جانبه.

أين هي؟ أين؟

غرفة الأطفال فارغة

غرفة الدراسة فارغة.

مازال هناك باب آخر.

خلوب! خلوب! خلوب!

المربية، التي يجب أن تقرأ للبنتين في هذه الساعة، فصولًا من التاريخ الفرنسي، وجدها في غرفتها تتأمل بعض القطع المطرزة.

أين هي؟...

تنحنحت، تلعثمت، ابتعلت ريقها، وقطّبت حاجبيها.

انقلعي من هنا أيتها العجوز االغبية!

ميزيل لا يتكلم الفرنسية. لم يكن يحتاج الفرنسية في عمله.

فويارد! فويارد! فويارين!

هي في الاصطبل طبعًا!

رفضت الدراسة وهربت إلى الاصطبل.

حبيبتي تصرّفت تصرّفًا صائبًا وذكيًا.

قفز ميزيل خارجًا من البيت، محتارًا، لا يعرف إلى أين يذهب- إلى الاصطبل القديم، أم الجديد، الذي أصرّ، هو نفسه، على بنائه. إنه الآن متوتر جدًا. لقد خرج كل شيء عن إطاره، ولم يعد هناك ما يفهم.

برزت فسحة الاصطبل القديم المعتمة، وقد تسللت إلى داخلها أشعة الشمس شفافة، ممتلئة بذرات من الغبار والحشرات لا وزن لها. أبطأ ميزيل السير: لقد وصلنا. ردّ عليه من الداخل- انطلاق قهقهة بصوت لا يعرفه، يتخللها زعيق بشتائم مقذعة، قذرة، شعر ميزيل لدى سماعها، أن يديه، بل وجهه كله يتلطخ ببراز حيواني طريّ دافئ، وليس لديه ما يمسح به ذلك البراز.

انطلق من الاصطبل سيل جديد من الشتائم المقذعة كسابقتها، لكن بصوت آخر، رنان، يكاد يختنق بالضحك، فتوقف ميزيل.

لا.

لا!

هو لم يصدق بعد، لكن لم يبق لديه شك، دخل إلى الاصطبل- عتمة تثأر من منتصف النهار الحزيراني، صدمت عينيه بحدة من جميع الجهات، أعمته لحظة. ومن هذه العتمة، من بين اللطخات الحمراء القانية والبيضاء، ظهرت بالتدريج كبيضة تخرج من قشرتها، مرابط الخيول ورزم القش الفاتحة اللون على الأرض الموحلة، وأفواه فاغرة تقهقه، أحدها معوج، وسوط مرفوع، ولحى بارزة، وأسنان مبللة، وألسنة ضخمة، وخرقة بيضاء بياضًا مرضَيًا، مرمية في الزاوية، نظر إليها ميزيل- لا، هي لم تختف- وفي الوسط تمامًا...

لا!

لا!

تنت، تنت، تنت، القس مع البنت!

بنت، منبوشة الهندام، متعرّقة، تتلوى وهي تكاد تموت من الضحك. إنها حتى لا تغني بل تطلق الكلمات صراخًا، وشعرها مهوّش. في يدها شيء يقهقه أيضًا- أهو جرس؟- لا، إنه ربطة من القطع النحاسية ترسل بريقها إلى كل الجهات أشعة نارية رفيعة.

حاول ميزيل أن يتمسك بعمود الأشعة الشمسية، لكنه لم يسعفه، فطوّح بيده في الهواء فاقدًا توازنه.

كان وجهها محمرًّا، ونثار القش ينتشر على رأسها، وصدغيها، وحتى عنقها. كانت عمومًا، مشوشة المظهر، وخيشوماها مفتوحان على اتساعهما.

لقد كانت أشبه بكائن صغير فظيع، بدمية سيرك مشوهة.

تأملها ميزيل، رأى فيها لثانية كاملة ما كان الأمير بورياتينسكي وحده يراه فيها دائمًا، فكرهها طول تلك الثانية كما كان يكرهها أبوها الذي أنجبها، - ثانية كاملة

فظيعة، لا يعلم إلا الله، كم سنة قصّرت عمره- عشر سنوات؟ مئة سنة؟ كل ما وُعد أن يحياه بعد الموت؟

تحركت الخرقة البيضاء التي في الزاوية حركة كائن حيّ وصرخت في يأس- اتركيني من فضلك، اتركيني!- وميزيل الذي لمست كفه يد الجدار بعد لأي، فهم أخيرًا أن البنت هي نيوتشكا تحاول خائفة وهي تغص بدمعها، أن تهدئ توسا وتأخذ السوط من يدها- لا تفعلي، لا تفعلي من فضلك! هذا حرام! حرام!

وهنا، أطل أحد السائسين. إنه أندريه. نظر ميزيل إليه بهدوء تام. إنه أندريه ابن سميرنوف، عمره سبعة وعشرون عامًا، وهو أفضل سائس في المزرعة وأجمل فتيانها. توسا كانت تحبه إلى درجة العبادة.

كفّ أندريه عن الضحك.

حياه ميزيل بإحناءة من رأسه- تكاد تكون راقية، كأنه يقول له، لا بأس، لا بأس تابع، أنا هنا لدقيقة فقط! تقلص وجه أندريه يرتعش خوفا أما القهقهة فظلّت تتردد في الاصطبل، وهي تضعف تدريجيًا، كأنها تذوب، وهم يلتفتون نحوه، واحدًا بعد آخر، ويجمدون، رغم أنه لم يفعل شيئًا. ظل واقفًا، مستندًا إلى الجدار، ليس بيده فقط، بل بكل جسده، إلى أن صمتت توسا أخيرًا. هي أيضًا لم تره، لكن كان في عينيها رعب كالرعب الذي في عيون الآخرين. نيوتشكا كانت الوحيدة التي لم تر شيئًا، لأنها أغمضت عينيها، وهي تتمتم بشفتيها كالأطفال: "مدخلي ومصيري، إيماني وحياتي، مجرى عمري ونهايته، يوم وساعة موتي، محاسبتي، سلام روحي وجسدي..." وبعد ذلك صمتت.

ربما لأنها أحست أن ميزيل غفر لها خطأها.

ساد هدوء شديد، فلم يعد يسمع في العتمة الباردة سوى أزيز ذبابات كبيرة تحت السقف مباشرة، وشخير بويارين الخافت المضطرب في أحد المرابط- بقية المرابط كانت خالية. عيناه اكتسبتا في الجو نصف المظلم بريقًا نظيفًا، كستنائيًا، رطبًا.

في هذا اليوم بالضبط، في 26 حزيران بالضبط. ترى لماذا لا يحدث هذا غدًا؟ أو، لماذا لم يحدث البارحة؟

استدار ميزيل وغادر المكان.

خطواته صلبة متمهلة.

غريفا!- نادته توسا بصوت مبحوح- غريفا- إنها لعبة!

لكنه لم يلتفت

لم يحضر للعشاء.

لم يقبّل توسا قبلة المساء- لأول مرة في حياته.

وفي الصباح، على مائدة الفطور، منعها من الذهاب إلى الاصطبل.

كلمة سيئة واحدة- يوم واحد من دون الاصطبل.

كلمتان- يومان. وهكذا. قرري بنفسك. أنت تقرئين جيدًا، والحمد لله.

ضحكت توسا- وأطلقت شتيمة طويلة مقذعة.

صرخت بورياتينسكايا، وسقطت من يدها كأس الشاي الساخنة واندلقت.

جفف ميزيل فمه بمنديل، ونهض، ثم صفع توسا على شفتيها بكل ما أوتي من قوة. وهكذا أعلنت الحرب.

صرفوا في اليوم نفسه جميع العاملين في الاصطبل، وطردوا أندريه، الذي تشنج وجهه وهو يجمع أمتعته،- لكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه- جلس وبكى وراح يمسح دموعه بكمه. لقد كان مكان عمله جيدًا، دسمًا، أضف إلى ذلك أنه ألف الخيول، كما أنه أحب الأميرة الصغيرة كأنها ابنته. أراد أن يدخل إلى البيت ويطلب الرحمة، لكنه اصطدم بميزيل فارتد.

وقدم إلى الاصطبل أناس آخرون، غرباء، يتجولون فيه استعدادًا للعمل في الغد، فأخافت الخيول روائحهم غير المعتادة، ولمساتهم غير المألوفة. ورأت توسا من النافذة كيف اقتادوا بويارين، فسار حزينًا، متهدل الكتفين، محرّكًا حوافره اللماعة بخطا قصيرة. كان مكتئبًا.

قفزت عن حافة النافذة، وركضت من غرفة الأطفال، وضربت بيديها الاثنتين الباب المغلق.

لقد سجنوها. سجنها غريفا. ما من أحد سجنها من قبل أبدًا. لكن ماما سمحت له بذلك!

في البداية لم تصدق توسا أنها مسجونة- كانت في التاسعة من عمرها، وفي هذا العمر يبلغ المرء ذروة الانسجام مع العالم والثقة السعيدة به، زد على ذلك أنها هي بالذات كانت مركز هذا العالم البهيج، الضخم، المتعدد الألوان كبيضة عيد الفصح. غريفا لا يستطيع أن يفعل ذلك، هي تحبه أكثر من حبها لأمها، ولا يقل حتمًا عن حبها للخيول. غريفا- كان هي نفسها، لكنه أكبر حجمًا وسنًا، كان يديها حين تعجز عن الوصول إلى شيء تريده، وساقيها حين تتعب. غريفا كان ينقذها من الكابوس الليلي، يسرع عرقان، ساخنًا، قويًا يحرر يديها أولًا، ثم ساقيها، ويقبل بشفتيه، المرتين بسبب التبغ، رأسها وصدغيها.

على يديه وأصابعه السمراء تعلمت الحساب، وعلى حكاياته كانت تغفو في الأماسي.

غريفا لا يمكن أن يمنعها عن ممارسة أحب الأشياء إلى نفسها- هو يعرف ذلك. إنه لا يمكن أن يمنع عنها الحياة. فالمنع يعني انهيار عالم توسا.

وهذا، ببساطة، مستحيل.

لكن ميزيل كان مصرًا. ذهاب توسا إلى الاصطبل ممنوع. في اليوم الأول ظلت تبكي حتى احمر أنفها، بعد ذلك انخرطت في نوبة هستيرية مرعبة- نوبة مصطنعة، منحطة، أنثوية جدًا، بثلاثة فصول وأربعة مشاهد، يتخللها الارتماء على الأرض، وخدش الوجه إلى حد لم يرعب الأميرة وحدها، بل أرعب توسا نفسها أيضًا، خافت، وهي في ذروة انفعالها المصطنع، ألّا تستطيع أن تستعيد الهدوء أبدًا، لذلك راحت تعول وتصرخ بصوت أعلى وأقبح.

سكب ميزيل على رأسها إبريقًا من الماء المثلج، ومددها طويلًا، طويلًا على ركبتيه، راعشة، مبللة، تصرخ متألمة عند كل نفس تستنشقه. ضمها إلى صدره بكل

ما أوتي من قوة. دثرها بسترته، دفأها بحرارة جسده، وبعد ذلك عالج خديها باليود، وقبل جبينها- وفي الصباح، حين سمعها تطلق شتيمة مقذعة، منعها من زيارة الاصطبل.

اشتعلت توسا غضبًا.

دامت الحرب بينهما أسبوعًا- حرب بلا شفقة، جدية كما بين الكبار. أنف توسا صار ينزف من كثرة صراخها، فلم يعد الآن خداها فقط يتضرجان بخطوط الدم الحمراء الجافة، بل أيضًا ترقوتها، وبطتا ساقيها، وحتى جبينها. كانت لا تنام تقريبًا، ولا تأكل شيئًا، وتقذف المربية بدواة الحبر الثقيلة، فتنسكب على ورق الجدران، تلطخها ببقع بنفسجية غريبة فظيعة الشكل،- لكنها كفّت عن إطلاق الشتائم.

المربية، الفتاة اللطيفة المتقدمة في السن التي كانت تشعر بالعطف والإشفاق، ليس على توسا، بل على البيت كله، طلبت تصفية حسابها، وتركت العمل فورًا، وهكذا بقيت توسا، التي نسيها الجميع وحيدة تمامًا- تجلس في غرفة الأطفال مغمضة عينيها، سادّة أذنيها بكفيها. أما الأميرة فراحت تبكي في غرفتها وتتنشق الملح. نصحتها تانيوشكا همسًا أن ترسل في طلب الأب كي يأتي ويطرد الشياطين. وتخلص بويارين من عنانه، متذمرًا وجاهلًا السبب الذي جعلهم يمنعون عنه وجبة السكر اليومية، وشخر وهو يتأمل صديقته الصغيرة.

لم يهتم أحد بالأواني المحطمة. وأجّل حفل الانتقال إلى المسكن الجديد، وجمد كفقاعة صابون غير مكتملة. وحده ميزيل بقي غير مكترث بكل ذلك.

ما من أحد يستطيع إرغامي على إلغاء قراري، حتى أنت لا تستطيعين. لقد كان هذا اتفاقًا بيننا، يجب أن نلتزم به نحن الاثنين. هذا ما يسمونه الاحترام.

بعد ذلك انهار تصميم توسا. كفّت عن العويل، جلست على الأرض وعضّت على شفتيها، ثم بكت أخيرًا بصوت خافت، بعينيها فقط، وحين اقترب منها ميزيل يحاول احتضانها. انسلت من بين يديه كوحش صغير، واندست في شق بين الأريكة والمكتبة، مخفية رأسها.

أنا لا أستطيع، لا أستطيع- تمتمت،- لا أتستطيع. أنا يا غريفا سيئة، رديئة، لا أستطيع، فليقوموا هم، هم...

جلس ميزيل إلى جانبها وهو يتخوخ، قد اصطدمت ركبته بجسم صلب، كثير الزوايا.

ما الذي لا تستطيعينه؟ الكف عن إطلاق الشتائم؟

أحنت توسا رأسها بالإيجاب، وارتجفت كتفاها، لكنها تنهدت عدة مرات بأنفاس متقطعة وعميقة- ثم تمالكت نفسها وكفت عن البكاء.

اقترب ميزيل من توسا، واستلها كالقطة من مخبئها، ورفع وجهها المبلل المعذب، المتغير، المخيف، المتورم، فانتابته لحظة خوف مما فعل.

إنها طفلة، يا إلهي! مجرد طفلة. طفلتي، وأنا أروّضها كأنها حيوان.

لقد ربيتها على الحرية الكاملة، العقلية والجسدية، بعيدًا عن التقاليد الفئوية، وبحب غامر يتقبل منها كل شيء. لم أسمح بأن يشوّه عقلها وروحها بالقواعد التي أعدها، أنا نفسي، غبية. ما معنى أن يمنع الطفل من الكلام على المائدة من دون إذن؟ هل عليه أن ينتظر ساعتين، رغم أنه يريد الآن أن يتكلم؟ لقد علمتها العلوم الطبيعية، والمشاعر الطبيعية. علمتها ألا تكذب أبدًا، وألا تخفي أمرًا، وأن تنظر إلى عيون الآخرين مباشرة، وتكون مسؤولة عن أفكارها وسلوكها، وأن تكون أفكارها وتصرفاتها نظيفة- كعنقها وقدميها. وعلمتها أن تغتسل بالماء المثلج كل مساء، وتقوم بالتدريبات الرياضية في الحديقة كل صباح، وكذلك علمتها الحساب، وعلم الفلك. وضعت الاصطرلاب الذي جلبته لها من بيتربورغ في عيد الميلاد، تحت أغصان شجرة الميلاد مغلفًا بمئة طبقة من أوراق البابيروس الرقيقة ومزينًا بشريطة.

يا لصرخة الفرح التي أطلقتها توسا، وهي تنزع آخر طبقة من الورق الرقيق نصف الشفاف! كم كانت ضحكتها معبرة! وكم قفزت تتطاير من عينيها شرارات الفرح المتوهجة!... علمتها استخدام الزلاجات وعصي التزلج، وعلمتها التزلج بأحذية التزلج الشتوية الرنانة، والكريكيت، وكيف ترتب سريرها بنفسها، وتتعامل

مع أزرار وبكلات ملابسها. صارت تمتطي الخيل أفضل من أي صبي ريفي. وتعلّمت ألّا تهين الضعفاء أبدًا، ولا تخاف، عمومًا، من أي شيء- لا من العواصف، ولا من الغابة، ولا من المستنقع، ولا من الناس.

لقد غذّيت بنيتي بأفضل ما تستطيع البشرية تقديمه، فماذا كانت النتيجة؟

أين أخطأت ثانية يا إلهي؟ ما الذي لم أفعله كما يجب؟

شعر ميزيل بأن أحدهم أخذ قلبه، ورفعه كأنه يقدّر وزنه، ثم ضغطه، بسرعة ولين، في قبضة غير مرئية. اهتزت الأرض، فسقط إلى أسفل، وأحس ميزيل لفترة قصيرة وفظيعة جدًا، أنه عالق في فراغ من العجز والصمت، فهم أنه يموت- وأن هذا ليس مخيفًا أبدًا، بل هو، على العكس من ذلك- أمر عادل. لكن توسا تنهدت مرة ثانية تنهيدة ثقيلة يرافقها أنين، وألقت برأسها على سترته، على موضع قلبه مباشرة، فانفردت القبضة على الفور، فهم ميزيل، وقد بلله العرق، أن موته قد تأجل مرة أخرى- صحيح أن ما تأجل ليس الأشغال الشاقة، فالأشغال الشاقة ليست المكان الذي سيأخذه الموت إليه، بل هو جهنم، جهنم الحقيقية، إذا افترضنا أن مثل هذا المكان موجود...

ألا تستطيعين الكف عن إطلاق الشتائم؟- كرر سؤاله، فأحنت توسا رأسها متعبة، كأنها شخص كبير راشد يحاول أن يصبّر نفسه على احتمال ألمه.

الشتائم مجرد كلمات تستطيعين ألا تقوليها.

هزّت توسا رأسها غير موافقة.

لا أستطيع. هي نفسها...

كانت عيناها متورمتين يكاد لا ينفتح منهما سوى شقين صغيرين، وقد ثقلت رموشها وتلاصقت فلم يعد التفريق بينهما ممكنًا.

لا. تستطيعين. إنها مجرد عادة سيئة. يستطيع المرء أن يحارب العادات السيئة، يجب أن تحاربيها إذا كنت إنسانًا عاقلًا.

ميزيل كان يحرّك لسانه بصعوبة. وكان قلبه، بعد ذلك التوقف، يدق بخطورة، يقفز إلى رأسه، وإلى حلقه، منتفخًا تارة، ومنقبضًا أخرى في نقطة شائكة الملمس.

هل تعرفين كيف تتخلصين من العادات السيئة؟

بالضرب؟

لماذا فكرت بالضرب؟

المودموزيل قالت إنهم حتمًا يضربون الأولاد غير المطيعين

المودموزيل- عجوز غبية، يؤسفني أنك لم تفتحي رأسها بدواة الحبر.

حاولت توسا أن تبتسم، لكنها لم تستطع. هو أيضًا لم يستطع الابتسام.

اغفري لي ضربك آنذاك على المائدة. كان يجب ألّا أفعل. يجب على كل شخص ألّا يفعل ذلك. لا يجوز أن يُضرب الناس، ولا سيما الأولاد. هل ستغفرين لي فعلتي؟

توسا أحنت رأسها بالإيجاب.

بعد اليوم لن يضربك أحد أبدًا، ما دمت حيًا. لن يضربك أحد أبدًا.

لم يكن ذلك حقيقة. توسا، ببساطة، لم تكن تعرف، وكان يجب ألا تعرف أنه مجرد عجوز، ليس عجوزًا فقط، بل وعجوز وحيد، وفاشل، وعاجز أيضًا، وأن حاله ستسوء مع الأيام. هو لن يستطيع حمايتها من العالم كله. يجب عليها أن تتعلم حماية نفسها بنفسها. يجب أن تصبح محليّة، كالآخرين، ككل الذين من حولها. وهو من يجب عليه أن يعلّمها ذلك.

لماذا أمنع من الذهاب إلى الاصطبل. الخيول خيولي، والاصطبل ملكي أيضًا.

لا، هذا ليس ملكك. المزرعة ملك أمك، وهي لن تصبح ملكك إلا بعد أن تموت أمك.

ماما تحبني. وهي ستموت إذا تطلب الأمر ذلك.

أنت، ببساطة، لا تفهمين ما معنى- الموت.

أنا أريد الذهاب إلى الخيول، إلى بويارين.

عليك، إذن، ألا تطلقي الشتائم. إنها كلمات قذرة، فظيعة، يتكلم بها سائسو الخيل.

حين لا يسمعهم أحد.

أنا أسمع. والخيول أيضًا.

السائسون لا يعرفون أنك تسمعين. أما الخيول فلا تهتم بذلك.

بل تهتم. إنها تحب ذلك! بل تضحك أيضًا.

إنها تضحك عليكِ. وهذا لا يجب أن يفعله أحد، حتى الخيول.

نظرت إليه توسا مستغربة.

لكن الضحك شيء جيد. أنت، نفسك، قلت يا غريفا أن ضحكي شيء جيد، بعد أن كنت لا أعرف الضحك من قبل.

إنه ضحك مختلف، ضحك سيء يا توسا. إنك حين تفعلين الأشياء الرديئة- تكونين تافهة وضعيفة، لذلك يضحك سائسو الخيل، إنهم يضحكون عليك، أنت يجب ألّا تكوني تافهة وضعيفة، لا يحق لك أن تكوني كذلك.

لكن سائسي الخيل يتشاتمون،- أجابت توسا محتجة- ولا أحد منهم يضحك. بل يضحك بعضهم نادرًا. نحن في ذلك اليوم كنا نلعب. كنا نمرح ببساطة، ولم نفعل أي شيء سيء.

هي لم تر لكلامه أي معنى. إنها لا تفهمه، لا، هي لن تتعلّم منه شيئًا.

سائسو الخيل- ذكور. الذكور يتشاتمون أحيانًا، أحيانًا نادرة جدًا.

ولماذا لا أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟

لأنك أنثى. والجميع يعدّونك تافهة وضعيفة.

من هذا الذي يعدني؟

الجميع.

هذا ليس صحيحًا. الجميع يحبونني. أنا أعرف ذلك، وأحس به.

يؤسفني أن أقول إن الأمر ليس كذلك، وسيصبح أسوأ حين تكبرين. لن يحبك الجميع، ولن تجدي تقريبًا من يشفق عليك. أنت غنية، ومن أسرة مرموقة، لذا ستكونين محط أنظار الجميع دائمًا. أنت يجب أن تكوني كالأخريات. لا يحق

للمرأة أن تخسر نفسها. لا يحق لها أن تكون موضع شفقة، فهذا أسوأ من الموت.

وهل يحق هذا للرجل؟

الرجال يجدون دائمًا ما يسوغ أعمالهم. يمحون الإهانة بالدم، ويصححون الأمور. الرجل يستطيع أن يغير رأي الناس فيه، أن يقنعهم بأنه صار إنسانًا آخر.

والمرأة؟

المرأة لا تستطيع ذلك.

صمتت توسا وطأطأت رأسها.

رأى ميزيل خصلات الشعر المتشابكة، المنبوشة على رأسها. يبدو أنهم لم يحمموها منذ أسبوع، ولم يسرحوا شعرها. إن هذا سيجعل القمل ينتشر في رأسها، يا إلهي. أراد أن ينزع نثرة علقت في مفرقها في أثناء تدحرجها على الأرض. لكن توسا أبعدت رأسها بحدة ونظرت إليه بعينين واسعتين جافتين.

أنا، إذن، لا أريد أن أكون امرأة يا غريفا! لا أريد، ولن أكون!

هذا مستحيل يا حبيبتي، ليس أمامك خيار.

أنت قلت إن الإنسان يستطيع الاختيار دائمًا!

نظرت توسا إلى عينيه مباشرة يحدوها الأمل، كما كانت تنظر إليه في كل مرة- حين كانت تنتظر منه أن يساعدها في إخراج كرة سقطت تحت الديوانة، أو يحدد لون فراشة أمسكتها، أو يشرح لها معنى كلمة لم تفهمها. هي كانت تثق به- ببساطة ووضوح، لا يخالطهما أي شك، كما يثق بعض الأطفال بالراهبات المتقدمات جدًا في السن.

أنا لا أريد أن أكون امرأة!

هنا أدرك ميزيل ماذا يجب أن يفعل.

سأعلمك- قال لها- سأعلمك، لكن لي شرط واحد، هو أن تكفي عن إطلاق الشتائم إلى الأبد، وفي كل الحالات!

كيف؟

هاتي يدك. لا، الأفضل أن تعطيني اليسرى، ذلك أسهل.

أمسك ذراعها- الذراع لينة، لزجة، حبيبة. أراها أرقّ مكان في باطن الذراع، مكان قريب من المرفق.

اقرصي هذا المكان كلما شعرت بأنك تريدين إطلاق الشتائم. اقرصيه بكل قوتك. وهكذا تمتنعين عن الشتم. جربي ذلك.

أخذت توسا نفسًا عميقًا، ثم فتحت فمها- وصرخت. هو نفسه قرصها. سبقها إلى فعل ذلك. ابيض جلدها الرقيق وأخذ يكتسي الحمرة تدريجيًا. استنشقت توسا الهواء عبر أنفها عدة مرات لكنها لم تبك. تمالكت نفسها.

هذا مؤلم أليس كذلك؟

أحنت رأسها بالإيجاب. وعلى يدها، تحت القشرة، ظهر دم غامق اللون.

هذا جيد. الألم أفضل صديق لك يا توسا. إنه مرشدك. الألم يصيح بك وينهاك عن فعل ما، ينبهك على خطئك، يعيد إليك الصواب. افعلي هذا في كل مرة- فتكفين عن قول الأشياء البذيئة من دون أن تلحظي كيف حدث ذلك.

أحنت رأسها مرة ثانية.

وهل سأصبح عند ذلك رجلًا يا غريفا؟

لا، أنت لن تصبحي رجلًا أبدًا. لكني أعدك بأني سأعلمك كيف تكونين أكثر من امرأة.

الآن؟

لا، فيما بعد. الآن يجب أن تغتسلي، وتأكلي، وأن تحاولي، على الأقل، تسريح شعرك. أنت الآن لا تشبهين بنتًا من أسرة محترمة، بل أنثى من عشائر البوبواس. ألم أحدثك قبلًا عن عشائر البوبواس؟

نهض ميزيل- بسهولة غير متوقعة، كأن هذا الحديث أعاده شابًا، بل ربما أوحى له حتى بالخلود. أنهض توسا عن الأرض، فرحًا برائحتها المعتادة الدافئة، وبثقل جسدها الحي، وحزينًا لأنه سيكف عن حملها بين ذراعيه- لقد كبرت،

كبرت بسرعة لا يمكن السماح بها، أو قبولها،- إن هذه السرعة هي السبب الذي يجعل النساء ينجبن مرة بعد أخرى، وهن يعرفن أنهن قد يمتن عند الولادة، ويعرفن سلفًا كل ما سيواجهنه من آلام، وأن الرب قد يأخذ الطفل من دون تفسير، أو عبارة تعاطف. لو كنت امرأة لأنجبت عشرين ولدًا، ولحملت الجميع على ذراعي. هراء. أنا ما كنت سألد غير توسا. توسا وحدها.

أنا أحبك، وسأحبك دائمًا. لذلك أنت تستطيعين فعل كل شيء، ومواجهة كل وضع. هل فهمت؟

توسا لم تجب- كانت نائمة، فاتحة فمها، وجهها ما يزال متورمًا بسبب الدموع، لكنه صار هادئًا تمامًا ولينًا، وطفليًا. حملها ميزيل إلى السرير، وظل جالسًا إلى جانبها حتى الصباح شارد الذهن، شاحبًا، أما توسا فظلت طول الليل ممسكة بإصبعه السبابة، كما كانت تفعل حين تعلمت المشي، غير أنها نادته مرة واحدة بوضوح- غريفا؟ أين أنت يا غريفا؟ فانحنى وهمس بصوت خافت- هس- س- س، أنا هنا،- فعادت تغرق في النوم، مبتسمة، وقد بدت الخدوش التي على وجهها ظلالًا في العتمة، شبكة رقيقة ألقاها المستقبل عليهما معًا، شبكة راح ميزيل يحاول إزاحتها لكنه لم يفلح. بعد يوم كامل من النوم، استيقظت توسا في موعد الغداء، صحيحة الجسم تمامًا، ومرحة كسابق عهدها.

التهمت شريحة اللحم البارد، وصحنًا كاملًا من الفطائر وزجاجة لبن، ثم ملأت هي وميزيل، جيوبهما بالسكر، وذهبا إلى الاصطبل الجديد، الواسع، الذي نقل إليه عدد قليل من الخيول، لكنه ما زال يحتفظ برائحة الخشب الطازج.

استقبلهما بويارين بالصهيل- صهيل أقرب إلى الشكوى الطفلية الحزينة اليائسة—وراح يلحس مرات كثيرة وجه توسا الضاحكة. ورأسها وكتفيها بشفتيه المخمليتين الدافئتين، كأنه يقبلها، وكان النظر إلى ذلك مربكًا، كالنظر إلى عروسين في صبيحة اليوم التالي للعرس. لذلك أشاح ميزيل بنظره وطوّح بيده في الهواء. سارع إليه أندريه وهو ينحني بعد كل خطوة استرضاء له، فقد اتخذ القرار بإعادته

إلى عمله في مساء اليوم السابق. ميزيل هو الذي اتخذ القرار، وهو الآن يطلب منه بجفاف، لا- يأمر أندريه الذي انكمشت قامته من الخوف، وهو يتابع انحناءاته، ويحرك رأسه بالإيجاب بعد كل كلمة من كلمات ميزيل كعجوز تلقى ضربة،- فسقط على ساقه ومدّ يده يطلب المساعدة. هل فهمتني؟ سأله ميزيل، فأحنى أندريه رأسه بالإيجاب انحناءة خفيفة، لكن توسا قفزت على كتفيه في اللحظة نفسها، أمسكته من كتفيه، وأسندت خدها إلى قميصه المبلل بالعرق، فطار فرحًا، ودار حول نفسه محاولًا أن يمسك ساقيها الصغيرتين اللتين ترفسانه، لكنه اصطدم بنظرة ميزيل فتوقف على الفور. جلس القرفصاء، وأنزل توسا عن ظهره مرتبكًا، وهو ينحني بشكل معوجّ لكنه يعبر عن احترام.

صباح الخير يا ناتاليا فلاديميروفنا. هل يمكننا أن نتفقد الاصطبل الجديد؟

حوّل ميزيل نظرته الثقيلة إلى توسا التي ارتبكت- ما رأيك؟

نعم، يمكننا. سعلت. ثم قالت بصوت أعلى: نعم، هيا بنا، خذ بيدي يا أندريه من فضلك.

تقدمت خطوة إلى الأمام، وهي تردّ شعرها المسرح بلطف، وتنظر بفضول، إنها بثوبها النظيف وحذائها الصغير، أميرة صغيرة.

ضحك ميزيل ضحكة مكتومة وغادر الاصطبل- يجب أخيرًا أن نهتم بالانتقال، لا بد أن العمال الأغبياء غفلوا عن الكثير بسبب غيابي. لكن، بالمناسبة، أين الأميرة؟

يا إلهي، إن هذا قصر وليس منزلًا، الشيطان وحده يعرف لماذا كل هذه الغرف المتلاصقة واحدة إثر أخرى؟

ناديجدا ألكسندروفنا! يا ناديجدا ألكسندوفنا! آها- أنت هنا إذن! حسنًا- هل تجهزين غرفة صف جديدة؟

حين كانت بنتًا صغيرة كانت عندها دائمًا كومة من الملابس المتروكة. رأت نيوتشكا، وهي تضم إلى صدرها رزمة كبيرة من الدانتيل الأبيض، ميزيل، فانكمشت-

تقلصت كلها بشكل يكاد لا يلحظ. أما بورياتينسكايا، التي يحجبها عنهما غطاء الصندوق المفتوح، فسألت: أهذا أنت يا غريغوري إيفانوفيتش؟ لكن أين توسا؟

في الاصطبل.

أخرجت بورياتينسكايا رأسها من فوهة الصندوق، وجلّست قامتها ببطء مرتبكة، وعيناها حمراوان، مستديرتان كعيني البومة.

عادت من جديد؟ وحيدة؟

اطمئني يا أميرة. كل شيء سيكون الآن مختلفًا، تعالي أحدثك عن ذلك ونتفقد في الوقت نفسه غرفة الصف.

تلفتت الأميرة وهي لا تدري ماذا تفعل، تحيط بها هذه الأشياء المدعوكة، المتروكة، لكن ميزيل أمسك ذراعها بقوة- هيا بنا، هيا بنا. آنيت تستطيع أن تتدبر الأمر. أنا واثق من ذلك. إنها كائن عاقل تمامًا.

لم يكن هذا مجرد مصالحة. إنه اعتراف.

لكن نيوتشكا اكتفت بإغماض عينيها مرة ثانية، أغمضتهما فعلًا هذه المرة،- أغلقتهما وجمدت، انغلقت على نفسها. هي لم تصدق. لقد ظلت طول حياتها تخاف من ميزيل ظلت تخافه ولا تحبه، حتى بعد موته بزمن طويل، حتى بعد أن صارت، هي نفسها، عجوزًا. استيقظت في قلب الليل. أجفلت عند سماعها صراخًا ففهمت أنها كانت ترى ميزيل في المنام.

فليكن، لا ضير في ذلك.

بعد أسبوع، وقبل أن تنتهي عملية الانتقال- في الأول من أيلول، في يوم الأحد، استقبل المنزل الجديد الضخم، العائم في أمواج من الضوء الراعش، الدافئ، ضيوفه الأوائل. وقد ظل الناس في المقاطعة يتحدثون عن الحفلة التي دعي إليها مئتان وخمسون شخصًا، وعن الفطائر التي لا مثيل لها، والليمون، والدجاج المحشو، حتى عيد الميلاد، بل حتى حلول الحفلة التالية، فقد اعتادت بورياتينسكايا على ألّا تقل الحفلات التي تقيمها عن حفلتين في كل عام.

انتعشت "آنا" أخيرًا.

توسا ونيوتشكا لم تحضرا الحفلة الأولى- المربية الجديدة التي جاءت قبل أسبوع من الاحتفال، عدّت ذلك أمرًا غير جائز فللأطفال حفلات خاصة. حددوا حفلات للأطفال- مرتين في العام أيضًا، وبدؤوا بتعليم توسا ونيوتشكا الرقص. وصاروا، أخيرًا ينادون المربية الجديدة بالاسم- مودموزيل كريز. بقيت المودموزيل عندهم مدة طويلة، طويلة جدًا. فرضت قواعدها، وحرصت على الالتزام بها حرفيًا، ليس وحدها، بل شاركها في ذلك ميزيل، محتفظًا لنفسه بحق وحيد هو حضور أي درس يشاء. هو، طول سنوات عمله، لم يتغيب عن أي درس. وبناء على إلحاحه، لم تتعلم البنتان المواد الإلزامية فقط، بل أيضًا الفيزياء والكيمياء، وكذلك- غفرانك يا رب- البيولوجيا.

هو نفسه درسهما هذه المادة.

توسا قسمت حياتها نصفين، بناء على توجيهات ميزيل- القسم الأول قسم أنثوي أتقنت فيه التكلم بطلاقة وثقة، باللغتين الفرنسية والألمانية وبالروسية أيضًا (وهذا رفاه متاح فقط لأبناء نبلاء القصر وعدد قليل من أبناء الأسر الثرية جدًا)، وكانت منضبطة ومنسجمة مع التقاليد في سلوكها في جميع الحالات. هذا يعني أن على الفتاة الشابة أن تبتسم وتظل صامتة، وهي، وحق الشيطان، تظل صامتة، وتبتسم، ليس فقط بشفتيها، بل بعينيها أيضًا وبالغمازتين اللتين على طرفي فمها، بل حتى بشرائطها التي تلامس ثوبها عند الكتفين. كانت أثوابها تنسجم دائمًا مع وجهها، وهذا ما كان يجعل الضيوف يقولون- آخ، ما أروع هذه الطفلة. لم يكن الضيوف وحدهم يعجبون بها- ميزيل نفسه كان يجلس ووجهه ينطق بالإعجاب، حين كانت توسا تنحني جميلة، رشيقة، جعداء الشعر لتحيي الحضور، أو ترقص في حفلة الأطفال، تنقّل بسرعة حذاءها الصغير المرح، وينعكس طيفها ألف مرة على الأرضية المصقولة لصالة الاحتفال، أو على زجاج النوافذ الكبيرة في الليل، أو في عينيه اللتين تحبّانها حتى العبادة.

لم يكن هناك سوى شيء واحد لا تستطيع السيطرة عليه أبدًا- هو شعرها. كانت خصلات شعر توسا سوداء، كثيفة، لا تستطيع تسريحها بمفردها، لذلك سمحت المودموزيل كريز لإحدى الخادمات بمساعدة توسا في تسريح شعرها كل صباح. أما ما عدا ذلك فكانت تقوم به بمفردها، وعلى أحسن وجه. لم تكن نيوتشكا قادرة على منافستها في شيء سوى بخصرها الذي كان أرفع من خصر توسا، وبقامتها التي كانت أطول. وكان ميزيل يغفر لها ذلك بطيب خاطر.

في القسم الآخر من حياة توسا الحقيقية كان الاصطبل الذي كانت تقضي فيه ما لا يقل عن أربع ساعات يوميًا، تمتطي الحصان مسرجًا أو من دون سرج بمهارة (جوكي)، وتتحمل من دون عناء الاهتزاز الذي يسببه عدو الحصان، وتستطيع تقييده في مربطه، وإطعامه، وتنظيفه، وتستطيع معالجة أي فرس مهما كان انفعال تلك الفرس شديدًا. في الثانية عشرة من عمرها أعجبت بالخيول من سلالة أرلوف، فحفظت عن ظهر قلب، أنساب أفضلها بدءًا من سميتانكا، فأحبها السائسون والخيول إلى حد العبادة، والأهم من ذلك هو أنهم احترموها.

لم تكن هذه الساعات الأربع من السعادة اليومية ممكنة، إلا إذا التزمت توسا بقية يومها بقواعد السلوك. وقد رأتها توسا صفقة عادلة.

كانت توسا تفهم تلك الصفقة، وتتقبلها باحترام كما يتقبل الناس الأذكياء الموت القادم لا محالة.

وفي السادسة عشرة أدركت بصلابة أنها تريد تأسيس مزرعة خيول، واقتناء أصناف جديدة من الخيل. استمع ميزيل الذي بلغ الرابعة والسبعين من عمره، إلى بورياتينسكايا، ومصّ شفتيه متفكرًا، ثم أحنى رأسه بالموافقة، حسنًا، ما من شيء يصعب تحقيقه على الإنسان العاقل.

كان الشيب يغطي كل رأسه- البياض يغطي حتى حاجبيه وكتلتي الشعر البارزتين المضحكتين من أذنيه- لكنه كان في كل يوم يمشي قرابة عشرة فراسخ- من دون عكاز، ومن دون استراحة فعلية، إذا استثنينا جلوسه تحت شجرة السنديان

لتناول بعض الطعام. توسا أيضًا كانت، كما في الطفولة، تحب تلك النزهات. هما لم يدعوا أبدًا نيوتشكا لمشاركتهما نزهاتهما. لقد اعتادت توسا على وجودها، كما يعتاد المرء على وجود شيء ما في حياته اليومية. لكنها لم تحبها، فلم يكن لديها متسع من الوقت كي تحب أحدًا إلى جانب حبها لغريفا والخيول. أما نيوتشكا فكانت تخاف الخيول، وكانت مضجرة.

كفّت توسا عن الكلام البذيء، بعد أن اضطرت في البداية إلى قرص ذراعها كثيرًا، الأمر الذي تسبب بظهور كدمة زرقاء لا تزول على يدها اليسرى، بالقرب من المرفق، وآثار خدشات أظاف لا ترحم- آثار صغيرة، حمراء، عابسة- كدليل حيّ على تفوّق الإرادة الإنسانية والتصميم، على أي انفلات بلا معنى.

فيما بعد، صارت الكدمة أصغر، وشحب لونها، ثم اختفت وزالت في نهاية المطاف.

ولم تظهر على ذراع توسا من جديد إلا في عام 1887،
عام مجيء فيكتور رادوفيتش إلى "آنّا".

الفصل الرّابع

الأخ

أخيرًا في مساء الحادي والثلاثين من آذار بدأت حرارة الجو ترتفع، وصار الثلج طريًا كالزبدة، وأملس، منتفخًا كاللبن. كان رادوفيتش يأكل اللبن على العشاء في كل مساء- إناء فخاري خشن، ممتلئ حتى الشفة باللبن الأبيض، الحامض، البارد، وقطعة خبز أسود- حامض، مجفف. في مخزن السمانة، كانوا يبيعون هذه الأشياء بالوزن. لكن الأب لم يكن يسمح له، على كل حال، بالذهاب إلى دكان السمانة.

لا مكان لأمثالك هناك.

كان يقول ذلك ببطء وإصرار، وهو يمسّد باستمرار ويفتّل شاربه الأسود، غير المنسجم مع وجهه من دون أن يلحظ ذلك. الأب لم يكن يشرب قبل النوم، غير الشاي- كأسًا واحدة، كأسين، ثلاث كؤوس، يشربها بالملعقة من دون ضجة من إبريق شاي مستدير فضي، موضوع على طبق مصنوع من العيدان والأوراق المسودة، وبالقرب منه (زبدية) للسكر من الكريستال الثقيل، وملاقط تشبه آلة قلع الأسنان. كان يضع قطعة سكر واحدة في كل كأس. ويستهلك ثلاث قطع في كل مساء. وكان رادوفيتش يحرّك اللبن بالملعقة، محاولًا ألّا يحرك فمه الممطوط مع حركتها، لكنه لم يجرؤ في يوم من الأيام على أخذ قطعة من السكر. كان يرى أباه يقف مرة في كل أسبوع، في أيام السبت، أمام البوفيه، وهو يحرك شفتيه البارزتين، يعدّ كل ما بقي فيه. الشاي الرديء ذو اللون القرميدي المحفوظ في علبة استهلكت محتوياتها من قبل. وقطعة السكر البلّوري ذات الشكل المخروطي الشبيهة بقنبلة

رمادية اللون ملفوفة بورق أزرق- وزنها نصف فونط، وقطع الخبز المجفف- ست، سبع، عشر، إحدى عشرة! وعلبة الحلوى المخصصة للضيوف.

يجدر القول إنه ما كان أحد يزورهم، لذلك ذابت قطع الحلوى وتلاصقت في كتلة واحدة، جفّت فصارت أخيرًا كقطعة كريستال أسطورية، بيضاء، عكرة، لا يستطيع أحد أن يميّز عبر حوافها المتعرجة، الحاضر أو المستقبل. الماضي وحده هو ما كان يظهر عبر كتلة الحلوى التي جفت منذ زمن بعيد جدًا.

انزلقت رجل رادوفيتش على الدرب المغطى بطبقة خادعة من الثلج، فهوى بعزم مرتطمًا بالأرض بصوت رنان؛ فقفزت قبعته الزرقاء وتدحرجت كدولاب متوازن مسافة قصيرة، ثم اختل توازنها فاستقرت في بركة من الثلج الذائب المتسخ. التفتت نحوه فتيات كنّ يتقدمنه، وضحكن وهن يتدافعن بأكتافهن. قبعاتهن متماثلة، ومعاطفهن متماثلة، لا تخفي زيّ المدرسة البني الموحّد. لم يكن متمايزًا سوى آثار كعوبهن على الدرب.

إنهن تلميذات.

غبيات!

نهض رادوفيتش، ونفض جانبي معطفه بكفيه المحمرين، مزيلًا ما علق بمعطفه من خليط الثلج والوحل، فالتفتت التلميذات نحوه مرة ثانية. التلميذة التي إلى اليمين، البدينة بعض الشيء، المعقوفة الأنف، كفّت عن الضحك، وألقت عليه نظرة خائفة تشوبها الدهشة.

هل أصبت بأذى يا فتى؟

فتى! اشتعل رادوفيتش غضبًا، وهو يشعر كيف تندفع الحرارة جافة، قاتمة إلى عضلاته، وخديه، وحتى جبينه، حمل قبعته بعنف- ليتني أشدهن من ضفائرهن فأقطعها!- ثم انطلق، يعدو تقريبًا، إلى شارع موسكو.

أرأيت؟- سألت التلميذة البدينة صديقتها، فهزت تلك رأسها بالإيجاب، بحركة تكاد تكون مرحة.

التفتوا في الشارع نحو الأب أيضًا، ليس، طبعًا، لأنه وقع. وقف رادوفيتش وراح، ككلب فتي مرتبك، يشغل نفسه بإصلاح طرفي معطفه، بحركات تكاد تسقطه على الأرض مرة أخرى. أتم أخيرًا تنظيف المعطف واستعاد توازنه. يجدر القول ببساطة أن أباه كان جميلًا، جميلًا جدًا. كان طويل القامة، عريض المنكبين، دقيق الخصر، لم يكن له مظهر الفرسان، بل مظهر الأمراء الكبار. خصلات شعر سوداء كأنها رسمت رسمًا، وجهه رفيع شاحب، وعينان مشرقتان. لم يشوهه حتى الزي الرسمي ولا البكلات المدموغة برمز إدارة البريد (شعاع واحد وثلاث نجمات صغيرات)، ولا كونه مجرد سكرتير صغير عند الإمبراطور في المنفى.

نحن- آل رادوفيتش.

تذكر دائمًا الدم الذي يجري في عروقك يا فيكتور.

كان يقول ذلك بلهجة ذات مغزى مشددًا لفظه للحرفين الصوتيين- (فيك- تور). تذكر يا فيكتور أنك من سلالة آل فلاستيميروفيتش القديمين قدم الزمن، إنهم ذوو اعتداد بالنسب لا حدود له، وكبرياء، وثارات، فيشيسلاف، كان يهمس بذلك في الأماسي في أذن ابنه كأنه يربط في عقد غير مرئي الخرزات الدموية الموروثة عن العائلة: فسيفلاد، رادوسلاف، فلاستيمير، تشيسلاف.. هذا قتل، وذا قتله البلغاريون، وذاك خانه أخوه فمات، مات، قتل... وكان رادوفيتش يغفو وهو يصغي إلى تمتمة أبيه الحارة، كما يغفو الأطفال الآخرون وهم يستمعون إلى حكايات المربية، فيرى في الحلم أباه في معطف طويل مضرج بالدم.

مضرج بدم ملكي.

وكان الأب يبحث، أول ما يبحث، وفي أي مكان تنقله إليه إدارة البريد التي لا ترحم، عن الحديقة.

الحديقة!

رادوفيتش كان يفهم- السبب. هو يذكر صخب الدرب الحاد، ويذكر القماش الأزرق الساخن قرب خده الأيمن، وعند الأيسر- قطعة القماش البيضاء الباردة،

تلتمع عليها سلاسل ذهبية رفيعة عُلّق بكل منها شيء لذيذ، لامع، كأنه دمية على شجرة عيد الميلاد: زجاجة عطر ملفوفة بغطاء رقيق، ولورنيت، وكيس صغير، ثقيل نسبيًا، منتفخ، ممتلئ... رادوفيتش يريد أن يتفحص البكلة التي عُلّقت بها هذه الأشياء الصغيرة الرنانة، لكن البكلة على الخصر- عالية، يرفع رادوفيتش رأسه، فيخفي ضوء الشمس العالم كله عنه، فلا يرى سوى فضاء يسطع باللونين الأحمر والأخضر. كل ما بقي من آثار ماما، تنورة بيضاء، ورموز صغيرة تدل على سيدة قصر لا وجود له، ومقدمات أحذية فاتحة اللون، كساها الغبار- مصفوفة بعضها إلى جانب بعض.

لا- لا يا حبيبي، يجب ألّا تعبث بأشيائي.

يد ماما من اليسار، ويد بابا من اليمين.

ولا شيء آخر.

وقد أراد بابا، ببساطة، أن يكرر ذلك كله لكنه لم يفلح

هو دار دورتين كاملتين، أو ثلاث دورات، في الحديقة الحكومية في المدينة الجديدة التي نقلا إليها، ملتقطًا نظرات الدهشة في عيون النساء الغريبات اللواتي ينزّهن أطفالًا آخرين. ويسمعهن يهمسن: ما أجمله يا إلهي! فلا يجيب بإحناءة من رأسه، أو بأية إشارة تحية صغيرة. رادوفيتش كان يعرف أن سبب ذلك هو الألم الذي يشعر به أبوه، فقد كانت يد أبيه تضغط على أصابعه، كما كان يفعل آنذاك، بل كما كان يفعل دائمًا، لكن في الجانب الأيسر، الجانب الأيسر كان خاليًا.

في الحقيقة لم يكن رادوفيتش يتألم كثيرًا. الأطفال الأصحاء تشفى سريعًا جروحهم وكدماتهم، وتزول أشد آلامهم. العالم حول رادوفيتش كان متعدد الوجوه، مزدحمًا بشكل رائع، وممتلئًا بالأشياء التي تلفت النظر: كان يهتم جدًا بالبائعين الجوالين، الودودين، الثرثارين، الذين يضمون إلى صدورهم رزم أشياء فاخرة، أسطورية، ملونة- ما هي؟ أبوه لم يكن يسمح له أبدًا حتى بالنظر إليها. كان تارة يختلس النظر بفضول شديد إلى المفاتيح الرنانة المعلّقة بحلقة، وتارة إلى

الكعكات الثخينة الدافئة، وتارة ثالثة إلى التفاحات العائمة في سائل ذهبي. وكانت هناك أيضًا طيور حمام- من المؤسف أنه لا يستطيع الوصول إليها، فهي اندفعت إلى الأعلى وراحت تخترق السماء الساطعة. لقد اعتاد رادوفيتش منذ طفولته أن يرى الأشياء لا أن يملكها، وكان يشعر لرؤيتها بمتعة أكبر بكثير من متعة امتلاكها. أضف إلى كل ذلك أن قماش بنطال أبيه، الذي يلامس خده الأيمن، كان دائمًا أزرق دافئًا. لكن رادوفيتش كان في البداية لا يصل إلا إلى ركبة أبيه، فيما بعد وصل إلى جيبه ثم مرفقه. وأخيرًا وصل إلى أعلى كتفه. لم يعد بحاجة إلى ردّ رأسه إلى الخلف كي يرى الشمس

لكنه كان يشفق على أبيه- كثيرًا ودائمًا.

هيا بنا يا بابا إلى البيت. أنا تعبت.

يحني الأب رأسه بالإيجاب ممتنًا، يمشي بضع خطوات- كي لا يتنازل فورًا، ثم يعودان في شوارع واسعة لا يعرفانها بعد، من الحديقة الحكومية إلى الشقة الحكومية. راتب صغير يحسم منه ثمانية بالمئة، لم يكن يكفي أبدًا أجرة السكن، وثمن الطعام الذي يقدم للخدم، حتى بحسب الأسعار المنخفضة في الريف. رادوفيتش كان يقوم بنفسه بتنظيف البيت مقطبًا حاجبيه من شدة الحرص، أما الأحذية والملابس، فكانت ثمة امرأة تأتي مرة في الشهر ومعها سلة كبيرة، تأخذ الملابس لتعيدها في اليوم التالي- مدعوكة، مفتقة في عدة أماكن، لكنها مغسولة.

غير أن رادوفيتش كان واثقًا من أنهم، هم الثلاثة، ساروا في زمن ما في حديقتهم الصيفية الخاصة. ولم تكن هذه الثقة تستند إلا إلى الذكريات المصادفة التي كانت تزداد قوة في كل عام يغذيها همس الوالد في المساء كل يوم.

فيشسلاف، سفيفلاد، رادوسلاف، فلاستيمير، تشيسلاف...

أجدادك يا بني كانوا يعيشون في قصور.

المرة الأولى التي لم يأخذه فيها أبوه إلى الحديقة الحكومية كانت في سيمبيرسك. وصلا إلى هناك في صيف عام 1879. كان رادوفيتش في الثالثة عشرة-

قصير القامة، ضعيف البنية، وقد وعى منذ فترة قريبة أنه لم يرث شكل أبيه، وكان يعاني من ذلك كثيرًا في سره. كان الطنبر الذي استأجراه يقرقع فوق أحجار الطريق تارة، ويسير تارة بليونة فوق الغبار الريفي الفاخر. صرتان وسرير، وصندوق سفر- كبير، متهالك حتى الموت، ممزق كملابس مشرد،- هذا كان كل متاعهما. كان الأب يسير إلى جانبه رافعًا عاليًا وجهه الذي لا ينظر إلى شيء، ويسند بيده بلين طاولة صغيرة عليها نبتة نعنع. كانت الطاولة، ذات يوم- في الحياة الأخرى، الأسطورية، التي يؤمن رادوفيتش بوجودها أكثر من الحياة الحقيقية- في غرفة واسعة مضيئة، تجلس إليها سيدة بثوب فضفاض فاتح اللون كي تكتب رسالة صغيرة رائعة، وكانت الحديقة تهرع نحوها بهيجة، ساطعة، ضخمة، وتندس فورًا عبر النوافذ الثلاث المفتوحة على مصاريعها.

وماذا الآن؟

طنبر متهالك، وظهر محني لرجل يسعل ويبصق باستمرار. إنها سيمبيرسك.

في آب عام 1864، ظلت المدينة تحترق تسعة أيام، حتى ترمدت تقريبًا، وبعد خمس عشرة سنة بقيت ضعيفة كمريض يتعافى، تتراءى فيها تارة هنا، وتارة هناك، راعشة في الهواء الحار، أطياف ثلاثة آلاف بيت دمرت عن آخرها، وتلوح في اللهب غير المرئي الملائكة والوحوش والناس، وتخيف المربيات الأطفال بأشباح البولونيين الذين أحرقوها، على الرغم من أنه اعترف بوضوح (وبإقرار جاف، رسمي بصوت منخفض)، بأن الحريق في ذلك اليوم المشؤوم لم تكن الثورة سببه، بل سيجارة لم تطفأ جيدًا وتدفن في التراب، فتحولت إلى جمرة حمراء شريرة.

مئات الضحايا البريئين، احترقوا، وقتل اثنان لا ذنب لهم بالرصاص، وغيرتسين راح يصرخ من برج ناقوس الكنيسة في يأس- كل هذا من صنع القيصر اللعين، القيصر، القيصر. هم أنفسهم من أحرقكم. هم أحرقوكم- فليلعنهم الله!

لم يكن من السهل استئجار شقة في سيمبيرسك، وهما مضطران الآن إلى الاكتفاء بجزء من شقة: غرفة تطل على ممر متهالك، ومرحاض ينتصب في عمود

من الروائح الكريهة. صاحبة الشقة الصعبة المراس، الحمراء البشرة، وزنت وثمنت ذهنيًا متاع الساكنين الجديدين الرخيص، وراح ترحيبها بهما يتناقص، ويتناقص ثم تلاشى تمامًا. استقرت الطاولة مع النبتة قرب النافذة. وأخذ رادوفيتش مكانه على الديوانة. أما الأب فعزل نفسه خلف ستارة- قصيرة، حريرية، مخجلة المظهر، لا بد أنها من آثار الأم أيضًا. وانتظمت حياتهما تدريجيًا- محدودة، ومثيرة للشفقة، وغير مريحة، كما كانت دائمًا: طعامهما خبز رمادي اللون في الصباح، وملح رمادي، ولبن في المساء، وغداء يحضره الأب يوميًا من المطعم الشعبي: شوربة ملفوف، وحبوب مسلوقة، وبيضتان مقليتان، أو يحضر في بعض الأحيان، قطعة كبد مطبوخة في مقلاة معدنية كوجبة دسمة مشبعة. تقرط قطعة من الخيار الخلل، ثم تقضم قطعة من الكبد المسلوقة، فتشعر بطعم لذيذ!

يضع الأب بصمت السكين الفضية التي رقت جدًا من كثرة الاستعمال، ويمسح شفتيه بمنديل قماشي قديم قدم السكين.

ثم يقول شكرًا بلهجة لا يتضح منها أهو يقولها لنفسه، أم لرادوفيتش، أو للرب.

هو لم يكن شحاذًا. لا، ولم يكن يسمح لرادوفيتش أن يشحذ.

الجديد هو أنهما كفّا عن التنزّه في الحديقة العامة، على الرغم من وجود حديقتين عامتين في سيمبيرسك، حديقة كارامزين، وحديقة نيكولايف.

حديقة كارامزين العامة كانت، كما تدل تسميتها منطقيًا، حول تمثال المؤرخ والكاتب العظيم المولود في هذه الأماكن المضجرة، التي كانت كلها، بحسب تعبير كارامزين نفسه، تتنفس غبارًا، وعفنًا، وضجرًا. في الحديقة نحو عشر أشجار فتية، وبعض ممرات صغيرة تتفرع مبتعدة عن التمثال، مزروعة جوانبها بغرسات الأكاتسيا والسيرين التي كانت تعد في كل عام بأن تنمو جدارًا فاخرًا من العطر، لكنها تخنث بوعدها. وكان الرمل الناعم يلتمع في الهواء الكثيف في منتصف النهار، تحط فوقه أسراب رقيقة من الذباب الصغير، وتصرّ على الدرب عربات تجر فيها

المربيات أطفالًا مرهقين، لانت أجسادهم من شدة الحر. مشى رادوفيتش بمحاذاة الحاجز المعدني الشائك، المثبت على رصيف من الحجارة مبتعدًا عنه قرابة المتر، ثم قرر أن هذا المكان لا يعجبه. كانت حديقة كارامزين (أو الساحة، كما يسمونها في سيمبيرسك) صغيرة، صلعاء، تشف عما وراءها لندرة ما فيها من أشجار، و- أهم ما يثير الكدر فيها هو مجاورتها لمدرسة سيمبيرسك الرسمية التي يجب على رادوفيتش أن يلتحق بها في الخريف صاغرًا- لماذا؟ أإطاعة لتوجيهات وزارة التعليم الشعبي؟ أم خضوعًا لحكم القدر؟ أم لإدارة الأب المكبوتة التي لم يصرح بها يومًا؟ رادوفيتش لا يعرف. هو، عمومًا، لا يعرف أيضًا، أي مجال سيختار- العمل المدني، أم الوظيفة الحكومية، أم الجيش، بل إن كلمة "مجال" كانت تبدو له مضجرة ومكسوة بالغبار أيضًا، كدروب حديقة كارامزين.

لقد كان ذلك مخجلًا. غير أن المدرسة بالذات أصابت محفظة نقود الأب بجرح قاتل تقريبًا- ثلاثون روبلًا في العام. خمسة عشر روبلًا في كل نصف عام. مبلغ يكاد لا يبقي لهما ما يعيشان به. كان يستطيع طبعًا، أن يحصل على شهادة من مدير التعليم في الدائرة تنص على أن الأب لا يستطيع تأمين المبلغ المطلوب. لكنّه كان سيقضي زمنًا طويلًا في قاعة انتظار الإدارة، وقد يضطر إلى البكاء قليلًا، والاعتراف رسميًا بأنه عاجز وشحاذ.

إن هذا إذلال يستحيل احتماله، حتى رادوفيتش كان يدرك ذلك.

كان هناك مخرج ضيّق آخر، فمجلس التربية كان يعفي بعض التلاميذ الفقراء من دفع رسوم التعليم، إذا أظهروا تفوقًا في العلم وسلوكًا محترمًا وتهذيبًا في التعامل مع الآخرين. رادوفيتش لم يكن يستحق الإعفاء. كانت علاماته في الدراسة تتراوح بين (الأربعة) و(الثلاثة)، ولم يكن يبذل أي جهد ملحوظ، أو يبدي أي تميّز مهما ضؤل. كان كعامة الطلاب، صبيًا لا يستحق المكافأة.

لم يلمه الأب يومًا بأية كلمة. ولم ينظر إليه، لو مرة، نظرة تشعره بالخجل.

لذلك كان خجله دائمًا.

تأمل رادوفيتش البناء الأبيض الطويل للمدرسة مرة ثانية، طابقان، نوافذ ضيقة، وإلى اليسار يتم بناء شيء ما. ثم غادر المكان عبر شارع سباسكي.

حديقة نيكولايف كانت أسوأ من سابقتها- خالية مهجورة، هادئة، خلف حاجز مكسور وسط كتل شجيرات مستنقعية أخفت أحواضًا ذابلة تتجول فيها أبقار ضلت طريقها. لقد أزاحت الخضرة، التي غرستها يد البشر من زمن بعيد، تلك الكتل النباتية النامية بلا رعاية- القاتلة، الفظة، الضخمة، التي تضاهي بارتفاعها قامة رادوفيتش، الذي راح يتجول بين سيقانها الجافة، متخيلًا نفسه قديسًا من القديسين، أو روبن هود، لكنه بعد ذلك غادر هذا المكان الطريف حقًا، إلى مكان آخر وجد فيه بئرًا مهجورة ككل الحديقة، ومتهدمة منذ زمن بعيد. جلس، هو الكثير الحركة كغيره ممن في سنه، على حافة البئر الحجرية، مدليًا ساقيه في الفراغ الذي تصفر فيه الريح.

ألقى حصاتين وأصغى يسمع الصدى. فهبت، من أعماق الحفرة الواسعة، الرطوبة، ورائحة الموت، والكآبة. هزّ ساقيه، مقاومًا بكسل (وببعض المتعة) تلك الرغبة بالقفز إلى أسفل، التي يشعر بها حتمًا كل من يكون، لو مرة واحدة، على علوّ شاهق، أو على حافة جرف،- تلك الرغبة التي هي إشارة إلى أننا جميعًا كنا، في زمن ما، ملائكة لا نخضع للموت والزوال.

حرّ، وضجر، وريف، وحزيران

بصق رادوفيتش يتكاسل في العمق الذي لا يرى قاعه، ثم نهض برشاقة، غير مستعين بيديه، وغادر حديقة نيكولايف، من دون أن يسمع أصوات أطفال مرحة متدحرجة بعيدًا في العمق، وصفير قاطرات، وألحانًا احتفالية لأوركسترا الفوج النحاسية التي كان أهالي سيمبيرسك في وقت ما، قبل الحريق، يجتمعون على وقعها في أيام الأحد والخميس في باحة المحطة، المحترقة منذ زمن بعيد، أو يشتمّ رائحة الفحم، والبلدان البعيدة الرائعة، بالقرب من البوفيه المطل على المشهد المذهل لنهر الفولغا وخيمه القماشية التي تخفق فيها الريح الحارة.

أي بوظـة تريـد؟ عنـدنا بوظـة بـالخوخ، وبـالقهوة، وبـأوراق البنفسـج، و(الشربات).

لا، هو لم يسمع ذلك كله.

لم يلتفت.

كان يهبط في شارع "ستاري فينيتس" (المحلّق القديم- المترجم) حتى شاطئ الفولغا- يهبط متمهلًا، يتوخوخ، كأنما أعياه ثقل الحدائق الخاصة، يا للحسرة- الحدائق هنا خاصة، ميئوس منها. اكتشف رادوفيتش هذا المكان في أواسط شهر تموز، وهو في حالة قصوى من الإعياء بعد أن جال، بسبب الضجر، أرجاء مدينة سيمبيرسك النائمة، الجامدة، كلها. فقد أتم في خلال الشهر المنقضي الإخلال بكل ما منعه الأب- كل ذلك عبث: الحمام، والدكاكين، والفقراء المحتشدون في الساحة- وأتم تحقيق كل ما تخيّله، غير أن بريقه خفت بعد تحققه وانكمش وصار مسطحًا، كأن الخيال الإنساني قادر فعلًا على تحقيقه. حتى الكنوز السحرية التي لدى البائعين الجوالين بدت، عند تدقيق النظر فيها، خليطًا مرقّشًا فظًا، أضف إلى ذلك انه لم يكن يملك النقود اللازمة لشرائها.

رادوفيتش الذي لم يمسك بيده كوبيكًا واحدًا طول حياته، بالمعنى الحرفي للكلمة، وكان يتصرف كأنه ابن إمبراطور، اكتشف أن المنع والرغبة مترابطان ترابطًا غريبًا ووثيقًا، فإذا ألغيت أحد هذين الطرفين حرمت من الطرف الآخر حتمًا.

إن كل ما يتمناه المرء حقًا، هو فقط ما يستحيل أن يتحقق. هذا درس حفظه رادوفيتش جيدًا وهو في الثلاثين من عمره.

كان "ستاري فينيتس" يهدئه، على عكس "نوفي فينيتس" (المحلق الجديد- المترجم)- العريض، الحديث، الذي كلف الخزينة مبالغ طائلة، باستراحاته الملونة، وغاباته الصغيرة، وبولفاره المشجر بالأكاتسيا. "ستاري فينيتس" الذي كان معزولًا، وقذرًا، امتلك قلب رادوفيتش إلى الأبد. بساتين فاكهة خضراء، تغلب فيها أشجار التوت ومختلف الثمار كانت كتلة ضخمة كثيفة تتدلى خارج الأسوار،

فتطقطق عيدانها وألواحها الخشبية وتنحني حتى تصل إلى ماء النهر. وكان باستطاعته أن يقفز فيقطف تفاحة خضراء، ثم يهرب بسهولة فوق المنحدر، وهو يسابق الأشجار، ويسمع كيف تنبح الكلاب وهي تحاول الإفلات من قيودها خلف الأسوار، وتتبادل النباح فيما بينها بصوت مسعور أجش- كأنها تصرخ: أوقفوا اللص.

لم يكن هياج الكلاب عبثًا- ففي الأعلى كانت تزين "ستاري فينتيس" بناية السجن المؤقت (أو "سجن مقاطعة سيمبيرسك" إذا استخدمنا التعبير الرسمي)، وكان سجناء الأشغال الشاقة مستقبلًا، يستطيعون، إذا ألصقوا سحنهم الشاحبة التي يكسوها الشعر، بشباك النوافذ، أن يستمتعوا بالهدوء قدر ما يشاؤون. كان الناس في "ستاري فينيتس" ينصبون في الأعياد أرجوحة للجمهور غير المتطلب، ويسلقون البيض في فصح الأنوار"، ويلطخون الرمل بقشوره الحمراء، ويتجولون بقمصانهم ومناديلهم الحمراء، وتعلو بين الحين والآخر، في هذه الدغلة أو تلك، إما أنغام آلة موسيقية، وإما صرخة فتاة.

غير أن الجو الذي كان الآن موحشًا، أصم، مقفرًا. كان جيدًا في نظره.

ظل رادوفيتش يتنزه إلى أن شعر بألم لذيذ في ساقيه. نزل إلى ضفة النهر، الماء عند الضفة أخضر تمامًا. وجد بين الشجيرات عش طائر- عشًا مستديرًا، مريحًا، فيه بيوض مدهشة، بنفسجية شاحبة، مرقشة- أخذه معه، طبعًا، بكل قسوة الأطفال، من دون أن يفكر لحظة، بالعصفورة القريبة منه، التي، أغلب الظن، تموت ألمًا، وهي لمّا تفهم أن عالم السنابل الجافة الدافئ قد انتهى بالنسبة لصغارها، انتهى حقًا، وفعلًا، إلى الأبد، ولا تعرف أنها ستجتاز هذه الأزمة وتنساها، بعون الله.

فتّل رادوفيتش إحدى البيضات بين أصابعه، وهو ينصح نفسه بصدق، في سره، بتجنب ارتكاب حماقات- لكنه لم يصمد. لحس البيضة بلسانه- إنها ملساء دافئة، تنبض بالحياة، وقد بدت الآن كثر بياضًا. حاول أن يكتشف ما بداخلها، فعرّضها

لضوء الشمس- خطر في باله أن هذا ممكن، لكن الشمس فقدت فجأة بريقها، ثم اختفت لحظة- وسمع صوتًا أجش، فتيًا يخاطبه من فوق رأسه تمامًا- إنها عصفورة الشمال "الثرثارة".

كانت عبارته أشبه بكلمة سر.

لقد تأخرت،- أضاف الصوت.-في تموز تصبح فراخها قادرة حتّى على الطيران.

رفع رادوفيتش عينيه.

... وانعطف فورًا تقريبًا، نحو شارع موسكوفسكي، الآذاري، الزلق، العريض. دكان سمانة مزين بالآجر الملوّن، ثم سيارة إطفاء، ثم ها هو ذا المنزل، أخيرًا. مبنى خشبي، مدهون، مؤلف من طابقين. وقف رادوفيتش عند البوابة يبحث عن الجرس. ثم، ببساطة، دفع الباب المشبع بالرطوبة. طاف بعينيه على الحديقة العارية، والمستودع المنتصب جامدًا كأنه لوحة، والبئر، والمطبخ الصيفي- تعرّف المكان، وألفه، وأخذ يتخيل كيف سيبدو حاله في الربيع والصيف- إذا دعوه إليه مرة ثانية طبعًا. وليتهم يفعلون!

وجد جرس الباب أمام المدخل- جرس رنان، دافئ دفئًا غريبًا إذا ما قورن بأصابعه.

كان الدفء يتسلل من وراء الباب أيضًا، ترافقه رائحة لذيذة لفطيرة بالملفوف.

فتحت الباب بنت- مراهقة، قبيحة، حادة التقاسيم، ترتدي ثوبًا أسود، قبيحًا. نظرت إليه مندهشة- كانت نظرتها كنظرة التلميذات اللواتي التقى بهن في الشارع. كانت مثلهن، ليت الشيطان يأخذها ويأخذهن. أرادت أن تسأله عن شيء ما، لكنها لم تستطع- التفتت مضطربة إلى امرأة خرجت من المدخل الضيق- قبة بيضاء، شعر مضموم بشريط من التول، شفتان رفيعتان، لا بد أنها عصبية المزاج. لكن- لا. إنها، ببساطة، امرأة عجوز.

أظن أنك...

احمر وجه رادوفيتش، أحنى رأسه بالإيجاب، ونزع عن رأسه القبعة المدرسية- فتبادلت المرأة والبنت النظرات من جديد.

كان رادوفيتش أشيب الشعر، ليس كل الشعر طبعًا، الشعر الذي فوق الجبين فقط، خصلة شيباء وسط خصل سوداء، كثيفة، كان شعره كشعر أبيه. الخصلة البيضاء مجرد علامة فارقة.

فيكتور رادوفيتش.

حاول أن يضم قدميه بحركة تحية لائقة لكنه في الواقع نفض كتلة الثلج التي كانت عالقة بهما فقط، فازداد اضطرابه.

هذا جاء لزيارتي يا ماما!

الصوت نفسه، كما كان آنذاك، في "ستاري فينيتس". صوت مكبوت نوعًا ما، إنه فتى طويل القامة، غير منسجم التقاطيع، يرتدي سترة رمادية، رأسه ضخم. يتلعثم باستمرار، يتلمس بيده أشياء تتحرك بعناد، ويقول عن نفسه، باسطًا يديه في عجز،- كلب بخمس قوائم.

أخرج رادوفيتش من معطفه كيسًا اكتسب دفئًا من وجوده ملاصقًا لبطنه، ومدّ يده به إليه:

كل عام وأنت بخير!

ورقة التغليف الرمادية كانت الشيء الأول الملموس الذي يعطيه الأب لابنه بيديه. ما حاجتك إلى هذا؟- قال ببطء. اليوم عيد ميلاد رفيقي، وأنا مدعو... لم يستمع الأب إلى بقية الكلام. ذهب إلى البوفيه، إلى الصندوق الصغير الذي تعيش فيه النقود. كانت دبقة، والغريب أنها كانت بلا وزن تقريبا.

فتح ساشا الكيس أخيرًا. أشرق وجهه. أول جزء من مؤلفات بيساروف! أصدره بافلينكوف! العام 1866.

كانت الأم تراقب المشهد باهتمام، وكذلك البنت، أمّا ساشا فاستدرك واعترف بأنه أفضل أصدقائه، (قاصدًا باعترافه إما رادوفيتش وإما بيسروف)

عند ذلك سأله الأب مدققًا وهو ما يزال واقفًا عند صندوق النقود

أهو رفيقك أم صديقك؟

صديقي.

وما اسم صديقك هذا؟

ألكسندر أوليانوف.

* * *

كان يجب عليه أن يعجب بكل شيء، لكنه لم يعجب بأي شيء، عدا ساشا.

أسوأ الأشياء كانت غرفة الطعام: بابان، وثلاث نوافذ، وستة كراس مستديرة، مقوسة الظهر، حول طاولة حفّها المنظف بممسحة حتى التمع خشبها بلون الخوخ الغامق، وسماور منتفخ يشغل مكانًا مستقلًا في الزاوية كأي ضيف محترم، وماكنة خياطة لا معنى مطلقًا لوجودها في هذا المكان، وعلى الجدار خريطة للعالم ليست في مكانها أيضًا- خريطة خرساء على عكس شاغلي غرفة المائدة. أدهش رادوفيتش أن البيت مكوّن من طابقين، وفيه غرف كثيرة لم يكن يستطيع عدّها في أي وقت (ثمة درج مستقل يقود إلى غرف البنات، من المتعارف عليه أن صعوده ممنوع على الصبيان). كانت غرفة الطعام هذه لا تخلو أبدًا، يلتقي فيها الجميع أحيانًا، وتشغلها، أحيانًا، ماريا ألكسندروفنا وفي يدها كتاب تقرؤه، أو قطعة قماش تخيطها، أو آنيا ودفاترها، عابسة وقد ملّت من الدراسة، أو فولوديا- الموجود في كل الزوايا، في الوقت نفسه، يلثغ، يطالب الآخرين بإلحاح لا يطاق، أن يشاركوه لعب الشطرنج. كانوا يلعبون في غرفة المائدة، ويحضرون دروسهم، ويقرؤون، وفي حالات نادرة، يأكلون، لقد كانوا، يقضون أغلب حياتهم فيها. حتى المربية ذات الاسم الرنان، بربارا غريغوريفنا، أحضرت معها طفلًا ذا بطن مائل إلى جنب- يبدو أنه أنثى- كي يرى عبر النافذة فوج الإطفاء. الحمد لله على أن برج الإطفاء الموسكوفي كان يرى من كل مكان.

عمومًا، كان رادوفيتش لا يميز طفلًا من طفل. أولغا، ميتيا، مانيا- من تراه يستطيع التمييز بينهم؟ كان في الأسرة ستة أطفال- أضف إلى ذلك طفلين ماتا صغيرين، في وجوههم ثقوب دامية متورمة- كأنها آثار أسنان مقلوعة. هم لم يكونوا يذكرون الطفلين الميتين في أحاديثهم- لكن رادوفيتش سمع، من دون قصد، ثرثرة المربية مع الطباخة التي لا اسم لها ولا شكل، ومنذ ذلك الوقت صار يحسّ بأنهما موجودان بقربه، لا شك في ذلك، وأنهما يقفان غير مرئيين هنا، في إحدى زوايا غرفة المائدة، كضباب خفيف سام. ترى، كيف يستطيع المرء أن يعيل هذا العدد من الأطفال؟ لقد كان رادوفيتش وحيدًا عند أبيه، ومع ذلك كان يبدو عبئًا ثقيلًا في بعض الأحيان.

كان ساشا يستطيع أن يصل إلى غرفته دون أن يلحظه أحد، فالدرج المؤدي إلى جناح الصبيّان يبدأ من عند باب الدار مباشرة، وهو درج معتم، أملس، غير عريض. وكان هذا ميزة رائعة، تمحو السوء الذي يسببه كون غرفة ساشا تجاور المدخل إلى غرفة فولوديا. لكن ساشا، لسوء الحظ، لم يستفد من هذه الميزة أبدًا.

كان في كل مرة يحبس أنفاسه عند دخوله إلى المنزل، آملًا ألّا يصدر صوتًا ينبه الآخرين، لكنه كان يسعل، كأنما عمدًا، بصوت مرتفع، فتنطلق من أعماق البيت أصوات مختلفة: ساشا! جاء ساشا! وهكذا يذهب ساشا، من دون أن يلحظ أنه ابتسم، في اتجاه تلك الأصوات، في اتجاه أبواب غرفة المائدة التي فتحت مرة ولم تغلق بعدها. وكانوا يتبعونه، يجتازون تلك الأبواب، ويدخلون إلى غرفة المائدة السيئة الذكر، يقفون عند الجدار في انتظار أن يؤدي ساشا على مهل، وبشكل تام، واجباته الأبوية والأخوية، يا إلهي، كم عددهم؟ كلهم يحتاجونه، كلهم يحبونه، كل منهم يريد أن يكون مثله، وليس رادوفيتش وحده.

الأمر الذي كان أكثر إيلامًا، هو ضيق الوقت. صداقته مع ساشا كانت تتغذى بالنثريات. كانا يكتفيان طول الأسبوع بتبادل النظرات (نظرات عرضانية عبر الصف كله) والتجوّل لبضع دقائق في الفرص بين الدروس في ممر المدرسة الضيق. في الفرصة الكبيرة- مدتها نصف ساعة- كان على التلاميذ أن يأكلوا، ويقضوا

حاجتهم، وأن يقفوا في الدور مهمهمين، يراوحون في مكانهم كي يقرؤوا سريعًا بعيونهم فصلًا من كتاب... كان يوم الأربعاء اليوم الوحيد المعقول عندهما. كان دوامهما ينتهي يوم الأربعاء في منتصف النهار. في الأيام الأخرى كلها، كان الدوام يمتد من الثامنة والنصف حتى الرابعة. وكان الأب يعود من عمله في الخامسة، لذلك كان رادوفيتش يعود مسرعًا إلى البيت، مضطرًا في بعض الأحيان إلى تدنيس ملابسه وهو يعدو، فيشعر بحرج لا يقلل من شأنه كونها ملابس المدرسة.

لا شيء أسوأ من الدنس، لكن المخيف هو فقط خيانة الأب أو القيصر.

هكذا كان يقول الأب.

لكنهما كانا، هو وساشا، لا يحتاجان في يوم الأربعاء الركض إلى أي مكان، لذلك كانا، إذا سمح الطقس، يطوفان ساعات في سيمبيرسك، لا يتوقفان عن الكلام. لقد كان كل منهما معجبًا بالآخر. كان ساشا محدثًا بارعًا، يتفوق حتى على أبيه الذي، إذا أردنا الحق، كفّ منذ زمن بعيد عن تسلية رادوفيتش بالحكايات عن أمجاد السلالة العريقة. وكان ساشا يهتم بالإضافة إلى ذلك: بأقسام الخلية الحية وغذاء وحيدات الخلية، وأسباب ظهور الأشعة الخضراء عند الغروب، ودرجة انصهار "وولفرام". الوجود، في نظره، ميكانيزم رائع التنظيم، عاقل، ومشذب وذكي. رادوفيتش كان يحسده قليلًا- فهو، نفسه، كان يرى أن كل ما حوله فوضوي، وفاقع، ومشتت، كما لو كان يراه عبر مصفاة سيئة.

ولكي يتحقق بعض التقارب بينهما، صار رادوفيتش، الذي لم يكن من قبل متميزًا جدًا في العلوم، يقرأ بهمة كتبًا في الكيمياء والبيولوجيا يزوده بها ساشا نفسه. المكتبة في منزل عائلة أوليانوف كانت رائعة فعلًا- وهذا هو الامتياز الوحيد لآل أوليانوف الذي كان رادوفيتش يعترف به لنفسه سرًا، إذ لم يكن في بيتهما أية كتب- بل إن أباه كان يصلي من دون أن يحمل الكتاب، كان يصلي معتمدًا على ذاكرته.

لقد ورث رادوفيتش هذه الذاكرة الضخمة- إنها، ببساطة، ذاكرة حصان، كان يقول ساشا وعيناه الضيقتان، غير الجميلتين، تلتمعان. هل تعرف يا فيكتور أن لدى

الخيل ذاكرة مدهشة؟ إنها تستطيع أن تعرف، حتى بعد عشر سنوات، الإنسان الذي عرفته آنذاك. كيف تستطيع ألّا تكون الأول في الصف، وأنت تملك مثل هذه الذاكرة؟ كانا يتخاطبان دائمًا، حتى حين يكونان على انفراد، بلغة "الجمع" كأنهما يمنحان بذلك صداقتهما الصبيانية ثوبًا فضفاضًا. لكن رادوفيتش كان دائمًا يسمي صديقه كالجميع- ساشا.

ساشا كان يتغلب على مصاعبه بالعناد. هو لم يحاول أبدًا أن يحفظ عن ظهر قلب (المدرسة عندنا ليست معهدًا للتعليم، بل للببغاوات)، لكنه كان في كل مرة يسعى بإخلاص إلى فهم كل عبارة طويلة في الكتاب المدرسي، كأنه يرى معنى بسيطًا يختبئ خلف الثرثرة الكلامية. أما رادوفيتش، الذي كان يحفظ من القراءة االأولى أي نص حتى لو كان غير مفهوم أبدًا، فلسخرية القدر، لم يكن يستطيع أن يعيد ذلك النص بكلام مفهوم (كان يرتبك أمام الناس فيحمر وجهه ويغص، ويتلعثم)، فينتظر بصبر، أن يصل ساشا ببطء إلى استيعاب كتلة المعلومات المستعصية حتى ذروتها- ثم يشرحها له بسهولة في كلمتين. فيما بعد، صارت العلوم، التي كانت من قبل مضجرة للغاية، ممتلئة فجأة، بمعنى واضح ودافئ، كقطعة عقيق قرّبتها من مصباح، وهكذا صار رادوفيتش، الذي اعتاد على سماع كلمة "تلميذ وسط" المهينة ينال في المدرسة علامات ممتازة، وحصل بعد عام على المرتبة الأولى عند الانتقال إلى الصف الأعلى.

والأهم- هو أن المجلس التعليمي خصص له راتبًا بوصفه تلميذًا مهذبًا ذا إمكانات كبيرة.

ثلاثين روبلًا في العام يا بابا!

أمسك الأب بيديه "الثناء" ومجلّد بوشكين، وراح يتلمس بأصابعه كل حرف من الحروف المذهبة على غلافه- "هدية لتهذيبه، وتفوقه في الدراسة".

أحنى رأسه في إشارة فخر لنفسه أكثر منها لرادوفيتش. وفقدت شفتاه للحظة، وضوحهما المعتاد، وتهدلتا لاقتراب الدموع منهما، لكن الأب تمالك نفسه،

وأخفى دموعه في شعر رادوفيتش، وهو يقبل رأس ابنه، لأول مرة منذ سنوات وسنوات، بل لأول مرة في حياته.

ثلاثون روبلًا!

رادوفيتش أيضًا، عرف لأول مرة في حياته ما هو إرضاء الذات والتفاخر- إنه شعور ناضج جدًا، ولذيذ، وجذّاب، يولد في صميم القلب.

في الماضي كان حبه لذاته يتغذى فقط بحكايات أبيه عن عظمة الماضي. أما الآن فقد امتلك واقعًا شخصيًا مستقلًا يستطيع أن يفخر به. وهذا حدث بفضل ساشا.

في أول عام من صداقتهما، حين استقر الثلج أخيرًا في سيمبيرسك، فوق الوحل المتجمد، صارا يذهبان في أيام الأربعاء، بعد الدروس، إلى بيت ساشا. رادوفيتش تردد قليلًا، لكنه قرر ألّا يطلب الإذن بهذه الزيارة من أبيه- بعد ذلك أحس شخصيًا، كيف صار كتمان هذا الأمر الصغير يقيده أسبوعًا بعد أسبوع، ويشتد متحولًا إلى كذبة كبيرة مكتملة القيمة. غير أن قضاء بضع ساعات مع ساشا كان يستحق ذلك في نظره، والله يستحق، لولا غرفة المائدة الملعونة تلك.

تعال تغد معنا يا فيكتور. لا- لا، بالتأكيد! تعال نلعب الشطرنج يا فيتيا!

مباراة واحدة! من فضلك يا فيكتور أمسك هذا الخيط، ساعدني فهذه الكبة من الخيوط لا تنفك معي بحال من الأحوال. والنتيجة هي أنه كان أحيانًا لا يصل أبدًا إلى غرفة ساشا. كان رادوفيتش يغامر بسمعته كولد مهذب، فيرفض كل شيء ويصمت عابسًا، ويلقي بين الحين والآخر، نظرة إلى الساعة، ليس بعينيه، بل بكل رأسه- كحصان مجنون يستعد للانفلات.

ماريا ألكسندروفنا اليائسة من إقناع الفتى الغريب الأطوار بالجلوس إلى المائدة مع الجميع، صارت ترسل الغداء إلى الأعلى، إلى غرفة ساشا، لكن رادوفيتش كان يرفض بعناد أن يأكل هناك أيضًا، فيرفض معه ساشا الأكل من باب التضامن الرفاقي. وذات مرة، لم تتمالك ماريا ألكسندروفنا نفسها وهي تنقل من

عندهما الصحون التي بردت فيها الفطائر دون أن تمسّ، فسألت ابنها الكبير بحذر: هل صديقك لا يعرف كيف يتصرف على مائدة الطعام؟ قل له أننا، إذا كان الأمر كذلك،...

إنه، ببساطة، ليس جائعًا يا ماما.

أهو يأكل في المدرسة؟

فكّر ساشا برهة متفكّرًا.

لا، هو لا يأكل هناك.

هو، إذن، جائع حتمًا، وإلّا كيف؟ الأولاد في سنه يرغبون في الأكل دائمًا. يجدر بي أن أقول أيضًا إن رفضك للأكل تضامنًا معه أمر غبي جدًا. أبوك كان مصابًا بقرحة المعدة، هو كان مريضًا نتيجة الإرهاق في العمل، أما أنت... كان ساشا ينظر باستمرار إلى نقطة واحدة، ويدلّك شحمة أذنه دون أن يلحظ ذلك- هذا كان التصرف الوحيد الذي يفضح قلقه الشديد، فقد كان في طفولته يدلك شحمة أذنه حتى تحمرّ، بل كان يجرحها أحيانًا.

ولماذا يغادر دائمًا في الساعة الرابعة والربع؟ ما إن تدق الساعة معلنة الرابعة والربع، حتى يكون واقفًا عند الباب. إنه حتى لا يودعنا. آنيا تقول إنه...

يظل ساشا صامتًا، وعلى وجهه تعابير ترغم ماريا ألكسندروفنا على تليين لهجتها:

هل أبواه صارمان؟ هل زرت فيكتور في بيته، لو مرة واحدة؟ أنتما صديقان، وهو يزورنا، فلماذا لا يدعوك لزيارته- كما هي عادة الأصدقاء؟ قد يكون من الأفضل أن أقوم أنا بزيارتهم، فهذا في نهاية المطاف، تعبير عن الاحترام...

ترك ساشا، أخيرًا شحمة أذنه- متورمة، نصف شفافة، لامعة كحبة كرز، ونهض.

"لا، يا ماما- قال بلهجة قاطعة.- لا حاجة لأية زيارات. فيكتور- صديقي. وأنا لا يهمني أين يعيش، ومع من، ولماذا يغادرني دائمًا في وقت معين.

وهذا يعني ألّا تهتمي، أنت أيضًا، بذلك، وإلا فلن تكون صداقتنا صداقة.

أرادت ماريا الكسندروفنا أن تعترض، لكنها نظرت إلى وجه ابنها- وامتنعت. إنه لم يتجاوز الرابعة عشرة. يا إلهي! ما أعنده! ما أنضجه، ما أقبحه! إنه نسخة عن أبيه. مظهر عابس، شاحب، وروح شجاعة ومستقيمة. ترى كيف سيستطيع الحياة بهذه الشخصية؟

هزت رأسها.

حسنًا، أعدك ألّا أهتم، لكن، كل الفطائر على الأقل. إنها فطائر بورق الملفوف، أنت تحبها.

سآكل واحدة فقط.

حسنًا، واحدة فقط.

أعادت ماريا ألكسندروفنا الصحن إلى الطاولة الممتلئة بالأواني الكيميائية، والأنابيب، والدفاتر، الملأى بالملاحظات- صيغ مدونة حرفًا، حرفًا، وأرقام مكتوبة بعناية، والعدد الأول (العدد الأول بالضبط) من "مجلة الجمعية الكيميائية الروسية" و"أسس الكيمياء" لميندلييف.

يجب الاتصال بإيليا نيكولايفتش قبل عيد الميلاد، وإصلاح ميكروسكوب الولد.

خرجت بهدوء، وأغلقت الباب وراءها وذهبت إلى أسفل، غير فاهمة لماذا يتلوى قلبها هذا التلوي الطويل المؤلم، كأنه ليس قلبًا بل ركبتان متورمتان تؤلمانها بسبب البرد. المربية قالت- ساقاك متورمتان، وهأنذا أشعر الآن أن قلبي يتلوى أيضًا، كمن ينتظر وقوع كارثة. غريب، طبعًا، هذا الـ "فيكتور" رادوفيتش، غريب جدًا. ترى ما الذي وجده ساشا فيه؟ إنه فتى غير مهذب. لكن، لا، هذا غير صحيح. إنه، ببساطة، سيء المزاج، يصعب أحيانًا، أن ينطق لو بكلمتين، رغم أن الجميع في بيتهم راضون عن حياتهم على ما أظن، وكل شيء في ذلك البيت منظم على أبسط وجه. وهو جميل إلى حد يربك الناظر إليه، كأنه ليس إنسانًا حقيقيًا، بل ملاك منتزع

من إحدى لوحات عيد الفصح، بشرة سمراء غير لامعة، رموش كالسهام النارية، وعينان تجعلان آنيا المسكينة تنسى نفسها، وتنهض مرتبكة عند دخوله، لا تدري أين تخفي يديها المرتعشتين. أما هو فيدخل كأنه لا يرى أحدًا، لا يرى نفسه، ولا آنيا، ولا الآخرين. كان ينظر فقط إلى ساشا نظرات توحي بأنه يوشك أن يعبده.

وهذه الخصلة الشائبة على جبينه! ترى كيف يشيب شعر صبي في الرابعة عشرة من عمره.

آخر درس كان درس الديانة يلقيه يوستينوف، الذي كان يصرف الطلاب عادة، قبل انتهاء زمن الحصة، لكنه في هذه المرة كان، لسوء الحظ، متحمسًا، فاستمر، حتى بعد قرع جرس الانصراف، يلوح بيديه ويروي لهم شيئًا ما من "نشرة سيمبيرسك الدينية". رادوفيتش تململ في مقعده كالمصاب بنوبة عصبية، وراح ينظر عبر النافذة بين فترة وأخرى، كيف تزحف الشمس الربيعية بتصميم نحو نهر الفولغا الذي مازال ساكنًا. لكن صبره نفد أخيرًا، فرفع يده- بيوتر إيفانوفيتش، أنت لم تسمع الجرس. تلعثم يوستينوف وشد لحيته بغضب، وأشار بيده إلى الصبية غير الممتنين. اذهبوا! أنتم ما زلتم خرافًا، ولم تصبحوا غنمًا بعد. وكان واضحًا من وجهه الجامد غضبًا، أنه سيمتحنهم في الدرس القادم، وسينتقم. فليكن! أشار رادوفيتش إلى ساشا برأسه مودّعًا، وزحزح مقعده مصدرًا صوتًا، ثم أزاح جميع من في طريقه، واندفع نحو الباب قبل الجميع.

ساشا لحق به عند التقاء شارعي سباسكي ودفورتسوفي.

فيكتور، يا فيكتور! انتظرني!

أبطأ رادوفيتش في مشيته، ومشى ساشا إلى جانبه حاملًا قبعته، وقد اضطر إلى القفز مرتين كالأطفال، كي يحقق الانسجام بين خطواته وخطوات رادوفيتش، وانسجمت خطواتهما أخيرًا فضحك الاثنان وشعرا بالراحة.

لقد أردت منذ مدة أن أسألك... لماذا تسرع دائمًا في العودة إلى البيت؟

هو يصادق ساشا منذ تموز، ويزور بيته أسبوعيًا منذ الحادي والثلاثين من آذار- هذا يعني أنه زاره... حاول رادوفيتش أن يعدّ الأسابيع، لكنه أخطأ في العدّ، وفي الخطو أيضًا، فتوقف. توقف ساشا أيضًا، ولسبب ما، نزع قبعته عن رأسه، فاتضح على الفور أنه ذو جبين عريض جدًا.

هل يعاقبك أبوك؟ يضربك؟

شحب وجه ساشا من الغضب، والخوف من الجواب، أما رادوفيتش فصمت وصمت، فقد كان يعرف أنه لن يستطيع تفسير الأمر لصديقه بأي حال من الأحوال.

الأب كان دائمًا يعود من عمله في الساعة الخامسة بالضبط، وكان على رادوفيتش أن يغسل يديه وجهه قبل هذا الموعد، وينظف زيه لمدرسي، وقدميه، ويسرّح شعره الذي يتكوم فوق رأسه قبعة سوداء غبية. ما أشد ألم تسريح هذا الشيطان الأسود! وماذا أيضًا؟ قفز رادوفيتش بعينيه يتفحص الغرفة، مصححًا وضع بعض الأشياء فيها، وهو يشعر بخفقان قلبه. تأوّه الباب أخيرًا ودخل الأب- شاحبًا جدًا، ومنتصب القامة جدًا. ووضع على الطاولة صرة، ثم اختفى بصمت فورًا وراء الستارة. فتح رادوفيتش الصرة (منديل يكاد يكون برقة "الباتيستا" ملطخ ببقع بارزة كأنها سعال مسلول) وأخرج منها إنائين ثقيلين بعض الشيء، قدرين مستديرين من الفخار، مثبتين على ذراع واحدة.

كان مظهر القدرين يوحي بأن ما فيهما لذيذ-وكانا ساخنين!

تعلو خشخشة خلف الستارة، ويتطاير رذاذ ماء من مكان غير مرئي (صاحبة المنزل كانت تأتي مرة في الشهر للتفتيش، تطلق الشتائم، وتشير بإصبعها إلى أماكن البلل في أرضية الغرفة- إذا خرّبتم الأرضية سأشكوكم إلى مدير الحي!) وكان رادوفيتش حين يسمعها يشعر بفرح يتصاعد في داخله ببطء كأنه ستارة مسرح، وكان، كي لا يزيد في غضب العجوز يسارع إلى المائدة، ويضع الكؤوس والأطباق، ويرتب على شكل حلقات فوط المائدة، المهترئة كالمنديل، وتغطيها بقع حمراء كالبقع التي تغطيه، ويزيح القدرين الفارغين بعيدًا، إلى أكثر الزوايا عتمة وعزلة ثم

يغطيهما بمنشفة متسخة. لا تنس أن تغسلهما فيما بعد! الأب كان يكره هذين القدرين، لكنهما كانا يعجبان رادوفيتش، ففي مثلهما كان الفلاحون يأخذون طعامهم في مواسم القطاف والحصاد، وإلى أي مكان آخر يذهبون إليه.

إن هذه القدور مريحة، لكن تسميتها قدورًا أمر مضحك.

أخيرًا يموء المنبه كالهر خلف الستارة،- واحد، اثنان، ثلاثة، فيرتدي رادوفيتش زيه المدرسي، ويتفحّص المائدة بنظرة عسكرية سريعة. صبّاب الحساء القديم تغلفه شبكة رقيقة جدًا من الحساء، وحلقات من البخار فوق الصحن اللامع، حساء ملفوف رمادي اللون، وبطاطا مسلوقة بقشرها، وأوان من البورسلان، وأدوات طعام فضية.

الطعام جاهز.

عند ذلك فقط، يخرج الأب من خلف الستارة، وقد حلق ذقنه حديثًا، وارتدى قميصًا أبيض كالثلج، بقبة منشاة، وبمعطف قصير ضيق، بدا كأنه ولد فيه،- وتدخل معه بلا مبالاة ويسر رائحة الكولونيا اللندنية وماء الورد، والشاي المعتق- المعتق، إنها الرائحة الخاصة بالملوك، التي يعرفها رادوفيتش. وكان رادوفيتش يحبس أنفاسه في كل مرة- ففي كل مرة كانت تخرج مع أبيه، وراء الستارة جوقة راقصة ويعلو لغط حاشية القصر، وتضيء ثريات ضخمة راعشة، تشتعل في كل منها ألف شمعة ينعكس ضوءها عبر المرآة على الأرضية الباهظة الثمن.

يتفحص الأب رادوفيتش بصرامة، ثم المائدة وما عليها، ثم يقول بصوت منخفض شكرًا، وأخيرًا، يبتسم، ابتسامة تكون، في أغلب الأحيان، الأخيرة في اليوم. وكان رادوفيتش ينسى، في سبيل هذه الدقيقة، أن معطف أبيه المكوّن من مجموعة من قطع القماش المتنوعة، قد خرج من (الموضة) منذ زمن بعيد، وأن النشاء على ياقة قميصه مصنوع محليًا من البطاطا، وأن زجاجة كولونيا atkinson قد فرغت منذ زمن، وأن الأب يقوم سرًا بملئها بماء ورد عادي من أرخص الأنواع، من ذلك النوع الذي تدهن به البنات السوقيات أجسادهن بسخاء.

إن الحياة بغض النظر عن الوالد، لم تكن تبدو سيئة في نظر رادوفيتش. فهو يراها ظهورًا ملكيًا، يرى أباه ملكًا رغم فقره. إنه- ملك. ورادوفيتش مستعد لأن يعود إلى البيت بأقصى سرعة يستطيعها، وأن يحفّ بالقرميدة التي محّت، أدوات الطعام الفضية الملعونة في كل يوم أحد، فقط من أجل أن يظل يراه، ويرى ابتسامته.

اندفع في سماء شارع دفورتسو في سرب صاخب من العصافير الجبلية، وعلت قرقعة عربة. الشمس الصغيرة العابسة بطبيعة الحال، اختبأت وراء مداخن بيت المحافظ، فبدت كأنها تجلس القرفصاء. والساعة الآن الرابعة والنصف بعد الظهر، هذا وقت الركض إلى البيت بأقصى سرعة.

طيّب، لماذا تسرع دائمًا في العودة إلى البيت يا فيكتور؟

أنت لن تفهم يا ساشا،- أجاب رادوفيتش بصراحة، من دون أن يلحظ أنه خاطب صديقه بلغة "المفرد". حتى أنت لن تفهم. اعذرني، أنا، فعلًا، يجب ألّا أتأخر.

لكنه، مع ذلك، تأخّر في يوم الأربعاء، السادس والعشرين من أيار عام 1880.

كان الربيع في ذلك العام قصيرًا ومتأخرًا لا سيما في سيمبيرسك- وقد بدا كأنه يحس بقرب نهايته- فراح يقفز فوق المواعيد، ويخلط بينها، ويمضي مسرعًا. نبات "التشيريوموخا" الذي يكن له رادوفيتش حبًا خاصًا، بدأ يورق، وبدأت غصونه الضعيفة تشق الأرض، وفجأة، راحت، كما لو أنها تتعمد الإساءة، تفوح منها على المارة بجانبها روائح براز القطط، بدلًا من رائحتها العطرة. أما الحدائق فأزهرت.- أشجار الكرز، والتفاح، والخوخ، نسيت نظام إزهارها، وحذرها، وأزهرت دفعة واحدة- وهكذا صار "ستاري فينيتس" في لحظة ما، شبيهًا بطست مليء برغوة صابون كثيفة.

لقد صار الآن، هو وساشا، يجيئان إلى "ستاري فينيتس" في أيام الأربعاء،- يمكثان فيه دقيقة، ثم يتجهان إلى منزل آل أوليانوف. صعد ساشا الدرج إلى المدخل وحده، وبقي رادوفيتش عند البوابة- كأنه يخشى أن تمتصه غرفة المائدة اللعينة: أما ماريا ألكسندروفنا، التي نبهتهما مرة واحدة فقط، إلى أن وراء البيت

حديقة أيضًا، يستطيعان أن يدرسا فيها بشكل رائع، (العبارة ظلت معلقة في الهواء- من دون جواب)، فكانت تحمل سلّة فيها بطانية، اقتربت كي تقبّل جبين ابنها، لكنه تحاشى قبلتها متأثرًا بنظرة رادوفيتش الغيورة- تحاشاها- بلين، وبشكل آلي- فتظاهرت بلين هي أيضًا، بأنها لا تستطيع الوصول إلى جبينه، واكتفت بالنظر إليهما وهما يتعدان بقامتيهما النحيلتين، وكتفيهما المتلاصقتين تقريبًا، صاعدين إلى أعلى في شارع موسكوفسكي- من دون أن تلاحظ أن كلًا منهما يقلّد الآخر في مشيته، وقد أخذ ينتابها، في نهاية المطاف، إحساس بأن لديها صبيين شابين، اثنين ساشا، وأنها لا تعرفهما مطلقًا. ابتلعت ماريا ألكسندروفنا إحساسها المعتاد بالاكتئاب، وعادت إلى المنزل، إلى أولادها الأصغر سنًا، وإلى تزاحمهم حول البيانو في الفرص بين الدروس، وإلى الانتظار الدائم لعودة زوجها الذي ما يزال يسير، عامًا بعد عام، في الطرق الرديئة للمحافظة التي لا حدود لها، مدفوعًا بهوس شيطان التنوير، لكن خوفها المعتاد عليه، هو العصبي، ذو القلب الضعيف، لم يكن شديدًا وواخزًا كخوفها على ابنها الشاب.

دسّ ساشا يده في السلة فور انعطافهما نحو زقاق "مالي سمولينسكي"، نبش تحت البطانية صرّة أعدّتها الأم، محاولًا أن يحدّد باللمس محتواها- أخبز وشرائح لحم بارد؟ أم فطائر؟ أم بيض مسلوق؟- وزاد، هو ورادوفيتش، من سرعة مشيهما آليًا. شاهدا عند مبنى تالينين فتى غجريًا صغيرًا في السادسة من عمره يقف كالجرو منقلًا ثقله على قدميه. كان الفتى حافيًا، متجمدًا من البرد، تغطي أذنيه السوداوين قبعة، لا بد أنها لأبيه. ساشا دس في يده الصرة من دون أن يتوقف. لم يمشيا بعد ذلك، بل انطلقا يركضان ويقهقهان، إلى الأسفل، إلى الأسفل، نحو الفولغا، جائعين، تطاردهما ريح سيمبيرسك الأزلية، وأشواك التشيريوموخا الفتية، والصيف الذي بدأ يهاجم المدينة. لم يكن التتري الصغير يقول لهما "شكرًا" أو حتى يبتسم، أو يشير برأسه، وهذا ما جعل رادوفيتش يشعر أحيانًا، بأنه لن يجده إذا التفت نحوه. ولكن، بعد مرور ست سنوات، قال ساشا له فجأة في بيتربورغ- لا بد

أنه يقف هناك إلى الآن، جائعًا، ينتظر قدومنا. لم يفهم رادوفيتش ما قاله ساشا، فسأله مستفسرًا من دون اهتمام، وهو يحاول أن يثبت البكلة في ثنية (الفراك) الذي استعاره واستعار البكلة أيضًا. غضب رادوفيتش (حتى (الفراك) لم يجعله كأبيه!) وراح ينفخ على يديه، يدفئهما، وهو يسرع في الخروج إلى النور والدفء، من الغرف الرطبة الباردة، التي، لسوء الحظ، ليست غرف بيته، لكنها حقيقية.

ينتظر؟ من الذي ينتظر؟

ساشا لم يكرر قوله، لكن وجهه تقلص، كأن كفّه غاصت في شيء مقرف، لزج، اقترب من رادوفيتش، وثبّت له البكلة الملعونة.

ضعها بنفسك في العروة.

كانت أصابعه دافئة وحية.

بعد ستة أعوام أخرى، ستلمح عينا رادوفيتش، وهو يمر بالقرب من السنديانة الضخمة ذاهبًا إلى مزرعة "آنّا"، جسدًا يتأوه منطويًا على نفسه فيدير رأس حصانه "غروم" شادًا بالعنان فم الحصان المستسلم- تبرو- تبرو، توقف!- لكن يتبيّن له أن الجسد ليس سوى عود، أعوج، لزج، أسود اللون، نابق من الأرض. آنذاك فقط، أدرك أن ساشا كان محقًا، فالغجري الصغير كان ينتظرهما كل تلك الأعوام عند تقاطع شارع مارتينوف المزدحم وزقاق "سمولينسكي"، وكان يقف من دون أن يمدّ كفه الصغيرة القذرة- ضامًا إياها كعصفور. شعر رادوفيتش أن في تذكّر ساشا للأمر، ونسيانه هو له- نذالة أخرى لا تطاق، فأصابه الغثيان وراح يتقيأ مباشرة فوق ذلك العود- تقيأ، وتقيأ رغوة بيضاء، مرّة، مسعورة، وهو يختنق بهذه الرغوة، ويتساءل في سره ببرود، كأن الذي يتقيأ ليس هو، عما إذ كان حزام خصره قصير، وعن قدرته على القفز إلى الغصن الأدنى، والأهم من ذلك، عما إذا كان ذلك الغصن قويًا بما فيه الكفاية، فالأشد عارًا من الانتحار- الانتحار الفاشل.

كل شيء أصبح، فجأة، واضحًا جدًا، وبسيطًا، كما في الطفولة، حين كانت أمه ما تزال حية. ثمار الغصن المتساقطة بين كفيه المفتوحين، كانت طفولية أيضًا-

على رؤوسها قبعات سميكة، خشنة، أما هي فصفراء، ملساء. غاص القيء بلا أثر في العشب الجاف الساخن، كأن الحياة نفسها كانت تسرع لتخلص رادوفيتش من كل أثر سيء.

بصق رادوفيتش آخر دفعة من القيء، فرنت قبضة الرسن التي في يده- وعلى الفور كرر الطرف الآخر منه ذلك الصوت الرنان، اقترب غروم. أحنى رأسه فلامس به كتفه، وأطلق على رأسه نفسًا مهدئًا، فتشبث رادوفيتش بغرته الخشنة، وابتلع ريقه. أما غروم فرفعه بحذر كما يُرفع الطفل الصغير، وجلّس قامته- بيسر، كما كان يفعل أبوه.

ما هذا يا بابا؟ لماذا تفعل ذلك؟!

ابتلع رادوفيتش ريقه مرة ثانية، وعانق الوجه الرفيع الدافئ، ثم تلمس بأصابعه الراعشة الشفة المخملية السفلى الرقيقة المجروحة من الجهة اليمنى، وأنّ إشفاقًا- الفضل لله وليس لي، ليس لي في نهاية الأمر.

غروم، غروموشكا، سامحني، سامحني

نزع بسرعة لجام الحصان، وحاول أن يضمد بمنديل الجرح المبلل باللعاب والدم، كي يجنبه الاحتكاك والألم، لكنه استدرك، فقذف اللجام على العشب، وإلى العشب طار الحزام النصفي للحصان، وسرجه، وكل ما يثقل حركته- هذه كلها عوائق، عوائق هي الكلمة المناسبة! أما غروم فكان يساعده بصبر- يميل برأسه، يبدّل وقفته إذا لزم الأمر، إلى أن صار عاريًا، لامعًا كالشهاب، ظهره الطويل يرتجف بين الفينة والأخرى، وسيقانه مضمومة كأنه إنسان ضبط فجأة، عاريًا في منتصف النهار.

ألصق رادوفيتش وجهه بجسد الحصان مرة ثانية يمسح بشعره خديه المبللين بالدموع، وسارا معًا قرابة نصف فرسخ إلى المزرعة، سارا خطوة، خطوة، كما كان، هو وساشا، يسيران في وقت ما، وهو يتكلم من دون توقف، ويغص بالكلام أحيانًا، شاعرًا بأن الظلام يتراجع مع كل كلمة يقولها، وكل خطوة يخطوها، وتملأ الحياة

مكانه من جديد- حياة تدغدغه، وتلسع سقف حلقه لسعًا خفيفًا، كشراب "الكفاس البارد كالثلج. إنها حياة ليس فيها خجل، أو إثم، أو أطياف غجر صغار، أو مشانق منصوبة، أو أي شيء سيء- ليس فيها سوى رائحة عطر الأشجار الجذاب، والضجة النضرة أبدًا، للطرقات المشجرة منذ الأزل، وبقاع الشمس الخضراء تارة، والذهبية تارة وخاصرتي غروم اللامعتين بفرح، ويدي رادوفيتش، وحجارة الطريق التي ترسل صريرًا خافتًا.

هي حية أيضًا.

أمر رادوفيتش في الاصطبل، بألّا يقدموا لغروم الشعير، وأن يطعموه سيقان سنابل القمح فقط، وألّا يقدموا له أيّ غذاء فيه حديد، إلى أن يشفى جرحه. وأمر أن يعالج الجرح يوميًا- بحجر جهنم.

يوميًا- هل تسمعون؟- سأتأكد من ذلك بنفسي.

سندهنه بزيت البتولا- وهذا سيطول،- قال يقاطعه كبير السائسين بصوت ممطوط، ودس قبضته الحمراء المغطاة بالتجاعيد في فم غروم الذي ردّ رأسه إلى الخلف.- أين أضعت عدّته؟ إن ثمن هذه العدة خمسمئة روبل، لست أنت من دفعها.

ردّ رادوفيتش رأسه إلى الخلف- بحركة ليست أقل مما فعله غروم- وأظلمت الدنيا في عينيه من شدة الغضب، وقال ببطء شديد- شديد، وهو واقف في مكانه لا يتحرك.

كيف تسمح لنفسك، م- م- مي...

وهنا التقط نظرة السائس الساخرة، الهادئة- فغص بما لم يقله لذلك السافل، وازرقت حنجرته كأنه ابتلع عظمًا.

أنا أسمح لنفسي لأنك خرّبت حصانًا ممتازًا، ونتاليا ألكسندروفنا ستكون مستاءة، ليكن ذلك بعلمك.

فجأة رأى رادوفيتش صورته بعيني ذلك الفلاح المعوج القامة. رأى نفسه دعيًّا مجهول الأصل، (غندورًا) تافهًا، ليس فيه من الرجولة والنضج سوى الخصلة

الشيباء على جبينه،- أنا من دفع نقوده لشرائها ودفع آخرون بقية الثمن.

استدار رادوفيتش وغادر الاصطبل مسرعًا، وهو يحاول أن يسيطر على شفته السفلى التي كانت تنتفض كسائل من وقع الإهانة، فسمع، وهو يجتاز عتبة الظلمة المشبعة برائحة الخيل إلى النور، صوتًا يقول له: بكلّ حزامك يا فتى، وإلا فقدت بنطالك في ساعة نحس!

فليفقد أسنانه كلها، وليضرب رأسه بجذع الشجرة حتى ينفجر، وليسمع هذا الصوت الهادئ الناضج، وليخض في الدم الغريب بجزمته المكسوّة بالغبار، وليذهب إلى سجن الأشغال الشاقة، أو حبل المشنقة، شرط أن يكون أخيرًا مثل ساشا، وإنسانًا حرًّا حرية مطلقة.

استسلمت البكلة بعد عناد، وثبتت الحزام.

لحس رادوفيتش العظيمات المالحة، الملطخة بالهباب، إنها لذيذة جدًا- كأنها قطع من الخبز الساخن، بعد انقضاء يوم صيفي طويل. وشرب الشاي البارد، وزجاجة اللبن. أبوه نائم منذ مدة خلف الستارة. صارت جفونه تتلاصق، وقدماه المكسوتان بالغبار تكنسان الأرض كأنهما ما تزالان، تخوضان في الأماكن الضحلة من نهر الفولغا حيث الماء كثيف، مخضرّ بالحشائش وحيث الهواء مخضرّ أيضًا، وإلى جانبه ساشا يسير طويل القامة، غير منسجم التقاطيع، كتفاه لوحتهما الشمس إلى درجة الاحمرار والتشقق، يسير زامًّا عينيه في وجه الشمس، ويضحك ببساطة، لأن صديقه ما يزال حيًّا.

هذا ليس حتى حلمًا- إنه هراء طفولي، فارغ، وحشي، غير حضاري. رادوفيتش لم يتشاجر طول حياته مع أحد في المدرسة، لم يتشاجر مع أحد في أية مدرسة. التلاميذ ما كانوا يضربونه أبدًا. هم لم يكونوا يعرفون سبب ذلك، وهو أيضًا لم يكن يعرف السبب. إنهم، ببساطة، لا يضربونه- وهذا كل شيء. أبوه كان يقول: إنهم لا يضربونك لأن الدم الذي يجري في عروقك دم ملكي. رادوفيتش لم يعد يصدق ذلك. إنهم لا يضربونه لأنه مقرف.

لقد كان جبانًا، وظلّ جبانًا.

كل ما تجرأ على فعله هو إعلانه في المساء إن كبير السائسين يجب أن يفصل من الخدمة لأنه وقح، وغبي، ولا يعرف حدوده،- وأن يعين محله... أتعني أن يفصل أندريه؟- سألته توسا للتأكيد، وهي تنزع ملاقط الشعر بمهارة، وتظهر، من دون خجل، لرادوفيتش والمرآة، باطن إبطيها الذي ارتسم بسواد خفيف.- الأفضل في هذه الحالة حرق الاصطبل كله، فذلك سيكون أقل كلفة.

نزعت توسا آخر ملقط شعر ورمته على الطاولة المرمرية الصغيرة. شعرها، المضموم، ببساطة، في عقدة عاليًا، انتظر قليلًا، واعدًا نفسه بتسريحة جديدة، ثم انتبه من شروده، فانسدل على كتفيها- ثقيلًا، أسود، كثيفًا. أخذت توسا المشط الذي تحتاجه من بين قرابة عشرة أمشاط، لا يميزه منها، في نظر رادوفيتش سوى أنه مشط غالي الثمن، لكن زوجته كانت دائمًا تعرف ما تحتاجه. كانت تعرف ما تحتاجه وتحصل عليه. طاولة زينتها كنز صغير مدروس، أعجب رادوفيتش ذات يوم إلى حد الخرس، لكنه صار فجأة منفرًا في نظره، كأنه طاولة عرض. ملقط صغير، عاج، فضة، كريستال، في إطار ذهبي رقيق، علب صغيرة فيها أدوات زينة (إحداها كانت مخصصة للجواهر حصرًا)- لقد كانت زوجته نتاليا فلاديميروفنا، (المولودة بورياتينسكايا) لا تطيق الأشياء التافهة، لذا كانت، في كل مرة، تنتقي لنفسها من دون أي خطأ، الأشياء الأفضل، والأغلى ثمنًا فقط.

هنا كان بمقدور رادوفيتش أن يفخر بنفسه ومكانته- هنا بين كل هذه الأشياء اللامعة.

لقد كان متطفلًا- تلك هي الحقيقة. إنه نزوة أمراء.

استدار رادوفيتش نحو النافذة المفتوحة.

تكرّمي بفصلي أنا، إذا كنت لا تريدين فصل أندريه.

بدت لهجته غمغمة كغمغمة الأطفال من شدة الزعل، فضحكت توسا ببساطة ومرح- دعني أجلد أندريه، فذلك أفضل. ألا تريد؟ هو لن يرفض. أنا متأكدة.

سأجلده وتنتهي القضية. لكن الأمر يعود إليك يا فيكتور، أنت، ببساطة، لا تجيد التعامل مع الآخرين، ولا تريد أن تتعلم ذلك، ما يؤسفني هو...

أخذت توسا تكلّمه- الأدق أنها أخذت تعلمه، هي دائمًا تعلمه من دون أن تلحظ ذلك. تخاطبه بتعال في كل أمر، كأنه متوحش خرج لأول مرة من المستنقع من دون أن يحصل على أي قدر من التمدن.

يجدر القول إن رادوفيتش كان متوحشًا، هو لم يكن أبدًا يستطيع أن يتكيف أو يندمج. هو، حتى لو افترضنا أن أسلافه كانوا يعيشون في القصور، كما يؤكد أبوه، لم يكن يستطيع ذلك. فقد تبين أن حياة الثراء الواعدة بملجأ سعيد منشود مبنية بشكل معقد جدًا، معقد إلى حد مضن. لم يعش رادوفيتش بيوميكانيك الرفاه، قطعه كما يقطع الإصبع عودًا صغيرًا. وقد زاد في صعوبة وضعه، أن الناس صاروا الآن، حوله دائمًا، وفي كل الأوقات، يطبخون، وينظفون، ويقدمون الطعام، والسلاح، والأحذية، ويحملون إلى الغرف مصابيح الليل الدافئة. إنهم موجودون بقربه دائمًا، يزيدون حالته سوءًا.

كانوا ينظرون، ويسمعون، ويفهمون.

أو لا يفهمون.

رادوفيتش لا يعرف.

الاعتياد على تدخل الآخرين الدائم في أكثر لحظات حياة الإنسان حميمية، أمر لا يمكن احتماله- يبدو أن الأغنياء يجب أن يولدوا أغنياء، أن يكونوا مثل توسا التي كانت تعرف بالاسم، ليس السائسين فقط، بل زوجاتهم أيضًا، وآباءهم، وأولادهم، تمزح مع الجميع، تقدم لهم الهدايا، وتربت على أكتافهم، لكنها حين ترفع حاجبها علامة عدم الرضا- يزحف الجميع ويختفون خائفين. هي لم تكن تحتاج إلى الكلام. ولماذا الكلام؟ إنهم جميعًا يطيعونها من دون نقاش.

الأصعب على الفهم، هو أن الخدم الذين يملؤون حياة رادوفيتس الآن، ليسوا كسائر الناس. إنهم، ببساطة، أناس صغار يختلفون في كل شيء عن الناس الأسوياء،

ورادوفيتش كان يشعر أنه عالق بين هذين النوعين من الكائنات: الناس الأسوياء، والناس الصغار، يتخبط كذبابة في شبكة عنكبوت، ويتملكه إحساس حاد بأنه، في الواقع، لا يستطيع الانتماء إلى أي من هذين الطرفين.

كان لا يجيد ركوب الخيل، ويتكلم الفرنسية بشكل رديء كتلاميذ المدارس، يجهل الرقص تمامًا، ولا يتقن الصيد أو التصرف كصاحب مزرعة، لكنه كان يتقن اللعب بالورق بشكل لافت، ويتصرف تصرّف أمير بالوراثة.

نبيل بالوراثة، كبر في فقر مدقع.

نعم، هو لم يكن قادرًا على التحدث معهم، لا مع هؤلاء، ولا مع غيرهم، لا يتقن ولا يستطيع التحدث معهم. إنه لا يستطيع ولا يتقن الحديث إلا مع ساشا، مع أنهما كانا آنذاك، في شهر أيار يفضلان الصمت.

نزلا على حافة النهر تقريبًا، ورتبا بإتقان كتبهما وحقيبتيهما فوق العشب، ثم جلسا لا يفعلان شيئًا. تمددا مغمضين عيونهما، فاردين أيديهما، وأرجلهما كيفما اتفق. زقزق طائر في الدغلة بصوت مرتفع- ساشا عرف نوع الطير، أما رادوفيتش فسمعه ونسيه على الفور. المذاكرات التي لا يمكن الانتقال إلى الصف الأعلى من دونها، بدت لهما شيئًا بعيدًا، لا معنى له. لم يكونا يرغبان في التفكير بها، كما لا يرغب المرء في التفكير بموته- ما لم تكن لذلك أسباب، أو ضرورة.

حين حميت الشمس، نزعا قميصيهما، ورأى رادوفيتش حين فتح إحدى عينيه كيف يحمرّ ببطء كتفا ساشا العاريتان اللتان ما زالتا شاحبتين. ورأى على الوجه الأمامي للكتفين عائلة من الشامات البنية كأنها النمل.

حطّت إلى جانب الشامة الكبرى بعوضة وقد انتفخ بطنها الصغير نصف الشفاف.

سيحترق كتفاك تمامًا إذا بقيت هكذا.

فليكن.

نهض فيكتور قليلًا مستندًا إلى مرفقه، ضرب البعوضة بكفه ثم أراها لساشا باعتزاز وقد تلطخت بالدم.

أنا، بالمناسبة، أنقذت حياتك بقتلها.

ضحك ساشا.

وقتلت أنثى لا ذنب لها. هل تعرف يا فيكتور أن مصاصي الدم هم ذكور البعوض فقط؟ إنهم يحتاجونه من أجل التناسخ. أما إناث البعوض فليس لها إبر حادة قادرة على اختراق البشرة.

سأتذكر هذه المعلومة.

ضحك ساشا مرة أخرى، وانقلب على ظهره.

الشامات، كما على مقدمة كتفيه، تمتد خطًّا نحو الأسفل من صرته حتى نهاية بطنه.

قطف رادوفيتش غصنًا صغيرًا، عضه ثم بصقه على الفور. إنه مرّ.

لقد أردت منذ زمن أن أسألك يا ألكسندر... لماذا تجتمعون في غرفة الطعام، ما دام لدى كل منكم غرفته؟

فتح ساشا عينيه، ونظر مندهشًا، صامتًا. ثم جلس إلى جانب رادوفيتش، مصالبًا، مثله، ساقيه على الطريقة التركية. وكان نهر الفولغا يبدو أزرق، كأنه مرسوم على قطعة قماش مشمع. كان كأنه نهر غير حقيقي.

إنه لأمر يثير الفضول حقًا. أحسنت يا فيكتور، إن هذا السؤال لم يخطر في بالي من قبل... سأفكر في الأمر حتمًا.

انتعش ساشا، كما ينتعش دائمًا حين تواجهه عقبة ما، لا يمكن تجاوزها إلا بالتخلص منها، أو بالتفكير فيها. واحمرّ وجهه الأصفر غير الجميل من فرط السرور.

إن هذا الأمر- من حيث الجوهر، مسألة علمية. الشروط المتوفرة...

نهض ساشا فجأة وراح يمشي بمحاذاة ضفة النهر، ملوحًا بيديه بطريقة غريبة،- كأنه يحاول أن يستند إلى شيء ما غير مرئي، ويقفز من هذا العالم.

إلى أين؟ لم يكن يعرف الجواب، لكنه كان مستعدًا لدفع أي ثمن مقابل الذهاب إلى هناك.

جاء ساشا بالجواب بعد أسبوع.

في يوم الأربعاء، 26 أيار، عام 1880.

هما لم يذهبا في ذلك اليوم إلى "ستاري فينيتس"، فقد أصرّ ساشا على ضرورة الذهاب إلى بيته،- فرح رادوفيتش حين لم يتجها إلى غرفة المائدة الملعونة، بل صعدا مباشرة إلى الأعلى، إلى غرفة ساشا.

تمدد فولوديا على سريره. وهو يقضم أظافره بتركيز، ويلتهم بعينيه أحد الكتب. كانت الغرف منفتح بعضها على بعض، وكل شيء كان مسموعًا، ومرئيًا. نظر ساشا إلى رادوفيتش الذي بدا عليه الامتعاض فورًا، ثم أرسل بعبارة قصيرة واحدة أخاه الأصغر إلى الطابق السفلي، وانتظر قليلًا إلى أن هدأ وقع الأقدام الغاضب بسبب الإهانة.

أتذكر أنك سألتني عن غرفة المائدة؟ ولماذا نجتمع هناك؟

أحنى رادوفيتش رأسه بالإيجاب.

لقد فكّرت طويلًا، وأعتقد أن هذا الرأس يعمل كالزئبق. وذلك بسبب الطاقة العالية في قشرته الخارجية. أتفهمني؟

أحنى رادوفيتش رأسه بالإيجاب مرة ثانية، وأحس كيف تكتسب تقاسيم وجهه التعابير المدرسية المعتادة، فتصبح نظرته مرآتية بلامعنى، وترتسم على شفتيه المطبقتين تعابير الاسترضاء والتزلف، كأنه تلميذ مجدّ مشبع باهتمام غير مصطنع. المهم ألّا يستدعوا ساشا، أبعدهم عنه يا رب!

ضحك ساشا.

سأريك، اجلس الآن. لكن حذار! هنا يوجد حمض كبريت، إنه كثيف جدًا، يمكن أن يحرق بشدة. أمسك الآن هذه الزجاجة، وأنا سأحضّر كل شيء.

دس ساشا في يد رادوفيتش زجاجة عطر مضلعة فارغة، تتحرك في داخلها من جانب إلى جانب، نقطة زئبق ثقيلة عابسة كأنها كائن حي. ونزع زجاج الساعة ثم ثبته على حامل، وأخذ بالقطّارة من زجاجة سوداء سدادتها مهترئة، حمض الكبريت

وخلطه مع حفنة من الكريستالات لا تلفت النظر.

فغر رادوفيتش فمه مدهوشًا وهو يتوقع انطلاق دخان ملون، ونثرات احتفالية يمكن أن تكون زرقاء، تتطاير بصخب تحت القبة الزجاجية، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. التهم حمض الكبريت الكريستالات، عن آخرها، من دون أن يتغير، من حيث المظهر- على الأقل. أحنى ساشا رأسه في رضا، ثم أخذ من يد رادوفيتش زجاجة العطر، وصبّ كرة الزئبق التي فيها على زجاج الساعة. انفلت الزئبق كأنه لا يصدق أنه تحرر، ثم هدأ- دائرة مثالية، لامعة، لينة- ومعدنية تمامًا في الوقت نفسه.

في الطبقة السطحية طاقة انكماش كبيرة جدًا، أعتقد أنها أكبر مما في كل الأشياء الأخرى. أتدري لماذا يتجمع الزئبق على شكل كرات؟

أخرج ساشا من درج الطاولة مسمارًا ودس رأسه في الزئبق. محاولًا تقسيم الكرة- غير أن الأجزاء الصغيرة كانت تعود على الفور للتجمع في نقطة مستديرة واحدة.

إن كل منظومة تسعى إلى أن تكون في حالة دنيا من هذه الطاقة. الزئبق يفعل الشيء نفسه، لكي يخفض طاقة الانكماش على سطحه يبذل كل جهده محاولًا تصغير مساحته، والشكل المثالي لذلك- هو الشكل الكروي.

في هذه المرة ضحك رادوفيتش.

في هذه الحالة يجب أن يكون كل التلاميذ على شكل كرات.

ابتسم ساشا- بدا قبيحًا بشكل ملحوظ، شابًا بارز العضلات، ذكيًا، جمع قوامه من مثلثات مختلفة الأضلاع. وكان رادوفيتش مستعدًا للتضحية بنصف حياته مقابل أن يصبح، هو أيضًا، مثله. لكن هيهات!

أخذ ساشا بالقطارة مرة ثانية، بعض حمض الكبريت الذي ذوب الكريستالات عن آخرها، وسكبه بعناية نقطًا على الزئبق. فحبس رادوفيتش أنفاسه مجددًا،- لكن لم يحدث أي شيء. كل ما حدث هو أن كرة الزئبق تضخمت قليلًا، تمددت كأن غرقها في بركة السائل الزيتي الذي لا لون له، القادر على إذابة كل شيء وتدميره، يريحها.

والآن، انظر بانتباه يا فيكتور.

أخذ ساشا المسمار، ولمس به الزئبق، فتحرك الزئبق فجأة وصار يتمدد وينكمش. لقد بعثت فيه الحياة من جديد، لكن ذلك كان في هذه المرة يؤلمه بالتأكيد.

نهض رادوفيتش واقفًا.

أبعد ساشا المسمار فهدأ الزئبق على الفور.

هذا ما يسمى "القلب الزئبقي". إنها تجربة طريفة جدًا، أجراها لأول مرة، الفيزيائي الألماني كارل أدولف بالزوف، في عام 1858.

لمس ساشا بالمسمار مجددًا الكرة المرآتية- فخفق القلب الزئبقي خفقانًا مسموعًا، قويًا.

لقد أضفت إلى حمض الكبريت "الكاليوم" فزادت حموضة سطح الزئبق، وتشكلت عليه طبقة من "سلفات الزئبق". تمدد الزئبق، وصار أكبر، لأن طاقة الانكماش التي على سطحه صغرت. لكن إذا لمسته بمسمار معدني- هاك، هاك، انظر!- يتحول فورًا إلى عنصر ناقل للتيار المتواصل، فتصبح إيونات الزئبق التي على السطح معدنًا، وينمو انكماش السطح، ويتجمع الزئبق من جديد كأنه ينفر مبتعدًا عن المسمار، ألا ترى ذلك؟

ثبت رادوفيتش نظره يراقب كيف يرتعش وينبض القلب الزئبقي بانتظام.

الآن صار صوت ساشا يأتيه من بعيد.

كذلك هي حال أسرتنا. غرفة المائدة- هي مكان الانكماش السطحي الأدنى بالنسبة إلينا جميعًا. وحين يظهر تأثير خارجي مزعج- أي تأثير،- نسعى جميعًا إلى العودة إلى الحالة المثالية، أي نجتمع في غرفة المائدة لأن...

أتريد أن تقول إنني أزعجكم؟ أزعج الجميع؟ بمن فيهم أنت؟

دهش رادوفيتش، نفسه، من اللهجة المتحشرجة التي قال بها هذه العبارة، فقد أوحت له عبارته بأن الصداقة والأحاديث، و"ستاري فينتيس" والتري الصغير- وكل شيء، إنما كان نوعًا من حسن التصرف.

وضع ساشا المسمار جانبًا، فجمد الزئبق كأنه متعب، يلتقط أنفاسه ويستعد لنوبة تعذيب جديدة.

أنت صديقي يا فيكتور، فكيف استطعت أن تفكر بأن ما قلته يدور عليك... لقد كانوا كلهم يجتمعون في غرفة المائدة حين أعود إلى البيت. كلهم كانوا يذهبون إلى هناك. وأنت أيضًا- الوحيد الذي كان مزعجًا هو أنا...

إنها مجرد تجربة. كل ما أردته هو فقط أن أشرح لك...

لقد فهمت. أشكرك!

قفز رادوفيتش من مكانه، فكاد يقلب عن الطاولة الصغيرة ما احتفظت به من كيمياويات ضئيلة، وغادر مسرعًا- مضطربًا، كمهر فتي، يشق طريقه متخبطًا بين السيقان التي صارت فجأة، كثيرة جدًا، وصار كثيرًا جدًا أيضًا الضوء الساطع، الراعش، المبلل الذي يصعب كثيرًا أن يرى المرء شيئًا من خلاله، فتعثر، وتعثر ثانية، وعلت صرخة ماريا ألكسندروفنا الخائفة، يرافقها صرير باب غرفة المائدة المنحوسة، لكنه أغلقه بقوة، كذلك فعل بالباب الخارجي، كأنه يوجه صفعة للمنزل كله.

لم يتمالك نفسه إلا في مكان ما، بين صفوف الدكاكين. كان يرتجف، متصلب القسمات، يحاول أن يكبت دموعه، لكنه لم يستطع. النسوة الباحثات عن كعك محلّي، أو قماش، رحن ينظرن إلى هذا التلميذ الجميل بإشفاق، ويتأوهن. يا لهذا الملاك الصغير الذي يبكي وقد شاب شعره!

كان رادوفيتش يتألم- كل جسده كان يؤلمه دفعة واحدة، فيمنعه من التنفس. وفجأة أدرك أنه يحمل بيده زجاجة حمض الكبريت التي لا يعرف كيف وصلت إليه. سحب رادوفيتش بأسنانه سدادة الزجاجة، ثم أغمض عينيه، وسكب السائل الثقيل على نفسه.

الآن، زال الألم. زال الألم. زال الألم!

شكرًا.

ما أسمى الأشياء؟

الشرف، والإخلاص في الخدمة، والوطن.

ومن أسمى الرجال؟

الأب.

ومن أسمى من الأب؟

القيصر الإمبراطور.

الذي ليس فوقه...

إلا الله.

ومن أرغمك على أن تنسى أباك يا فيكتور، – الله، أم القيصر الإمبراطور؟ من منهما استدعاك إلى الخدمة؟

رفع رادوفيتش عينيه ثم خفضهما على الفور.

ارتجفت يده اليسرى وانتفضت كأن في داخلها كرة حمراء سميكة من الكاوتشوك تنتفخ وتنكمش. كان الأب يجلس إلى الطاولة في زيه الرسمي، منتصب الجذع.

هو حتى لم يبدّل ملابسه.

عفوًا يا بابا. أنا وساشا...

من هذا الـ "ساشا"؟

إنه صديقي. لقد قلت لك ذلك في آذار. أتذكر؟ إنه ساشا أوليانوف. أنا كنت في زيارته. صنعنا قلبًا زئبقيًا... هناك تجربة بهذا الاسم... تجربة كيميائية...

من أعلى من كل شيء؟ – كرر الأب سؤاله بهدوء شديد لم يسمعه ساشا، لكنه خمنه تخمينًا.

الأب.

ومن أعلى من الأب؟

القيصر الإمبراطور.

الذي لا يعلوه إلا...

الله.

الآن صمت الاثنان. عض رادوفيتش على شفته السفلى، لكنها على الرغم من ذلك، ظلت ترتجف من المهانة، خائفة، كأنما يقفز معها شيء ما، حيّ ودافئ في داخل يده المحروقة. نهض الأب، ورمى عن الطاولة ما تبقى من أوان- فتأوهت كما لو كانت تحتضر. وابتلع رادوفيتش لعابه بشكل آلي، وهو يلتقط آنية الحبوب المطبوخة بالزبدة التي بردت تمامًا. كان مشهد الحبوب على الأرض يشبه في الجو نصف المظلم، كتلة متلاصقة من كريّات الزئبق تلتمع التماعًا ضعيفًا. لو كان ساشا هنا لأكد أن ذلك مستحيل تمامًا من وجهة نظر الكيمياء.

نهض الأب، ذهب إلى ما وراء الستارة، وقال من هناك:

يجب عليك، ما دمت قد كبرت وصرت قادرًا على تحديد مجرى حياتك، أن تهتم بأكلك أيضًا.

ارتفعت حرارة رادوفيتش في الليل. بكى، وهام في العتمة الحالكة غير العادية، مادًا أمامه يديه العمياوين، الراعشتين، فتصطدم يده اليسرى التي تؤلمه بقطع الأثاث، وترتسم أمامه الأرقام بحجم كبير. واحد، ثمانية. واحد. ثمانية. سبعة. ومن جديد- واحد.

لم يغف إلا في الصباح- لم يغف إلا حين انزلق بشكل غير ملحوظ إلى دفء ناعم، لطيف في حضن أمه. الأب عاد في المساء من عمله متأخرًا ساعة عن موعده- من دون أن يحضر معه الصرّة المنشودة. لم يأكلوا، ولم يتبادلوا الكلام- كم سيدوم ذلك؟ أعوامًا، دائمًا، مدى الحياة؟ راح الأب يتأمل باستكبار شيئًا ما، ليس فوق ابنه، بل خلفه، كأن رادوفيتش تحول في هذه الساعة إلى جسم شفاف.

انفتح باب، ثم باب آخر، وقع خطوت في أرض الدار، دمدمة غاضبة، ثم اختفى كل شيء.

كان رادوفيتش راقدًا، مغمض العينين، مديرًا وجهه إلى الجدار، لا يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله. كان عليه أن يذهب إلى المدرسة، سيفصلونه- إذا غاب، لا، دعهم يفصلوه، يجب أن يبحث عن عمل- أين؟ أي عمل؟ ما العمل الذي

يتقنه؟ تحضير المائدة؟ الدراسة؟ تنظيف الأحذية؟ هذا يعني أن ما يجب أن يبحث عنه ليس العمل، بل رضا أبيه- يجب أن يتوسل إليه، أن يركع أمامه على ركبتيه، أن يقف أمامه. لكن رادوفيتش لم يستطع. انخفضت حرارته المرتفعة. انكمش، تركّز كله في نقطة واحدة، حادة، مؤلمة في يده اليسرى التي ضمدها بخرقة جافة.

لم يكن يرغب في الأكل. هو عمومًا لم يكن يرغب في شيء.

كان يرغب فقط في البقاء متمددًا.

انهار النمط المعتاد للأيام، فلم يعد هناك ما يمكن الاستناد إليه. لم يكن الجوع أو الصمت المتبادل أسوأ الأمور، بل إلغاء الأب للصلاة في كل مساء، الصلاة التي يذكر رادوفيتش أنه كان يذهب إليها دائمًا منذ أن تعلم المشي، وكانت أمه تأخذه إليها قبل أن يصبح قادرًا عليه. كان عليه بعد الدعاء أن ينهض من ركوعه عند سماعه لصرير الستارة حين يزيحها أبوه. كان الأب يصلي طويلًا، طويلًا جدًا، فيبدأ رادوفيتش يترنح فوق الماء الأسود الدافئ، تدغدغه تيجان النباتات المائية، ودمدمة الزيزان وأزيزها، وضغط جريان الماء الناعم، وبعد ذلك- هوب!- تشده من قدميه إلى القاع. لكن رادوفيتش لا يستسلم، يبسط كفيه على الأرضية الباردة، تصفع خديه تارة، وركبتيه تارة أخرى، تيارات حادة كالعظم، ويظل كذلك إلى أن ينتهي أبوه من تمتمته. عند ذلك ينهض رادوفيتش وهو يسعل، ويدخل في نصف العتمة الحريري الهادئ خلف الستارة، محني الرأس كعادته.

باركني يا أبي.

ليكن الله معك. أتمنى لك أحلامًا سعيدة.

تنضغط شفتا رادوفيتش لحظة على اليد الكبيرة الجميلة. وفي لحظة راحت أصابع الأب ترسم صليبًا على رأسه الدافئ.

هذا هو إذن، الأمر الأهم في نظره.

هل يضربك أبوك؟

باركني يا أبي.

هل يضربك أبوك؟

باركني.

جلس رادوفيتش في السرير، مبللًا بالعرق، خائفًا. كان الظلام سائدًا- وفي العتمة كانت تتدحرج أصوات ذكورية، غليظة: بو- بو- بو. ومن جديد بو- بو- بو. وبعد ذلك تكلم أحدهم فجأة، بصوت معروف جدًا، أبح، غاضب،- إياكم أن تقفوا في طريقه، إنه صديقي!- وعلت الأصوات مرة أخرى: بو-بو- بو. بو- بو- بو-. إنه صديقي! اتركوه يمر على الفور! فأدرك رادوفيتش في الحال أن هذا ساشا. وفي اللحظة نفسها أمسكته يدان قويتان، حميمتان، دارتا به قليلًا، ثم نقلتاه، ونقلتاه...

رقد رادوفيتش في المستشفى أسبوعين، فرحًا بكل شيء: بالحبوب المطبوخة المخبوصة، تتوسطها بقعة من الزيت بلون الشمس، وبالجيران المتخاصمين في المهجع، وبوبر الحور المتطاير خلف النافذة.

تأجلت امتحاناته حتى الخريف بسبب ثقل مرضه.

هذا جيد.

كان ساشا يزوره كل يوم. أما الأب فكانت زياراته أقل.

فقط في مرة واحدة قال- أنا لم يحملني مستشارون حقيقيون على أذرعتهم، أما أنت، فحظيت بكل الرعاية.- صمت قليلًا ثم أضاف: آل أوليانوف، كما أرى، أناس محترمون. صادقهم.

شفيت يده بسرعة، تطاول الحرق كأنه يلحس نفسه بنفسه، ثم صار في البداية خشنًا، ذا لون بني فاتح، بعد ذلك- حين سقطت قشرته الخارجية، بدا أحمر فاتحًا، لامعًا، جديدًا، وأخيرًا لم يبق منه سوى ندبة ونتوء فظ على جانب الأنسي من اليد، يشبه زهرة سحقها طفل، أو حشرة صغيرة مدت سيقانها.

لمس ساشا الندبة بحذر وقال- إنها، للأسف، لن تزول أبدًا. ستبقى بارزة هكذا.

لم يخطئ، فقد بقيت كما هي.

لم يفترقا بعد ذلك ولو ليوم واحد، صار رادوفيتش يعود إلى البيت وقت يشاء، وأحيانًا لا يعود- يبقى للمبيت في بيت آل أوليانوف، بل كان في الصيف يسافر معهم إلى كوكوشينا، إلى مزرعة صغيرة يملكها المرحوم بلانك والد ماريا ألكسندروفنا، جد ساشا، يقضون فيها شهرًا ونصف الشهر مذهلين، طويلين، أخضرين، أزرقين، لياليهما ذهبية، وهم في منتهى السعادة. وصار وجود الأب يصغر ويصغر في نظره، واختفت قدور الحبوب المطبوخة، كأنها لم توجد أبدًا، ولم يعد رادوفيتش يعرف متى تناول أبوه الغداء، وهل تغذّى عمومًا، أم لا. لكن ذلك لم يكن يشغل فكره. هو، عمومًا، لم يكن يفكر إلا بساشا.

أنهى رادوفيتش المدرسة بنجاح، وكان من بين الأوائل. ونال ساشا ميدالية ذهبية حقيقية، ثقيلة نوعًا ما، وصغيرة. كان المستقبل واضحًا تمامًا أمامهما، ومدروسًا، ومناقشًا ألف مرة، ومقررًا. إنه جامعة بيتربورغ، قسم العلوم الطبيعية، كلية الفيزياء والرياضيات، كلية بيكيتوف، وبوتليروف، وفاغنر.

كاد رادوفيتش ينسى أن يخبر أباه بذلك، ولم يفكر بأن ذلك سيكلف مالًا كثيرًا. الدراسة في العاصمة تكلف مبالغ أسطورية.

فكر فقط في العيش هناك.

ساشا يقول إن ثلاثين روبلًا في الشهر كافية. لقد حسبنا ذلك.

هز الأب رأسه الذي شاب تمامًا. إنه ما يزال جميلًا، لكن ظهره انحنى قليلًا، وبدأ يشرب في السر، خلف الستارة، خمرًا رديئة من أرخص الأنواع، وقد حرص على ألّا يلحظ رادوفيتش ذلك، ورادوفيتش لم يكن يلحظ ذلك فعلًا.

ما هذا العبء الإضافي في حياتنا؟ من ستصبح يا فيكتور حين تتخرج؟ هل ستصبح معلمًا. إنه عمل مقرف وغير مشكور.

ولماذا سأصبح معلمًا؟ سأصبح بروفيسورًا، مثل ساشا. لقد قررنا ذلك منذ زمن طويل.

أمّن الأب له نفقات السنة الأولى. جمع أدوات المائدة الفضية المتبقية كلها، وأخذها إلى مكان ما، حيث رهنها، أو ربما باعها. النفقات اللاحقة- ستؤمنها بنفسك.

سافرا معًا كشابين ناضجين. سافرا لا يرافقهما أحد؟ استقلا الباخرة أولًا إلى مدينة ينجني، ومن هناك- استقلا القطار حتى بيتربورغ، عبر موسكو. ركبا في الدرجة الثالثة القذرة، الكريهة الرائحة. وحرص رادوفيتش بصدق أن يتجاهل آنيا، التي قررت متابعة الدراسة أيضًا، وكانت ثقيلة الظل في كل مكان، وعاشقة، ملحاحة، كذبابة، فقد كان ساشا إلى جانبه، وحياة كاملة، مذهلة، ورائعة، وسعيدة- تنتظرهما في المستقبل.

استأجرا غرفة لشخصين في الجانب البيتربورجي، في شارع سيزينجسكي، في البيت رقم/ 4/، عاشا فيها حياة جوع صريح- كانت تمر عليهما أحيانًا أسابيع لا يأكلان فيها غير الخبز والشاي. غير أن العجوز، صاحبة البيت، كانت تطعمهما من وقت لآخر، تقدم لهما قطعًا من الحلوى تارة، وتارة تترك طعامًا على الطاولة، أو تدسه لهما من تحت باب الغرفة، لا سيما الفطائر المحترقة أثناء الشيّ، والحبوب المسلوقة. دراستهما كانت صعبة، لكنهما كانا يضحكان الآن أكثر من أي وقت مضى، ويلتقيان أكثر من أي وقت، ولا يتحدثان أبدًا في السياسة، لا يتحدثان في السياسة أبدًا! فساشا لم يكن مهتمًا بالسياسة ناهيك عن رادوفيتش الذي كان أقل منه اهتمامًا بها، ففي الأول من آذار، عام 1881، حين قتل "أحرار الشعب" ألكسندر الثاني، كان كل ما قاله ساشا عبارة واحدة- إنه لعمل دنيء أن تقتل إنسانًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه.- ثم أضاف بعد أن فكّر برهة: أنا ما كنت لأفعل ذلك أبدًا.

في عام 1886، تعرّف رادوفيتش في أثناء العماد إلى "فوك كورومان" القائد للسرية الملكية في سلاح الفرسان. تصادما، جبينًا بجبين بشكل مباشر، تصادمًا أحدث تورمًا في جبين كل منهما. وانتهت المسألة عند هذا الحد. كان فوك مرحًا، بارز الأسنان، قبيح المنظر، انجذب رادوفيتش إليه، وتعلق به، صار فوك يأخذه معه، كأنه كلبه الصغير المفضل، وكان رادوفيتش، كالكلب الصغير، لا يفهم شيئًا- تلوح من حوله التنورات، والتسريحات العالية، وغالونات_ (زجاجات-المترجم) الشمبانيا المثلجة، وأكوام من ورق اللعب الممزقة، وحناجر يمزّقها الضحك،

وفتيات مغناجات، وضباط، وطلاب ضباط، خريجو مجمّع باجسكي. ونقود آباء سهل صرفها، وشقة عازب تطل على "قصر الشتاء".

في الربيع صار رادوفيتش مستبدًا بارزًا، كأنه ملك صربيا، وصار، في الوقت نفسه، رجلًا بأكثر المعايير بدائية، بالمعيار البيولوجي، فتبين له أن شرب الشوكولا الساخنة ألذّ بكثير منه.

بالمناسبة اصطحب فوك رادوفيتش معه إلى "قصر الشتاء"- طاف به ببساطة على الصالات، والحراس، وهو يحني رأسه محييًا، ضاحكًا. هو، إذن، لم يكذب حين قال إنه يستطيع زيارة كل الأماكن، وكل المسؤولين، حتى في القصر...

لا، هذا مستحيل.

إنه صاحب الجلالة الإمبراطورية، القيصر نفسه، الإمبراطور، والحاكم المطلق لعموم روسيا، لمقاطعات موسكو، وكييف، وفلاديمير، ونوفغورود، قيصر قازان، وقيصر آستراخان، وإلخ، وإلخ.

لحيته ضخمة ووازنة.

خاف رادوفيتش إلى حد أنه فقد القدرة على الحركة.

رفع ألكسندر الثالث حاجبيه.

من هذا الصبي؟ هل صرتم تأتونني ببنات صغيرات يتنكرون بملابس الصبيان يا قائد السرية؟

لا، أبدًا يا صاحب الجلالة الإمبراطورية. هذا ليس بنتًا.

هل تأكدت بنفسك؟

البنات تأكدن.

وماذا كانت النتيجة؟

لم تشك منه أية واحدة يا صاحب الجلالة الإمبراطورية!

قهقه ألكسندر الثالث، ثم قال، وهو يداعب خدّ رادوفيتش.

أحسدك! ليت لي مظهرك وسنك...

هل أنت مدني؟

أحنى رادوفيتش رأسه بالإيجاب. كان يرتدي معطفًا ليس معطفه، معطفًا مستعارًا، كما كان يفعل دائمًا في حياته الجديدة، وقد فسّر ذلك لفوك قائلًا: أنت لا تستطيع أن تظهر في أي مكان محترم بزيّك الطلابي.

دع الدراسة تذهب إلى الشيطان. الجميلون مثلك مكانهم سلاح الفرسان.

خرج رادوفيتش من القصر وساقاه تكادان لا تحملانه، وقد ازداد النبض في عروقه. استقل العربة إلى ما بعد مراكز الجيش، ثم إلى ما بعد ساحة كارامزين، من دون سبب واضح. تراقص في مشيته كتلميذة في غاية السرور، واشترى صورًا، أغلب الظن أنها صور الأمير ألكسندر والأميرة ماريا فيودوروفنا وأولادهما الثلاثة الكبار– في عام 1878، ألكسندر يصبح القيصر ألكسندر الثالث. وفي عام 1885، ينزعون عن رأسه التاج ويضعون على صدره الصليب.

وهذا كل شيء.

انتهى الأمر كله. ساشا، نفسه، أنهاه. إنه، ببساطة، أخرج رادوفيتش من حياته. انتقل إلى شقة أخرى– حتى من دون أن يخبره بذلك. وصار رادوفيتش في الجامعة يكتفي حين يحييه، بإحناءة خفيفة من رأسه. كوّن حوله جماعة جديدة غريبة الأطوار، ومنفّرة، وأخذ يتردد باستمرار على حلقات اقتصادية، يجلس هناك، ويناقش، وتحول إلى إنسان عدمي تقريبًا. هو ورادوفيتش لم يتخاصما، افترقا ببساطة، وذهب كل منهما في اتجاه، هما لم يفترقا بل طارا طيرانًا، كل في الاتجاه الذي اختاره، كما تطير كرات البلياردو حين تتصادم.

كل منهما كان واثقًا من أنه يطير في الاتجاه الذي يقوده إلى النصر.

لم تكن لدى رادوفيتش أية أفكار حول المسألة، هو حتى لم يدرك ما حدث.

لم يدرك الأمر كله إلا في/ 4/ آذار، عام 1887.

في الطريق.

خرج إلى الرصيف- كي يحرّك ساقيه المتخشبتين بالجلوس على المقعد الخشبي. كانت العربة من الدرجة الثالثة. أما المحطة فكانت، على ما يبدو، من الدرجة الرابعة. إنها محطة "بورغ"، و"نيجني" صارت قريبة. والبيت هناك قريب جدًا من المحطة، حرّك رادوفيتش رأسه بفضول. مبنيان متناظران، كل منهما يتألف من طابقين على جانبي السكة الحديدية، يشكلان المحطة، رغم أنهما صمما في الواقع لتزويد القاطرات بالماء. وبالقرب من كوخ غير بعيد، كومة من الحطب المسود بسبب الرطوبة، كومة كبيرة تركها العمال المهملون.

رائحة الدخان كانت لذيذة- رائحة شواء، وفحم، أضاف إليها رادوفيتش بسرور رائحته الخاصة- رائحة بابيروسته. هو بدأ التدخين منذ زمن قريب، على يد فوك- وما زال يستمتع بكل تفاصيل العملية: صوت انفتاح علبة البابيروس التي لا بد من معالجة غطائها بظفره، وبالكيفية التي يشتعل بها رأس عود الكبريت، وبالدوار الدافئ الذي يدغدغ رأسه عند أول (سحبة) من الدخان. كل ذلك كان دليلًا مقنعًا، وظاهرًا على نضجه المؤكد الذي حلّ أخيرًا. لقد بلغ رادوفيتش عامه الحادي والعشرين- وصار باستطاعته الآن، بحسب القانون، أن يتصرف مستقلًا بأشيائه، أو يشارك في اجتماعات النبلاء. في الحقيقة هو لم يكن يملك أي متاع خاص، الأمر الذي حرمه من إمكانية المشاركة في الانتخابات (شرط المشاركة كان قاسيًا- لا يملك حق التصويت في الانتخابات إلا النبلاء الذين يملك كل منهم ثلاثة آلاف دونم من الأرض غير المأهولة)، لكنه صار يستطيع الآن أن يدخن بحرية تامة.

يستطيع.

لكنه لن يدخّن في حضرة أبيه- هذا لن يحدث حتى في الأحلام.

شعر رادوفيتش بالأسى لحظة هو يتذكر كلمات ساشا- سافر فورًا، يا فيكتور كي لا تندم فيما بعد- كما أندم أنا الآن.

ترى، هل أبي مريض حقًا؟ لا! هذا مستحيل. لو كان مريضًا لأرسل برقية. فكّر بذلك ثم ناقض نفسه فورًا- لا، هو لن يرسل برقية، لن يرسل برقية تحت أي ظرف.

أشعل رادوفيتش بابيروسة أخرى- لكن ليس بنفس الهمة، أشعلها من دون فرح. لم يكن هناك ثلج تقريبًا. في السماء الصافية المبللة تصيح الغربان. الربيع جاء مبكرًا بشكل غير عادي. مؤشر الحرارة كان يشر إلى الدرجة"+4" غير المعقولة في مثل هذا الوقت. وغطاء نهر النيفا ذاب، فانطلق النهر- وهذا كله في أواخر شباط!

ركض على الرصيف رجل ضئيل الحجم في زيّ عامل تلغراف. كان وجهه شاحبًا ومنكمشًا كمنديل أنف، من شدة الخوف مكتبة .. سُر مَن قرأ

ماذا حدث؟ ماذا؟!

رادوفيتش نفسه لم يفهم لماذا انتابه خوف لا يقل عن خوف الرجل.

محاولة اغتيال للقيصر الإمبراطور!

صاح رادوفيتش "آخ"، وسمع قاطرة تطلق صرخة كأنها رد على صيحته- صرخة حادة بعيدة، يائسة- كعويل امرأة. لم تتضح له تفاصيل ما حدث إلا في نيجني.

"في الأول من آذار، في شارع نيفسكي، في حوالي الساعة الحادية عشرة ظهرًا، ألقي القبض على ثلاثة طلاب من جامعة بيتربورغ، ووجد معهم، عند تفتيشهم عبوات متفجرة. وقد أعلن المقبوض عليهم أنهم ينتمون إلى جماعة إجرامية سرية، وتبين للخبراء عند فحص العبوات، أنها محشوة بالديناميت وطلقات الرصاص ومزودة بمسامير أمان"

لا، هذا غير ممكن! لا! لا! لا!

كانت المحطة تضج، تتراكض، تصرخ، تجهش بالبكاء.

صرير أحذية، ووقع خطوات مئات الأرجل الخائفة، وهمهمة أصوات خافتة- تشبه صوت بوق نحاسي في مقبرة.

"الجريدة الرسمية"! "الجريدة الرسمية"!

خبر عاجل!

يقولون إنهم وضعوا قنبلة في "قصر الشتاء"! أيضًا- قنبلة كبيرة جدًا!

رحماك يا الله!

هذا مستحيل.

دفعوا بأكتافهم رادوفيتش، أزاحوه. هو أيضًا راح يدفع آخرين كالأعمى. هام، مميلًا رأسه، لا يرى شيئًا، غارقًا حتى حنجرته بخوفه، وزال شكه بأن ما يقال حقيقة. ثلاثة طلاب، ثلاثة طلاب.

ثلاثة.

لا! لا! لا!

المهم ألّا يكون هو أحدهم!

هذا مستحيل!

لكنه كان يعرف- بصلابة ووضوح، كدرس حفظه عن ظهر قلب، أنه قد يكون بينهم، بل هو أحدهم. لقد حدث ذلك.

في مرحاض المحطة المشبع بالقذارة والرائحة إلى حد يخنق الأنفاس، تقيأ رادوفيتش. كان كله باردًا، دبقًا، ضعيفًا، ترتجف أصابعه، وركبتاه، وشفتاه، ورأسه- فخاف أن يفقد وعيه في لحظة ويغرق في هذه الكومة من القذارة التي تطفح بها جوانب حفرة المرحاض بالتساوي. لكن رائحة صادمة، منقذة، صدمت وجهه، أعادته إلى رشده، وأنعشته.

أخرج رادوفيتش المغلف من جيبه- مغلف سميك بعض الشيء، وخطر. وغير ممهور بتوقيع. ضغطه، فصرّ ورقه الخشن.

عدني ألا تقرأ ما في هذا المغلف إلا بعد أن تصل إلى البيت يا فيكتور.

هو وعده طبعًا،- وكان سعيدًا بلقائهما في نهاية المطاف، وإنهما وجدا أخيرًا وقتًا يلتقيان فيه- هل حدث هذا بعد شهرين؟ لا. بعد ثلاثة، ثلاثة أشهر؟ كم مضى من الوقت على افتراقنا يا ألكسندر؟

فرد ساشا يديه مندهشًا من طول زمن افتراقهما، إنه طويل إلى حد لا يطاق، حد غير مقبول.

سارا بمحاذاة "مويكا". كانت هبّات البرد تلسعهما بين الحين والآخر، صاعدة من الماء الأسود وقد عادت إليه الحياة، وهو ما يزال ممتزجًا بالثلج الذائب. انكمش الاثنان في معطفيهما الطلابيين. مشى ساشا منحنيًا قليلًا كعجوز- لم تكن تلك عادته. ولاذ طول الوقت بالصمت- وهذا ليس من عادته أيضًا، بينما راح رادوفيتش يتباهى، رادًا رأسه إلى الخلف- ويعبر دون خجل عن ابتهاجه بحضور احتفالات أعياد الميلاد، والحفلات التنكرية الفارهة، والمعارف الجدد، والمقتنيات الجديدة،- تصور! لقد اصطحبني فوك في الرحلة الإمبراطورية إلى مدينة "مانيج"...

سمعه ساشا، وهو يحني رأسه بجدية أحيانًا، لكنه كان ينظر دائمًا زامًا عينيه إلى "قصر الشتاء" ذي اللون الأصفر الشاحب كأنه لوحة مرسومة، الذي كان يعوم بيسر في سماء صفراء شاحبة مثله، رقيقة، ذائبة، ربيعية. هبط الظلام، هو يهبط سريعًا في الشتاء، كأنه شخص صارم يغلق الستائر في غرفة طفل. الرطوبة التي كانت تبلل المدينة بهدوء طول النهار، تكثفت وصار الجو على الفور، وبشكل مفاجئ، باردًا برودة حادة وقاسية، لا يحدث مثلها إلا في الشتاء، في بيتربورغ، وفي الظلام حتمًا.

حاول رادوفيتش أن يخبئ أنفه وشفتيه في لفحته الرقيقة، لكن الوقت لم يتح له بذلك.

نحن سنموت هكذا في زهرة شبابنا، ميتة غير مشرّفة يا فيكتور.

لم يضحك ساشا، هو، حتى لم يبتسم.

يمكنك أن تأتي إلى بيتي، لكن صاحبة الشقة، لسوء الحظ، قامت برش الغرف بدواء قتل البق... فلنذهب إلى بيتك؟ إنه أقرب من بيتي.

لا، ليس أقرب.

هل انتقلت مرة أخرى؟ إنها المرة الثالثة التي تغير فيها سكنك! إنك تقفز في بيتربورغ كالقملة! ترى إلى أين قفزت هذه المرة؟

هذا ليس مهمًا.

ارتبك رادوفيتش، وانتابه شعور أقوى من الزعل.

كيف ليس مهمًا؟ أنت أفضل أصدقائي يا ألكسندر. ألا تريد أن تقول لي أين تسكن؟ بمن سأتصل إذا أصابني مكروه ما؟

لن يصيبك أي مكروه يا فيكتور.

لماذا؟

لأنني أنا من قرر ذلك.

اقترب ساشا خطوة، فكاد يلاصقه، فرأى رادوفيتش في ضوء مصابيح الشارع التي كانت تشتعل واحدًا بعد آخر، بثرة صغيرة في ذقنه التي لم يحلقها جيدًا، وشفتيه اليابستين، اللتين جففتهما الريح الباردة، ولأول مرة منذ تصادقا، لم يدرك، بل شعر بقصر قامته بالقياس إلى ساشا، فهو يبدو إلى جانبه كبنت صغيرة، لكنه، لسبب ما، لم يحس بالدونية، بل على العكس، أعجبه ذلك، فقد وضع ساشا يديه على كتفيه- كانت يدا ساشا، على غير توقع، دافئتين، أحس رادوفيتش بدفئهما حتى عبر قماش معطفه- وانحنى بسرعة فحجب ضوء المصباح الذي فوق رأسه،- رادوفيتش لم يفهم آنذاك وما زال لا يفهم حتى الآن، هل انحجب الضوء برأس ساشا، أم لأنه هو أغمض عينيه- لكن ساشا تنحى جانبًا وجرّه معه، فمرت بقربهما، على الرصيف عربة صغيرة تقرقع مختالة بلونها الأحمر، لاح فيها وجه فارس ضخم تغطيه الشامات، وتراقصت كلهب نحاسي سائل نسور وميداليات فرقة الفرسان الملكية. مسح رادوفيتش عن وجهه الطين البارد، وفي أثناء ذلك، لاحظ في العربة وجهين جميلين لفتاتين لعوبين تقهقهان.

بدا له أنه يعرف إحداهما.

إنه فوج فرسان حراسة جلالة القيصرة الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا،- قال رادوفيتش فرحًا بقدرته على التباهي بمعلومته الجديدة. أتعرف أن خيول الفوج كلها حمراء؟ لكنها تنقسم إلى فصيلين: الفصيل الأول أحمر لكنه يخلو من أية علامات فارقة. أما الفصيل الثاني...

ساشا لم يكن يصغي إليه، كان حانيًا رأسه، ينظف ذيلي معطفه، وفجأة بدا لرادوفيتش في لحظة أنه يبكي.

هيا بنا إلى شارع نيفسكي يا ألكسندر! أنا أعرف محلّ حلويات ممتاز. سنشرب هناك شوكولا ساخنة. هل جرّبت الشوكولا الحقيقية في يوم ما؟ إنها لذيذة لذة خارقة! أنا معي نقود. لا تقلق،- لقد ربحت بعض المال في لعبة "التريسيت"...

لعبة "التريسيت"؟

حسنًا، إنها لعبة "السبعة تربح" إذا كان ذلك يرضيك. إنها لعبة "ورق" دارجة جدًا بين الضباط، علمني إياها فوك. هي أكثر تعقيدًا من لعبة "البروفيرانس" غير أنني أتقنتها إتقانًا ممتازًا...

جلّس ساشا قامته أخيرًا. خداه، وأذناه، وحتى جبينه الذي تغطيه القبعة، كل ذلك تغطيه بقع حمراء متساوية.

هل تعرف أن صاحبك فوك إنسان سافل؟

ماذا؟

عند ذلك أخرج ساشا المغلف من تحت إبطه ودسه، دافئًا، بل ساخنًا تقريبًا، بين يدي رادوفيتش.

عدني أن تقرأه يا فيكتور، لكن بعد أن تصل إلى البيت.

إذن، سأقرؤه اليوم مساء؟

لا، ستقرؤه حين تعود إلى سيمبيرسك. لقد تلقيت البارحة رسالة من أهلي- أبوك مريض جدًا، ومن الضروري أن تسافر إليه بأقصى سرعة.

وقف رادوفيتش باسطًا يديه حائرًا، مذهولًا، لا يعرف ماذا يجب أن يقول. أبوه! مريض! ومرضه شديد... كيف هذا؟

انتفخ المغلف بين أصابعه بشكل محرج، فبدا كأنه رشوة، رزمة مغلفة بورق.

أخذ ساشا المغلف بحذر، وطواه نصفين، وفكّر برهة كمن يتخذ قرارًا، ثم دسه في جيب رادوفيتش.

معذرة كان من واجبي أن أقول لك ذلك مباشرة، لكني لم أستطع. لم أرد أن أفسد لقاءنا. هل تعدني؟

أحنى رادوفيتش رأسه بالإيجاب.

وداعًا إذن.

عانقه ساشا عناقًا سريعًا، قصيرًا، عناق أطفال- ومضى مبتعدًا، لا يلتفت، مشى إلى الأمام، مستقيم الظهر، غير منكمش، وكان واضحًا أن مشيته تصبح أكثر سهولة بعد كل خطوة، تابعه رادوفيتش ببصره، وظل يتابعه إلى أن ذاب معطفه في ضباب بيتربورغ الحامضي العجيب. ثم انتهى الأمر.

لم يبق مسموعًا غير دقات كعبي حذائه التي كان صوتها يخفت، أكثر فأكثر كلما ابتعد، ثم اختفى نهائيًا.

هنا كان عليه أن يفهم، أن يدرك.

لكن رادوفيتش لم يدرك.

لم يسافر إلا بعد أسبوع، فقد علق بشدة في شقة فوك كورومان بلعب الورق. كانت النقود التي معه. لا تكفي إلا لدفع ثمن ما يشتريه من محل الحلويات، أما أجر السفر إلى سيمبيرسك فلم يكن معه شيئًا منه.

يجدر بنا إذا أردنا الحق، أن نقول إنه نسي أمر المغلف تمامًا، ونسي ساشا أيضًا.

لم يغادر إلا في الثالث من آذار، قبيل المساء، كان لا يشعر بوزنه، وقد فقد صوابه من شدة النعاس، والسكر، والتوتر، والحساب المستمر، فقد كان من المفروض أن يربح ليس فقط ثمن بطاقة السفر، بل أجر الطبيب إذا كان وضع أبيه يحتاج استدعاء الطبيب. وهكذا لم يصل الخبر إلى رادوفيتش في البيت، بل وهو في الطريق إلى البيت.

ساشا أراد، على ما يبدو، أن تسير الأمور على غير هذا النحو.

ضغط رادوفيتش المغلف بشكل آلي.

انتابه الخوف من جديد. سأل بصوت لم يكد يتجاوز فمه. ماذا هناك؟ هل هنا سم؟ أهو خرق للقانون؟ خطط لإزاحة القيصر؟

سيقبضون عليه بلا شك. سيقبضون عليه. أغلب الظن أنهم قبضوا عليه. هذا يعني أن دوره قد حان.

علت ضجة أحذية تحت باب المرحاض. ومن جديد علا صوت بائع الصحف- حادًا كأن الدنيا انقلبت.

خبر عاجل! "الجريدة الرسمية"!

مزّق رادوفيتش المغلف من دون أن يقرأه، ورمى نتفه فوق البراز لكن خطرت في باله، وهو يفعل ذلك، كلمات تنتهي بنهايات الفعل الماضي بصيغة المفرد، وأخرى تبدأ بصيغة النفي، وسمع في داخله عدة مرات صوت ساشا واضحًا صافيًا يقول: "كنت أريد أن تجري الأمور على غير هذا النحو"

علت الضجة خلف الباب مرة ثانية. كانوا يستعجلونه. مشى رادوفيتش متخطيًا الصارخين الغاضبين الغرباء. في البداية مشى، ثم انطلق يركض.

حقيبة الظهر، حقيبة والده القديمة، ظلت في المرحاض.

هو أيضًا لم ير أباه بعد ذلك اليوم. لم يره أبدًا.

يا له من أمر عظيم! إنه حتى لم يخطر باله.

قضى رادوفيتش الأسابيع الثلاثة التالية في نيجني- في القاع. لم يكن قادرًا على استئجار أرخص الغرف المفروشة- في كل غرفة من هذه الغرف هناك هاتف إلزامي، متصل مباشرة بقسم الشرطة، باستطاعة أي مقيم يقظ أو أي عامل نشيط في الممر، أن يستخدمه، فيسعد السلطة بإبلاغها شكوكه. رادوفيتش نفسه، لم يكن يدرك جيدًا ما التهمة التي يمكن أن يوجهوها إليه، لكنه لم يجرؤ على المغامرة، لذلك اضطر إلى استئجار زاوية بالمعنى الحرفي للكلمة، مفصولة بحزمة من القماش "الشيت"، في بيت صغير، يؤجرونه لأفقر الناس وأدناهم مستوى. هنا لم يكونوا يهتمون بالوثائق- أصحاب البيت كانوا يحترمون النقود، لا تذاكر السفر" التي ثمن الواحدة منها، ستون

كوبيكًا من الفضة، وتعطي حاملها الحق رسميًا بمغادرة مكان إقامة أهله إلى مكان يبعد أكثر من ثلاثين فرسخًا، والإقامة هناك مدة تزيد على الثلاثة أشهر.

كان الذين ينزلون في هذا المنزل الصغير عادة، رجال أشداء من مدينة مكاريف، يكسبون دخلهم من صناعة الصناديق،- يحملون إلى السوق في كل عام، أكثر من ستة آلاف صندوق، يصنعون بعضها فيه! صناديق كبيرة مقوّاة بأطر حديدية، وحقائب سفر، وطاولات صغيرة مزوّدة بأقفال، ودروج صغيرة خفية ومريحة في الاستعمال. وكان صانعو الصناديق هؤلاء يدفعون نصف روبل في الليلة الواحدة، في الفصل الذي يجيئون فيه. أما رادوفيتش الذي جاء في آذار، فطالبه أصحاب البيت بدفع خمسة عشر كوبيكًا من الفضة مقابل كل ليلة يقضيها في سرير متهالك يلامس الأرض. وكان هذا أجرًا زهيدًا جدًا بالمقارنة مع الأجور في بيتربورغ. في الليالي كانت الصراصير تجول على الجدران والسقف متمهلة، رزينة، سوداء، خوخية اللون، وضخمة يسمع وقع خطواتها حين تمشي.

القذارة كانت، ببساطة، مذهلة في البيت.

في أواسط تموز تصبح نيجني نوفغورد مركزًا تجاريًا حقيقيًا كبابل، وهي، حتى في الربيع المبكر، لم تكن تخلو من التجار، والفلاحين، والكثير من أصحاب المهن المختلفة، لذلك كان من السهل على رادوفيتش أن يختفي بين هذا الحشد من الناس. همَد، لا يحرّك ساكنًا، في مأواه الهادئ. كان مستواه ينحدر يومًا بعد يوم، أصبح متوحشًا، فاقدًا ذاته- كان، هو نفسه، يحس بذلك. ثنيات سترته تمزقت، وشعره الذي نما، ترك آثارًا دهنية منفرة على ياقته، والأهم، أن زيه الطلابي كان أكثر من دمغة تميزه، لذلك اضطر على وجه السرعة إلى أخذ سترته الخضراء، والمعطف والقبعة (وكلها مهترئة، ومشتراة من متجر الملابس المستعملة في الجامعة) إلى مخزن الملابس القديمة، واشترى من هناك ثيابًا جاهزة: سترة، وبنطلونًا وزوجًا من القمصان. كان كل ما اشتراه على غير قياسه، ومهترئًا، وتافهًا، ومنكمشًا كمن انتابه الخجل.

النقود التي أعدها رادوفيتش للسفر تبخرت، سالت من بين أصابعه، فعاد إلى لعب الورق من جديد. لم يكن قادرًا على ارتياد الأماكن المحترمة بزيه الحالي. لذلك لجأ إلى باحات الدور، والخمارات ذات المستوى المتدني، يجالس البياعين، ويشاركهم الأحاديث غير المهمة، يقدم لهم الشراب، ويشرب أنخابهم، ويكذب. وكانت هذه المعرفة الجديدة المتكلّفة بالرجال تنتهي بلعب الورق دائمًا تقريبًا، وصارت تقليدًا متبعًا. كان رادوفيتش يلعب بحذر، يقامر بمبالغ صغيرة، ويخاف من أي طارئ- يخاف أن يربح مبلغًا كبيرًا، ويخاف أن يخسر كل ما معه، أن يتهم بالاحتيال حقًا، أو ظلمًا، لأنهم سيقتلونه في الحالتين. لقد كان فوك ينبهه إلى أن ورق اللعب لا يعرف المزاح، ثم يضحك بشهية، ضحكًا مخيفًا، ويقامر بمبالغ كبيرة، مكشّرًا عن أسنانه الصفراء.

كان من غير الممكن أن يستمر الأمر على هذه الحال إلى الأبد، لكنه استمر. تأرجحت الأيام- رطبة، منتفخة، ساكنة، زرقاء كالغرقى، وقاسية مثلهم. كانت رائحة الربيع الرطبة تفوح من الفولغا. وكان النهر يضطرب في الليالي ويئن أحيانًا- أنينًا أصم، مفاجئًا، كأنه مريض يحتضر. ذوبان الثلج بدأ في أواسط آذار- قبل شهر من موعده المعتاد. وكان الناس يناقشون في كل مكان محاولة اغتيال القيصر الفاشلة، يتعطشون للدم، يريدون الثأر. الناس في نيجني لا يحبون الفوضى- هم يعرفون أن أي تغيير سيؤثر تأثيرًا سيئًا على أرباحهم.

البروفوسلافية، والحكم المطلق، والدخل الوفير

كانت المدينة تستند بصلابة إلى هذه الحيتان المخملية الثلاثة.

كان رادوفيتش يبتعد مجفلًا عن كل زي، فقد تطامن وتعلّم أن يسير إلى جانب الحائط. بخطا هادئة، خطا هرّة، أو حتى فأرة، خطا لا تثير الانتباه. كان يخاف أن يبحثوا عنه، مع أنه لم يكن يعرف من سيبحث؟ ولماذا؟ ولأي سبب؟ ذنبه الوحيد الذي يعترف به لنفسه هو صداقته لساشا. لكن هذا كان في نظر رادوفيتش سبب كافٍ تمامًا لاعتقاله. إن صداقته لساشا كانت معروفة للجميع. هما كانا صديقين-

هذا يعني أنه يعرف كل شيء. عرف كل شيء، لكنه لم يخبر الدولة- هو، إذن، شريك. شريك- يعني أنه يجب أن يعتقل وينفى إلى معسكرات الأشغال الشاقة. هو لم يكن يرى أية نقاط ضعف كبيرة في هذا المنطق، فلو كان هو، رادوفيتش، قيصرًا وعاش محاولة الاغتيال، لدمّر جميع المشاركين وغير المشاركين وقضى على أجيالهم حتى الجيل الثاني عشر، ولدمّر بعد ذلك المدينة الخائنة، وحرثها بمحراث ثم غطّى رمادها بالملح.

هل تريد خيارًا مخللًا؟

ها- تهِ يا غبي! هيّا، وهات الفودكا أيضًا!

هيّا، ما اسمك؟ ليأخذك الشيطان!

فيكتور.

اسمك، إذن، فيتكا. آها، إنه اسم رجل عصابات، وسحنتك لا تشبه وجوهنا. أنا أحبك يا أخي! دعني أقبلك! وإلى الخازوق كل المتمردين، والأشقياء! إلى الخازوق جميعًا، حتى آخر واحد، ثم إلى الطحن بعد ذلك. لنشرب نخب هذا. لنشرب نخب جلالة الإمبراطور! هورا!

صرخوا، وقرقعوا بالكراسي التي انقلبت، وفتحوا أفواههم ذات الأسنان الكبيرة، المخبأة بلحاهم. "ليحفظ الله القيصر" صيحة تدحرجت ككرة حديدية ملتهبة من جدار إلى جدار في صالة الخمارة الصاخبة- مرة، ثم ثانية، ثم ثالثة، متحولة إلى زئير وهدير هدأ بالتدريج كأنه الرعد.

رادوفيتش الذي خاف حتى أن يطلق على نفسه اسمًا آخر، راح يصيح مع الجميع ويصخب، ويقرقع، ويقفز في مكانه. فرد رزمة من ورق اللعب، ثم أخرى. وخلط الأوراق خلطًا شديدًا، ثم طاف بوجهه الشاحب، في دخان التبغ الكثيف السائد.

رأسه يؤلمه في الأصبحة- ألمًا يصل به حد اليأس.

الذهاب إلى أبيه مستحيل. وكذلك الذهاب إلى بيتربورغ أيضًا.

كان وضعه حين يلعب في الليالي، يزداد سوءًا، كان يرقد حتى الفجر في زاويته المحجوبة بالستارة ويفكّر، يفكّر بساشا، وكيف استطاع، كيف استطاع،- المهم لماذا. من أجل ماذا؟ ترى ما الذي كان لا يرضيه؟ ميدالية المدرسة الذهبية، والميدالية الأخرى التي نالها على عمله الطلابي العلمي ونجاحاته في الدراسة، لقد كانت شهادة الدكتورا بين يديه. الأطروحة، والاحترام، والألق المتواضع تجاه الشهرة العالمية، والتصفيق الحماسي من الطلاب ذوي العيون الصافية. لقد كان القدر نفسه مفروشًا تحت قدميه بساطًا، مطيعًا، مطرّزًا، منشّى. كل من حوله كانوا يرون أنه سيصبح عالمًا عظيمًا في المستقبل. هو، نفسه، كان يرى ذلك الرأي ويتقبله من دون أي تواضع، أو أي خجل كاذب، كان يتقبله برأس مرفوع، وصدق، ورزانة. حتى مندليف قال عنه: إنه عقل عظيم، مندليف لم يقل الشيء نفسه عن رادوفيتش، هو، أغلب الظن لم يكن يتذكر اسمه عمومًا، فليس قليلًا عدد الطلاب غير الموهوبين الذين يملؤون قاعات الدراسة.

قل لي بحق كل مقدس، لماذا فعلت ذلك ياساشا؟

وضع ساشا، إذن، يديه على كتفيه وانحنى حاجبًا ضوء المصباح،- مرة بعد مرة، ثم مرة بعد مرة، لكنه لم يقبّله في أية مرة قبلة الوداع.

لم يمنحه حتى قبلة الوداع.

تجمعت الصراصير في خطوط غامضة، ثم سرحت في مختلف الاتجاهات، وشعر رادوفيتش بالدموع تجري على صدغيه سريعة، دافئة، ثم تدغدغ أذنيه مسببة فيهما رغبة في حكّهما.

أنت، عمدًا، طلبت مني العودة إلى البيت، طلبت مني ذلك كي تنقذني، وعمدًا ابتعدت عني قبل عام.

لقد كنت آنذاك تعرف ما سيحدث، وتستعد له.

لكن لماذا، يا إلهي، لماذا يا ساشا؟

في أوائل نيسان، كان رادوفيتش قريبًا بدرجة متساوية، من الجنون ومن الانتحار- لذلك كان ينتظر ما الذي منهما سيحدث أولًا، بهدوء، وحياد، كمن يشاهد عرضًا

مسرحيًا رديئًا، مستاء من التمثيل الرديء، ومتمنيًا أمرًا واحدًا فقط- هو سماع صيحات المشاهدين في نهاية العرض، ليستطيع أن ينهض ويحرك أطرافه التي احتقنت بالدم، ثم يخرج إلى الهواء الطلق في الحديقة الممتلئة بالهواء الأزرق الرطب، ونور الشمس.

انتهى كل شيء في يوم واحد- جلس رادوفيتش في خمارة نصف فارغة، محني الظهر فوق طبق من حساء الملفوف الحامض، الشاحب، الصاد للشهية، يحرّك فيه ملعقته كطفل صغير. لقد كفّ عن حلاقة ذقنه، فنمت له لحية فتية سوداء، لطيفة، حتى عينيه، أكسبته مظهرًا فارسيًا، أسطوريًا- هو لم يكف عن ذلك بهدف التخفي، لا، بل لأنه لم يعد يقوى أبدًا، على فعل أي شيء، حتى الخوف.

على الطاولة المجاورة كان يتناول طعام الغداء رجلان حسنا المنظر لا يتوقع المرء أن يراهما في هذا المكان، عرف رادوفيتش مباشرة أن أحدهما ميكانيكي الفوج. أما الثاني، فلا بد أن يكون أحد الشبان النبلاء، أو، ببساطة، أحد محبي الفروسية. كان الاثنان ممتلئي الجسم، وجهاهما سمينان، تبدو عليهما علائم الشبع، وكانا يتصرفان بمرح وطلاقة، لا يتصف بهما إلا شبان أصحاء لا يحملون همًّا، شربا، لأول مرة في هذا اليوم، جرعة من الفودكا الباردة. في البداية، دهش رادوفيتش بهدوء من وجود هذين الرجلين في هذا الجحر، بعد ذلك راح، بسبب الضجر يصغي إلى حديثهما الذي لا ينتهي عن الخيول، يسمع بعضه عبر الضجة، ويفهم رغم الضجة- أنهما يشكران فوك كورومان.

فخطر في باله أنّ.

قائد السرية في فوج الفرسان الملكي، قومي صربي متعصب، مقامر، متسلط، منافق نبق من الحثالة. إنه إنسان سافل بلا شك. أنت محق يا ساشا. لكنني أموت الآن بسبب نبلك، وبسبب سفالته- ما زلت حيًّا حتى الآن.

إنه يطالبك بأن تقدم له سبعة عشر مهرًا بعمر الثلاثة أعوام، وبارتفاع متساو، لا فارق أكثر من شبر بين ارتفاع الواحد والآخر، كأنه لا يعرف أن روسيا ملأى بالأحصنة- ولكن ليس في روسيا خيول.

حسنًا، ألم يجدوا طلبهم في خرينوف؟- سأل الشاب النبيل، فأجابه الميكانيكي بكلمات سريعة غير مفهومة، وضحك الاثنان معًا، ضحكًا جنونيًا، ثم مسح الميكانيكي بخنصريه المنتفخين عينيه المبللتين وقال- بالمناسبة، هم يبحثون في "آنّا" عن مدير للاصطبل، ألا تريد أن تعمل هناك؟

في "آنّا"؟ أين تقع؟

على بعد نحو عشرة فراسخ عن خرينوفا. إنها مزرعة بورياتينسكي.

وهل الاصطبلات عندهم كبيرة تحتاج إلى موظف خاص لإدارتها؟

نعم، إنها ليست صغيرة. ويقال إن ابنة بورياتينسكي مهووسة بالخيول.

ألا تريد العمل هناك؟ الأميرة العجوز غنية، وهكذا تتزوج مثل كريوز، وتسدد ديونك، وتصبح وجيهًا.

هل سأتزوج الأميرة، أم ابنتها؟

قل لي بربك ما الفرق لديك؟

ضحك الاثنان من جديد، أما رادوفيتش فنهض مندهشًا من بساطة القرار الذي شغل رأسه أيامًا عديدة. ترك عشرة كوبيكات على الطاولة، وحساء الملفوف الذي لم يمسسه، وذهب ملوّحًا بيده تلويحًا يزداد تحررًا، وتواترًا عند كل خطوة.

في الليل لعب بالورق لآخر مرة- لعب بغش وهدوء لم يعهدهما من قبل أبدًا- وفي الصباح، بعد أن حرّر دفعة واحدة، ثلاثة بياعين من عبء مبلغ أربعمئة وخمسين روبلًا وأربعين كوبيكًا من الفضة وانطلق فورًا إلى أفضل خياط في نيجني نوفغورود يحمل القماش، ثم بعد ذلك، إلى مخزن الكتب.

نهر الفولغا صار الآن حرًا يتموج ماؤه ويتناثر منه الرذاذ، لقد صار النهر يتنفس، وصارت الريح فتية، رقيقة، تارة تضم بشوق، رادوفيتش منعشة، وتارة تداعب خديه، وذقنه الحديثة الحلاقة الباردة برودة منعشة.

نيجني، أرزاماس، تامبوف.

إلى "آنّا"؟ أنت لن تستطيع الوصول قبل أن تجف الأرض أيها الفتى. الوحل كثير.

لكن حتى الطقس كان إلى جانبه هذه المرة- في الأيام الأولى من نيسان عمّ الصقيع مقاطعة فورونيج، فدمر الجليد الأغصان الطرية، والبراعم التي بدأت تتشكل لتوها. الوحول المحلية الكبيرة تقلصت وانكمشت كثيفة لامعة كالفضة، الأمر الذي مكّن رادوفيتش من الوصول إلى المكان في خلال أسبوع، شابًا، معتدل القامة، شاحبًا، حليقًا، شعره مسرح تسريحًا جيدًا، سيدًا فتيًا في معطف جيد، وصدرية أنيقة، وحذاء إنكليزي ممتاز.

وفي حقيبته الإنكليزية الأنيقة أيضًا، كانت، إلى جانب زوج الغيارت الداخلية، رسالة توصية تمتدحه بحماسة، موقعة بحروف غير واضحة، وكتابان- "مجموعة المعلومات عن تجارة الخيل والمزارع التي تربيها في روسيا" لمؤلفه ميردير، و"إرشادات عملية لمعالجة الخيل ومعرفة الأعراض الظاهرية لأمراضها" لمؤلفه بوباريكين.

رسالة التوصية كتبها رادوفيتش شخصيًا قبل أن يغادر نيجني. أما الكتابان، فحفظ ما فيهما وهو في طريقه إلى "آنّا"، حفظهما ببساطة، وحفظ إلى جانبهما ملحقًا حول "وصف أبنية مزرعة الخيول ومحتواها في روسيا، وإنتاج ورعاية أفضل أجناس الخيل، والأسلوب الأمثل لمعالجتها، وقواعد شراء وبيع الخيل".

حفظها كما في المدرسة- عن ظهر قلب.

تمهلت الأميرة بورياتينسكايا برهة وقد ارتفع حاجباها دهشة، ثم فطنت لوجوده، فمدت يدها، لا لكي تصافحه، ولا لكي يقبل اليد المدودة. انحنى رادوفيتش من دون تردد ولمس بشفتيه الجلد الجاف الشاحب، واتفق أن جاءت لمسته بين شامتين، وفاحت رائحة هادئة، مشرقة، توحي ببعض الحزن، لبودرة شهيرة ذات عطر بسيط جدًا، كل شيء بدا بسيطًا جدًا، غرفة الضيوف الواسعة ذات السقف المائل، والديوانات المغطاة بحرير سميك، وأقواس زهر الليلك على

صدغي وذراعي الأميرة، وفستانها الليلكي أيضًا، لكن هذه البساطة كانت أنيقة، غير نافرة، تعبر عن ثراء البيت وبورياتينسكايا نفسها، أكثر من أية زينة بالذهب.

تفضل بالجلوس يا سيد رادوفيتش. عندنا كل شيء بسيط كعادة أهل الريف. ألا تريد شايًا بعد السفر؟

سأكون ممتنًا جدًا.

شدت بورياتينسكايا شريطًا حريريًا– وبعد دقيقة دخلت إلى غرفة الضيوف فتاة معتدلة القامة، غائرة الدم تقريبًا، تشبه الأميرة إلى حد مدهش، بضفيرة ثخينة، خفيفة الحمرة، معقودة حول رأسها على النمط الريفي، وكتفين ناحلتين، ومرفقين ناحلين أيضًا، ككتفي ومرفقي دمية.

هبّ رادوفيتش واقفًا.

تعرّف يا سيد رادوفيتش. هذه بنتي آنيت...

احترامي يا أميرتي الصغيرة.

انحنى رادوفيتش، وحاول أن يلتقط اليد الصغيرة، غير أن الفتاة سحبت يدها، واصطبغت كلها بالحمرة– الخدان، والرقبة، والأذنان، وحتى الجبين– كأنها مصباح من مصابيح الاحتفال بالفصح، جلّس رادوفيتش قامته مرتبكًا، أما الفتاة المصطبغة بالحمرة فازداد احمرارها وأغمضت عينيها فجأة.

كأنها خافت أو أغفت.

ضحكت بورياتينسكايا.

مريهم أن يقدموا لنا الشاي يا عزيزتي.

أحنت الفتاة رأسها بالإيجاب، وخرجت وهي ما تزال مغمضة العينين.

إن لديك بنتًا رائعة يا صاحبة السيادة.

لدي رغبة في مخالفتك، لكني لن أفعل.

ظلوا صامتين وهم يشربون الشاي. قرّب رادوفيتش إلى شفتيه كأس الشاي الصامت، نصف الشفاف، أجاب باحترام على الأسئلة القليلة التي طرحتها

الأميرة- من تامبوف، من طبقة النبلاء، من طلاب جامعة بيتربورغ. مختص بالعلوم الطبيعية طبعًا. هو، لحسن الحظ، لم يضطر إلى الكذب. إنه، فعلًا، ولد في ضواحي تامبوف- والده قال ذلك مرة في مجرى حديثه، هو حتى لم يقله- بل أفلتت منه الكلمة من دون قصد، فألقى عليه نظرة فهم منها بوضوح، أن الأفضل له ألّا يسأل أبدًا. سيمبيرسك كانت مرحلة ثانوية، عابرة في حياته، لذلك أسقطها من حديثه، ومن حسن حظه أن محدثته لم تكن تهتم بالتفاصيل.

أصلحت بورياتينسكايا تسريحة شعرها، وزمت عينيها، وذاب في فمها البسكوت المطعّم باللوز، أما نيوتشكا فلم تقربه.

كان يقف قرب الجدار خادم مشدود القامة، سمين الخدين، ممتلئ الجسد، رزين.

تلت الشاي نزهة في الحديقة- قاموا أولًا بالتجول في الجزء القديم منها، ثم في القسم الجديد. أوراق الشجر الجديدة ضعيفة لم تتفتح تمامًا، والجذوع كامدة اللون، نصف عارية، وأحواض زرع، واستراحات، وبرك ماء، برك ماء- صف كامل من برك الماء الراعشة، اللامعة، وبقع مشرقة بنور الشمس، وأحذية بيضاء تصّر الطريق الرطبة تحت وقعها، كما كان يحدث ذات يوم، حين كانت ماما تسير بحذائها الأبيض. والحديقة بدت أيضًا كما كانت في طفولتها، حين كانت ماما. تعثرت قدم رادوفيتش بالقرب من شجرة الإجاص العجوز- فصرخت نيوتشكا "آخ" وأمسكته من تحت إبطه بمهارة.

اصطبغ رادوفيتش بحمرة الخجل، وحاول أن ينحني شاكرًا، فكاد أن يقع مرة ثانية على الأرض الربيعية، الفاتحة اللون، الرطبة. ابتسمت بورياتينسكايا وقالت- حذار يا أولاد،- فتصور رادوفيتش فجأة، كيف تراه عيناها من الخارج: فتى نحيلًا، غبيًا، كان حتى أمس تلميذًا، يحاول الآن أن يبدو رجلًا مكتملًا. عبث، عبث.

طارت من تحت قدمي نيوتشكا ورقة ملفوف رقيقة كأنها ورقة سيجارة، ثم سقطت كأنما خارت قواها.

اعتذر رادوفيتش سريعًا متذرعًا بالتعب، وأخطأ مرتين، وهو يبحث عن المكان المخصص لإقامته، كان البيت كبيرًا جدًا، لذلك كان خطؤه صغيرًا لا يستحق الذكر، وحين وصل تكوم في السرير، وهو لا يملك أية فكرة عن المكان الذي سيذهب إليه في الغد.

في المساء أبلغوه أنه حصل على الوظيفة، وأنهم حددوا له راتبه، ومكان إقامته في الجناح الخالي دائمًا في بيت مدير المزرعة، كما أبلغوه أن الأميرة بورياتينسكايا تكرّمت بدعوته إلى العشاء معهم، وأنه يجب أن يلبي الدعوة حتمًا.

هو لم يتفقد الاصطبل إلا في اليوم التالي. كل شيء في الاصطبل كان نموذجيًا، لا يحتاج أبدًا إلى أي عمل إضافي. المؤسف هو أن رادوفيتش لم يكن الوحيد الذي يعرف ذلك، فقد كان يعرفه أيضًا السائسون الذين راحوا يتبادلون النظرات متسائلين عن سبب الزيارة، رادوفيتش أحس بأنها نظرات ساخرة.

بالمناسبة، كانت العشاءات فوق كل انتقاد- رادوفيتش لم يأكل في حياته طعامًا بهذه الكثرة، وهذه اللذة، ولم يشعر في يوم من الأيام بهذا الامتنان لوالده، لغرسه فيه تقاليد المائدة، بالمعنى الحرفي للكلمة. كان الأب يضربه منذ كان في الرابعة من العمر- يضربه من دون غضب، ولكن من دون أية شفقة- وذلك حصرًا عند ارتكابه أي خطأ، أو أية مخالفة للتقاليد حين يجلس إلى مائدة الطعام.

نحن- آل رادوفيتش.

تذكّر أي دم يجري في عروقك يا فيكتور.

كأنه كان يتوقع حقًا، أن يتناول ابنه الغداء على مائدة الإمبراطور يومًا ما. لقد قاربت الصواب في توقعك يا بابا، قاربت الصواب.

كانت بورياتينسكايا تمارس التطريز بعد العشاء. وكانت نيوتشكا تعزف على البيانو، أو تجلس صامتة، مغمضة عينيها، واضعة يديها الصغيرتين البيضاوين على ركبتيها، أما رادوفيتش فكان يجلس صامتًا لا يبادلها في حديثه معها أكثر من عشر كلمات. بعد أسبوعين استدعته الأميرة وهي تنقر بقلم رصاص رفيع مغلفًا بلا

عنوان، وسألته عن رأيه بابنتها. اضطرب رادوفيتش وأجابها بأن الأميرة الصغيرة كائن مثالي حي، ونموذج للجمال والأخلاق، وأنه، من ناحيته، يركع أمام...

اختلطت عبارة طويلة، بلا معنى، بشكل ميئوس منه، في كلامه، فتلكأ مرتين، ثم استسلم وصمت.

يا إلهي، من أين جاء بهذا الهراء العالي النبرة؟ ليس من عند درجافين، ولا حتى الأمير خفوستوف، أو فاسيلي كيريلوفيتش تريدياكوفسكي.

آنيت ليست ابنتي بالدم، إنها ربيبتي، ابنتي بالتبني- قالت بورياتينسكايا بصوت منخفض،- وهي ليست أميرة بل فتاة من الطبقة العامة. لقد ظننت أنك تعرف هذا الأمر، فالناس، كما تعلم، يحبون الثرثرة.

أنا لا أستمع إلى الشائعات يا صاحبة السيادة. والألقاب لا تعني عندي شيئًا، ولا تغيّر لي رأيًا.

إن هذا أمر يزيدك شرفًا يا سيد رادوفيتش.

صمتت بورياتينسكايا. وظل القلم يقفز بين أصابعها ككائن حي انتابه القلق.

أنا لا أخفيك أن مصير آنيت يقلقني، بغض النظر عن أصلها، لقد كبّرتها وربيتها كابنة حقيقية لي، وأحببتها من كل قلبي. أتمنى لها أفضل شريك حياة ممكن. أنا سأمنحها طبعًا مهرًا لائقًا، لكن شرط أن أكون واثقة من أني وجدت الرجل الذي سيحقق لها السعادة فعلًا.

رفعت بورياتينسكايا حاجبيها تنتظر الجواب، لكن رادوفيتش ظل صامتًا مذهولًا. لقد انحلت العقد كلها ببساطة يستحيل تصديقها. كل ما يتمناه هو أن يتخفى، أن يقيم مطمئنًا. لكن هذا الزواج يمنحه أكثر من ذلك، يخرجه من اللعبة كليًا، ويحوله من بيدق صغير في الرقعة إلى قلعة كاملة القيمة.

علت نقرة القلم.

لقد غضبت بورياتينسكايا أخيرًا، فنهضت واقفة.

لكني أرى يا سيد رادوفيتش أني تسرعت، وأن قلبك مشغول بغيرها...

أفاق رادوفيتش من شروده، فقفز من مكانه أيضًا قلقًا، منفعلًا.

قلبي خال وحر تمامًا يا صاحبة السيادة، وأنا سعيد تمامًا بما تقولين، بل أكثر من ذلك، أنا أعدّه الهدف الرئيسي في حياتي... لكنني أعتقد أن النزاهة تقتضي أن نأخذ رأي... رأي...

أدرك رادوفيتش فجأة أنه لا يعرف كيف سينادي زوجته المقبلة.

من قبل كان يتدبر ذلك بكلمة "الأميرة الصغيرة" أو "المودموزيل".

إنها، كما تبين له، آنا إيفانوفنا، آنا إيفانوفنا أربوزوفا. لا، إنها آنا إيفانوفنا رادوفيتش

آنيتشكا.

ابتسم رادوفيتش- مرتبكًا، مبتهجًا كمن تلقى هدية غير متوقعة، أما بورياتينسكايا فانحبست أنفاسها. يا له من جميل يا إلهي! العينان، الشفتان، الحاجبان- كل ذلك كأنما نحت من حجر ثمين. وهذه الخصلة الشيباء التي ميّزه الله بها إعجابًا. إنه رشيق كله، وساطع مثل... مثل الجمر، وهو يجهل ذلك- وهذا يزيده جمالًا. لو كنت أنا في العشرين- لما ترددت دقيقة واحدة، ولتبعته مشيًا، بل عدوًا، لو حتى إلى حافة العالم.

أنا ما كنت لأفتح هذا الحديث يا سيد رادوفيتش لو كنت غير متأكدة مما أفعل. إنما لدي شرط، بل شرطان.

أحنى رادوفيتش رأسه بالموافقة. أمال رأسه بجدية واستسلام، كأنه يعترف بذنبه، ويبدي استعداده لتلقي العقوبة أيًا كانت. وقد بدا هذا الاستسلام بحد ذاته جميلًا وجذابًا أيضًا.

الشرط الأول- هو أن تعيش، أنت وآنيت، في المزرعة، أنا لا أريد أن أفقد الأسرة في شيخوختي. ستبقى، طبعًا، مديرًا للمزرعة- إذا كنت، أنت نفسك، ترغب بذلك.

أحنى رادوفيتش رأسه موافقًا.

وانتظر الشرط الثاني.

ستسمّيني "ماما" بعد الزواج. هل تعد بذلك؟

رفرفت رموش رادوفيتش بسرعة وكثرة، وجثا على ركبتيه في صمت أمام الأميرة.

اتفقا على إتمام الخطبة في اليوم التالي.

وفي اليوم نفسه، في/ 15/ نيسان عام 1887، بدأت جلسات المجلس الحكومي الخاص للتحقيق في الاعتداء الشرير على حياة قداسة القيصر الإمبراطور، وقد استدعي للمحاكمة خمسة عشر شخصًا: أوسيبانوف، وأندريوشكين، وجينيرالوف، وشيفيريوف، ولوكاشيفيتش، ونوفوروسكي، وأنانيانينا، وبيلسودسكي، وباشكوفسكي، وشميدوفا، وكانتشير، وغوركون، وفولوخوف، وسيرديوكوفا، وألكسندر أوليانوف.

في/ 19/ نيسان حكمت المحكمة العليا بالإعدام شنقًا على أربعة عشر منهم.

وفي/ 30/ نيسان وضع وزير العدل تحت النظر الرحيم لجلالته أسماء جميع المحكومين طالبًا العفو عنهم أو تخفيف أحكامهم، مع النتائج التي توصل إليها المجلس الحكومي الخاص.

فأبدى الإمبراطور رحمة حقيقية لا حدود لها.

أنا لم أكن أعرف ذلك يا ساشا، أقسم بشرفي أني لم أكن أعرف، ولم يكن أحد يعرف، هم لم يكتبوا شيئًا عن ذلك في الصحف.

لقد ظن رادوفيتش أن كل شيء قد هدأ، وأن الزمن طوى القضية، بل من المحتمل أن يكونوا قد أطلقوا سراح الجميع، واعتذروا منهم- لأن اعتقالهم كان خطأً طبعًا، كان أحد تلك الأخطاء الغبية التي فطرت عليها ربة العدالة الروسية "فيميدا" العمياء، منذ ولادتها.

إنه، عمومًا، كان يعيش على الهامش، لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن أحد تقريبًا من سكان المزرعة يبادله الحديث عدا بورياتينسكايا- أما هو فقد تبين أنه لا

يتقن إصدار الأوامر، ولا يعرف كيف يجب أن يهيئ كتفيه كي يلبسوه سترته، أو ينزاح قليلًا، وهو على المائدة، كي يتمكن الخادم من التعامل براحة مع الطبق الذي ينفث نارًا.

لقد تبين أن ذلك فنّ شديد التعقيد.

ظل رادوفيتش، حتى بعد أن صار عريسًا رسميًا، لا يعرف ما علاقة القربى التي تربطه بهذا البيت الكبير، ومع من تربطه. الأميرة الصغيرة الحقيقية، التي ظن في البداية بسذاجة أنها آنيت، كانت منذ الشتاء، لأمر ما، في بيتربورغ، ولا يبدو أنها تنوي العودة قريبًا. لقد كان حتى رادوفيتش يدرك أنه لا بد من وجود سبب قوي يجعل بنتًا فتية جدًا، وغير متزوجة، تعيش كل هذه الأشهر بعيدة عن البيت، وعن أمها وأبيها، لكن لم يكن هناك من يذكر ذلك السبب، كل ما كان في الجو غيمة كثيفة من الرائحة الكريهة- يتظاهر الجميع بأنه لا وجود لها، أو يتحملونها.

رادوفيتش لم يكن يلحظ ذلك.

كان من الواضح الذي لا جدال فيه- أنه ما من أحد من سكان المزرعة رحّب به. رادوفيتش لم يكن فظ الكلام، ولم يكن شديد التدقيق، ولم يكن كثير الادعاء والتكبّر، لكن الجميع كانوا يصمتون، يقطعون كلامهم ويتفرقون فور ظهوره، ويتهامسون: يا له من فتى محتال، لم يمض على معرفتنا به أسبوعان، لكنه استطاع أن يقفز فيهما من سائس خيل إلى صهر للأميرة نفسها، وذلك حتى قبل أن يقوم بأي عمل في الاصطبل.

ترى ما الخدمات التي قدمها؟

ماذا قدم مقابل ذلك؟

رادوفيتش نفسه، لو فكر بالأمر، لفكّر بالطريقة نفسها. يا إلهي! من الذي لن يستغرب ذلك؟

كان هناك ألماني آخر تشير كل الدلائل إلى أنهم ينفرون منه أكثر مما ينفرون من رادوفيتش، وقد حاول رادوفيتش كثيرًا أن يعرف من هو، قبل أن يعرف،

مصادفة تقريبًا، أن غريغوري إيفانوفيتش، الذي تبدو بورياتينسكايا حين تتحدث عنه، كما لو أنها تلامس بوجهها عظام جثة مقدسة (كان رادوفيتش يعتقد أنه زوجها المرحوم) هو ذلك الشرير الحقود، الذي يتحدثون عنه كحاكم حقيقي لهذه الأماكن. إنه ميزيل. غريغوري إيفانوفيتش ميزيل.

إنه طبيب الأسرة.

ليس أكثر.

غير أن أوهام رادوفيتش لم يكن لها حد.

كان رادوفيتش يستسهل الحديث مع الأميرة أكثر من الحديث مع أي إنسان آخر- لقد كانا، ببساطة، معجبين أحدهما بالآخر، ككلبين، أو كطفلين. وكانا حين يختلفان يسويان الخلاف فورًا، وتنتهي المسألة.

لم يتغير شيء بالنسبة إلى نيوتشكا، كانت الأميرة تحرص على تركهما على انفراد أكبر وقت ممكن: تذهب لتدبير بعض أمور المزرعة، أو تتذكر فجأة أنها نسيت إكمال إحدى القطع، أو تدعي، ببساطة، أنها تشعر بالنعاس- على الرغم من أنها لم تكتسب بعد أبدًا هذه العادة التي عند كبار السن. لكن نيوتشكا ظلت كما في السابق، لا تبتسم ولا تتحدث إلا نادرًا، غير أنها صارت أقل إغماضًا لعينيها. وحين حاول رادوفيتش مرة أن يستغل كرم الأميرة، فشد نيوتشكا مرتبكًا يقرّبها إليه- التمعت عيناها الزرقاوان البراقتان، واضطربتا، وحشرت نفسها في الزاوية قلقة، محمرّة الوجه، تلامس شفتا رادوفيتش خصلة جافة، خشنة من شعرها.

أبعدته عنها ببساطة.

رائحة فمها لم تكن جذابة- كانت حامضة، وغير طازجة، وغير فتية.

رادوفيتش الذي (والفضل لفوك) تعامل من قبل مع عاهرات غاليات الثمن- مرحات، مبتهجات، مستعدات لفعل أي شيء بمرح وبهجة- اعتذر مضطربًا. هو لم يكن يعرف كيف يتصرف مع البنات المهذبات.

ترى ما الذي سيفعله الآن؟

حددوا موعد الزفاف في نهاية شهر آب.

تلقت توسا برقية بذلك. وميزيل أيضًا.

وضعا البرقيتين على الطاولة، فبدتا كنصفين لخريطة قرصان.

ألا يجب عمومًا، الذهاب إلى البيت؟- سأل ميزيل.- ألا تريدين الذهاب؟

طبعًا أريد يا غريفا.

متى؟

في وقت ما. سترى. أنا سأبلغك بذلك حتمًا.

جمعت توسا الدفاتر بعناية في رزمة، وحاولت ربط الرزمة في زنار، كما تفعل الطالبات، لكنها لم تنجح. ضحك ميزيل ضحكة ساخرة قصيرة، وقام بمساعدتها من دون أن ينطق بكلمة.

أتخيل كم هي سعادة mama!

بدا لميزيل أنها تقول ما قالته بدافع الغيرة، وقد تكون قالته بدافع السخرية. هو لا يستطيع تحديد دافعها لذلك.

غرقت بورياتينسكايا فعلًا في كومة من قماش "الباتيستا" والحرير، واختارت أفضل أغطية الموائد، وأفضل الوسائد- أعدّت مهر العروس. وفي الغرف المخصصة للعروسين تدافعت النساء بأقفيتهن، ضاحكات، مرحات- يجب غسل كل شيء، وتبييضه، ودهنه، وترتيبه ترتيبًا جديدًا- وأتممن تحضير الضيافات بحماسة، وفكّرن بأدق تفاصيل ما سيرتدينه من فساتين.

انشغلت بورياتينسكايا بكل ذلك، كأنها هي من سيقف تحت الإكليل.

لوّحت شمس الصباح الربيعية شعرها الذي انعقد تاجًا احتفاليًا أحمر فوق رأسها، ومسّدت تجاعيد وجهها، واغتسلت.

العاشر من أيار، عام 1887.

يوم الثلاثاء.

شجيرات الكرز مزهرة خلف النافذة المفتوحة على مصراعيها بسخاء.

السماء مخططة كأنها "نوطة" موسيقية.

ما عدد الضيوف الذين سيحضرون من طرفك يا فيكتور؟

اضطر إلى الكذب في إجابته.

هل أنت وحيد في هذا العالم؟ آخ، يا لك من فتى مسكين، مسكين، يا لك من صبي شقي! آمل أن تحصل، أخيرًا، في بيتي على أسرة تحبك.

أغمضت نيوتشكا عينيها.

وأغمض رادوفيتش عينيه خجلًا.

سامحني يا إلهي، وأنت أيضًا يا ساشا، وسامحني، أنت أيضًا يا بابا.

ولكي يعتذر بشكل ما أمام أبيه الذي "دفنه حيًا"، راح يحدثها عن التاريخ المجيد لأصله العريق الذي عاد إلى الإيمان به منذ فترة وجيزة.

صربيا بحاجة منذ زمن طويل إلى ملك جديد. ليأخذ الشيطان إخوتي!

إن فيكتور رادوفيتش ينتمي إلى أصل حاكمي العالم.

فيشيسلاف، سفيفلاد، رادوسلاف، فلاستيمير، تشيسلاف... قتل، قتله البلغاريون، كان مخلصًا لأخيه، مات، مات، قتله...

من حسن الحظ أنهم جاؤوا بالبريد في الوقت المناسب.

على الصينية، فوق المغلفات، نشرة الصباح من "برقيات مديرية تلغراف الوكالة الشمالية".

الحوذي يقول- كل شيء في المحطة مغلق-قالت تانيوشكا، زامة شفتيها.- والناس يقولون- هذا قليل!

بماذا مغلق؟ وما هو القليل؟

قليل أن يكتفوا بشنق قتلة القيصر، ليتهم خوزقوهم، أو فعلوا بهم أي شيء آخر.

وضعت تانيوشكا الصينية بعنف أمام بورياتينسكايا وهي تلهث، ثم التقطت عن الكرسي منديلًا نسيه أحدهم، وذهبت وهي تعرج بشدة على ساقها المريضة.

هي، أغلب الظن، لم تلحظ رادوفيتش عمومًا، وكذلك نيوتشكا، والاستعدادات للزفاف، والربيع، وزيز أيار الذي يطن طنينًا ثقيلًا،- مهاجمًا حافة النافذة. عالم تانيوشكا كان يضيق، يحاصرها من كل الجهات، باردًا، عبوسًا. وحدها الأميرة ما زالت تبعث الدفء، هي وحدها لم تنطفئ.

دقت بورياتينسكايا صدرها بيدها وهي تبحث عن النظارة.

آخ، لا يمكن، لا! كيف نسيتها! يا فيكتور، اقرأ لي بسرعة من هم قتلة القيصر هؤلاء؟

أخذ رادوفيتش النشرة بيديه اللتين جففهما كيلا يطمس حبر الكلمات برطوبتهما! البلاغ الحكومي عن قضية الأول من آذار عام 1887.

بناء على الأمر العلوي الصادر في/ 28/ آذار عام 1887 نقلت قضية محاولة قتل الإمبراطور المقدس المكتشفة في الأول من شهر آذار نفسه، إلى جهة خاصة للقيام...

ابتلع رادوفيتش ريقه وقفز بعينيه على خطوط النشرة الثخينة غير المستوية.

عند الاطلاع على الاعترافات بهذه القضية وعلى مجرى المحاكمة تبين أن الطلاب في جامعة بيتربورغ سابقًا: القوزاقي من بلدة بتيومكين، في منطقة دونسكويه العسكرية، فاسيلي دينيسيف جنرالوف، والموظف مختارًا في بلدة ميدفيديسكويه في منطقة كوبان وباخومي إيفانوف أندريوشكين، وابن المستشار المحلي ميخائيل نيكيتين كونتشر، وابن التاجر بيتر ياكوفليف شفيريوف، وابن المستشار المؤصل في الملاك ألكسندر إيليتش أوليانوف...

سقط زيز أيار على البساط وصمت رافعًا أقدامه العاجزة في الهواء. وقلّصت نيوتشكا خديها بشكل غير ملحوظ مانعة نفسها من التثاؤب.

... والقابلة الريفية ماريا ألكسندروفنا أنانيينا، والمرأة العامية من "خيرسون" القابلة ريفيكًا (رايسا) أبراموفا شميدوفا،- ينتمون إلى مجموعة إجرامية تسعى إلى أن تقلب بالقوة النظام الحكومي والاجتماعي، وقد شكلوا في النصف الثاني من عام 1886 خلية سرية للقيام بنشاط إرهابي...

تحرك الزيز الآذاري على ظهره المحدّب محاولًا الانقلاب على أقدامه،- وفجأة، طن من جديد طنينًا يائسًا، كئيبًا، غاضبًا.

هيه؟ لماذا صمتّ يا فيكتور؟ تابع القراءة.

... في كانون الثاني من العام نفسه اتفقوا على الاعتداء على حياة القيصر الإمبراطور المقدس، ومن أجل ذلك تسلّح جنرالوف وأندريوشكين وأوسيبانوف بقنابل معدنية معدّة للتفجير، وخرجوا في الأول من آذار عام 1887، بمرافقة كانتشير، وغوركون وفولوخوف الذين أخذوا على عاتقهم إبلاغ حاملي القنابل بإشارة خاصة عن وصول جلالته، إلى شارع نيفسكي بهدف إلقاء القنابل المذكورة تحت عربة القيصر الإمبراطور، لكن تم القبض عليهم في منتصف النهار تقريبًا من قبل عناصر الشرطة، قبل أن يتمكنوا من تنفيذ فعلتهم...

وبحكم خاص، صادر عن المجلس الحكومي المنعقد في 15/ 19/ نيسان عام 1887، حكم على كل المذكورة أسماؤهم، ما عدا سيرديوكوفا، بالعقوبة اتي تنص عليها المادتان/ 241/ و/ 243/ من قانون العقوبات...

... علمًا بأن المجلس عدّ أن شيفيريوف هو مرتكب الجريمة، وأن أوسيبانوف وجنرالوف، وأندريوشكين، وأوليانوف، وكانتشير، وغوركون، وفولوخوف شركاء في الجريمة، وأن أوليانوف أنشطهم في التفكير بها، وفي تهيئة الأفعال لتنفيذها، أما بقية الذين خضعوا للمحاكمة... فحكم عليهم بالحرمان من كل حقوقهم، وقد نصّ الحكم على أن ينفذ الإعدام شنقًا حتى الموت.

أطلقت بورياتينسكايا صرخة "آخ"

أما نيوتشكا فأغمضت عينيها ورسمت بسرعة، خلسة تقريبًا، شارة الصليب على صدرها.

كان رادوفيتش يسمع صوته- من الخارج وليس من الداخل، رتيبًا، منخفضًا، حريصًا على الوضوح، كأنه صوت تلميذ. كانت الشمس تغمر صدغه الأيمن، فيعشى بصره، كما كان يعشى في زمن ما في المدرسة، حين كان يقف أمام اللوح

ليجيب عن الأسئلة، فيرى، بدلًا من الصف، ضوءًا راعشًا أسود تارة، وأبيض تارة، ساطعًا، ممتلئًا بهمهمة الأطفال الهادئة، وصرير مقاعدهم وريشهم، ويعرف، حتى وهو أعمى تقريبًا، في قلب هذا الضوء، ويحس بأن ساشا يجلس على المقعد الثاني في صف المقاعد الثالث الذي على يمينه.

ومع ذلك رأت رحمة القيصر الامبراطور الكلية أن يأمر بخفض حكم الإعدام الصادر بحق يوسف لوكاشفيش، وميخائيل نوفوروسكي، وميخائيل كانتشير، وبيتر غوركون، وستيبان فولوخوف، إلى السجن والأشغال الشاقة من دون تحديد المدة بالنسبة للاسمين الأولين، ولمدة عشر سنوات بالنسبة لكل من كانتشير، وغوركون، وفولوخوف، وحرمانهم من كل حقوقهم، وما يترتب على ذلك...

رادوفيتش لم يتم القراءة بصوت مسموع، مكتفيًا بقراءة ما تبقى بعينيه، ثم أعاد النشرة إلى الصينية.

تأمل أصابعه عدة ثوان- أصابع رطبة، ملطخة بالألوان، عبثًا دفأها. التدفئة لم تنفع بشيء. وقف برهة يترنح، ثم خرج من الغرفة من دون أن يستأذن أو يعتذر.

رفعت نيوتشكا الورقة بهدوء، وقرأت ما فيها من دون أن تتلعثم.

نُفذ حكم المجلس الحكومي الخاص بالإعدام شنقًا على المحكومين جنرالوف، وشفيريوف وأوليانوف في الثامن من أيار من عام 1887.

يا له من افتراس للحم البشر! يا له من كفر! يا له من أمر غير معقول!- تمتمت بورياتينسكايا وهي تنهض.- وهذ ابن ماشا! ابن ماشا! من حسن حظها أنها لم تعش حتى ترى ذلك. يا للمسكينة! لقد صار من غير الممكن أن تبقى توسا دقيقة واحدة في هذه المدينة. رباه، يا إلهي. ما هذا الزمن الذي نعيشه! ما هذا الزمن الذي يعدم فيه الأطفال!

لوحت بورياتينسكايا بيدها لنيوتشكا وأمرتها- أنا أريد إرسال برقية، مُريهم أن يأتوا فورًا. بعد ذلك ذهبت إلى النافذة وتمسكت بحافتها- ثم بكت فجأة.

أما زيز أيار فداسته في أثناء مشيها.

لم تجد نيوتشكا رادوفيتش إلا في المساء- في الاصطبل. السائسون انصرفوا، وزفير الخيول التي بدأت تغفو كان يعلو، وكان بعضها يشخر بين حين وآخر، طاردًا الذباب الذي بدأ يغفو أيضًا.

الجو بارد، والجليد يطقطق على الأرض تحت الأقدام- ولا بدّ أن شجرة السنديان أزهرت في نهاية المطاف.

كان رادوفتش ممددًا، ورأسه مطمور تقريبًا بالقش.

جلست نيوتشكا إلى جانبه، فوجدت كتفيه يرتجفان في العتمة. مسّدتهما بحذر، فانتفض خائفًا ثم هدأ. بعد ذلك جلس فجأة، وبكى بصوت رفيع، فظيع، كأنه أرنب قطعوا بحد فأس، خديه المبللين، ورأسه، أما يداها فراحتا تزيحان نثار القش والأشواك وهي تتمتم:

يا مسكين، يا مسكين، يا مسكيني، أما هو فلم يكن قادرًا على التماسك والهدوء بحال من الأحوال، لكنه هدأ في نهاية المطاف.

لأنها لم تبعده عنها

هي حتى لم تغمض عينيها.

الظلام كان سائدًا على كل حال.

البرقية تلقاها ميزيل.

قرأها عدة مرات، سوّى سترته، ثم نهض وهو يستجمع قواه.

ذهب إلى توسا. ورسم على صدره شارة الصليب قبل أن يقرع الباب، فأدهشه أنه لم ينس كيف يرسمون الشارة.

أخذت توسا البرقية، سقطت من يدها، فالتقطتها ثانية.

وسافرا في اليوم نفسه.



الفصل الخامس

الابن

ضاقت توسا ذرعًا بالشهور الخمسة التي قضتها في بيتربورغ، ولم يمنعها من التعبير عن شعورها بشكل أدق، إلا اكتسابها في خلال سنوات كثيرة عادة ضبط النفس وعدم إطلاق الشتائم.

لقد وصلت مع ميزيل إلى العاصمة، منذ كانون الأول، أي في بداية الفصل،- وذلك استجابة لإلحاح الأميرة، التي عدّت أن الوقت قد حان أخيرًا لإخراج ابنتها ذات الستة عشر عامًا، إلى النور وتعريف القصر بها.

كانت بورياتينسكايا تنوي الذهاب إلى القصر شخصيًا، لكن الحادث الذي وقع في وقت غير مناسب أقعدها في السرير. دلّك ميزيل بأصابعه الخصر الشاحب للأميرة التي كانت تتأوه باستمرار، ثم هز رأسه بإشفاق. هو، طبعًا، كان جبانًا، تدرّب، طول حياته تقريبًا، على الجبن، ويعرف إلى أي مستوى من السفالة يمكن أن يقود الخوف العادي الإنسان.

بورياتينسكايا كانت تتظاهر بالألم.

هي لم تكن تريد أن تعود إلى المكان الذي عرفوها فيه جميلة، ورشيقة، وفتية. كانت تخاف، تعرف أن السفر ضروري، لكنها تخاف. وصف لها ميزيل أن تتدلك بسمّ للنحل، وشحم الدب، وأن تضع زنارًا من شعر الكلب، وتلتزم بالراحة التامة. ستأتين متى تستطيعين ذلك يا ناديجدا ألكسندروفنا. نحن نستطيع، حتى من دونك، أن نتدبر أمرنا بشكل ممتاز.

كان يكذب، طبعًا. هو، نفسه، كان خائفًا. هو كان يكره السفر إلى بيتربورغ

أكثر من بورياتينسكايا، لكن إرسال توسا برفقة خادمتها فقط، كان، ببساطة، أمرًا غير معقول. هي ودّعت المودموزيل كريز وافترقت عنها منذ أيلول- عانقتها وذرفت دموعًا كثيرة، فصرخ ميزيل ومضى لترتيب متاع السفر، لكنه، بدلًا من ذلك، وقف طول الليل عند النافذة، التي انسدل الجليد عليها ستارة رقيقة مزينة بالرسوم: نبتات زينة أوراقها كثيفة وعريضة، ونبتات زينة أوراقها صغيرة خضراء، وصور حيوانات وحيدة القرن- وقف يفكر: هذه النافذة، وهذه الرسوم، هي أكثر البراهين إقناعًا بأن الله موجود، وليس هناك ما هو أفضل منها، لكنه مع ذلك لا يؤمن. إنه لا يؤمن بأي شيء، ولا يشعر بأي شيء غير التعب والخوف.

لماذا أنا يا إلهي؟ أنا أعرف لماذا. لكن أجبني ببساطة- لماذا أنا بالذات؟

نفخ ميزيل على الزجاج، أطلت عليه من خلال الثقب الذي ذاب الجليد عنه، ظلمة ساكنة، لا يمكن اختراقها، ولا قاع لها.

ذلك كان الجواب.

وهو لم يكن ينتظر غيره.

سافرا باكرًا، حتى قبل أن ينحسر الظلام.

كان صقيع الصباح الباكر متميزًا، مخيفًا، يخال للمرء أنه مسموع. كل ما حوله كان يئن: الحقل الذي تصعب رؤيته، والغابة البعيدة التي لا يراها إلا بخياله تقريبًا، والسماء نفسها- كل شيء كان يزعق بصوت يصم الآذان تحت ندف الثلج الكثيفة الآخذة بالذوبان، وانعقدت فوق ظهور الخيل غيمة بيضاء من البخار. وفي لحظة جمدت رموش توسا وحاجباها والكتلة اللحمية فوق شفتها العليا، وراح ميزيل يدثرها بمعطف السفر السميك، ويغطي وجهها بمنديل رمادي، ريفي، تفوح منه بشدة في الصقيع بوجه خاص، رائحة الجليد. عينا توسا كانتا تلمعان في العتمة- ملساوان، ساطعتان. من الواضح أنها كانت تبكي منذ قليل. يبدو أنها ودعت الخيول. الحصان "بويارين" بلغ الخامسة والعشرين- صار عجوزًا تمامًا، حتى سحنته خطها الشيب، وصار باستطاعته ألا ينتظر رعاية صاحبته.

ميزيل لم يفهم لماذا وافقت على السفر عمومًا.

ظل لا يفهم ذلك لفترة طويلة جدًا، طويلة جدًا.

لم يدرك هذا العجوز الغبي، لماذا فعلت ذلك.

بيت آل بورياتينسكي البيتربورجي (الهادئ، المنفرد، الذي لا يلحظه أحد) بيع بعد موت الأمير، لذلك استقبل آل ستينبوك- فيرمور، أقارب ناديجدا ألكسندروفنا من ناحية الأب، توسا. بيت صارم من طابقين على الشاطئ الانكليزي يطلّ على نهر نيفا المتعرج الميت، في مهب ريح بتربورغ اللاذعة التي لا تطاق. لقد تغير كل شيء ولم يبق كما كان في عام 1831، إلا ميزيل نفسه. لكن، لا. لقد كان يأمل عبثًا بأن يرى كل شيء باقيًا على حاله.

خصصوا لميزيل فسحة صغيرة بالقرب من غرفة نوم الخدم. ولم يكن الحديث عن إجلاسه على المائدة إلى جانب أحفاد روريك المباشرين، واردًا أبدًا- فأصحاب البيت لم يكونوا يمارسون هذه الألعاب الليبيرالية. كان ميزيل يتسكع في البيت أيامًا كاملة متنقلًا من نافذة إلى أخرى، لكنه كان يقضي أغلب الوقت متمددًا في غرفته، خائر القوى. هو لم يكن يرى توسا تقريبًا. الأميرة مارغريتا سيرغيفنا ستينبوك- فيرمور، الأميرة التي حملت في صغرها لقب دولغوروكوفا، كانت تقوم بواجب القرابة على أكمل وجه. زيارات، وحفلات راقصة، وصباحيات، وعروض مسرحية أولى- لم يكن المجتمع الراقي في بيتربورغ ينام في الشتاء عمومًا، يظل ساهرًا يغمره ضوء الكهرباء الشاحب، والمرح الصاخب. كانوا يعيدون توسا إلى البيت قبيل الصباح، عابسة، شاحبة اللون من التعب، وقد قبحت ملامحها إلى حد اليأس.

كانت الأميرة ترسل أسبوعيًا إلى بورياتينسكايا تقريرًا عن الوضع، مملوءًا تقريبًا بعبارات الغضب، فعلى الرغم من كل الجهود المبذولة، لم تحقق توسا أي نجاح. كانت فتية، جميلة المنظر، وترقص بامتياز- لكن الفتيات الأخريات كلهن يمتلكن هذه الميزات، وهنّ كن يتدافعن بالعشرات ككبات الخيوط الحريرية

متجولات في صالات الرقص المغطاة جدرانها بالمرايا. ولا يبقى للواحدة منهن ما تتباهى به على هذه الخلفية سوى الأصل العريق، والثروة، أو الجمال الخارق، إلى جانب أخذ الأصل والثروة بعين الاعتبار كسبب أساسي. غير أن الأميرة الصغيرة بورياتينسكايا، وريثة الثروة الكبيرة التي تجعلها بحسب كل المعطيات على رأس قائمة عرائس الموسم، كانت في معظم الأوقات تقف عند جدران القصر صامتة، وتتخفى خلف الظهور المحنية للعمات والأمهات.

كانوا يدعونها للرقص طبعًا- لكن ليس أكثر من مرة في الحفلة.

العيب الذي لا يمكن أن يلحظ من بعيد، كان يستفز الخيال ويذهله عند أول معرفة. توسا كانت تفتقر إلى الأنوثة- بدرجة صارخة، منفّرة- هي حتى لم تكن تحاول أن تثير إعجاب أحد، رغم أن التقاليد والعقل السليم، والطبيعة الإنسانية نفسها، كل ذلك كان يفرض على المستجدة أن تشع بعينين فضوليتين، وتتلفت بانفعال، وتتغمّى، وتغمز برموشها، وخصلات شعرها للقلوب الفتية الساذجة. توسا لم تكن كذلك. لا. كانت تصمت حيث يجب أن تصمت، وتبتسم دائمًا في الوقت المناسب، وترقص "الفالس" بسهولة، وتسرّح شعرها وترتدي دائمًا ملابس (آخر موضة) تناسب وجهها.

لكنها كانت تبدو ضجرة.

هذه الحالة لم تكن نفسية كحالة بيتشورين (بطل رواية "بطل هذا الزمان" لليرمانتوف- المترجم) أو حالة فتاة تعبت من كثرة الحفلات الراقصة، وتعرّفت على الجميع بدءًا من طلاب الضباط وانتهاء بالخدم، وصارت قادرة على التنبؤ بأية ردة فعل، عند نهاية كل رقصة. لا، توسا كانت تشعر بالضجر والضيق، كما يشعر الرجل الكبير بالضجر والضيق في ظروف لا يستطيع أن يغيّرها، وعليه أن يحتملها- في مكتب موظف كبير سيرفض على كل حال مطلبه مهما ألحّ عليه بالطلب، أو كما يشعر مريض في المستشفى، حين يختلط عذاب الألم والزمن، فيصبحان متشابكين، لا نهائيين. توسا صبرت ببسالة، ونزاهة، وبذلت كل ما تستطيع من جهد، وكان

وجهها حين يراها المرء متوقفة، يبدو متوترًا وغير مريح، بل مخيفًا.

هي لم تتمالك نفسها في مرة واحدة فقط- حين وجدت نفسها مصادفة إلى جانب مجموعة من عناصر الفوج الإسكندري الخامس، يرتدون الأسود والأبيض بأساور أكمام حمراء فاقعة، وقد بدا عليهم التعب من روعتهم، ويتناقشون بكسل في مسائل مسابقات العدو، ويشجع بعضهم بعضًا، كالخيل في أعنتها، ويتخذون أوضاعًا لافتة للنظر. إنهم عناصر الموت الذين تتأملهم القاعة كلها، وهم يعرفون ذلك.

رحماكم، لقد اجتاز بوتيشني في عام سبعة وستين ثلاثة فراسخ في خمس دقائق! وهذا رقم قياسي لم يستطع أحد تحطيمه.

اقتربت توسا منهم

في عام ثمانية وستين.

التفت العناصر نحوها دفعة واحدة.

رؤوس ميتة فضية اللون، وشريط أبيض يزين ملابسهم، وصلبان مالطية، وشوارب طويلة، وذقون مستديرة تشوبها زرقة.

كان الجو عابقًا برائحة تبغ، ونبيذ قوي، وعرق ساخن عطر.

المعذرة يا مودموزيل، ماذا قلت؟

ابتلعت توسا ريقها.

وارتعش القوس الذي يضم شعرها- قوس ذهبي رفيع تزيته زمرّدات صغيرة حادة الأطراف.

بوتيشني، ابن بولكانتشيك وبلوتنايا، اجتاز الثلاثة فراسخ في خمس دقائق في العام ألف وثمانمئة وثمانية وستين، وحطّم رقمه القياسي الذي سجله في عام سبعة وستين، وقد كان خمس دقائق وثماني ثوان.

تبادل العناصر النظرات.

كان الاضطراب باديًا على وجوههم، كأن الذي يتحدث معهم.

أحد العناصر، حاول، محتارًا، أن يحيي توسا، لكنه لم يفعل أكثر من القرقعة بسيفه الذي أربكه.

تبادل الحاضرون الهمسات مستنكرين.

فتاة شابة لم يعرّف بها أحد، تجرأت واقتربت وحدها من رجال لا تعرفهم ودخلت معهم في حوار- ذلك أمر غير معقول، وغير مقبول. إنه فضيحة.

هرعت الأميرة مارغريتا سيرغييفنا ستينبوك- فيرمور إلى توسا مجتازة القاعة كلها، وهي تخشخش بتنورتها، مقطبة حاجبيها، غاضبة. وصارت ابتسامة المجاملة التي على شفتيها ترتعش محاولة الاختفاء كل ثانية.

غادرا الصالة فورًا، وراحت الأميرة طول الطريق تؤنب بهدوء وغضب، توسا التي لم تكن تُرى بسبب الشالات والمناديل التي تدثرت بها، ثم لوّحت بيدها فجأة وصمتت، فكان صمتها أشد قسوة على توسا، وأكثر إثارة لخجلها.

بعد ذلك لم تخرج توسا عن طورها أبدًا، لكنهم في المجتمع عدّوها غريبة الأطور وطائشة، وهذه سمة لا يجوز أن يتسم بها إلا العجائز الثريات جدًا. صارت تغادر، هي والأميرة، حفلات الرقص في وقت مبكر- دائمًا. ولم يعد يدعوها أحد لرقصة المازوركا التي يفترض أن تسمع الفتاة بعدها اعترافًا بالحب، أو تحظى بجوار لطيف على مائدة العشاء- وذلك رغم محاولات الأميرة التي آلمها أن شيئًا من فضيحة توسا أصابها هي شخصيًا.

من حسن الحظ أن الموسم جرى نحو النهاية بسرعة كبيرة- لم تكن مارغريتا سيرغييفنا تتوقع أن تتخلص من الأميرة الصغيرة غير المهذبة وكل ما سببته من متاعب ومشاكل في البيت، جعلت الزوجين ستينبوك- فيرمور، يحمدان الله مرات كثيرة في هذا الشتاء لإنعامه عليهما بعدم الإنجاب.

إبلاغ الأميرة بورياتينسكايا بأنه لا مكان لابنتها في بيتربورغ بعد اليوم، لا تسمح به اللباقة الاجتماعية، فرفض إيواء البنت سيضاعف الفضيحة مئة مرة، وسيكون قرارًا ظالمًا جدًا. هذا أمر تعرفه الأميرة، فليس ذنب توسا أن أمها لم تربّها

التربية الضرورية، لذلك لم يكن باستطاعة مارغريتا سيرغييفنا ستينبوك- فيرمور سوى أن تنتظر حتى تطلب توسا نفسها العودة إلى بيتها.

ميزيل كان أيضًا ينتظر الشيء نفسه، لكن لسبب آخر.

غير أن توسا استمرت في الصبر.

وميزيل لا يفهم لماذا.

لكنها جاءت إليه ذات مرة ليلًا، جاءت إلى غرفته مباشرة- وأجهشت بالبكاء إلى حدّ أخاف ميزيل. راحت توسا تغص بدموعها، وتشهق، تدس وجهها الساخن المبلل بالدموع، في عنقه، وفي صدره. كانت تتوهج بحرارة هادئة، مخيفة، دفعته إلى الظن بأنها نوبة سل خاطفة ستؤدي إلى موتها حتمًا. أبعدها مزيل عنه بصعوبة كي يفحصها،- لكنه لم يكن يلتقط بأصابعه أو أذنه أية ضجة خطرة في قفصها الصدري. غير أنه وجد في الوجه الأمامي لكتفها عند مرفق يدها اليسرى تقريبًا، ليس اللطخة الزرقاء التي يعرفها من قبل، بل كدمة طرية، قشرتها مشدودة قليلًا في موازاة نهاية قفاز الاحتفالات.

هل ما زلت تشعرين بألم شديد؟

توسا لم تستطع أن تجيب، هي فقط عادت فدست رأسها في مكان ما تحت إبطه.

ما بالك، كفى، كفى! اهدئي. هل تريدين أن نعود إلى البيت؟

حسنًا، أتريدين أن نحضر أمتعتنا غدًا في الصباح ونسافر؟ في البيت سنرتاح، سنروي الحوض الذي وراء بركة الماء، ونتجول بالعربة ذات الأحصنة الثلاثة. و"بوياربن" صاحبك، لا بد أنه حاول الانتحار. سيفرح بعودتك كثيرًا- فكري بالأمر!

لكن توسا ردت رأسها بالنفي- يائسة بل حتى غاضبة- لا، لا، لا!

هي لم تهدأ إلا في الصباح، وميزيل ظل لا يفهم سبب ذلك بالضبط. قد يكون سببه أنه مسّد رأسها وهو يتمتم بكلام هراء كما كان يفعل في طفولتها، أو لأنها،

بساطة، تعبت، أو، ربما لأنها اتخذت قرارها. انخفضت حرارتها وتوقف انهمار دموعها- ذاب كل ذلك كأن شيئًا لم يكن.

غصت توسا بريقها مرة أخيرة، ونشقت بأنفها بقوة، ثم قبلت يد ميزيل. كان الظلام الشتوي ما يزال خلف النافذة، لكن أهل البيت استيقظوا، وعلا صوت أقدام الخدم في الممرات، وراح الطباخ يعجن فوق الطاولة التي غطى وجهها بالدقيق، قطعة عجين كروية، بينما شرعت تهدر هنا وهناك أصوات الموقد الهولندي.

اعذرني يا غريفا، أنا تعبت قليلًا. وقد زال كل ذلك الآن، وحقّ الله، زال، زال- أنا لا أكذب. أنا أريد أن أتنزه معك قليلًا، كما في الماضي، لو بين حين وآخر. هل هذا ممكن؟ هل تستطيع تدبير ذلك؟

حصل ميزيل من الأميرة على إذن بالقيام بنزهة يومية.

كانا، بحسب عادتهما الريفية القديمة يتنزهان في كل مكان سيرًا على الأقدام، فيدهشان البيتربورجيين،- عجوز بمعطف ثقيل وشعر أشيب، وصبية عابسة من النبلاء بمعطف من الفراء الثمين الأزرق؟ سيدان محترمان ما عادا يتنقّلان في عربتهما الخاصة. ميزيل اعتاد استخدام العكاز، واضطر إلى شراء عكاز في شيخوخته التي تمكنت منه في نهاية المطاف، وصارت تشده من كمه بإلحاح. كانت توسا تذوب بالتدريج، كما تذوب المدينة نفسها، - وكانت السنة تتجه بإصرار نحو الربيع، وصارت تظهر في السماء فسحات مشرقة هنا، وهناك، حتى ريح بيتربورغ الأبدية، التي تنشر الصقيع اللاذع، في كل مكان، صارت لينة، وأكثر دفئًا.

تأملت الخيول طويلًا- السفر إلى العاصمة فرصة رائعة في نظر الكثيرين. آلاف الخيول الأصيلة، والعربات الفاخرة التي تعادل زينة كل منها ثروة كاملة، ولكل فئة اجتماعية (موضتها): رجال الدين الكبار لا يمتطون إلا الخيول السوداء، الكثيفة الغرة، الممتلئة الجسم، ذات الخطوة الطويلة البطيئة. والتجار الأغنياء يركبون الخيول الشقراء، أما الفرسان، فحدّث ولا حرج. استوقفت توسا ميزيل ذات ساعة في البرد، وهي تتأمل زوجًا من الخيل الحمر الغارية اللون، ينتظر

صاحبه عند المطعم. انظر يا غريفا، انظر كيف يلمع جلد هذين الحصانين مع أنه جاف، يا له من أمر غير عادي! من الواضح أنهما حصانان أصيلان، أليس كذلك؟ رأساهما رأسا حصانين عربيين أصيلين. دعنا ننتظر أكثر، أريد أن أرى مشيتهما.

ميزيل القلق المتجمد بردًا، لم ير في ذلك سوى الهوس، وهذا الهوس كان يخيفه، فقد كان يرتبط بشكل ما، بخرس توسا في طفولتها، ويزداد عمقًا، ويتمدد تمدد الظلام، كظل جنون زاحف.

هيا بنا. هيا بنا نذهب من هنا. أنت ستفقدين أصابعك في الصقيع! ألا تحتاجين أصابعك؟ كيف ستثبتين نفسك على سرج الحصان من دونها! استطاع في آخر الأمر، أن يقنعها بالذهاب، فحمد الله!

تنزها كثيرًا على ضفاف النهر، وسارا في عمق الأزقة أحيانًا، فأدهش توسا أن ميزيل يعرف المدينة معرفة جيدة.

لقد ظننت أنك من موسكو يا غريفا.

أنا من موسكو، لكنني درست هنا يا عزيزتي، وما زلت أذكر بعض الأماكن.

درست؟

نعم، في أكاديمية الجراحة الطبية.

توسا-، التي كانت ككل الأطفال المدللين، لا تهتم إلا بنفسها، دهشت لحظة- ثم نسيت بسرعة غريفا وماضيه. زمت عينيها، إما حالمة وإما مفكرة، اختبأت خلف رموشها ومنديل وجهها الذي كان ينتفخ عند كل نفس من أنفاسها. المؤسف هو أنها صارت أقل جمالًا في بيتربورغ.

تنهد ميزيل بارتياح- فأكثر ما كان يخافه هو أن تسأله، لأنه سيضطر في هذه الحالة، إلى تذكر الكثير من الأشياء، ويخاف أكثر من تذكرها، شرحها لنفسه في المقام الأول.

لقد فهم سريعًا أن نزهاتهما لم تكن مصادفة، بل كان لها هدف كانت تمتنع توسا بعناد عن ذكره. كانا يجولان في الشوارع نفسها يتأملان واجهات الأبنية

العابسة، ولوحات المحال التجارية، وكانت توسا تتأمل طويلًا أحيانًا، أرقام البيوت، كأنها تحاول أن تدرك شيئًا ما؟

لم يتمالك ميزيل نفسه في نهاية المطاف.

حين لا يعرف الإنسان مكانًا يذهب إليه، لن يجد مساندة من أية ريح.

ماذا؟- سألت توسا مشتتة الذهن.

كانا يقفان على الخط الحادي عشر في جزيرة فاسيليف، بين أبنية ضخمة تكاد تلاصق السماء الشاحبة، غير العالية.

أنا أرى أنك تبحثين عن شيء ما، فما الذي تبحثين عنه؟ قد أستطيع مساعدتك.

فكّرت توسا لحظات، وهي تتنفس في فرائها، الجو بارد برودة حادة، تكد لا تطاق، برودة لا تكون إلا في بيتربورغ.

أنا أبحث عن معهد بيستوجوف.- أجابت بصوت أبح يكاد لا يسمع.

معذرة، عم تبحثين؟

أزاحت توسا المنديل عن وجهها- كانت شفتاها، وخداها، وفروتها رطبة، لينة، حية.

أريد أن أتعلم يا غريفا.

أنت، والحمد لله، متعلمة تعليمًا ممتازًا.

لا، أنا أريد أن أتعلم ما هو ضروري. أريد أن أعرف كل شيء عن الخيل، ليس من السائسين. بل... بشكل واقعي. كيف نجعلها تتكاثر بشكل صحيح، وما هي أمراضها، وكل شيء.

صمت ميزيل مذهولًا.

لكن يا عزيزتي، أنا لا أظن...

أسدلت توسا البرقع على وجهها ثانية، واستدارت غاضبة- ثم مشت مسرّعة خطواتها. كان كعبا حذائها يغوصان في خليط الوحل والثلج. وكانت رائحة الغاز

تفوح من المصابيح، ورائحة الكعك الحلو من المخبز و- تسيطر بقوة رائحة الماء الأسود في النهر الكبير الذي كان- بالقرب منها تمامًا- يجري بطيئًا تحت قطع الجليد المتكسر، غير المتساوية، والمراكب التي انزاحت من أماكنها.

غريفا لحق بتوسا عند الزاوية تمامًا.

أمسكها من تحت مرفقها.

ليس من هنا، يا عزيزتي. أقول لك: الطريق ليس من هنا. المعهد قريب جدًا.

كان معهد بيستوجوف على الخط العاشر.

ميزيل كان يعرف من اللحظة الأولى طبعًا، أن الأمر لن ينجح.

لن ينجح مطلقًا.

النساء لا ينتسبن إلى الدراسات العليا.

لا، ليس الأمر كذلك.

هم لا يسمحون للنساء بالانتساب إلى الدراسات العليا.

ربما يسمحون بذلك في مكان آخر، لكن،- بالتأكيد- ليس في روسيا. إن هذه الدراسة ليست ضرورية لروسيا أو للنساء، ياإلهي هو نفسه كان يعتقد ذلك، اعتاد أن يعتقد ذلك. كان يرى أن عدم تعليم النساء، عمومًا، وحشية وظلم. لكن لماذا يردن أكثر من ذلك؟ هو كان يعرف أن كل هذه الكاراميزينات والخطوط البيانية ستندفن في الرمال، وأنها لن تنفع أحدًا، فتوسا، مهما كانت ذكية، ستتزوج، وستحبل- وستحبل مرة ثانية، وثالثة. الأمومة تشوه المرأة أكثر مما تشوه الحرب الرجال. حمل الجنين، والولادة، وإطعام الطفل- كل ذلك هو عمل ضخم منهك، وقد رأى ميزيل أكثر من مرة، كيف يحدّ هذا العمل من القدرة على التفكير عند النساء- الثريات والفقيرات وكل النساء. وأدرك أن عقولهن مرتبطة ارتباطًا غريبًا بأرحامهن، رغم أنه لم يعرف كيف بالضبط.

يبدو أنه لم يقدّم حججًا كافية في شرحه.

عمومًا، حال النساء اللواتي لا ينجبن أكثر سوءًا، إنهن لا يفقدن القدرة على التفكير، لكنهن يصبحن غير ضروريات لأحد، إنهن مادة بيولوجية مهملة، خطأ من أخطاء الطبيعة.

كان باستطاعة ميزيل أن يشرح ذلك كله لتوسا، لكنه كان يعرف أن النقاش معها بلا جدوى. كان لا بد من أن تكتشف، هي نفسها، الأمر كي تقتنع به، أن تكتشف، مثلًا، أن نبات "القرّيص" يلسع، وأن غطاء الفرن المحمى حتى الاحمرار يلسع أيضًا، أما الحلزون فليس من السهل إبعاده عن يدك إذا التصق بها.

الذنب ذنبه على كل حال، فهو الذي علمها أن التجربة- ملكة المعرفة دعها تجرّب. ستذوق اللسعة وتهدأ.

وقفت توسا، رافعة رأسها، تنظر بإعجاب إلى المبنى الرائع الذي ستكوّن فيه مستقبلها: النوافذ، والأقواس، والحجر الرمادي الرطب، والشمس التي أطلت في لحظة بهيجة من وراء السحب من الأبواب العالية، اندفعت طالبات المعهد متلفتات- في مناديل رأس قصيرة، ومعاطف قماشية رخيصة، الطالبات كلهن كنّ غير جميلات، يثير منظرهن الشفقة. واحدة فقط كانت من دون منديل رأس، شعرها مقصوص بشكل قوس. على الطريقة الذكورية، وتحت ياقة سترتها المفتوحة تبدو قبة قميص رجالي أحمر فاقع.

ميزيل كاد يبصق استياء: يا لها من عدمية! يا لها من تافهة.

التفتت توسا نحوها وابتسمت، وكادت أن تلوّح لها بيدها محيية، لكنها توقفت، لأن ذلك سيكون عملًا غير لائق، وممنوع. لقد سمعت توسا في بيتربورغ، كلمة "ممنوع" في الأشهر القليلة الماضية أكثر مما سمعتها في حياتها السابقة كلها.

صمتت الطالبات وهن يحاولن تقدير ثمن المعطف الأزرق، والحلي الفضية، والحذاء الأفطس، المبطن بالفرو. إنها "عروس ثلج" من حكاية للأطفال، شخص مختلف، غير مفهوم- لذلك يبدو كأنه من جنس معاد. واحدة فقط، هي الأقبح، ذات الوجه الأكثر حدة في تقاطيعه، ردّت على ابتسامتها بابتسامة مرحبة، بل أبطأت

في مشيتها أيضًا، كأنها كانت مستعدة للحديث معها، لكن العدمية صرخت غاضبة- آنيا! ألا تخجلين من نفسك!- فاضطربت القبيحة، وركضت تلحق بزميلاتها، متعثرة، وهي تحمل مرتبكة، كتابًا سميكًا، أسود تحت إبطها.

"بيستيجيفكسي" (الوقحات- المترجم)- هكذا كانوا يسمونهن، وحسنًا كانوا يفعلون. ميزيل واسع النظر، لكنه لم يكن يحتمل مشاكسة الطبيعة وإهانتها. وهؤلاء الغبيات كنّ يقتلن بأيديهن أفضل ما عندهن- الأنوثة. كن يقتلنها بأيديهن، ويعتقدن أنهن يستطعن تجاوز قانون التطور، والانتصار على الطبيعة نفسها.

أقسام اللغة والتاريخ، الفيزياء والرياضيات، والرياضيات البحتة، ومحاضرات الرياضيات، الفيزياء، والكيمياء، وعلم النبات، وعلم الحيوان والمينورولوجيا، والكريستالوغرافيا، والجغرافيا الفيزيائية، والديانة، ونظريات العلوم التطبيقية، واللغات السلافية.

كل ذلك لم يكن يعني شيئًا طبعًا.

لم يكونوا يعطون الطالبات دبلومات، لا دبلومات ولا امتحانات، ولا مرتبة.

المعهد كان ببساطة، ندوة جذابة بحسب الاهتمامات. وبالمناسبة، كان الاشتراك فيها باهظ الثمن.

ظلت توسا واقفة، لامعة العينين، وعلى وجهها الابتسامة السابقة نفسها. وكان ميزيل يراها، لأول مرة، تبتسم بهذه الطريقة، بعد مجيئه لبيتربورغ.

تنحنح.

هيا نذهب يا عزيزتي. الظلام سيحلّ قريبًا. وما زال علينا أن نعود.

استقبلاهما في المعهد، بعد ثالث طلب بالإذن.

وذلك لكي يخبراهما أن قبولهما في المعهد مستحيل تمامًا، وقطعًا. مستحيل أيًا كانت النقود التي سيدفعانها، وأيًا كانت التوصيات التي يحملانها.

أنا آسف، ولكن القبول في معهدنا أوقف منذ العام الماضي- بسبب قلق الحكومة من فساد الوعي- السياسي للمستمعات، والآن تعمل في المعهد لجنة

حكومية- السكرتير الذي كان يتكلم، أشيب بارز العظام، على قبة سترته وكتفيه إما قشرة شعر، وإما رماد سيجارة، تكلم بصوت منخفض، ولهجة تآمرية، كأنه يدعو ميزيل للانضمام إلى تلك اللجنة. هو، حتى لم ينظر إلى توسا- نحن نأمل أن ننتهي من تعليم الطالبات المنتسبات إلى معهدنا، لكن لا يمكن أن نفتح التسجيل لأية دورة جديدة. أضف إلى ذلك...- التفت السكرتير أخيرًا إلى توسا.- كم عمرك يا مودموزيل؟

سأتم السابعة عشرة في الحادي والثلاثين من آذار.

في المعهد لا يقبلن إلا البنات العازبات حصرًا، البالغات الحادية والعشرين من العمر، وهذا أمر مؤسف، لكننا لا نستطيع قبولك قطعًا، للأسف الشديد.

اكتفت توسا بإحناء رأسها، ثم خرجت دون أن تودعه. كان الغضب باديًا حتى على ظهرها.

في الجامعة لم يستقبلوها أصلًا- أبلغوهما ببساطة أن قانون عام 1863 ينص على أن يقبل كطلاب في الجامعة الشباب االذين يبلغون السابعة عشرة من العمر شريطة أن يكونوا قد أنهوا المنهاج المدرسي بنجاح، أو اجتازوا امتحانات في هذا المنهاج، بدرجة مقبولة في إحدى المدارس، وحصلوا على شهادة أو وثيقة بهذا الشأن.

نحن نقبل شبابًا وليس شابات، ليس بنات بل فتيانًا.

لا، نحن لا نقبل مستمعات أيضًا.

التصريح باستماع غير الطلاب للمحاضرات، الذي تقرر على أساس تعليمات وزارة التعليم الشعبي، لم يسمح للنساء حتى بمجرد الدخول إلى قاعة المحاضرات.

انغلق باب الجامعة في وجهها بصوت مرتفع، كانغلاق باب معهد بيستوجوف- بوخ.

في هذه الأثناء ارتقى الموسم في البربارة إلى ما يشبه التزاحم الهستيري، بلغ الذروة ثم انتهى دفعة واحدة- اندلق كأنه ماء. ما زالت هناك حفلة واحدة، وما

زالت هناك قرابة العشر زيارات مملة- ثم بدأ أخيرًا في شباط الصوم الكبير، فاختبأت بيتربورغ في قبات المعاطف وجمدت.

كتبت بورياتينسكايا الرسائل وطالبت بتفسير الأمور، وهددت بالمجيء شخصيًا وإعادة الهاربين إلى البيت، بالقوة إذا احتاج الأمر.

كان لا بد من القوة.

توسا لم ترد حتى أن تسمع بذلك. اضطربت- ميزيل رأى اضطرابها. لم تيأس، بل بالضبط، اضطربت. نظرت إليه كأنها طفلة، وكأنه كان قادرًا على اختراع قواعد وظروف للحديث مع أحد ما، ليأمر بأن يكون كل شيء كما تريد.

هو لم يجد في نفسه الجرأة كي يقول لها: إن الأمور لن تجري كما تريدين. في أي حال من الأحوال، بل لن تجري أبدًا كما تريدين.

الملجأ الذي بقي له هو الأكاديمية- الأكاديمية الطبية الجراحية التي درس فيها، وقد صار اسمها الآن- الأكاديمية الطبية العسكرية. لكن ميزيل لم يكن يريد حتى مجرد التفكير فيها. الأدق هو أن كلّ ما كان يريده في بيتربورغ- عدم التفكير بالأكاديمية ونسيانها. لكن توسا نفسها عرفت- الله يعلم كيف- أن زملاء غريفا القدامى يعملون هناك- حاول، لعلهم يقبلونني. كل ما أريده هو أن يقبلوني مستمعة.

هل جننت؟ عودي إلى رشدك! أنت امرأة، أنت الأميرة الصغيرة بورياتينسكايا! ليتهم يقبلون أن تنتسبي إلى المدرسة البيطرية في خرينوف.

أنا أكره هذا كله! أكره هذا كله! وأكرهك! وأكره نفسي!

هو ذهب طبعًا.

في يوم/ 31/ آذار، في يوم مولدها.

مندیل أنف. ويود، وكحول نشادري. ليتنا لا نحتاج هذا.

لكنه احتاجه.

ساءت حال ميزيل وهو ما يزال عند المدخل، رغم أنهم أصلحوا البناء ودهنوه أكثر من مرة، على ما يبدو. فهو، فور وصوله إلى المدخل، ترنح، وترنح معه كل

شيء، الأكاديمية، والذكريات والمخاوف. لكن، لا– تلك الأشياء ترنحت فقط، لكنّها لم تسقط.

رئيس الأكاديمية، الدكتور في الطب، ألكسندر ميخايلوفيتش بيكوف، رجل قويي البنية، مربع الشكل، ذو ذقن متينة، مربعة، كذقن ألكسندر الثالث، كرر على مسمع ميزيل الكلمات نفسها.

فتاة نبيلة– تدرس عندنا؟ فتاة عريقة النسب؟ تأتي إلينا كي تدس يدها حتى المرفق– اعذرني على التعبير– في مؤخرة الحصان. أنا يا عزيزي لا أعرف من منكما فقد عقله، أنت أم هي، لكني أقول لك كإنسان، وكطبيب... الأفضل أن تقول لي كأب– قاطعه ميزيل– أنت عندك أولاد، أليس كذلك؟

ما علاقة أولادي بهذه المسألة؟! إنهم، والحمد لله، صاروا كبارًا منذ زمن طويل، وهم أناس نموذجيون، محترمون. إنهم، حتى حين كانوا صغارًا، لم يرهقوا أحدًا بأية طلبات غير ممكنة التحقيق، لأنهم تلقوا تربية صارمة إلى حد كاف، على عكس تربية هذاا الجيل...

أنتم، ببساطة، لم تكونوا تسمعون طلباتهم، قاطعه ميزيل مرة ثانية.– كنتم لا تريدون سماعها. أنت لو كنت أبًا جيدًا...

لوح ميزيل بيده، ونهض بصعوبة، فتح ياقة سترته بعنف، شاعرًا بأنفاسه تضيق، بل أحس بأنها ضاقت تمامًا.

بيكوف ظل صامتًا، يدعك بقبضته ذقنه المخلصة له.

وحين وصل ميزيل إلى الباب قال له:

عد يا زميلي– كن لطيفًا. من الواضح جدًا أن أعصابك متوترة. دعك من دلع النساء. في الحرب سيعلّمونك الهدوء سريعًا– أنا أقول لك هذا بوصفي طبيب فوج سابق. حسنًا، أميرتك الصغيرة– طفلة بكل معنى الكلمة. لكن لماذا، وأنت رجل كبير، تطرق الأبواب المغلقة؟ هناك طريق مباشرة واحدة،– طريق ليست دائمًا أقصر الطرق. أحيانًا يكون الالتفاف حولها أقرب وأضمن. هي تريد أن تتعلم؟

دعها تتعلم. لتتعلم الفلك، أو حتى العلوم العسكرية، لكن ذلك سيكون تعليمًا خاصًا، أما أنت فسيصطف أمامك رتل من الأغبياء- وما عليك إلا أن تدفع المال.

خرج ميزيل من المكتب وهو يحاول أن يضع في جيبه غير المطواع، الورقة التي تحوي اسم الغبي الذي يستطيع، بحسب رأي بيكوف، أن يقدم على هذه المغامرة التربوية. إنه خريستوفور إيفانوفيتش غيلمان الذي أسس سابقًا معهد الطب التجريبي. وحصل في الوقت نفسه مع كوخ، على عصيات السل، وهو واحد من الأوائل الذين اكتشفوا دواء ضد القرحة السيبيرية.

جلس الحوذي صابرًا على محور قيادة العربة هازًا رأسه في انسجام مع رأس حصانه الصغير الذي كانت توسا مستعدة الآن لأن تجلده كله- من ذيله حتى خيشوميه.

عد بنا إلى الشاطئ الإنكليزي. لكن خذني أولًا إلى مخزن لبيع الكتب.

هل تعرف مخزنًا يبيع الكتب؟

شخر الحوذي مستاء، وتعوّذ بالله.

كانا خائفين، لكنهما انطلقا في الطريق، فشعرا بالارتياح على الفور.

اشترى ميزيل في مخزن الكتب كتاب كوبتيف "معلومات عن تاريخ تربية الخيول في روسيا" الذي صدر حديثًا بشكل رائع، مزدانًا بخطوط ذهبية، وفيه رسوم فاخرة على سبع صفحات.

غلّفيه بشكل أفضل. إنه هدية.

لا تقلق. سنفعل ما يجب.

استرخى تمامًا وغفا في طريق العودة- أيقظه شخص أسود، هادئ، وضع رأسه على كتفه وهمس في أذنه مباشرة بلهجة تكاد تكون ودودة- ها قد التقينا. مرحبًا.

ماذا؟ من؟

ارتجف ميزيل خوفًا، وكاد يسقط من العربة،- الجو كان دافئًا، وكانت العربة تزحف فوق الصخور فترتج بهم ويصرخون.

يا إلهي، إنها ساحة التبن.

ساحة التبن.

إلى أين جئت يا غبي؟!

التفت الحوذي نحوهما بوجه منكمش كقبضة، وقد ارتسمت عليه تعابير الإحساس بالذنب. إنهم لا يسمحون لنا بالعبور إلى الشاطئ من هنا، لذلك نحن مضطرون إلى الالتفاف، لقد جاؤوا بالجندرمة، وجاء القوزاق بعصيهم، لا بد أنهم يعكّرون الماء من جديد.

ميزيل لم يسمعه. كان يبحث في جيبه عن النشادر، لكنه لم يستطع أن يجده. كان يعثر تارة على زجاجة اليود التي يعرف أدق تفاصيلها، وتارة على منديل الأنف الملعون.

ها هو ذا أخيرًا.

أخرج ميزيل يده من جيبه، كأنها ليست يده، بل يد غريبة. أصابعه كانت ملوثة بالدم، وبشيء آخر رماديّ- أسود كثيف.

صاح: آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ!

آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ-آ!

لا-آ-آ-آ!

وفي هذه اللحظة أطلّ ببطء ورزانة من رواء الزاوية بيت تايّوروف.

* * *

للمبنى شكل كأس ضخم يناسب تمامًا مقاييس الغرف.

ميزيل لم يتصور يومًا وجود غرف بهذا الحجم. هذه ليست غرفة- بل قاعة قصر. لا بد أن التاجر من الدرجة الثانية لوقا غافريلوفيتش تايّوروف أراد أن يقيم هنا حفلات راقصة لذلك بناها بهذا الحجم. عشرات الأسرّة، وعشرات النوافذ المفتوحة، وستائر معلقة ميتة، خلفها مدينة ميتة. لا حركة في الهواء. وعن أي هواء

نتحدث، من أين يأتي الهواء؟ كانت هناك، بدلًا من الهواء في داخل المبنى، طبقات من الرائحة العفنة- طبقات ساخنة، كثيفة متجاورة كقطع القماش، كل منها منفصلة عن الأخرى.

حاول ميزيل أكثر من مرة، وبشكل آلي، أن يمسك الزر الأعلى في الزي الرسمي- فينزعه، يفكّه، يسحبه- وفي أكثر من مرة كان يرى بطرف عينه مودروف، وبلانك، فلا يجرؤ على الإمساك بالزر. الاثنان يعملان بهمّة وفي صمت. وجهاهما متعبان، قاتمان، وصدريتاهما سوداوان، مغلقتان تمامًا على جذعيهما، وأكمامهما مبللة كليًا، بالدم واللعاب، والعرق الذي ينضح منهما.

والقيء الذي يتكرر أكثر من عشرين مرة في اليوم.

وكذلك الإسهال- الأكثر حدوثًا من القيء. إسهال لزج، لونه قريب من البياض.

أصوات تتحشرج وتئن. بشرة جافة تملؤها التجاعيد، وأصابع تتحرك في فوضى محاولة لملمة اللحاف.

هزّ ميزيل رأسه، طاردًا نقطة كبيرة مالحة عن أنفه. كان يشعر بحرقة في وجهه المبلل بسبب الكلور، وقد اختلط عرق الآخرين بعرقه. وكان الإعياء يظهر عليه كحالة عارضة أحيانًا، وأحيانًا، على العكس من ذلك، يظهر كحالة واضحة تخيفه في رأسه- فيرى في الفراغ البارد الذي يتخيله حروفًا صغيرة سوداء تركض سريعًا- سريعًا من اليمين إلى اليسار لسبب لا يدريه.

"دوار في الرأس، ضغط مرتفع، حرقة في المرارة، وقرب المعدة، كآبة، ظمأ لا يرتوي، قيء، قرقعة في البطن، انهيار مفاجئ في القوى، إسهال، سوائل من أعلى ومن أسفل، عكرة، كسائل الخيار المخلل، أو المصل الذي ينفصل عادة عن الدم السائل من الجسد، وبرودة تنتاب الساقين واليدين، وسائر الجسد، وتغير واضح يطرأ على ملامح الوجه: يصبح شاحبًا، يعبر عن أقصى حالات الإعياء. العينان تغوران، والصوت يضعف، وترتجف الساقان واليدان، ويضعف النبض، فيصبح غير محسوس تقريبًا".

الجسد صرّ تحت المبضع- لكن الدم لم يدخل في الفتحة التي شُقّت بعناية ولطف. سال على الجوانب. محاولة ثانية- لم تنجح أيضًا. كان الثلاثة يعملون معًا- ومع ذلك لم ينجحوا. هو، الذي، سيصبح ميزيل غريغوروفيتش إيفانوفيتش، لكنه ما زال الآن ممرضًا مساعدًا، وشابًا في التاسعة عشرة من العمر، طالبًا في الصف الثالث في الأكاديمية الطبية- الجراحية، لا يسمحون له بالتعامل إلا مع الأدوية، وسحب عيّنات الدم من المرضى. وماتفيي ياكوفليفيتش مودروف، أول مدير للمعهد الطبي في جامعة موسكو، البالغ الخامسة والخمسين من العمر، والطبيب المعالج الأفضل في الإمبراطورية الروسية. وديمتري ديميتوفيتش بلانك الطبيب المعالج الذي هو، لسخرية القدر، الأول أيضًا، لكن ليس في روسيا كلها، بل، ببساطة، الطبيب الأول الذي شخّص تشخيصًا صحيحًا، مرض رجل من "فيتيغرا" قدم إلى سان- بيتربورغ في / 28/ أيار، عام 1831، على قارب صغير من قوارب أساطير ما قبل التاريخ اسمه "سويمويا".

* * *

ظل الرجل حتى المزود بحمل من التوصيات / 13/ حزيران يجول متنقلًا من مكان إلى مكان في العاصمة، محاولًا اختراق السد الروتيني، عارضًا مطلبه الإنساني الصغير، ثم يعود في الليل إلى القارب الصغير، الذي لم يكتف قائده بالموافقة على إعادة المسافر الريفي إلى "فيتيغرا"، بل سمح له أيضًا باستخدام سطح القارب كله مكانًا لإقامته. لقد فقد الرجل، بسبب عذاب التجوال واليأس، كل معنى مجيئه إلى بيتربورغ (بدأ كل شيء بخصومة مضجرة بسبب شجرة عجوز، لكن الخلاف صار الآن يهدد بعقوبة تكاد تصل إلى الأشغال الشاقة، وبالمناسبة، كان يبدو للرجل دائمًا أن جنازير الأشغال الشاقة ستكون من نصيبه هو بالذات) وكان الأرق يلازمه طويلا، فلا يستطيع النوم، ويسمع باستمرار همهمة الماء المحيط بقاع القارب، والحكايات المشفوعة بالشتائم التي يرويها البحارة، ويرى السماء المرصعة

بالنجوم فوق رأسه الآخذ بالصلع، تدور دورانًا متموجًا، غامضًا، منسجمًا مع صوت الماء النظيف، وشتائم الناس المعقدة، غير أن القانون الأخلاقي الذي في داخله لم يكن، بحال من الأحوال، ينسجم والإيقاع العام، كان يتذمر، ويتململ، كأنه يبحث عن وضع أكثر راحة بين أمعائه، وهذا كان يعكّر خلسة وبهدوء، الرجل المسكين- يومًا بعد يوم، ومساء بعد مساء إلى أن وصل أخيرًا إلى التقيؤ.

في البداية تقيأ مرة واحدة.

ثم مرة ثانية.

ثم مرة أخرى.

في صباح/24/ حزيران، عام 1831، أحضروا المريض المصاب بأعراض جديدة، إلى طبيب الشرطة بلانك، فدفع الرجل لقاء المعاينة نصف روبل مزين بنسر ثقيل، يقف متوازنًا بجناحين بارزين من الفضة. إنه أجر باهظ لقاء المعاينة يا زميل، ألا ترى ذلك؟ بلانك لا يرى ذلك. إنه طبيب جدي في عمله، ونزيه، ومنضبط، وهو السبّاق في الوصول إلى حيث يجب أن يكون، وفي أحيان كثيرة، يكون الوحيد الذي يصل. رؤساء بلانك كانوا يقدّرون ذلك. هكذا وصل بلانك إلى منصب كبير الأطباء بسرعة دُفع ثمنها بأنصاف روبلات من هذا النوع بالضبط. القدر يحب أولئك الذين يساعدون أنفسهم. وديميتري ديميتروفيتش بلانك كان، عمومًا، يؤمن بالقدر.

كان القارب "سويما" يترجح برتابة في موقف كالاشينكوف للسفن، والقيء يوشك أن يخرج جداول من فم الرجل الذي ضعف في نهاية المطاف، وحثالة المرفأ التي لوحتها الشمس حتى الاسوداد، تكشر عن أسنانها، وتجر، وتدحرج، وتسحب فوق جسور الميناء الصغيرة، غير المتينة، الصناديق والبراميل، لقد كان صباح يوم/ 31/ حزيران، عام 1831 مختلفًا عن الصباحات المعتادة في هذه المنطقة- كان أحمر، ورديًا، كأنه لوحة لُونت بعناية في الجنة.

آنذاك بالضبط قيلت الكلمة- والذي قالها هو بالتأكيد، بلانك.

كوليرا.

طافت الكوليرا عامًا في المقاطعات الجنوبية من الإمبراطورية، فتنقلت بين ساراتوف، وتامبوف، وفولوغدا، وبنزا، ثم مرت، لا ترحم أحدًا، بموسكو، وكادت تقضي على مدينة "ريغا"، وها هي ذي وصلت إلى العاصمة، مخترقة بسهولة كل الحواجز الصحية العابسة المقامة لصدها.

جاءت في الماء.

أنهى بلانك المعاينة، سكب في كأس من القصدير بضع نقاط من سائل "لاودانوم" من زجاجة كبيرة ثقيلة الوزن، وقدّم الكأس إلى الرجل المنهك- الكل كان يستخدم منقوع أزهار الشقيق لعلاج كل الأمراض، الكل بدءًا من مغص الأطفال، وانتهاء بصداع السيدات. ثم استدعى التاجر، مالك السفينة الذي كانت تفوح في أنفاسه الساخنة رائحة سكرة البارحة، وأمره بلهجة جافة: عليك أن تعقم السفينة وكل البضاعة، ببودرة الكلس المحلولة في الماء البارد، يمكنك الحصول على البودرة في العنوان المشار إليه. أما الطاقم والركاب فيجب أن تمنعهم من النزول إلى الشاطئ حتى صدور أمر بالسماح بذلك. أحنى التاجر رأسه استرضاء له، وفرد حاجبيه، ثم صحح وضع زنّاره الذي كان بلانك متأكدًا من أنه محشو بالنقود.

عن أية كوليرا تتحدث حضرتك! لا بد أنه شرب البارحة كثيرًا- وهكذا. وبسبب ذلك.

كان التاجر يتكلم مشددًا لفظه للحروف، كأنه يدحرج من فوق الرابية بيوض عيد الفصح الملونة. وكان ظاهرًا على سحنته المقنعة بخضوع مزيف، أنه لن ينفذ شيئًا من تعليمات الطبيب.

كما هي العادة دائمًا.

بلانك كان يعرف أن لكل قانون بالمنع ثمنه. وكذلك هي حال أي قرار بالسماح، وأنه لا يمكن أن يجد لنفسه دورًا في حل عقدة المواقف المتناقضة التي هي في معظمها عراقيل بيروقراطية لا معنى لها، إلا بهذه الطريقة. بلانك نفسه كان

يأخذ رشاوى، ويقدم رشاوى، هذا ما كان يفعله الجميع، ويمكن القول إن هذا كان النظام السائد عمومًا، وأنه القانون الأساسي للوجود الروسي. لكن، لا، ليس الآن.

يستطيع المرء أن يشتري نفسه من الدولة، وحتى من الوطن، لكنه لا يستطيع أن يشتري نفسه من القدر.

هل أنت أطرش؟ يبدو لي أنني قلت بوضوح أن هناك كوليرا على السفينة، فكلّف نفسك بتنفيذ الأمر.

فهم التاجر أنه لن يستطيع تغيير موقف طبيب الشرطة، فانتابه الضجر على الفور، وغادر إلى مكان ما في مقدمة السفينة، وبحركة واحدة من حاجبيه الأشقرين، أخذ معه البحارة،- كأنه سحب عن سطح السفينة ذيلًا متسخًا ملقى عليه. أما الرجل الذي شرب قليلًا من منقوع زهر الشقيق- كنوع من المجاملة- فتأوه، وأنّ، ثم تكوم ككعكة وسط القيء الذي بدأ يجف، ونام، واضعًا يده الطفلية الصغيرة، المثيرة للشفقة، تحت رأسه الأشيب الآخذ في الصلع. لكن بلانك ظل ساعتين واقفًا، ساكنًا، عند رأسه، شاعرًا بكتفيه وصدغيه كيف يرتفع، ويتواقح قرص الشمس بشكل غير بيتربورجي.

هو لم يعد يشك في صحة تشخيصه، لكنه ما زال غير متأكد من ذلك.

ما زال غير متأكد.

أفاق الرجل نشيطًا، مرحًا، واندفع على الفور يمارس أعماله العاجلة غير المنظمة (أنا بحاجة للذهاب إلى ساحة التبن، والله، سأذهب وأعود فورًا يا صاحب السعادة، عندي موعد في الساحة)، لكن بلانك كان ثابتًا في موقفه، يرفض المساومة.

يجب أن يبقى الجميع على متن السفينة. هذا أمر، وأنت يا عزيزي، يجب أن تذهب فورًا إلى المستشفى.

الرجل الذي وقف الآن بثبات على قدميه، واسترد لونه، رفض الذهاب إلى المشفى رفضًا قاطعًا. ما زال موعد موتي بعيدًا يا صاحب السعادة، وليس لدي الآن

متسع من الوقت لذلك. يجب، أولًا، أن أذهب لمقابلة بورفيري نيكانوريتش في ساحة التبن. حين أمرض في مرة أخرى سألبي...

نزل بلانك إلى الضفة دون أن يسمعه، وكان يشعر بأسف شديد لأنه لا يستطيع أن يلوي بالقوة ذراع صاحب هذه السحنة المعدية، ويدوسه بقدميه ويحشره في كيس، ثم يشنقه في نهاية المطاف. لم يكن كبير أطباء الشرطة يملك بحكم مقامه، أية صلاحيات، سوى صلاحية معالجة المعتقلين، وإنقاذ المتجمد منهم بردًا، وتعليم مساعديه كيف يلقحونهم ضد الحصبة. أتراه كان يعرف كيف؟

لا بأس-. لا- بأ- س.

التفت بلانك إلى الوراء وهو يغادر موقف القوارب. كانت "سويما" ما تزال تعج بالناس. في مقدمتها تمامًا يقف رجل جاء بناء على أمر عاجل من بلانك، يكلفه فيه بالمراقبة ومنع الناس من النزول إلى الرصيف والحراسة، سحنته المستهترة، الغبية نوعًا ما، تعبر بوضوح عن أن حصاره سيتهاوى سريعًا، وستستمر "سويما" بالتحميل والتفريغ فور ركوب بلانك في عربته الخفيفة، بل ربما قبل ذلك، فالبحارة كانوا يتحركون بنشاط، أما الرجل المريض فدس في يد التاجر شيئًا ما، ووجهه يعبر عن شعور بالذنب، ثم دس يده سريعًا وراء ظهره.

وراح الفتى معقوف الأنف، يطلق الشتائم ويلعن مهنة البحّار، وهو يكنس القيء عن سطح السفينة بمقشة مهترئة، يدلّيها من جانب السفينة إلى الماء، ثم يرفعها و(يشطف) بها ألواح خشب السطح الملطخة بالقيء المقرف.

فينداح في الماء بقعًا ودوائر عكرة، راعشة.

في المساء وفي الحي الثامن عشر، ظل ديمتري ديميتروفيتش، على غير عادته، صامتًا، على مائدة العشاء عند أخيه ألكسندر ديميتريفيتش بلانك، وهو طبيب شرطة أيضًا (كان الناس يسمون الأخوين "بلانك الأول، وبلانك الثاني"). حساء السمك الدسم، والفطائر الساخنة، والفودكا الثقيلة العيار أيضًا في القدح الفضي،

وحتى: "السوناتا القمرية" البطيئة اللحن التي انسجمت بشكل غير مفهوم مع الفودكا وحساء السمك في وقت واحد- ذلك الذي كان يبهجه في بيت أخيه بدا له فاقدًا سحره البسيط.

بلغ عدد المرضى الخمسمئة في اليوم أحيانًا. هَمدت سان بيتربورغ في البداية، شارفت على الموت، تخنقها الحواجز الصحية التي لا جدوى منها، لكنها فيما بعد، أطلقت حشرجة، وانتفضت- تنتزع نفسها، معلولةً رافضةً الموت. كانت انتفاضات الكوليرا تندلع تارة هنا، وتارة هناك، صلبة حارة، متورمة إلى حد الألم، تتدحرج من شارع إلى شارع، متقيئة دمًا أسود فاسدًا، وصار الناس، الذين توحّشوا بسبب الخوف، ينقضّون بعضًا على بعض، وعلى الشرطة، وعلى الموظفين والأطباء، ويطاردون بوحشية، وقسوة، البولونيين، علمًا بأنه لا علاقة لهؤلاء المساكين بالأمر. كانوا يبحثون عمن ينشرون الكوليرا- وكانوا يجدونهم طبعًا، قطرميزات الخل، وصرة النشاء، والنظارات والأنف المثير للشبهة- ذلك كان يكفي كي تُضرب حتى الموت وتمزق نتفًا.

لقد صار بقاؤك في سان- بيتربورغ سليمًا في تلك الفترة، أخطر من أن تكون مريضًا.

حرّ، وأناشيد جنازات، وغربان تصرخ بصوت مرتفع.
وإمبراطور دفن نفسه حيًا في بيترهوف.
في/ 26/ حزيران، بدا، حتى لميزيل، أن لا أمل في المدينة.
لمس زر السترة مرة جديدة- ومرة جديدة قرر ألّا يفكّه.

كان رجل ذو وجه متخشب، غبي، يتجول بين الأسرة حاملًا بين يديه الممدودتين طستًا، وكانت الستائر تهتز، والقرميد المحمى يرسل فحيحًا منخفضًا، مسببًا تبخر الخل الفواح الرائحة. لقد كانت الكوليرا تجول في الهواء.

هم كانوا يعرفون ذلك، يفهمونه كلهم.
لم يكن هناك ما يتنفسه المرء، يا للشيطان.

أنّ شيء ما خلف النافذة- أنّ بصوت خافت، غليظ، فبدا كأن الشارع هو الذي يئن. مدّ ميزيل رأسه، وأصغى، شاعرًا كيف يتقلص لا إراديًا، Musculus Cremaster، وهو يشد إليه بعوضة مستسلمة. إنه ردّ واحد ذكوري مهين على الخوف وعلى الهوى، مزحة سماوية سمجة تستسهل الخلط بين أجهزة إفراز النوافل والحب.

تكرر الأنين- صار أقرب وأقصر، لكنه غدا قويًا، دفع ميزيل إلى إغلاق أذنيه. أظلمت الدنيا لحظة كأن أحدهم وضع على النافذة كفًّا كبيرة من الخارج، بل وضع سدًا وليس كفًا.

مددوه وأخذوه بحسب التعليمات.

عرقه صار باردًا على الفور، ودارت أمام عينيه بقع حمراء- دارت بخضوع في بركة من الدم في الزاوية، وتبعثر بعضها هنا وهناك. هم غسلوا الدم منذ مدة، لكن ميزيل ظل يراه رغم ذلك. إنه ليس دمًا مسالمًا كالذي ينقذون به حياة الناس، بل دم آخر، مخيف، ذو لون مختلف.

ومن جديد- أوم- م- م! أوم- م-م.

الصوت قريب جدًا، تحت النافذة.

مودروف وبلانك تجاهلاه.

وسقط المبضع من يد ميزيل.

هذا مستحيل، هذا يجب ألا يحدث. لم ينقض، بعد الثاني والعشرين من حزيران حين اشتعلت الانتفاضة سوى أربعة أيام. أفواه فاغرة، عرق، صراخ، زئير. يا أخوتي، هيّا بنا جميعًا إلى ساحة التبن! اضربهم، دس عليهم، الأطباء يكذبون. ليست هناك كوليرا! انسابوا في الطريق الدائرية، يخربون بأجسادهم الطرقات. دمروا المشفى نفسه، ضربوا الأطباء جميعًا، وقذفوهم من النوافذ، سحبوا المرضى إلى البيوت. بعضهم سحبوه ميتًا، ثم تابعوا مسيرهم، متوحشين، مرعوبين، متراصين في حشد كثيف يعاني من القيظ.

ترى هل عاودته النوبة؟

وجد ميزيل المبضع أخيرًا تحت الفراش بعد أن غاصت يده كلها في قيء الرجل المريض، جلّس قامته، فالتقت عيناه بعيني بلانك.

أنت خائف.

هو لم يسأله، بل أبلغه ذلك بهدوء، كأنه طبيب انتهى من تشخيص مرض.

مسح ميزيل المبضع بطرف سترته. ثم أمسك يدًا- دون أن يعرف أهي يد رجل أم امرأة، أم طفل، أو يعرف أهي حية أم ميتة.

سمعت طقطقة خطوات سريعة على الدرج- اقتربت الخطوات ثم اقتربت أكثر.

انصفق الباب.

خبأ ميزيل رأسه بين كتفيه.

نعم، كان خائفًا. يا إلهي. إنه خائف. خائف جدًا.

يا صاحب السمو، لقد أمرنا صاحب السيادة الأمير أوفاروف...

مراسل شاب جميل، طويل القامة، يرتدي بزة غالية الثمن، جاء منبوش الشعر، مضطربًا، يلهث، ووجهه القرميدي ينضح عرقًا.

ابتلع طبقات الرائحة العفنة، وألقى بعينيه المستديرتين نظرة شاملة على الغرفة، ثم صمت، وابتلع ريقه مرة، ثانية، ثم ثالثة.

سيدخل الآن في شجار، أو يرتمي أرضًا- قال ميزيل في سره. لكن، لا، الرجل ظل منضبطًا، وكبت مشاعره. إنه قوي. لكنه كرر مضطربًا قوله- يا صاحب السمو... كطفل يطلب من أمه أن تأخذه بين ذراعيها.

الذهاب إلى صاحب السمو لم يكن يستطيعه من بين الأطباء الثلاثة إلا مودروف. اقترب مستاء، لأنهم شغلوه عن عمله- فهمس المراسل في أذنه عبارة ما، محاولًا بكل جهده عدم الالتفات إلى من في جانبه.

أيها السادة!

في هذه الأيام انكمش مودورف وبدا أقصر قامة، الخصلات الجعداء على الصدغين، والذقن المشذبة، كل ذلك مسحته الكوليرا، فبدا الآن إنسانًا مرهقًا جدًا، بوجه مستدير ساذج كوجه قسيس في قرية. هكذا بدا أفضل طبيب في روسيا، أو أحد أفضل أطبائها- بالتأكيد.

أيها السادة، لقد أبلغوني أن الأمير أوفاروف أصيب بالمرض. لذلك سأضطر لترككم بعض الوقت.

أنا...

سقط المبضع من يد ميزيل مرة ثانية، لكنه لم يحاول استرداده- لم يستطع التحكم بيديه اللتين راحتا تنتفضان وترتجفان بشدة- بشكل مستقل عنه، كانتا خائفتين.

أنا... أنا... سأذهب معك يا صاحب السمو! أنا مستعد، مستعد تمامًا.

رفع مودوروف، الذي كان يجهز حقيبته، رأسه ونظر مندهشًا،- وبدا لميزيل أنه ينظر بإشفاق.

هل سعل بلانك، أم ضحك؟

أوم-م-م! أوم-م-م! أوم-م-م!

أنت تحتاج إلى يد تساعدك، يا ماتفيي، يا ماتفيي ياكوفليفيتش،- قال بلانك.

أستطيع أن أقوم وحدي بالعمل بشكل ممتاز. المكان قريب أليس كذلك؟

إنه في شارع بولشايا مورسكايا، يبعد نحو فرسخ، ليس أكثر.

المراسل الذي كان ينتظر بفارغ الصبر الخروج من مبنى الكوليرا، نسي قواعد اللياقة، وانخرط مع السادة في الحديث،- سعادته أرسل عربة بأربعة خيول ستوصلك بلمح البصر! قال له ودقّ الأرض بقدمه، كأنه هو الذي سيوصل السادة الأطباء إلى المكان، ليس على متن الخيول الأربعة الموعودة، بل على ظهره.

علا صوت من جديد- أوم-م-م! أوم- م-م!

فلأبصق! لأبصق على كل شيء!

قفز ميزيل نحو مودروف، تشبث بفم حقيبته المفتوح وشده إليه- لقد فهم أنه لن يستطيع أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأنه سيصرخ، سيقع، سيتحطم في الحرارة الميتة، في الدم الغريب، في القيء الغريب.

لا! لا! لا!

لا أريد أن أموت!

لا أريد لا أريد لا أريد لاأريد لا أريد لا أريد!

الباب

درجات السلم.

درجات درجات درجات درجات.

لم يبق في ذاكرة ميزيل من زيارته لبيت أوفاروف سوى مزهرية خضراء ضخمة في المدخل بطول قامة إنسان تقريبًا، ابتعد عنها مجفلًا، كأنه يبتعد عن بطن سعادته الحي، الأبيض جدًا، اللين كالعجين، المتنهد تحت ضغط أصابع مودروف المركزة. ميزيل لم يتذكر لا الخيول الأربعة الموعودة، ولا العربة، ولا القصر- إنه، عمومًا لم يلحظ ذلك كله.

شيء آخر أدهشه جدًا. أخرج مودروف من جيبه قبل أن يلمس المريض، زجاجة صغيرة ومسح يديه بعناية بسائل أصفر. ففاحت فجأة رائحة دسمة، معروفة لشيء يؤكل.

إنه الزيت،- قال مودروف موضحًا.- أنصحك به يا زميل. Choloera morbus تنتقل بسهولة ليس فقط بواسطة استنشاق الهواء الملوث بجراثيمها، بل بملامسة جسد مريض بها أيضًا. لذلك لا يجوز إهمال إجراءات الحذر عند ملامسة المعذّين للحجر.

لم تتأكد إصابة أوفاروف بالكوليرا والحمد لله.

كان كل ما هنالك هو أن الأمير الذي أشرق مرتاحًا، أرهق أمعاءه في حفل عشاء، لذلك تلقى بعض النصائح الصحية: عدم أكل طعام سائل شديد البرودة،

والمحافظة على جسده دافئًا، وتجنب لفحات الهواء. ونصحه مودروف بأن يرتدي حزامًا داخليًا من الصوف أو الفانيللا- كي يبقى بطنه دافئًا، ورسم في الحال شكل الحزام على قطعة من الورق.

ميزيل الذي لم يكن حضوره ضروريًا أبدًا، وقف جامدًا، لا يأتي بحركة.

أخذ مودروف النقود (لمعت عدة أصفار على ورقة نقدية محترمة) ووضعها في جيبه، وانحنى انحناءة صغيرة. أما أوفاروف فدعاه بحرارة أن يبقى لتناول الغداء، لكن مودروف اعتذر بتهذيب، وتصميم بلهجة هادئة رزينة حسده عليها ميزيل الذي لم يكن يتقنها، الأدق هو أن ميزيل لم يكن يتقن شيئًا، غير أنه رأى الآن- لماذا يجب على المرء أن يتعلم.

اعتذرا عن استخدام الخيول أيضًا- اقترح مودروف الذهاب سيرًا على الأقدام، لتنشيط أطرافهما، والمكان لحسن الحظ، ليس بعيدًا. غير أنه، في الواقع، لم يكن راغبًا في العودة. لقد تعب من الموت. إنه، ببساطة، تعب من الموت. توقف مودروف عند البوابة، ومدّ يده لميزيل بعدد من الأوراق النقدية العريضة.

هذه حصتك يا زميل،- قال له وتابع دون أن يسمح له بفتح فمه،- خذها فهي لن تؤدي إلى إفلاسي، ناهيك عن إفلاس صاحب السعادة. إذا لم تقدّر نفسك تقديرًا عاليًا، فلن تجد من يثق بعلاجك له.

كيف إذن...

قاطعه مودروف ثانية ولم يدعه يتكلم- افهم ذلك.

أنصحك أن تنتبه أيضًا على الوضع المادي للمريض، وعلى سلوكه. وأحيانًا،- مودروف شدّد لفظه لكلمة (أحيانًا)، يمكنك أن تعالج المريض مجانًا عادًّا الذكرى الطيبة أعلى مقامًا من المجد الحاضر.

إنه قول لهيبوقراط- تذكّر ميزيل هذا المقتطف.

بالضبط، هيبوقراط، كان يصبر، وعلمنا الصبر. حسنًا، هيا بنا. هل تعرف الطريق؟ ألن نصلّ؟

سارا في المدينة الخالية، القائظة، وناقشا على مهل وبلذة، ذلك البنطال الداخلي الذي اعتمد عليه مودروف بجدية وإخلاص في علاج مريضه- فالهواء البارد، يا زميل، إذا أصاب المعدة والأمعاء يخفف مناعة المرء ضد الكوليرا، لأن للكوليرا وجودها الخاص في المعدة والأمعاء. أحنى ميزيل رأسه بجدية، وقد أفرحه أن مودروف كان يكلمه كندّ له، وأنه وثق به، فسمح له بأن يحمل حقيبته (في الحقيقة ميزيل هو الذي أخذ الحقيبة منه آملًا أن يشعر لو قليلًا جدًا، بأن وجوده معه ضروري)

اجتازا حديقة التبن من دون أن يلحظا ذلك، لانشغالهما بالمقارنة بين خصائص علاجات الكوليرا المختلفة، حيث رأى مودروف أن أفضلها ما ينتج في موسكو في فابركة كارتسوف وأخرج منه زجاجة صغيرة قدّمها لميزيل.

هذا محلول أعددته بنفسي. يجب أن تحلّ البودرة في الماء البارد حتمًا. خذه، عقّمْ به يديك. خذه، لا تخجل، عندي الكثير منه. عمومًا، يجب أن تحمل معك دائمًا ما قد تحتاجه،- يجب أن تضع في جيبك المحلول، والمبضع. فأنت ستنقذ نفسك على الأقل، إذا لم تتمكن من إنقاذ حياة الآخر. إن الله يحب أولئك الذين يساعدون أنفسهم.

شكرًا يا ماتفيي ياكوفليفيتش. وماذا عن الزيت؟

الزيت سأحتفظ به لنفسي، لا تلمني. إنه لا يؤذي اليدين، فواح الرائحة، ماتوشكا كانت تنكّه به مخلل الملفوف في أيام الصوم. أوه، كم كانت أمي بارعة في صنع مخلل الملفوف!

تحدثا قليلًا عن الآباء والأمهات، وعن ألعابهما المفضلة والأماكن التي يحبونها- فرحين بأنهما، هما الاثنان، موسكوفيان، ابنا بلد، وأنهما، عمليًا، يشعران بالقرابة بينهما. وأحس ميزيل بالأمان، الذي كان يحس به في طفولته، وهو إلى جانب أبيه القليل الكلام، الذي كان يعرف كيف يهدئ روعه بعد أبشع الكوابيس الليلية- يخرج ببساطة من قلب الظلمة المخيفة، فيحمل ابنه بين ذراعيه، ويضمه

إلى ثوبه الدافئ المبلل بالعرق بعد النوم، فيزيل الضوء الخافت الذي يشع من ذلك القميص، ومن وجه أبيه، كل خوف، وكل زعل، وكل مرض يشعر به.

ربما كان مثل ذلك الضوء يشع من مودروف، أو قد يكون تخيله ميزيل بسبب تعبه وإعيائه.

هل تسمح لي يا ماتفيي ياكوفليفيتش أن أنتسب إلى قسمكم، بعد التخرج طبعًا؟

لم يتسع الوقت لمودوروف كي يجيب

انعطفا يمشيان نحو زقاق التبن.

وجدا مشفى الكوليرا مدمرًا

أوم- م- م! أوم-م-م!

كانوا قبل يومين قد وضعوا حواجز متينة من السنديان لحماية الطوابق الثلاثة كلها، وضعوها بشكل فظ، حيواني، فبرزت زوائدها الجافة، البيضاء، كأنها عظام مهشمة. وكانت دفة الباب، التي ظلت سليمة، معلقة بمحورها ترسل صريرًا، أما الدفة الثانية فكانت ملقاة على الأرض إلى جانبها، وقد انقسمت إلى نصفين بضربة فأس لاترحم.

كانت هناك أسرّة كثيرة محطمة.

وخيزرانة مطوية على شكل قوس، رأسها ملطخ بشيء ما ذي لون رمادي تشوبه حمرة، وقد علقت به نتف شعر بشري.

وطاولة صغيرة تحولت إلى قطع صغيرة.

وأدوات، وطسوت.

وزجاج، زجاج كثير مهشم- ألواحٌ، وشفرات، وشظايا لا تعكس أي طيف، ترقد هادئة على الأرض، ملطخة بدم طازج، ما يزال حيًا. لم تبق في المستشفى أية نافذة سليمة.

توقف مودروف.

أوم- م- م! أوم-م-م!

استمرت الهمهمة، بلغت ذروتها، ثم همدت، وصمتت

مودروف سمعها هذه المرة.

وقف برهة مذهولًا لا يصدق، وفكّه السفلي يرتجف، ثم تنهد فجأة- كأنه عثر على تفاصيل جديدة لم يرها من قبل. اختفت تمامًا تعابير الخوف التي كانت قبل مرتسمة على وجهه، بل اختفى وجهه كله، وحلّ محله قناع ساكن، قاتم، غاضب.

أسرع! أسرع!

انتزع مودروف من يد ميزيل الحقيبة واندفع، متعثرًا بشظايا الزجاج، إلى داخل المبنى.

افحص الجميع هنا، ثم اتبعني إلى أعلى! قد يكون هناك أشخاص ما زالوا أحياء! أحياء!

ثم اختفى داخل المبنى. لم يبق منه سوى وقع أقدامه- درجة درجة درجة. أوم- م-م-! أوم-م-م-م! أوم-م-م!

أخيرًا عثر ميزيل بين الأشياء الخائفة، الممزقة، على أجساد بشرية.

مكسّرة، ساكنة.

يبدو أنها ألقيت من مكان مرتفع.

لا.

الرجل الذي رش الجميع بالخل، جرى تمزيقه.

عرفه ميزيل من حذائه القماشي. لا أحد غيره كان يرتدي حذاء من القماش.

هذا مريض، وهذا مريض أيضًا، يبدو أنه مات في الصباح- إنه محظوظ.

وهذا؟

ميزيل حرّك عينيه ثم زمهما.

بلانك.

نفخة، نفخة، ثم نفخة. هدوء.

ميزيل أرغم نفسه على فتح عينيه، وانحنى.

كان بلانك ممددًا على ظهره، إحدى ساقه ملتوية التواء مؤلمًا غير طبيعي- الكعب موجه إلى أعلى. والساق مكسورة في ثلاثة أماكن على الأقل.

إحدى أذنيه تكاد تكون مقطوعة، وعلى خده جروح عميقة، مستوية.

يبدو أنهم حاولوا قذفه من النافذة. يا لهم من وحوش.

أما وجهه فكان هادئًا، واضحًا، كما لو كان نائمًا، أو يأخذ قسطًا من الراحة.

أهو ميت؟

هوى ميزيل على ركبتيه فوق حطام الزجاج مباشرة، وراح يتلمس مكان الشريان السباتي- وأخيرًا لاحظ كيف راحت تتجمع وتتكثف ببطء بركة من الدم تحت نقرة بلانك.

كل شيء صار في عينيه أسود، رماديًا، أبيض، غير حيّ

إلا البركة، فقد كانت حمراء قانية إلى درجة لا تطاق.

رفع ميزيل رأس بلانك مرتبكًا، فلمست يده شيئًا لينًا ينبض، فسحبها بسرعة.

عظام النقرة لم تكن موجودة

وكان رأس بلانك يدق أرض الرصيف بهدوء.

مرة بعد مرة.

نظر ميزيل إلى أصابعه برعب- إنها ملوثة بمكونات دماغ الرجل، وبدم ساطع اللون تمامًا، ما يزال دافئًا.

ابتلع قيأه بصعوبة- قيأ حامضًا، أسود، ملأ حنجرته دفعة واحدة. وفي هذه اللحظة فتح بلانك عينيه:

كان حيًا.

عيناه كانتا حيتين، تطلبان المساعدة، وترفضان الموت.

ميزيل كان يعرف ماذا يجب أن يفعل. يجب أن يرفع الرأس ويضع السترة تحته، ويثبت الجزء المكسور منه. لكن الأهم هو وقف نزيف الدم. هذا كان من

الأمور التي يتقنها أيضًا، هو لم يكن يتقن سحب الدم فقط، بل يتقن إيقاف نزيفه أيضًا.

لقد كان الأفضل في صفه. إنه يملك أمهر يدين، وأقوى ذاكرة، وأصفى رأس.

هو لم ير من قبل جروحًا كهذه. لكن مودروف رأى مثلها بالتأكيد. مودروف سينجح في علاجه. سينظف الجرح ويغلف الجمجمة بالجبصين. إنه يعرف أنهم يفعلون ذلك، هو لم ير عملية كهذه. غير أنه قرأ عنها حتمًا. يجب أن يستدعي مودروف فلديه الأدوات، في الحقيبة وفي جيبه، الأدوات، والمحلول المخدر، والبودرة والكحول، والخيوط ولوازم الخياطة.

Omnia mea mecum porto

احمل دائمًا كل ما يمكن أن تحتاجه يا زميل.

يجب أن يرفع الرأس، ويوقف الزيف، ويستدعي مودروف

يرفع، يوقف، يستدعي.

فجأة انطلقت دفعة قيء صغيرة من فم ميزيل كادت تسقط على بلانك.

سعل وهو يكاد يختنق.

يداه خرجتا عن طاعته، انتابتهما رجفة، وجمد عليهما الدم- دم غريب، لزج.

خفت الضوء في عيني بلانك.

أراد أن يقول شيئًا، أن يهمس بشي- لكنه لم يستطع.

حاول ثانية ولم يستطع.

لكنه بصق من طرف فكه جدولًا صغيرًا، أحمر، كثيفًا.

عيناه انطفأتا تدريجيًا، على مهل، كالماء تحت الثلج. لم يكن فيهما أي خوف، أو اعتذار- لم يكن فيهما غير الازدراء والإشفاق. الازدراء والإشفاق، وكذلك- الخجل. الخجل منه.

جلّس ميزيل قامته ببطء.

مسح يديه بأطراف سترته. ونزع أزرارها أخيرًا- تناثرت الأزرار كأنها خائفة. توزعت على الجانبين.

يرفع. يوقف. يستدعي.

فجأة أطل مودوروف من نافذة في الطابق الثالث، منبوش الشعر، مخيفًا. صرخ- أين الدكتور بلانك؟ هل وجدته؟ هل هو حيّ؟

تنهد ميزيل عميقًا- عميقًا- قدر ما يستطيع- محاولًا قذف الهواء عبر حنجرته التي مزّقها القيء.

مسح يديه بعصبية مرة ثانية- مسحهما هذه المرة بقميصه المبلل بالعرق.

لم يختف الدم. ظل على أصابعه.

هل هو حيّ؟- صاح مودروف ثانية.

عند ذلك استدار ميزيل وانطلق راكضًا.

اجتاز الزقاق، ثم ساحة التبن، ثم أبعد، فأبعد- كان يلهث، ويتعثر فيقع، ثم ينهض، وهو يمسح يديه، يمسح يديه- بثيابه، بالجدارن، بسور الرصيف القذر، ثم يعود فيمسحهما بثيابه، ظل يفعل ذلك إلى أن تجرّح كفاه، وانسلخ الجلد عن أصابعه فبان اللحم تحته، كان كل ما حوله يبدو أسود، رماديًا، ميتًا، ما عدا الدم الذي كان في كل مكان.

في كل مكان يتجه ميزيل إليه.

* * *

قضى ميزيل بعد "انتفاضة الكوليرا" أسبوعين في حالة ثابتة، فظيعة من انعدام الوزن، كأنه مات فعلًا في ذلك اليوم في ساحة التبن- وهو يؤدي واجبه بإخلاص مع الآخرين. استيقظ فجأة في ليلة رقيقة، ساكنة، تتخللها هسهسة هادئة- شاعرًا بأن كل جسده منكمش، متصلب، حاد الزوايا، يتألم نتيجة سكرة فظيعة- هام طويلًا في الغبار الدافئ، بين الأسوار التي لا يراها، متنقلًا من عواء كلب غاضب إلى عواء

كلب آخر، إلى أن أدرك أخيرًا أنه في بيتربورغ، في طرف قصيّ لم يسمع به من قبل أبدًا.

فيما بعد، لم يستطع ميزيل طول حياته أن يتذكر شيئًا من أحداث ذينك الأسبوعين- لم يستطع أن يتذكر مع من سكر، وأين، ونقود من أنفق، ولماذا لم يذبحوه ويلقوه في القناة، أو لماذا، على الأقل، لم يشبعوه ضربًا. لكنه ظل يحاول بإصرار أن ينساها، أن يُغرقها بسكرة روسية شديدة، لكنه لم يفلح، بقيت معه، ترقد عبئًا ثقيلًا، لزجًا على روحه التي كانت من قبل دائمًا عمقًا لا حدود له.

بقيت كلمة "عار" جافة مهينة.

بقيت كلمة "خائن" ثقيلة، سافلة.

بقي ميزيل أسبوعًا آخر في غرفته الصغيرة في الجانب البورجي من المدينة، ازداد فيه تنامي ذقنه الهادئة السوداء زيادة كبيرة وصار أخيرًا لحية فتية، ناعمة كالفراء. عند ذلك فقط، قرر ميزيل، وقد تقلصت ملامح وجهه من الألم والماء البارد، أن يحلقها كلها. وفي أثناء حلاقتها جرح ذقنه ثلاث مرات، مرة منها- قرب حنجرته بالضبط. رأى الدم، ففقد وعيه، ثم استرده ووقف مترنحًا.

انعكس في قطعة المرآة وجهه السابق، وليس تلك السحنة القبيحة الجامدة. لكنه صار يعرف، لقد عرف الآن من هو.

بعد بضع دقائق- تعادل أسابيع من السجن والتعذيب الطوعي- كان ميزيل يقف أمام أعمدة بناء الأكاديمية الطبية- الجراحية، وهو يكبت بقوة رغبته في أن يرمي نفسه في البحيرة. شدّ إليه الباب الضخم، متوقعًا أن يسمع احتجاجات، وصفيرًا، ومقاطعة، وعبوسًا في نهاية المطاف. لكنهم استقبلوه بهمهمة- ذاهلة في البداية، ثم مرحبة بصخب. إنه ميزيل يا سادة، انظروا! إنه ميزيل! غريغوري إيفانوفيتش! غريشكا، وحق الشيطان! ضموه، عصروه! ربتوا على كتفيه، أرادوا حقًا أن يؤرجحوه على أذرعهم- نحن، يا حبيب، دفناك منذ زمن، وأنت فعلًا، هزمت الموت بالموت! زمّ ميزيل المضطرب عينيه كالبومة، وقال كلامًا غير

مفهوم، وهو يبحث بعينيه بين الستارات، عن مودروف الذي لم يخبر أحدًا بشيء، من باب اللياقة، فهو لم يرد أن يشوه سمعة الطالب المتدرب تحت إشرافه بعد موته. لكنه الآن، لن يرحمه وقد ظهر حيًا.

ولماذا يرحمه؟

تأملوا هذا الإنسان الذي هرب بشكل معيب تاركًا زميله يموت. زميله. انظروا إلى هذا الطبيب الذي ينسى معيديه على فراش الموت.

ميزيل لم يستطع ضبط نفسه، قاطع بروفيسورًا وقحًا كان يتحدث بحماسة عن تراجع الكوليرا الذي طال انتظاره، وعن حماية القيصر لساحة التين بحركة رائعة، واحدة من كفه العظيمة...

أين ماتفيي ياكوفليفيتش مودروف؟ أخبروني من فضلكم... أتراه ذهب إلى موسكو؟

صمت البروفيسور، كأنه انكسر، وساد هدوء شديد، لم يعد ميزيل يسمع غير دقات قلبه وانتفاضاته، تارة في أذنيه، وتارة في صدره.

في 8 تموز عام 1831

أصيب بالعدوى ومات بالكوليرا.

دفن في مقبرة المصابين بالكوليرا في الجانب البورجي، عند تقاطع شارع تشوغونايا مع شارع أرسينالنايا، خلف كنيسة القديس صمصون مباشرة. هل تعرف أين هذا المكان؟ لقد كان يسمى سابقًا "حقل كوليكوف".

نعم، ميزيل كان يعرف المكان.

"تحت هذا الحجر دفن جسد عبد الله ماتفيي ياكوفليفيتش مودروف، كبير أعضاء المجلس الطبي للجنة الكوليرا المركزية- والدكتور- البروفيسور مدير المعهد الطبي في جامعة موسكو، والمستشار الأصيل الحائز على أوسمة مختلفة الذي أنهى وجوده على هذه الأرض، بعد أن خدم الإنسانية زمنًا طويلًا ببطولة مسيحية، فقدّم المساعدة للمصابين بالكوليرا في بيتربورغ ومات نتيجة حماسته وتضحيته".

بعد أن خدم الإنسانية زمنًا طويلًا...

ذهب القيظ أخيرًا، وسادت البرودة المنعشة والرطوبة من جديد في المدينة، وعامت "مقبرة الكوليرا ببطء في بحر الضباب، وهي تضم بهدوء صلبانًا جديدة.

فجأة شعر ميزيل أنه لا يستطيع الاستمرار في لوم نفسه، أو أنه يستطيع، لكنه لا يريد. نعم، هو ارتكب خيانة فظيعة، وكان مستعدًا لتحمل العقوبة بسبب فعلته- الله يعلم أنه كان مستعدًا لذلك، كان مستعدًا لأن يذهب إلى الأشغال الشاقة لو أرسلوه إلى هناك. قد لا يذهب بفرح، لكنه سيذهب مدركًا سبب ذلك ومقتنعًا به.

لكن الرب أراد، لسبب لا يدريه، أن يبقي خيانته في السر.

لم يكن يعاقبه على ذنبه.

أجل العقاب إلى ما بعد، أو أنه عفا عنه، ولم يعدّ ما فعله ذنبًا.

من أنا حتى أناقش ما يفعله الرب؟

أقسم ميزيل على أنه سيصبح، تكفيرًا عن ذنبه، أفضل طبيب في العالم- عاهد نفسه، والرب، ومودروف على ذلك.

عاد إلى الأكاديمية، ومن بعدها إلى البيت.

ولأول مرة تناول عشاءه بشهية.

وللمرة الأولى نام حتى بزوغ الفجر بهدوء كطفل يتيم فقد والديه، ووجد نفسه أخيرًا في رعاية أناس أذكياء، طيبين.

آمين

جاؤوه بالحساب سريعًا. سريعًا جدًا.

ظل ميزيل طيلة أسبوعين لا يلاحظ شيئًا، لأنه كان منشغلًا بالأموات فقط. كان، ككل الأطباء الذين بقوا أحياء، مشغولًا جدًا، وقد وقع في أيدي الإحصائيين الذين راحوا يحصون بدقة الحصيلة الكبيرة التي حصدتها الكوليرا. وحين هدأت الأمور أخيرًا إلى الحد الذي سمح باستئناف الدراسة في الأكاديمية، تبين أنه، هو ميزيل غريغوري إيفانوفيتش، الطالب في السنة الثالثة، الأفضل في دفعته، ابن،

وحفيد، وابن حفيد أطباء، لم يعد قادرًا على الإمساك بالمبضع، بل لم يعد قادرًا على لمس جسد إنساني، حيّ، لا بأصابعه، ولا بالمبضع، ولا بأية أداة طبية أخرى. انطفأ وعيه على الفور تقريبًا- في المرة الأولى استطاعوا إسناده ومنعه من السقوط، وفي المرة الثانية استطاع أن يتمالك هو نفسه ويبقى واقفًا- تنحى جانبًا، كي لا يسقط بوجهه فوق الجرح المفتوح، لكنه، بعد ذلك، سقط على الأرض كتلة بلا معنى.

هو لم يستطع أن يصبح أفضل طبيب في العالم. بل لم يستطع أن يصبح أردأ الأطباء أيضًا. إنه، عمومًا، لم يعد قادرًا على معالجة أحد.

هو، إذن، صار لا يملك الحق في ممارسة الطب.

جلس ميزيل في السرير في غرفته الصغيرة- خاوي النفس تائهًا، يفكّر بما يمكن أن يفعله، كيف سيعيش؟ وبماذا، ولماذا، يداه على ركبتيه غريبتان عنه، غير ضروريتين، وغير مرنتين، كأنهما قيد. كان يشعر بضرورة السفر، بالمغادرة، لكنه لا يعرف إلى أين، ولماذا.

هل يعود إلى موسكو؟

هل يذبح نفسه؟

ضحك ميزيل- هو لا يستطيع أن يضع المبضع على عنقه. جرّب ذلك. سيغمى عليّ حتى قبل أن أجد حنجرتي.

لم يبق لي إلا الشنق.

هو نفسه أنزل ذات مرة جاره المشنوق عن حبل المشنقة. يا له من فعل تعيس. لسان مزرقّ يتدلى خارج الفم، وعقدة خلف الأذن، وبركة من البول تحت الساقين الراعشتين... عمل مضجر، قذر، دنيء.

هو يريد ميتة لائقة.

هل يكتب لوالديه؟

لا.

عمومًا، يجب ألّا يكتب لأحد. يجب ألّا يودع أحدًا.

إلّا إنسانًا واحدًا وحيدًا.

نهض ميزيل فجأة، وضع على كتفيه بسرعة سترته التي خاط أزرارها على عجل، وعلى غير نظام، سترته المشبعة برائحة العرق، والسكر والقيء الحامض، ورائحة فئران مجهولة المصدر.

كارولينا، هل أنت حرة أم مشغولة؟

أنا، من أجلك حرة دائمًا يا حبيب.

ميزيل ما زال لا يعرف ما اسمها الحقيقي، ولعلها، هي نفسها، لم تعد تتذكّره. كارولينا، فليكن كارولينا. في البيت العمومي سموها كذلك نسبة إلى الملكة، علمًا بأنه لم يكن فيها ملكيًا سوى شعرها. خصلات لامعة دافئة، كثيفة كالصوف، وبيضاء تمامًا. حين تفردها- تغطي كل جسدها حتى الخصر، بل حتى ما تحت الخصر. لكن ثدييها كانا يطلان من بين الخصلات- لامعين، أحمرين، كحبتي كرز من تحت ورقة خضراء.

كان دائمًا يطلب منها أن تفرد شعرها.

هي كانت شابة- في نحو السابعة عشرة، لا أكثر، لكنها استُنزفت في هذه المهنة الحقيرة حتى آخر رمق. عيناها ميتتان تمامًا، عكرتان دائمًا، كأنهما سكرانتان. أما هي فجميلة، نحيلة- حساسة بشكل مدهش. جسدها كان لينًا، رشيقًا، يستجيب لأية حركة، يتمطى كالقطة التي تبحث عمن يدللها، في حين كانت الملكة نفسها تلقي نظرات جامدة، تارة على السقف الذي تتدلى منه خيوط شبكة عنكبوت قديمة، وتارة على رطوبة بيتربورغ المتفشية على الجدار

ميزيل كان يزورها نادرًا- مرة في الشهر، أو حتى في الشهرين، رغم أن شهوة الحب لم تكن ضعيفة عنده. لقد كان بإمكانه هو، الأسمر، الداكن اللون، المتين البنية رغم نحوله، أن يأتيها كل يوم من دون أن يشعر بالتعب. لكن دفع نصف روبل لم يكن بالأمر السهل عليه- كان الطلاب، أطباء المستقبل، يعيشون في فقر مدقع،

يتدبرون أمرهم بالخبز والشاي، لذلك كانوا يدفعون مقابل كل ممارسة للحب، قرقعة بطن فارغ تستمر أيامًا كثيرة. ميزيل كان حكيمًا على طريقته، لم يكن يسمح لنفسه أن يصل حد ممارسة العادة السرية، مهما عانى من صعوبة- كان يتلهى بالدراسة، وينتظر أن تنقذه الأحلام الشاذة، البهيجة، الملونة، التي يستيقظ بعدها في سرير فارغ، مبلل، وهو يرتجف بفعل مشاعره الشهوانية. كان يحلم دائمًا بكارولينا، بشعرها الأبيض المدهش الذي كان يشتمّ فيه رائحة الحليب المغلي الذي ما يزال دافئًا.

هو يحبها طبعًا، حبًا حقيقيًا، إنها حبه الأول، فقلبها لم يكن لديه أحد. فيما بعد، ظل يحبها هكذا، بلا سبب. كان وضعها يحزنه جدًا. هو يحاول ألّا يفكر بالإفرازات البشرية التي يستوعبها جسدها كل يوم، وكل ساعة، في غيابه. وكان يخاف طول الوقت أن تصاب بالعدوى. لم يكن يخاف على نفسه- بل عليها هي. لذلك كان دائمًا يفحصها قبل أن يقوم بالفعل الذي جاء من أجله- بفحصها بسرعة، واهتمام، ورقة، محاولًا ألا يسبب لها ألمًا. ينفخ أنفاسه على يديه الباردتين، كيلا يزعجها البرد، يمسح بطرف قميصه أداة الفحص الفظة التي يستخدمها.

أخفت نفسها بشعرها وتتنهد بصوت خافت- وهواء بيتربورغ يردّ عليها بتنهدات خافتة من خلف النافذة، أما ميزيل فيشعر أنه لم ير في حياته مشهدًا أشد روعة، أشد روعة، مشهدًا...

يفكر أن يأخذها معه، يشتريها من مشغّليها، يتزوجها.

لكن كارولينا بدت الآن كما لو كانت تلتقي به لأول مرة. لم تصمت، كعادتها، أطلقت صرخة خافتة، ولوحت بيديها- لا، لا، ابتعد، أنا أخاف!

ميزيل لم يفهم لماذا تفعل ذلك إلا بصعوبة، لكنه فهم على كل حال- إنها الكوليرا، طبعًا! هو، نفسه، تفاخر أمامها بأنه يدرس الطب، همس بذلك في أذنها مباشرة وهو يلهث منسجمًا مع إيقاع حركاته السعيدة، مغمضًا عينيه كطائر حجل.

لا تخافي، ليس لديّ أية كوليرا، أقسم لك، ولم يعد هناك أي مصاب بالكوليرا، لقد ذهب الوباء، ذهب كليًا، ما بالك انكمشت هكذا؟ أنا لست مصابًا، بها حسنًا، أتريدين أن أفعل كل ما يفعلونه في المستشفى؟ أخرج ميزيل زجاجة مودروف الصغيرة من جيبه، فتحها بصعوبة، فكاد هو نفسه، أن يصرخ من شدة رائحة الكلور، زمّ عينيه ثم غمزها قائلًا- أترين؟ ها أنذا أعقم يديّ، سأعقّم كل شيء، كي لا تصلك أية عدوى.

كان محلول الكلور لاذعًا، أحست به أصابعه على الفور، وعلى امتداد أثر جرح يكاد لا يلحظ، ارتسم، في الحال، خط ناري من الألم. نظر ميزيل بطرف عينه متشككًا إلى الزجاجة وقد قرر أنه لن يغسل يديه بالكلور، حتى لو كان من أجل كارولينا.

ألقت عليه نظرة شك من تحت حاجبيها، عند ذلك بلل أصابعها أيضًا، كل إصبع، وكل ظفر قصير متسخ.

وهو يكاد يبكي من الإشفاق والتعاطف.

هذه، لو تدرين زيارتي الأخيرة لك. أنا لن آتي بعد اليوم. أبدًا

ظلت كارولينا صامتة، مشيحة وجهها كالعادة.

كان يبدو له أحيانًا أنها صماء بكماء.

وأحيانًا تبدو له مجنونة.

وأحيانًا يحس بأنه لم يحب في حياته غيرها كل هذا الحب.

الحب الذي يشعر به في هذه المرة الأخيرة.

هو لم يستطع أن يفعل شيئًا، لم يفعل أي شيء رغم محاولاته كلها، حتى حين حاولت هي مساعدته- قد يكون ذلك بسبب إحساسه بالتعاطف المسيحي تجاهها، أو إحساسه بأن ما يقوم به واجب احترافي.

عجز تام. سكون يثير الشفقة، مصير تافه.

هو لم يخفق فقط في أن يكون طبيبًا، بل أخفق أيضًا في أن يكون رجلًا.

حسنًا، إنه يستحق ذلك.

ارتدى ميزيل ملابسه، وألقى على السرير المنبوش المبلل بالعرق الرويل الأخير المستحق.

هو نفسه لا يذكر كيف وصل إلى البيت.

أخذ حبلًا، وصنع عقدة، ثبتها بمقبض الباب، ثم شدها- كي يتأكد من سهولة استعمالها، وراح يتخيل كيف سيثني ركبتيه، وفجأة أدرك أنه لا يشعر بشيء. لا، ليس في داخله، بل في خارجه.

أخرج ميزيل رأسه من العقدة، تلمس حنجرته- لا، هي ما زالت سليمة. بدت له أصابعه الجافة، المتجعدة بسبب محلول الكلور، صلبة، وغريبة عنه. قلب ميزيل طست الاغتسال، وسكب ما تبقى فيه على ساقيه،- ثم أخذ شفرة رفيعة، زلقة، خطرة، يغطيها الصابون، ومزّق من قميصه قطعة نظيفة.

أغمض عينيه بحذر

مرر الشفرة على المفصل بين العنق ومقدمة الكتف من الأعلى إلى الأسفل، ضاغطًا إياها ضغطًا متزايدًا.

جرح ميزيل نبض مسببًا ألمًا حيًا، مرحًا، وتقافز تحت جفنيه اللونان الأسود والأحمر بمرح أيضًا، خاف أن يسقط مغميًا عليه، فأخذ قطعة القماش التي أعدّها مسبقًا، وضمد بها الجرح بشدة من دون أن يفتح عينيه.

أصابعه لم تشعر بشيء.

لم تشعر بشيء.

لكنها كانت مطواعة، تفعل كل شيء.

ضحك ميزيل.

أخرج من جيبه زجاجة محلول الكلور. خضّها جيدًا. سنشتري غيرها فيما بعد. سنشتري أفضل زجاجة في الفابركة التي في بريسنايا. يجب إذابة الكلور في الماء البارد حتمًا.

شكرًا ياماتفيي ياكوفليفتيش، يا عزيزي، ليرحمك الله.

أما نحن فسنعيش، سنعيش.

لم ينه غريغوري إيفانوفيتش ميزيل الصف الثالث. ترك الأكاديمية الطبية- الجراحية، وغادر بيتربورغ كي ينهي بامتياز الكلية الطبية في "ديربت"

"ديربت" مدينة صغيرة مقرفة.

أصابعه، الملسوعة بالكلور عادة، اسودّ لونها، تفحّمت. كان يحمل معه زجاجة مودروف دائمًا أينما ذهب. ولم يفطن إلى استخدام اليود، بدلًا من محلول الكلور، إلا في مقاطعة فوورنيج حيث حصل على وظيفة طبيب (وشهرة أفضل معالج في المنطقة).

كل ما عدا ذلك عُرف بعد عشرات السنين.

لقد أصبح ميزيل فعلًا أول طبيب في العالم يطبق معالجة الجروح بالمواد الكيماوية، على الرغم من أنه لم يكن يتوقع نتائج ذلك العلاج، ولم يسع إليها أبدًا. هو دهن أصابعه كي يتخلص من حساسيتها، وليس من أجل تجنب الالتهاب. لقد دفع الحساب الذي فرضه هو على نفسه.

محا العار باليود والدم.

كان في البداية يتذكر كارولينا كثيرًا، لكنه، فيما بعد، صار يتذكرها أقلّ، فأقلّ، إلى أن نسيها، كما ينسى جميع الناس.

هو، لحسن الحظ، لم يعرف أنها كانت تكرهه، فهي اعتادت ممارسة أبشع أنواع العار، كانت تخاف زياراته، ولا سيما فحصه لجسدها. فحصه السريع، الدقيق، الحذر، اللطيف تقريبًا. كانت تخافه، وتكاد لا تحتمله. هناك، على ما يبدو، حدّ للتحمل حتى عند أحقر النساء. كانت تأخذ "نصف روبله" بمنديلها وهي تشعر بالقرف، وفي كل مرة كانت تعطي "النصف روبل" للفقراء في الكنيسة.

تعبّد بذلك طريقها إلى الجنة.

ميزيل لم يكن يعرف ذلك أبدًا، كذلك لم يعرف أن كارولينا ماتت، في نفس العام الذي غادرها فيه،- عشية عيد الميلاد، وهي تحاول التخلص من الجنين

الخامس عشر أو السابع عشر باستخدام السم.

رائحتها، حين ماتت، ملأت الشارع.

"إن أفظع الشرور هو ما يلتهم المرء من داخله".

هذا ما كان ميزيل مستعدًا لتقبّله والتوقيع عليه.

* * *

رائحة نتنة- نفّاذة، طازجة، واخزة- خرّشت خيشوميه، وحلقه. سعل ميزيل وجلس.

رجل غريب، يدل مظهره على أنه طبيب شرطة، دس له تحت أنفه محلول النشادر الذي كان في حوزته. واستغرق منه شرح الأمر، والوعد القاطع بأنه سيعرض نفسه على طبيب محلي آخر نحو عشر دقائق أخرى.

لا تتأخر يا زميل، فأنت لم تنج من الشلل التام إلّا بحكم المصادفة...

... توسا أخرجت الكتاب من المغلف، ثم تأوهت، وجمدت.

ميزيل أعطاها الكتاب لتستمتع بتأمله، ووضع فوق غلافه ورقة تحمل اسم هيلمان هاكِ، هذا طبيب، متخصص في علم الحيوان، آمل أن يدرّسك. لقد قالوا إنه اختصاصي بارع.

رفعت توسا نحو ميزيل عينين مخضلتين بالدموع، شفافتين، بيضاوين تقريبًا.

إنها أفضل هدية أنالها في حياتي يا غريفا. أفضل هدية. لا حاجة الآن لإزعاج أحد.

ضغط ميزيل ذروة رأس توسا يقبله، وزمّ عينيه، سكن، أملًا منه في أن يظل واقفًا على قدميه.

أصبت باختيارك، والحمد لله، أصبت.

يجدر القول أن الأم كانت تهديها جواهر. كانت تهديها كل عام، في عيد ميلادها، جوهرة وردية باهظة الثمن، كي تجمع عند بلوغها سن الرشد أول عقد في حياتها، وتحتفظ به للذكرى.

وها هو ذا الآن سيبقى للذكرى أيضًا.

المهم ألا يقع أرضًا. المهم أن يوافق هذا الهيلمان الملعون على تدريسها. سأركع عند قدميه. سأخنقه بيدي.

تحدث هيلمان مع توسا نحو ربع ساعة، ثم تنحنح مستغربًا. إنها في مستوى جيد حتى بالنسبة لغير المرأة. سأدرّسها. درسان في الأسبوع.

مدة الدرس الواحد ساعة ونصف الساعة. في منزلها. لا أستطيع استقبالها في منزلي- الزملاء لن يفهموا ذلك.

غادرا منزل آل ستينبوك في أسبوع. استأجرا شقة- صغيرة، نظيفة، تطل على شارع عريض. لقد كان ذلك، ببساطة، أمرًا غير لائق، بل غير جائز. إلّا أنهما شرعا يعتادان على ذلك.

أنت ستشرح الأمر لأمي يا غريفا، أليس كذلك؟

هو، طبعًا شرح الأمر، لم يخف شيئًا تقريبًا. كتب يقول إن توسا قررت أن تأخذ دروسًا خاصة في الفروسية عند الأستاذ الأكثر شهرة. هو يطلب أجرًا عاليًا، مبتز، يطلب ما يمكن أن نشتري به قطيعًا من الخيل، لكن من يستطيع إقناع ابنتك العنيدة؟

سيتدبر أمره. أما نحن فلنعد لإتمام ما بدأناه.

كانت توسا مشرقة فرحًا، اشترت كتبًا، ودفاتر، وريشًا للكتابة، ومحبرة، ونحو عشرة فساتين جاهزة- كانت الفساتين قبيحة (الموديل)، حتى ميزيل لاحظ ذلك وعبّر عن دهشته. هاتي سلسالًا نزين به ذيل الفستان، وسيكون مضحكًا. أوراق القريص هي الأكثر مناسبة- سنحشوها على عنقك تحت ياقة الفستان، كي يكون واضحًا لمن على بعد فرسخ، أنك فتاة نبيلة مجنونة، بل عازفة هارمونيكا حقيقية.

انفعلت توسا، لكنها أرغمت نفسها على الضحك. الفساتين بقيت على كل حال. وغيّرت هي تسريحة شعرها. لكن البنت الخادمة تأملت شقتها الصغيرة ثم طلبت في الحال تصفية حسابها وغادرتهما. هذا لا يهم!

لاحظ ميزيل أن توسا تحاول أن تقلد طالبات المعهد، ورأى أن هذا يجعل مظهرها قبيحًا، بل أكثر قبحًا من مظهر "البيستوجيفيّات" أنفسهن.

لكنها كانت سعيدة، سعيدة. كان هذا "الهيلمان" يمدحها كثيرًا، فقد قال لميزيل ذات مرة وهو يودعه:- إن لدى الأميرة الصغيرة عقلًا يقظًا، وحبًا للعمل تحسد عليه. إن بإمكانها أن تقدم للوطن خدمة كبيرة في كل مجال تعمل فيه، ويؤسفني جدًا أنها لا تستطيع ذلك.

ميزيل ظل صامتًا، وماذا يمكنه أن يقول ردًّا على هذا الكلام.

رسائل توسا لأمها كانت نادرة، وموجزة. هي لم تكن رسائل بل أوامر مختلفة. احرصوا على ألّا تتعرض مرابط الخيل للرياح الباردة، جدوا بسرعة مديرًا للاصطبل- خبيرًا، ذا سمعة جيدة. انتبهوا إلى وزن "بويارين" وأطعموه الشعير يوميًا وفق المقادير التالية...

بورياتينسكايا كانت تعلّق الآمال على خطبة ابنتها ومن ثم زواجها- لكن ذلك كان عبثًا، إذ لم يكن هناك ما يدل على أن الابنة تفكّر أصلًا بالعودة.

لكن الربّ رحمها- ساعدها.

هداها، وكبح جماحها.

فهمت توسا فورًا، من خلال تعابير وجهه.

أخذت البرقية وقرأتها- بويارين مصاب. لم تقل شيئًا، لا حين قرأت البرقية، ولا طول رحلة العودة إلى البيت.

لقد توقع ميزيل كل شيء- الدموع، والهستيريا، والغضب، كل شيء إلا هذا الصمت، وهذه العودة إلى الخرس الطفولي الذي يخيفه. توسا كانت تنهض وتجلس حين يستدعي الأمر ذلك، تأكل وتشرب في خضوع، وتحاول النوم بإخلاص، لكن ميزيل كان يرى أن ذلك كله- مجرد غلاف، مجرد مظهر مصطنع، فهناك، في داخل توسا، ينمو شيء ما، شيء فظيع ومشوه، وغريب تمامًا، شيء ليس هي، وقد لا يكون إنسانًا عمومًا. ومن جديد شعر ميزيل، كما كان يشعر في طفولة

توسا، بالحيرة، وبأنه لا يدري ما يفعل، ولا يفهم ما يحدث، وأنه يخاف.

ومع ذلك لم يستطع أن يتمالك نفسه حين وصلا إلى ضواحي "آنّا": إنه مجرد حصان يا توسا، مهر عجوز. لم يتعهد لك أحد بأنه لن يموت، ما من أحد تعهد بذلك للبشر أيضًا.

نظرت إليه توسا من تحت حاجبيها المستقيمين الأسودين، عابسة، ثم قفزت من العربة الصغيرة المستأجرة وهي تسير- هي لم تقفز منها بل انزلقت انزلاقًا، كانت الخيل، لحسن الحظ، تسير ببطء شديد. وقفز ميزيل، صرخ، وسعل، حاول اللحاق بها- لكنه لم يستطع. ركضت في خط مستقيم عبر الحقل، نحو الحديقة مباشرة.

لم يكن ميزيل عاجزًا عن اللحاق بها الآن فقط، لقد كان عاجزًا عن ذلك منذ زمن طويل جدًا.

إنه وقت تبديل الوردية. السائسون الصباحيون ذهبوا، والخيل نظيفة، تغالب النوم في مرابطها، وتنتظر أن ينمو العشب أخيرًا في المراعي، ويبدأ الصيف- كسولًا، طويلًا، حارًا، خاليًا من المشاكل.

كان رادوفيتش يجلس على صندوق كبير يُحفظ فيه الشعير، وينظر إلى نقطة واحدة- لا، ليست تلك نقطة واحدة، بل غبار، ذهبي، يلمع معلقًا في الهواء، يتطاير منه شرر- كأنه الحشرات الطائرة فوق نهر الفولغا.

كزّ رادوفيتش على أسنانه، وزمّ عينيه.

هو لا يعرف كم مرّ من الأيام؟ يوم واحد؟ عشرة؟ مئة؟

أغلب الظن أنه يوم واحد، طويل، رمادي، امتد خلف الأصابع، كالمخاط، والتصق بباطن الحذاء. رادوفيتش فعل بشكل آلي كل ما يجب فعله- من دون أن يأمل كثيرًا بالانسجام مع الوضع. كان يتناول الفطور، ويتغدى، ويستخدم السكين، ينحني محييًا، ويقوم بتفقد المرابط تفقدًا لا معنى له، ويقوم مع عروسه بنزهات صامتة. وحين ينفد صبره تمامًا يشرع يعدّ في سرّه: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

ويشعر ببعض الارتياح بعد أن يصل في العدّ إلى الخمسة آلاف.

وفي الليل يمكث قليلًا عند نيوتشكا- حسنًا، عند ذلك يشعر بقليل من الارتياح أيضًا.

كان يأتي إليها كل ليلة، لكنه لم يكن يذوب شوقًا للزيارة.

الأميرة كانت تعرف ذلك طبعًا، هي كانت تعرف كل ما في البيت، لكنها تظل صامتة، لا تقول شيئًا، وكذلك كانت نيوتشكا. لقد كان ذلك البيت مملكة حقيقية للخرس.

لاح ظل أسود أمام عيني رادوفيتش، ظل سريع، فظيع- كأن أحدهم ضرب عينيه بغصن صغير، فقفز خائفًا.

ثمة امرأة كانت تقف في وسط الاصطبل- معتدلة القامة، متينة البنية، ترتدي ثوبًا أسود من الصوف، ذيله ملطخ بشدة بطبقة سميكة من الوحل الأزرق، وشعرها مسرّح تسريحة بسيطة- خصلاته السوداء التصقت بجبينه، وخديه، وعيناها بيضاوان تمامًا، مجنونتان، كأنها عمياء. غريبة، أو مشوهة.

قفز رادوفيتش عن الصندوق.

من سمح لها بالدخول؟ اذهبي من هنا! ممنوع! هيا اخرجي من هنا!

نظرت المرأة إليه- من دون دهشة، ومن دون إعجاب، كما لم تنظر إليه أية امرأة أبدًا- كأنها تنظر إلى مذراة صدئة أو أي شيء مضجر آخر. إنها بالتأكيد- عمياء، ومجنونة، ومن المحتمل أن تنقض عليه.

بسط رادوفيتش ذراعيه آملًا أن يزيح المشوهة نحو الباب، لكن حصانًا عجوزًا صهل فجأة وراء ظهره صهيلًا رفيعًا، متواصلًا. يبدو أنه "بويارين" - يا إلهي، كل ما هنا دستة من الخيول، وأنا لم أستطع حتى الآن أن أحفظ أسماءها الملعونة. ومع ذلك يزعم ساشا أن لديّ ذاكرة حصان.

شنقوه. هم شنقوه فعلًا، شنقوه شنقًا حقيقيًا.

وضعوا الحبل حول عنقه- وخنقوه...

صهل الحصان مرة أخرى، فتوهج وجه المجنونة فجأة، لا بل التهب كأن أحدهم أطلق ناراً نصف مخنوقة، فانطلقت فورًا تلتهم الأوكسجين من كل مكان، مستعرة، نشطة، سريعة، مخيفة. وقفزت المرأة متنحية جانبًا بليونة ورشاقة، فاكتشف رادوفيتش أنها بنت صغيرة، فتية جدًا، ترتدي ملابس قبيحة جدًا، وأنها متعبة تعبًا لا يستطيع كل الكبار ان يتحملوا مثله. المهر العجوز لم يصهل، كان يبكي، بصوت بشري تقريبًا، صوت مرتفع، جميل، فوقفت البنت على العتبة المرتفعة وراحت تحضن تارة عنقه، وتارة وجهه، وتنفخ، في تارة ثالثة، الشعر الخشن في خيشوميه، وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، أما الحصان فكان يجيبها بلمسات صغيرة، صغيرة، من شفتيه لشعرها، وكتفيها، وخديها.

كان يقبلها.

التفتت البنت نحو رادوفيتش فجأة، وهي ما زالت متوهجة ذلك التوهج المخيف، وقالت له بفرح وصلابة،- إنه حيّ! قالت العبارة بصلابة وفرح، جعلت رادوفيتش يظن لعدة ثوان- قصيرة جدًا، وسعيدة جدًا- أنها تتحدث عن ساشا.

نظرت البنت إلى عينيه، وأزاحت سحنة الحصان- برقة كأنها تزيح يدًا بشرية ثم زمّت عينيها.

هل يجب أن أعتقد أنك عريس مغرم بعروسه؟

عند ذلك فقط رآها رادوفيتش كلها- كما هي فعلًا.

خدان بارزان، وذقن نافرة توحي بالقوة، وعظام رقبة متينة لا تعرف معنى لإحناء الرأس. هي لم تكن جميلة، بل كانت، بمعنى من المعاني، قبيحة قبحًا صريحًا- عظامها عريضة، فطساء الأنف تقريبًا، شعرها أسود، خشن، لكن هذا المظهر كان يعبر عما هو أساسي، عن جوهرها، يؤكد قوتها وحريتها، ورشاقتها، ودقة كل حركة من حركاتها. نظرتها مستقيمة، وبشرتها شفافة كأنها تشع من الداخل. إنها ملامح سلطة على الآخرين، دامت مئات ومئات من السنين، وتعبير عن سلطتها على نفسها.

هذا كان مظهرها- دم ملكي حقيقي.

هكذا رآها رادوفيتش. فيكتور فيكتوروفيتش.

حرّكت الأميرة الشابة بورياتينسكايا القش تحت حوافر بويارين.- لماذا لم تضعوا قشًا كافيًا في مربط الحصان؟ هل تريدون إبقاء حصاني في العراء؟ هل نظّفتم أسنانه؟ لقد أمرتكم منذ شهر أن تفعلوا.

رادوفتش، الذي لم يكن يعرف ما إذا كان في فم "بويارين" أسنان أم لا، أراد أن يقول شيئًا ما، لكن توسا رفعت بمهارة شفة الحصان العليا بقبضتها، وهزت رأسها برضا، ثم مسحت بثوبها، كالرجال يدها المبللة بلعابه.

تقلص وارتجف رادوفيتش، كأن عنكبوتًا ركض على وجهه.

لاح في الباب ظل جديد. القادم في هذه المرة كان رجلًا، عجوزًا، حاجبان أشيبان، كثيفان، وأصابع تغطيها بقع بنية فاتحة، تضغط رأس عكاز كأنها تنوي توجيه ضربة قوية لأحد ما.

نظرت توسا إليه من وراء كفّها، وخرجت من المربط.

إنه حي يا غريفا. هيا بنا، يجب أن تشرح لي maman الأمر، يجب أن أعرف ما إذا كانت قد قامت بذلك عمدًا...

استدار ميزيل، من دون أن ينطق بكلمة، ومشى في إثر توسا، يدوس بثقله على العشب الطري. هو، حتى لم يحاول أن يحيي القادم.

لا بد أن القادم كان ذلك الألماني، الساحر الشرير، المنفّر جدًا.

جلسوا إلى مائدة العشاء صامتين. توسا لم تمد يدها إلى أي طبق من الأطباق. وعلى خدي بورياتينسكايا وصدغيها بقع حمراء تتحرك ببطء- إنها آثار الفضيحة التي حدثت منذ فترة وجيزة. أما ميزيل فلم يحضر العشاء عمومًا، والحمد لله. ضغط رادوفيتش سرًا، من تحت غطاء الطاولة، كفّ نيوتشكا الضعيفة، الرطبة، التي صارت حبيبة. توسا ألقت عليه في الحال نظرة نارية من عينيها اللتين كانتا فعلًا، بيضاوين وقاسيتين تمامًا، وقد بدا كأن أحدهم خطّ رموشها وحاجبيهما بالفحم. أما شفتاها فكانتا جميلتين- منتفختين، ومشرقتين، مثل شفتي أبيها، وكانت، مثل أبيها أيضًا، لا تبتسم.

رادوفيتش لم يذهب إلى نيوتشكا في تلك الليلة. هو، نفسه، لم يكن يعرف لذلك سببًا. ولم يذهب إليها في الليلة التالية أيضًا.

توسا لم تكن تغادر الاصطبل في النهار، كانت تستفسر عن كل شيء. تسأل، تغضب، ثم تبتسم. وكان السائسون يتدافعون راكضين خلفها بوجوه غبية من الفرح. واضح جدًا أنهم كانوا يحبونها، لا سيما كبير السائسين–أندريه. رادوفيتش نفسه رأى كيف ارتمى أندريه جاثيًا على ركبتيه في براز الخيل– وزرّر لها حذاءها، زرّره كشخص قريب منها وليس كخادم. وتوسا عاملته أيضًا كإنسان قريب منها، فداعبت عنقه.

شكرًا يا أندريه، يا يمامتي. ليتك تركتني أفعل ذلك بنفسي.

وقف رادوفيتش لا مباليًا، ينتظر أن يلاحظوه أخيرًا فيشدوه من أذنه ويطردونه من الإدارة ويفسخون خطبته لنيوتشكا. فالآن، بعد عودة توسا، بات واضحًا من السيد في المزرعة، ومن يقرب من.

كل "آنّا" كانت تدور حول الأميرة الصغيرة، ولا أحد يهتم برادوفيتش. لم يكن هناك من يحتاجه إلّا نيوتشكا. لقد تحسنت بشكل مدهش، صارت جميلة داخلًا وظاهرًا. حتى قامتها صارت أطول، وشفتاها، وشعرها– كلها التمعت بضوء ساطع صقيل، وكأن نيوتشكا تقف في شعاع شمس لا يحيد عنها.

سأتزوجها– وأغادر معها إلى أي مكان. لا فرق، لم يعد الآن هناك أي فرق.

أخذ رادوفيتش يد نيوتشكا وضغطها بشفتيه. أغمض عينيه. الاثنان أغمضا أعينهما.

ما أروع هذه الملاطفة. سعادة الأم هي أن ترى أولادها يحبون بعضهم بعضًا.

لا يوجد الكثير من أولادك هنا يا ماما.

دعكت بورياتينسكايا منديلها بغضب، ونظرت إلى ابنتها– توسا ردت عليها بنظرة مماثلة تمامًا. تصالبت النظرتان كسيفين، بل بدا لرادوفيتش أنه سمع صليل الحديد. بورياتينسكايا خفضت عينيها أولًا– خفضتهما فخسرت موقعها– هي،

بصراحة، استسلمت. ترى كم مرّ من زمن على آخر مرة رأت فيها ولديها الكبيرين؟ آخر مرة رأتهما فيها كانت قبل ولادة توسا. هي، طبعًا، تعرف ما يحدث معهما وكيف،- لم تكن تسعى خصيصًا لمعرفة ذلك، بل تجمع خبرًا إلى خبر مما تحمله هذه الإشاعات المتناثرة أو تلك، في رسائل هذه الصديقة أو تلك، المدونة على أوراق صبغها الحبر بلون ليلكي منذ زمن بعيد، وتفوح منها رائحة العطور الدارجة.

ليزا كانت، على كل حال، سعيدة بزواجها من السفير الجوال، وحافظت على جمالها المخيف الخارق، الذي كانوا في روما يجلّونه بالمعنى الحرفي للكلمة، فقد قيل إن الإيطاليين المتحمسين، كانوا يركعون على ركبهم أمام عربتها وهم يصيحون- مادونّا، مادونّا! هي لم تنجب أطفالًا- لقد كان لديها من العقل والإرادة ما يكفي كي لا تفعل ذلك. أما نيكولا فتقاعد، واستقر في القرم، وراح يشتغل في إدارة مزرعته- أي أنه شكل فرقة صيد كبيرة، وربى كلابًا، وجمع حوله جوقة حريم كاملة من النساء المحليات السهلات المنال، صار يقيم الولائم، كأنه نبيل من نبلاء عهد يكيترينا. تقول الإشاعات، إنه كان يبدد ثروته بسرعة جنونية، وأنه لم يتزوج، فوقته لم يتسع لذلك.

إنها في الواقع حكايات عادية جدًا ومضجرة.

شعرت بورياتينسكايا بنظرة رادوفيتش القلقة- فعادت فورًا من شرودها، ابتسمت له- لم تبتسم مجاملة، بل ابتسمت ابتسامة حقيقية، دافئة. "يا له من فتى رائع، حساس. من المؤكد أن الحظ حالف "آنيت".

ارتبك رادوفيتش، فضغط أصابع نيوتشكا المستسلمة لكفه.

كانت المائدة تلتمع. بورسلان، وفضة، و"روست بيف" وبازلاء طازجة يتصاعد منها البخار- وقد نثرت على الصحون زهور حية كأنها الخرز، قطفت لتوها من الحوض المدفأ،- ورود كثيفة التيجان، حمراء، طويلة الساق، وخدم يرتدون قفازات بيضاء بياض الثلج، ونبيذ بلون الدم في كؤوس من الكريستال، وثريا كثيرة الشموع انعكس ضوؤها عشر مرات، في كل النوافذ العشر الضخمة.

عشاء عادي في أسرة عادية.

لا. هو لن يعتاد عليه أبدًا.

كيف حالك عندنا في "آنا" يا سيد رادوفيتش؟

نظرت إليه توسا عبر رموشها وقد زمت عينيها. ثوبها القبيح اختفى، وهي الآن تبدل ملابسها عدّة مرات في اليوم- ثياب للفطور، وثياب للنزهة، وثياب للاصطبل، وركوب الخيل، وأخيرًا ثياب خاصة- للعشاء. اليوم- هي كلها باللون الأحمر المثير، كأنها كانت على علم بأمر الورود الحمراء، والنبيذ، بل ربما كانت على علم بذَلك.

انتبه رادوفيتش فجأة على أنه لم يلحظ أبدًا ماذا ترتدي نيوتشكا، وهل تبدل ملابسها؟ نظر إليها بطرف عينه، فرأى شيئًا أصفر شاحبًا، ليمونيًا- فاتحًا. هذا ما توقعه، نعم.

لا بدّ أنك تشتاق إلى بيتربورغ، أليس كذلك؟

انتبه رادوفيتش إلى أنه لا يستطيع الاستمرار في الصمت، فذلك غير لائق.

ولماذا أضجر؟ أنا أحب الريف.

تطايرت خلف النافذة أغصان صغيرة، سوداء، والتمعت لحظة زرقة البرق، ثم تدحرج الرعد.

إنها العاصفة الأولى،- قالت نيوتشكا بصوت خافت.

لم يجب أحد.

هل لديك مزرعة؟

كان والداي يملكان مزرعة في مقاطعة تامبوف، اضطرا لبيعها.

أنا كنت صغيرًا جدًا لذلك أكاد لا أذكرها.

إذن، كيف نشأ لديك حب الريف؟

ما هذه الأسئلة يا توسا؟ هذا سلوك غير مهذب،- قالت بورياتينسكايا التي لم تستطع منع نفسها من الكلام.

ميزيل راح يأكل دون أن يرفع رأسه. أذناه، ومرفقاه، وحنكاه، وحتى حاجباه، كل ذلك كان يتحرك برتابة كأنه آلة.

إن من حق نتاليا أن تعرف، يا صاحبة السمو. أنا ليس في حياتي أسرار أخفيها؟ في طفولتي وصباي كنت في كل صيف أحلّ ضيفًا في كوكوشكينا، في مزرعة بلانك.

توقف ميزيل عن الأكل.

إنها في ناحية تشيريمشانسكايا في مقاطعة قازان. إنها مكان ساحر... رحلات صيد برية، واصطياد سمك.

هل تحب الصيد؟

لم يتسع الوقت لرادوفيتش كي يجيب. نظر إليه ميزيل مباشرة، فاتحًا عينيه على اتساعهما.

مزرعة من؟- سأله بصوت خافت جدًا.- هلّا تفضلت وكررت اسم صاحب المزرعة. أنا لم أسمع الاسم جيدًا.

بـ - لانك.

أتعني الدكتور بلانك؟

شعر رادوفيتش بقميصه يتبلل بالعرق البارد على ظهره وتحت إبطيه، ويلتصق بجسده. لقد كان شيء، مخيف يجري، لكنه لا يفهم ما هو، وكذلك كان الآخرون.

استمر ميزيل في النظر إليه- وقد تجمعت على جبينه وشفته العليا نقاط العرق. عكرة، عجائزية، كأن رادوفيتش وجبينه وشفته منظومة من الأواني المستطرقة.

أنا أسألك، هل كانت تلك المزرعة للدكتور بلانك؟ الدكتور بلانك؟

رادوفيتش أحنى رأسه بالإيجاب.

هو لا يعرف شيئًا عن جد ساشا، وساشا لم يتحدث عن جده أبدًا على ما يبدو. جده مات في السبعينيات، والمنزل آل إلى بناته، ومجموعة كبيرة من أطفالهن. في الصيف كان الازدحام يشتد في كوكوشكينا، وكان الاولاد يذهبون مع ساشا للنوم فوق القش، لأن المكان لم يكن يتسع للجميع.

مسح ميزيل وجهه بمنديل- بحركة عريضة، كأنه خرج لتوه من الحمام.

هذا مستحيل؟

لماذا؟

لأنك تكذب.

ماذا يجري هنا يا سادة؟

أنا لا أكذب. لقد كنت، فعلًا، أحلّ ضيفًا على المزرعة. هذا أمر يمكن أن يؤكده أي فرد هناك. لقد كانت المزرعة ملكًا لأبنائه...

لم يكن لدى الدكتور بلانك أولاد، فهو لم يكن متزوجًا، وقد مات في عام 1831. أنا نفسي رأيته...

صمت ميزيل فجأة، واصطبغ وجهه بالحمرة المشوبة بالزرقة- من أسفل عنقه، وانتفخت عروق صدغيه وحنجرته.

ما هذا الذي يجري؟! يا غريغوري إيفانوفيتش!

غريفا!

من أنت؟ من أرسلك إلى هنا؟! من؟!

أرعدت السماء السوداء خلف النافذة، وضرب المطر النوافذ العشر بقطرات عنيفة لا مثيل لها.

من؟!

أنّ ميزيل فجأة، واحولّت عيناه، كأن شيئًا فظيعًا حاول أن ينفلت من داخله. ثم حاول ثانية لكنه لم يفلح في الإفلات. شخر ميزيل. وتشبث بغطاء المائدة، ثم ارتمى على جانبه، فتبعته، وهي تنقلب مصدرة صوتًا، الكؤوس الخائفة، والصحون والورود والفضة ذات اللمعان البهيج.

غريفا! غريفا!

الطبيب الذي وصل من بوبروف بعد منتصف الليل، قرر أن ما أصابه صدمة. فصده كي يزيل احتقان الدم، ثم وصف له الهدوء. ونصح بصوت خافت،

بورياتينسكايا الباكية، بأن تصلي، مؤكدًا أن الحالة ستزول سريعًا.

مجنون.

كان أول ما فعله ميزيل حين استيقظ من إغمائه هو طرد بورياتينسكايا وتوسا. ثم تأكد من أنه قادر تمامًا على تحريك يديه ورجليه. مشى إلى المرآة وهو يتوخوخ. فمه انحرف قليلًا إلى جنب، لكن دماغه كان في حالة ممتازة.

إنها جلطة دماغية، زالت والحمد لله.

حاول أن يغسل وجهه، لكنه، فقد وعيه مرة ثانية.

توسا التي كانت تقف تراقبه عند الباب، صرخت، وهرعت نحوه- مشى كل من في البيت، وتراكضوا، استجابة لصوتها، وتعليماتها- القصيرة، الحادة، والدقيقة، مثل لكزة الفارس.

لم يكن مستشفى فورونيج رديئًا بالشكل الذي تصوره ميزيل. وضعوه في غرفة مستقلة- رفاه غير معقول. عالجوه بالكهرباء التي درج العلاج بها حديثًا، واستمعوا إليه، ولم يزعجوه. ظل في المستشفى أسبوعين فقط. غريفا، أقسم لك سأزورك. جاءت مرتين- غريبة، قلقة، نحيلة، مضطربة، لا بد أن المسكينة كانت خائفة عليه. حاول ميزيل أن يتحدث عن رادوفيتش لكنها صرفته عن ذلك. لقد أصابتك صدمة يا غريفا. أنت لم تكن في وعيك. أنا بحاجة إلى عامل في الاصطبلات، عامل متعلم، مثقف. إن لديّ خطط مشاريع كبيرة، عظيمة. هيّا طب من مرضك، فأنا لن أستطيع تدبير أموري من دونك، لن أستطيع أبدًا.

صدّقها. ألا يمكن أن يكون فقد صوابه فسقى نفسه السم وراح يتهم الآخرين؟ هل من يحملون اسم بلانك قليلون في هذا العالم؟

ميزيل صار يقنع نفسه، ويغرس في عقله، أنه إنما كان يعبرعن خوفه. لكنه رغم ذلك، ذهب، حين أبلّ من مرضه، إلى قسم الشرطة–وهناك فقط، أدرك أنه لا يعرف ما الذي سيطلبه من الشرطة، فرداوفيتش لم يرتكب أية جرائم. وكل ذنبه أنه ذكر كنية بلانك. ومع ذلك حاول ميزيل أن يستفسر عن بعض الأمور- استقبلوه ببساطة

وتهذيب، لكن من دون ترحيب. لم يكن لديهم في سجلات المشبوهين أحد باسم فيكتور رادوفيتش. هو لم يكن بين المشبوهين الذين يتعقبونهم سرًا. اذهب برعاية الله يا باباشا، فلدينا من الأعمال ما يكفينا ويزيد.

اضطر إلى مراجعة "السجل العام للأجناس النبيلة في الإمبراطورية الروسية" في المكتبة العمومية. سجل العائلات الروسية النبيلة العريقة، كتاب مخملي خالٍ، طبعًا، من أية رادوفيتشات.

أحس ميزيل من جديد بعروق صدغيه تنبض وتنتفض. أغمض عينيه، وهو يحاول تنظيم أنفاسه.

إن هذا الإنسان ليس أكثر من كاذب. إنه، ببساطة، كذّاب. لقد اعتبرته عملاقًا شريرًا، وهو ليس إلا صبيًا عاديًا صغيرًا، منافقًا، غبيًا. ما يجب عليّ فعله هو، فقط، أن أقنع بورياتينسكايا أن تطرده بعد الزواج، هو وزوجته، من المزرعة. وليذهب الاثنان إلى الشيطان.

هو سيقنعها، فقد سبق أن أقنعها بأمور أخطر من ذلك.

عاد ميزيل في بداية شهر تموز، وقد أقنع نفسه تقريبًا، بأن كل شيء على ما يرام. بدا له أن البيت هادئ هدوءًا غريبًا. التحضير للعرس ما زال مستمرًا، لكن بدا كأنه يجري بقوة العطالة، ويهدأ بالتدريج. كانت الأميرة راقدة في غرفتها تعاني ألم صداع الشقيقة، ونيوتشكا كانت تبكي. قبّلت توسا خديه بقوة وبصوت مسموع. كان وجهها مشرقًا- كما كان قبل سفرها إلى بيتربورغ بفترة وجيزة.

عندنا فرح يا غريفا. لاسكا ولدت مهرًا! إنه مهر صغير ممتاز! هو أول أبناء غرومادوني. (الضخم- المترجم)

وماذا ستسمينه؟

سأسميه "غروم" (الرعد- المترجم) طبعًا.

انحنى رادوفيتش محييًا من بعيد- عيناه خائفتان، مستديرتان، عينا صبي صغير حقًا. شعر ميزيل بالخجل، ما هذا الذي تخيلته نفسي! يالي من عجوز غبي!

هو لم يلحظ أي تغير حتى أواسط تموز. ما من أحد لحظ أي تغيّر عدا نيوتشكا. كان يتنزه طويلًا- وحده، مبتهجًا باستعادته لصحته، مكتئبًا لأن توسا ليست معه. كانت تغيب عنه تارة في الاصطبل، وتارة في المكتبة، تقلّب بلا نهاية صفحات دفاترها البيتربورجية، أو تبتكر شيئًا ما كعادتها، تنشغل به، ميزيل لم يكن يرى رادوفيتش أيضًا، إلا نادرًا، والحمد لله.

هو ذهب إلى الاصطبل مصادفة تقريبًا. كان الجو حارًا فتعب، وأراد، ببساطة، أن يرى توسا.

الباب مفتوح على مصراعيه، وأزيز ذباب، وهدوء ناعس.

كل هذا كان. كان. أنا رأيته من قبل، لكن منذ زمن بعيد.

توقف ميزيل. مسح كفيه الرطبين بسترته. أراد أن ينادي توسا- خاف فجأة. خاف أن يرى مرة ثانية ذلك الكائن الصغير الفظيع يطلق الشتائم ويقهقه بين السائسين.

الاصطبل كان خاليًا، حتى من الخيول. لا بد أنهم ساقوها إلى المرعى البعيد. توسا كانت تشكو دائمًا من قلة العشب، وقلة المراعي. وكانت تتصارع مع أمها مطالبة بتخصيص المزيد من الأراضي للرعي. أن تشتري المزيد من الأرض. ليس في حديقتك هذه مكان يتحرك فيه الإنسان بحرية! وخيولي لا تجد ما تأكله. أما بورياتينسكايا فكانت تكتفي بالضحك وتقول لها ساخرة: أطعميها تفاحًا. لو فعلت سيشكرونك على ذلك. تغضب توسا، وتخبط الأرض بقدميها. لكن بورياتينسكايا لا تستسلم. ما بنيته هنا هو لأجلك أنت فقط. وهذه الحال ستبقى ما دمت حية. بعد أن أموت يمكنك أن تخرّبي المزرعة كما تشائين.

خرج ميزيل هادئًا تمامًا. في السماء القائظة كان يرتعش عاليًا- عاليًا غراب صغير يكاد لا يرى. عجلات العربة وحوافر الحصان تقرع الأرض.- وقفت العربة عند البيت. ألقت توسا العنان من يدها. هي نفسها كانت تقود العربة. وقفز رداوفيتش من العربة- قصير القامة، نحيلًا. ومن بعيد لاحت الخصلة الشيباء في شعره الأسود. مدّ

ذراعيه كي يساعد توسا في النزول من العربة. هما كانا في مكان ما. لكن يا لهذا العريس! يجب إخبار الأميرة- لقد بلغت الأمور حدًا لا يمكن السكوت عنه.

ضحكت توسا، وقفزت. أمسك بها رادوفيتش بسهولة، أنهضها، دار بها في الهواء- ثم وضعها على الأرض. هما لم يريا ميزيل، يبدو أنهما لم يكونا يريان شيئًا. كانا يتحركان بدقة، وانسجام، كأنهما يرقصان. فستان أبيض ضيق، سترة رجالية سوداء. شال أبيض، رقيق ارتفع في الهواء ثم عاد فحط بسهولة كأنه تنهيدة.

إنها لم تكن تضع على عنقها أي شال في الصيف.

ناداهما مزيل، ولوّح لهما بيديه- لكنهما لم يسمعاه، ودخلا إلى البيت.

لا بد أنه أحس بأنه انتظر دهرًا كاملًا.

الأميرة الصغيرة أغلقت باب غرفتها وطلبت عدم إزعاجها.

لم تخرج إلا عند العشاء. يا لوقاحتها! إن الشال نفسه ما زال على كتفيها.

نيوتشكا لم تخرج للعشاء عمومًا.

ميزيل، رادوفيتش، بورياتينسكايا، توسا.

لا. ليس كذلك. ميزيل، بورياتينسكايا. رادوفيتش، توسا.

النوافذ مفتوحة. لا نسمة هواء. لا شعاع ضوء.

انتظر ميزيل خروج الخادم بصعوبة.

يجب أن أقول لك يا توسا، قال وقد نفد صبره، أنت الآن ترتكبين خطأ قد يكون مصيريًا، فهذا الإنسان،- أشار ميزيل برأسه إلى رادوفيتش،- ليس ما يدعيه. إن كل كلامه عن المزرعة والأصل العريق ليس أكثر من كذب. لقد سألت عنه في فورونيج- كنيته ليست مذكورة في أي كتاب يؤرخ للنبلاء. إنه أغلب الظن، ليس من النبلاء عمومًا.

رادوفيتش ظل صامتًا. لم يعترض، لم يحاول الدفاع عن نفسه، لم يبد استياءه. ظل صامتًا ببساطة، ينظر في صحنه.

وماذا في ذلك يا غريغوري إيغانوفيتش،- إنهما- هو وآنيت متحابان.

لا، المتحابان ليسا هو وآنيت، يا صاحبة السمو! إذا كنت عمياء إلى الحد الذي لا ترين فيه ما يجري تحت أنفك...

غصّ ميزيل بغضبه، فصمت.

هل هذا كل شيء؟- سألته توسا بجفاء.

راح ميزيل، من دون أن يلحظ، يفتّل الشوكة بين أصابعه، محاولًا وضعها على حافة صحنه، باحثًا عن التوازن المنشود.

ألا يكفيك هذا يا توسا؟

يكفيني تمامًا. أشكرك. لقد كان العشاء رائعًا.

علا رنين الشوكة، انقلبت أسنانها اللامعة إلى أعلى.

نهضت توسا دون أن تنظر إلى ميزيل،- كانت هذه طريقتها منذ طفولتها في التعبير عن أقصى غضبها. كانت، إذا لم يعطها الدمية التي تريدها، أو قيّد حريتها قليلًا،- تكفّ عن النظر إلى عينيه، كأنها تخاف ألّا تستطيع كبح ما في داخلها من سواد، وحيوانية، فينفجر.

رادوفيتش الذي ظل أيضًا خافضًا بصره طول العشاء، نهض ببطء، أمسك كرسي توسا، أزاحه باحترام. هو كان عالي التهذيب طبعًا- هذا أمر لا يمكن إنكاره. إنه محتال محنّك.

أحنت توسا رأسها تعبيرًا عن امتنانها، واستندت إلى ذراعه.

هيا بنا إلى النوم يا فيكتور. الوقت متأخر، وأنا متعبة بشكل مخيف.

أحنى رادوفيتش رأسه موافقًا- ووضعت توسا رأسها على كتفه- برقة وامتنان، مسندة خدها إليه كطفلة صغيرة.

ابتسم رادوفيتش ابتسامة خائفة، ممطوطة.

بورياتينسكايا تأوهت بصوت خافت.

ميزيل قفز من مكانه متعثرًا بالكرسي. كاد يسقط أرضًا، ثم كاد يسقط ثانية، وهو يشد غطاء الطاولة.

ما هذا؟ كيف تسمحان لنفسيكما بهذا التصرف؟

ابتعد رادوفيتش عنها كما يبتعد طفل عمره سنة عن مقص الحلاق، والتمعت حدقتاه الزرقاوان بوحشية. أمسكته توسا من كمه. وراحت تضحك.

لقد تكللنا يا غريفا اليوم في النهار. وهذه هي "الطرحة"- أتراها؟

قالت ذلك ولوحت بطرف الشال لميزيل، ثم لفّت به ذراعها وذراع رادوفيتش. هل أخذت يا فيكتور شهادة الزواج من القسيس؟ أنا طلبت منك أن تأخذها.

أحنى رادوفيتش رأسه ثانية. كان خائفًا، محنيّ الظهر. وقد لفّ خيشوميه وشفته العليا ضوء الشمع بلون ذهبي.

بورياتينسكايا لم تكن تحب الكهرباء عمومًا، لذلك كانوا يتناولون عشاءهم دائمًا على ضوء الشموع.

اقترب ميزيل من توسا. أمسكها من كتفيها، وهزّها بحدة، بل بفظاظة تقريبًا.

ماذا فعلت أيتها البنت التافهة! ماذا فعلت يا غبية! يا مجنونة!

ضحكت توسا كمن يكشّر عن أسنانه،- وحررت نفسها من قبضته بحركة شبابية، قوية، واحدة.

اهدأ يا غريفا. أنا لم أذهب إلى المقصلة، بل تزوجت.

أضف إلى ذلك أنك، أنت نفسك، كنت تريد ذلك دائمًا. كشّرت عن أسنانها ثانية، ثم قالت مقلّدة صوته بدقة: "قد يمنّ الله عليك بالزواج من رجل جيد، يفهمك ويساندك في كل ما تفعلين" وفيكتور يساندني في كل شيء.

أنا قلت- إنسان جيد، يا توسا!

أنت لست مؤهلًا للحكم على الناس.

وأنت لست مؤهلة أيضًا.

صمت الاثنان كأن كلًا منهما كان يفكر بالمكان الذي سيوجه إليه ضربته كي تكون أكثر إيلامًا.

أنت عمياء، تمامًا. هذا الإنسان محتال، ولا بد أن يكون مجرمًا. لقد كذب عليك في كل ما قاله عن ماضيه! كذب على الجميع!

أنا لا يهمني الماضي. أنا بحاجة إلى أن يكون المستقبل كما أريده.

ابتلع ميزيل الهواء الذي عصي في حلقه. وغصت الأميرة بريقها وهي تغمغم بالدعاء- يا إلهي، يا إلهي،- كأن ذلك يمكن أن يساعدها. كبح ميزيل بصعوبة رغبته في أن يصفع وجهها، ورغبته الأكثر قوة في أن يصفع توسا. لا، أن يصفع ذلك المنافق السافل.

أتفهمين أنك بهذا خسرت اللقب؟ أنت لست بعد اليوم الأميرة الصغيرة بورياتينسكايا.

وأنت، هل تفهم أني لا أهتم بهذا، ألست أنت من علمني ذلك أيضًا.

"لا تحكمي على الناس بحسب الفئة التي ينتمون إليها، أو بحسب ثروتهم، أو نواياهم، أو أفكارهم. احكمي عليهم بحسب أفعالهم فقط. قيمة الإنسان الحقيقية ليست في لقبه، بل في سلوكه، أم أنك تظن أني سأكون واحدة أخرى إذا فقدت اللقب؟

إنه عريس أختك!

أنا في حياتي لم أر أختي! أظن أن اسمها ليزا، أليس كذلك يا ماما؟

بورياتينسكايا، التي كانت طول الوقت تجلس صامتة وساكنة تمامًا، نهضت أخيرًا.

كيف ذلك،- سألت- ماهذا؟ ولماذا؟ وماذا بشأن العرس؟

اطمئني- قالت توسا.- العرس سيقام في اليوم المحدد. جهدك لن يذهب عبثًا. هيا بنا يا فيكتور. أنا بالفعل مرهقة جدًا.

جلست بورياتينسكايا، وجلس ميزيل، ولاذا بالصمت. وفجأة شرعت بورياتينسكايا تبكي دون صوت، وتترنح كأنها وحيدة.

أطل الخادم على غرفة المائدة، ثم اختفى في الحال، كأنه ذاب في الهواء.

نهض ميزيل. نظرت إليه بورياتينسكايا عبر الدموع- نظرة حزينة متوسلة. كانت تأمل أن يستطيع تهدئة الوضع وتسوية الأمور. مسّد ميزيل شعرها الذي شاب كله. قبل رأسها، وقال بصوت خافت- مسكينة، غبية مسكينة. من دون أن يكون واضحًا لمن يوجه هذا الكلام.

ثم خرج من غرفة المائدة.

هو غادر منزل آل بورياتينسكي مثلما جاء إليه قبل ثمانية عشر عامًا من أسعد الأعوام،- لا يحمل معه سوى حقيبة الأدوية، وفي مثل زمن مجيئه إليه، في تموز الناري، الساطع، المزين كشال العروس في فورونيج، الفارق الوحيد بين مجيئه ومغادرته، هو أنه كان عند مجيئه في السابعة والخمسين- رحمتك يا إلهي، لقد كان صغيرًا جدًا، فتى غبيًا، ليس كما هو الآن- في الخامسة والسبعين، حيث ينعكس كل عام عاشه، ألمًا جافًا، حادًا في ركبتيه، وآهًا في كل خطوة يخطوها.

سبعة

ستة

خمسة

صاحت بومة كبيرة فطغى صوتها على أزيز الحشرات،- استيقظت الحديقة في الليل لحظة، ارتجفت، فاهتزت أوراق أشجارها السوداء الرطبة ثم سكنت من جديد.

تنهد ميزيل بعمق، مقاومًا رغبته في البكاء، وأدرك أنه لا يريد سوى أمر واحد- العودة إلى البيت، إلى ماما التي لم يزر قبرها لو مرة واحدة. هو لم يفعل ذلك.

وقد حان الوقت أخيرًا.

إلى موسكو، إلى موسكو، إلى موسكو.

وصل إلى مدينة فورونيج نفسها، لكنه لم يستطع. عاد، استأجر في خرينوف نصف بيت- عند أرملة متواضعة، ذات عين حولاء، تحب النظافة حبًا شديدًا. غرفة نوم عسكرية بوضوحها وبساطتها، وغرفة معيشة- طاولة، وكرسيان، وصور

ترك الذباب آثاره عليها، وصندوق لم يشغل نصفه بمتاعه- لم يكن عنده ما يشغله به.

عرفت توسا ذلك سريعًا. جاءت إليه، بكت، قبلت يديه، نظرت إلى عينيه نظرة رجاء- تملقته دون خجل. ميزيل سامحها طبعًا. ومن هو الأب الذي لا يسامح؟ لكنه لم يعد معها، وبقي في خرينوف،- بقي وحيدًا تمامًا. هو لم يكن يعيش، بل كان ينتظر- كأنه غاص حتى الخصر ليلًا في ماء راكد، كثيف، وبقي فيه مسحورًا بدرب القمر الراعش فوقه.

زارته بورياتينسكايا عدة مرات. لم تطلب شيئًا مدركة أن ذلك عبث. كانا يجلسان ببساطة جنبًا إلى جنب، من دون حرج، وفي صمت مريح ممتلئ رزانة، كأنهما متزوجان طول هذه الأعوام، بل أكثر من ذلك- طول الحياة. كانت بورياتينسكايا تسأل في أحيان نادرة- أتذكر يا غريغوري إيفانوفيتش؟- فينطلقان مبتسمين، يقاطع كل منهما الآخر، متذكرين (شقاوات توسا) وكلماتها، كيف كانت تصمت فترات طويلة، وكيف اختبأت مرة في الاصطبل وهي في الخامسة من عمرها، فراحوا يبحثون عنها في المزرعة، في حين طمرت نفسها في القش في مربط "بويارين"، عند حوافره مباشرة، ونامت، أما بويارين فظل واقفًا طول ساعتين، لا يتحرك، لا ينقّل ثقله من قائمة إلى قائمة، عند ذلك أردت أن أجلد توسا، لكنك منعتني. هل تذكر؟ نعم، أنت منعتني.

لم يتذكرا نيوتشكا سوى مرة واحدة- ثم كفّا عن ذلك. هي غادرت المنزل في نفس الليلة التي غادره فيها ميزيل، لكن ما من أحد عرف إلى أين. لقد اختفت كما لو أنها ذابت في الماء الأسود. لن يحدث لها أي مكروه، قال ميزيل متذمرًا. ليس من السهل أن تدوس بقدمك البذور التي تنمو قرب السور. هل أخذت معها نقودًا كثيرة؟ هبّت بورياتينسكايا غاضبة، فاردة ذراعيها الجافين اللذين يغطيهما النمش. نيوتشكا لم تأخذ أية نقود. أخذت (صيغتها) فقط- عقد، وإسورة، وقرطين من الزمرد النقي مرقشين بنثار ألماسي لامع، وهي (صيغة) أهداها لها الأمير في الذكرى

السنوية الأولى لزواجهما. أعوام كثيرة مرّت على وفاته. لا بد أن الأعشاب غطت قبره. يجب أن أكتب لهم، أذكّرهم بأن يزيلوا العشب.

نهضت بورياتينسكايا وانصرفت مستعجلة، فلم يمنعها ميزيل. كانت زياراتها له تتناقص بمرور الزمن، ثم انقطعت، واقتصر التواصل بينهما على الرسائل أحيانًا، والهدايا في المناسبات. حافظة نقود، مثلًا، مطرّزة يدويًا بالخرز، - لا بد من الاعتراف بأن تطريزها كان جميلًا، لكنه ما كان أبدًا يحمل حافظة نقود، بل يحمل نقوده في جيوبه.

غير أن توسا كانت تزوره أسبوعيًا، وأحيانًا تزوره مرتين في الأسبوع- تارة على ظهر حصان، وتارة في عربة خفيفة لماعة بمقعد واحد، تقودها بمهارة. هي لم تكن تخبره أبدًا بموعد زيارتها القادمة، وكان ميزيل ممتنًا لأنها لا تفعل، لأن ذلك كان يضطره إلى أن يستيقظ كل صباح، يحلق بالشفرة الشعر الأشيب النامي على خديه بحماسة، وينظف بالحماسة نفسها أظافره، وسترته، ويبدل أغطية سريره، وينثر على مناديل أنف كبيرة أوراق العطر وقشر الليمون- خشية أن تشمّ توسا رائحته العجائزية، تلك الرائحة الخفيفة، العفنة التي تملأ المكان كله. لكن توسا لم تكن تشمّ شيئًا، أو تلحظ شيئًا. كانت تدخل حاملة كومة من الزهور التي جمعتها في الطريق، أو سلة من الأطعمة اللذيذة- هذه الفطائر بالبصل، أنت تحبها، وهذا إجاص- من الحديقة القديمة، أتذكر؟ من شجرتنا التي كنا دائمًا نلعب تحتها "لعبة الهنود".

هو يذكر.

كانت توسا تملأ الغرفتين بوجودها، تقهقه، تخشخش بتنوراتها التي صارت تنورات نسائية تمامًا، وتتفاخر إما بميلاد مهر جديد، وإما بحصان جميل، وأحيانًا تستشير ميزيل في أمور صغيرة، بشأن البذار، أو طحن الحبوب. هي لم تكن تحب العمل في الزراعة، وما زالت تحلم بمزرعة خيول خاصة بها.

حسنًا، سأقنع ماما في نهاية المطاف. وسأنتج في المزرعة الجديدة سلالة جديدة يا غريفا، واسميها ميزيلسكا تكريمًا لك.

أنت أردت أن تسميها "بورياتينسكايا"

غيّرت رأيي. ميزيلسكايا العدّاءة. ما رأيك؟

وافق بهزة من رأسه الراعش أصلًا- وهو يأمل ألّا تلاحظ توسا ذلك- كانت هي، لطفًا منها لا تلاحظ- ولطفًا منها أيضًا- تتظاهر بأنها سعيدة، ومن المحتمل أنها كانت سعيدة حقًا،- وكان ميزيل ممتنًا لها لهذا أيضًا، وممتنًا لأنها كانت تأتي وحدها دائمًا ولا تذكر أبدًا اسم رادوفيتش، كأنه لا وجود له، وكأن العلاقة بينهما ما زالت على حالها، ولم تتدمر إلى الأبد.

هو حاول، في البداية، أن يفهم لماذا تصرفت توسا على هذا النحو- لماذا تزوجت، شخصًا مجهولًا وبلا أصل، التقت به لأول مرة- هو حاول أن يفهم ذلك، بالاعتماد على قوانين العقل السليم وبغض النظر عن القواعد والتقاليد التي يعرف أنها لم تكن تهتم بها أبدًا. لعلها أتخمت بقراءة الحكايات التي لم تكن مولعة بها أبدًا، وكذلك لم يكن هو يحبها، لا سيما وأن منطق الحكاية يفترض أن يتحول المعطف المطري الفقير الذي يرتديه الدعيّ إلى معطف ملكي حتمًا، فالمرء لا يمكن أن يتوقع في الحياة شيئًا من رادوفيتش. إنه إنسان فارغ. لا يصلح لشيء، كذاب، وضعيف- أضعف بكثير من توسا، وميزيل لا يفهم كيف يمكن أن يُحبّ إنسان مثله.

لا، الأمر ليس كذلك، هو لا يفهم كيف يمكن أن تحب توسا بالذات مثل هذا الإنسان.

ميزيل كان يعرف، طبعًا، أنها ستتزوج عاجلًا أم آجلًا، كان يعرف ذلك ويريده- لم يكن يريد صفقة رائعة- بل زواج ودّي بسيط بريء، دافئ، كما يشتهيه هو لنفسه. شخصان قويان، راشدان، يسيران بنزاهة نحو الموت، يدًا بيد، وساقًا إلى جانب ساق. كل منهما يحرص على أن يخفف عن الآخر قليلًا من مصاعب هذه الرحلة.

رادوفيتش لم يكن يسير إلى أي مكان. لم يكن قادرًا على ذلك. كان على غيره أن يجرّه وراءه، يسحبه ككتلة لا معنى لها.

هل من المحتمل أن تكون توسا أرادت ذلك- كي تمارس سلطتها؟ لكن لماذا؟ لقد كان لديها، من دون رادوفيتش، من تمارس السلطة عليه، عشرات بل

حتى مئات الناس كانوا في خدمتها منذ ولادتها، وميزيل لم يلحظ أبدًا، أبدًا أن ذلك كان يبعث في نفس توسا أي سرور. لقد كان ذلك عالمها الذي لم تعرف عالمًا آخر غيره. وزيادة خادم آخر فيه لم تكن تعني لها شيئًا.

أتراها كانت تغار من نيوتشكا. أتراها أرادت أن تأخذ ما ليس لها- كما يرى الطفل في صغره أن حصاة عادية في يد طفل آخر أغلى من ألعابه؟ أم أنها، ببساطة، أحبت من دون أن تفكر لماذا، وكيف انجذبت إلى جمال غريب، كالجدجد الذي يرى الفانوس الريفي الشحيح الضوء، شمسًا؟

أدار ميزيل هذه الأفكار في ذهنه، وبنى الافتراضات، كأنه يدير بيديه علبة مغلقة ليست له، لم يضع مفتاحها فقط، بل نسي أيضًا ما تحتويه.

فيما بعد أصابه التعب فكفّ عن ذلك.

توسا، في نهاية المطاف، تصرفت بالشكل الذي رأته ضروريًا فهذا ما كانت تفعله دائمًا.

لم يبق أمام ميزيل غير أن يسلّم بذلك.

في البداية كان يميل برأسه على جنب كطير الحمام، كي لا تعيق الغمامة الزاحفة على عينيه ببطء، رؤيته للأمور. كان يراقب التغيّرات في توسا. هل تضخم خصرها؟ هل ثقل وزنها؟ يبحث بخوف عن علائم مؤكدة: ثديين محتقنين، فمًا متورمًا. ارتسمت على حوافه ابتسامة رقيقة، غبية، نقاطًا صدئة على الجبين والصدغين- لكنه لا يجد تلك العلائم فيزداد خوفًا.

مضى عام، اثنان. هل حان الوقت أم لا؟ لا! طبعًا لا! لا يجب أن تنجب من هذا المنافق السافل.

لكن الروح كانت تشكو رغم ذلك، تطلب، تشتهي.

ثم تكرّمت بالمجيء.

ومرّة أخرى سيُحمل على الذراعين طفل حيّ، ثقيل قليلًا، ودافئ. ستلد طفلة طبعًا.

طفلة.

توسا الثانية.

ضغطت توسا كفيه بخدها عند الوداع- ضغطتهما بشدة، كما كانت تفعل في الطفولة حين تذهب للنوم. ميزيل كان يخجل من كفيه العجوزين المجعدين، اللذين لا ينفعان لشيء. هو كفّ عن دهن أصابعه باليود- فبدت تلك الأصابع شاحبة، عارية، عاجزة، كأنها غريبة عنه.

لكن توسا ضغطتها بخدها رغم ذلك.

قبلتها واحدًا واحدًا على التوالي: كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان... أيار.

مات ميزيل في أيار ميتة هادئة، مخيفة، ميتة مؤمن لم يكنه أبدًا، بل لم يسع أبدًا لأن يكونه. ورم غير ملحوظ، وغير رشيق، كحاله، هو نفسه الآن، (أحيانًا كان يبدو لميزيل أن هذا الورم عجوز مثله)، كبر في عدة سنوات ببطء، ومتعة تقريبًا، وراح يضغط على حنجرته. وحين أدرك ميزيل أنه لن يستطيع الاستمرار وفي إخفاء ضيق نفسه، وصوته الضعيف، الرفيع كصوت الديك، عن توسا، حدّد هو نفسه، يوم أجله، وساعته. هو نفسه حدّد ذلك، فقد كان الطبيب الرائع الشجاع الكامن في ذاته، الذي لم تقدر له الشهرة، ما يزال حيًا، محتفظًا بصلابة الروح والقدرة على التفكير طبيًا. لم يكن ينتظره في المستقبل غير الانهيار- انهيار مؤلم، قاتم، يستغرق وقتًا طويلًا. هو في البداية، سيفقد القدرة على الكلام، ثم القدرة على الحركة، وأخيرًا سيموت بفقدان القدرة على التنفس فقدانًا بطيئًا، بطيئًا جدًا. لكنه، يا للأسف، لن يفقد القدرة على التفكير. سيظل يفكر ويشعر الألم، ويتعذب ملطخًا ببرازه، عاجزًا عن الحركة، مختنقًا، خائر القوى.

لقد فهم ميزيل أن هذا عقابه، وأن مدة تأجيل الحكم عليه قد بلغت نهايتها.

إنها عقوبتي وسأدفع الثمن.

كل ما حدث كان ثمن أفعاله. كل ذلك كان عادلًا، لكنه كان بلا رحمة. إنه كطبيب- هو ما يزال طبيبًا- لم يكن قادرًا على تجاهل ذلك. الجسد يجب ألّا

يتعذب عبثًا، إذا كان مكان الروح في النار، حتى لو كان جسده هو.

المهم ألّا يقع هذا كله على عاتق توسا. هي يجب ألّا ترى، يجب ألّا تتألم إلى جانبه، وبسببه.

الإعدام تحدد في يوم الجمعة/ 4/ أيار عام 1894، في الساعة الرابعة نهارًا.

أرقام جميلة، منسجمة.

يسهل تذكرها.

ذهب ميزيل إلى الحمام العمومي الذي لم يكن يذهب إليه أبدًا، عادًّا إياه متعة وحشية وضارة، وبربرية. كان يفضل الاستحمام في الطست. لكن ها هو ذا في آخر أيامه يجرب الحمام. ما أروع هذا، يا إلهي ما أروعه. إن كل عرق في جسده ينتعش. ارتدى قميصًا نظيفًا، أزرق اللون، منشّى، صار الآن فضفاضًا عند العنق والكتفين.

ووضع في جيب سترته منديلًا نظيفًا، وفكر برهة- ثم دهن أصابعه باليود في آخر مرة.

توسا كانت في طفولته تسأله- لماذا تلطخ أصابعك يا غريفا؟ أنت تلطخ أصابعك، أما أنا، فتلومني إذا تلطخت أصابعي.

أنا ألطخ أصابعي كي لا يخلطوا بيني وبين الدكاترة الآخرين في يوم الحساب العظيم.

هي ظلت تجهل الحقيقة. الكل ظل يجهلها، والآن بات من المستحيل أن يعرفها أحد. نفخ ميزيل على يديه اللتين خانتاه مرة، مرة واحدة خيانة ظلت تلازمه طول حياته.

قرع الباب- دخلت الأرملة موواربة، وهي ترفع عاليًا صينية الغداء، الذي طلب سلفًا أن يتضمن العدد القليل من الأطعمة التي يحبها فعلًا. أكل بمتعة، وعلى مهل، لحم الخنزير المدخن مع الخيار المملح الصغير الحجم، مستمتعًا بالصرير الصادر عنه عند قرطه، الشبيه بصرير ذرات ثلج تحت الأقدام، وبرائحته اللطيفة الطازجة.

- لقد أحضرت توسا هذا الخيار قبل ثلاثة أيام، وها هو ذا الآن في المكان المناسب- ثم راح يغريه لحم العجل الساخن مع (البطاطا- بيوريه)

المشبعة بالحليب، بشرب كأس من الفودكا، لكن ميزيل امتنع عن شرب أي مقدار من الكحول مهما كان ضئيلًا، خشية أن يؤدي ذلك إلى تفاعلات مؤذية. هنا تجدر الإشارة إلى أنه نسي الكيمياء نسيانًا تامًا.

رفعت الأرملة الأطباق المستخدمة بسرعة عن المائدة، وجاءتهما تحمل بين يديها سماور يجيش ماؤه، ثم جلبت لهما الخوخ، والسكر، وفطيرة بالجزر يتصاعد بخارها من تحت المنديل الذي يغطيها. وضعت ذلك كله على المائدة، وهي تثرثر بإشاعات لا قيمة لها، ثم انصرفت أخيرًا

دقت الساعة الرابعة إلا ربعًا.

أخذ ميزيل قطعة من الفطيرة الطرية، الفوّاحة، البرتقالية اللون، ثم أبعد الطبق عنه. ماما كانت تخبز الفطائر بشكل أفضل. حسنًا- هذا يكفي.

ذهب إلى غرفة النوم في آخر ربع ساعة من حياته. وقف أمام النافذة، شارد الفكر، يتأمل الشارع الريفي المضجر: أسوار رمادية اللون، وغبار رمادي، وسماء رمادية. وعنزة رمادية، تلحس خشب سور يبدو أنهم دهنوه بالصمغ.

كان يفضل أن يموت في الحديقة، لكن هذا ليس مقدّرًا له، ليس مقدرًا له، لأنه لا يستحقه.

أخرج ميزيل من جيبه زجاجة صغيرة حضرها من قبل، وتأكد من أن ما فيها ليس يودًا. تأكد ثانية. لا، إنه بلورات الملح المطلوب. حسنًا، لقد احتفظت به سنين طويلة. وها أنذا أحتاجه اليوم. أذاب البلورات التي لا لون لها في كأس من الماء، حكها بسرعة بملعقة أصدرت رنينًا.

نظر مرة أخرى من النافذة.

العنزة غادرت المكان.

هو، بلا شك، كان قادرًا على شنق نفسه، لكنه لم يرد أن يلحق العار بتوسا. يكفيها أنها ستبكي. كان في سره يريدها أن تبكي.

كان عمر ميزيل اثنين وثمانين عامًا. وهو كان واثقًا من أنه لن يثير بموته شكوك أحد. الشيخوخة- أفضل دليل. وما من أحد سيرغب في معرفة سبب موت عجوز قديم كهذا.

نظر إلى الساعة.

إنها الرابعة إلا خمس دقائق.

حسنًا، باركني يا رب.

حان الوقت.

حان الوقت!- أعلنت الساعة ذلك بوضوح.

وقرّب ميزيل الكأس من فمه.

كان آخر من رآه في حياته، توسا ذات الاثني عشر ربيعًا، الصافية العينين التي لا تطيق الجلوس على الأريكة لدقيقة واحدة- لا، لا يا مودموزيل، لا تتحركي من فضلك، وانظري إلى هذه النقطة! صوت نابض الكاميرا، وحركات المصور الراغب في إرضائهما، وكوعيه الملطخين ولمعان (اللاك) على جبينه المحدّب. كان ذلك اليوم مشمسًا. فحضروا شاي ما بعد الغداء في الحديقة، تحت أشجار الخوخ التي غطت أغصانها الأوراق الصغيرة، اللينة، نصف الشفافة، المشرقة.

توسا راحت تتململ، تريد الذهاب إلى الاصطبل- إلى المهر المولود حديثًا، أين "بويارين" بيركوت الثاني. بيركوت الأول صار ابن سنة. إنه أحمر ناري اللون، رشيق. كان الهواء ممتلئًا بأصوات العصافير، وضحك توسا، والملعقة الفضية التي كانت توسا تحرك بها الشاي باستهتار ومرح، وتضعها، وهي ساخنة، على شفتي ميزيل، ثم على جبينه.

أنا أحب أن تكون هكذا يا غريفا! هل هذا ممكن؟ قل إن هذا ممكن!

أزال ميزيل عن مفرق شعرها ورقة شجرة حطت عليه، وأحنى رأسه موافقًا- فقلبت توسا الكرسي وركضت متحررة منه، وهي تتشبث بذيل ثوبها القصير، الطفلي الذي لا يغطي حذاءها، ولا ساقيها، كيلا يطيّره الهواء، فيبتسم الجميع،

بورياتينسكايا والمربية، وحتى نيوتشكا، وميزيل وهم ينظرون إليها تركض مسرعة في الحديقة المرقشة بنور الشمس، كان كل ما حولهم يدندن ويغني، ما عدا طبق مربى الخوخ البائت من العام الماضي، الجاف، الذي توهج على غطاء الطاولة كبقعة مقلقة، قاتمة، كأنها الدم المحروق.

يا إلهي، كم أكره الدم، كم أخافه!

عند الدقة الثالثة للساعة،

لا، عند الدقة الرابعة.

بلانك!- قال عقرب الساعة، فأغمض ميزيل عينيه، واخذ ملعقة ممتلئة- تلك الملعقة التي ما زالت دافئة من شاي توسا، وأدار في فمه بلسانه الجاف ثمرة، مرنة، مزّة الحلاوة، فنفر منها عصير كثيف، لزج، واحتكت عجوتها بأسنانه، مستديرة وصلبة. بلانك! كررت الساعة التي لم يكن يراها، وفورًا، حتى قبل أن يزفر، دقت ثانية- بلانك!- انفلقت العجوة مصدرة صوتًا، وانتشر في الحال طعم مرّ، طازج، ربيعي، كطعم كعكة باللوز قُسمت للتو.

المسيح قام يا غريفا!- قالت توسا.

دقت الساعة في المرة الرابعة.

فنفّذ ميزيل الحكم على جرعتين.

لكنه قبل ذلك استطاع أن يضع صورة توسا على حافة النافذة. لم تسقط من يده، بل استطاع أن يصحح وضع إطارها، بأصابعه المتيبسة التي لا يشعر بها.

لم يمت إلا بعد ذلك.

أبلغوا توسا الخبر في اليوم التالي. ارتجفت، بسطت يديها، كأنها لُطمت على وجهها بجمرة مشتعلة، وصرخت كأنها لطمت فعلًا بجمرة حقيقية. رادوفيتش، الذي لم ير توسا من قبل باكية أبدًا، لم يعرف كيف يتصرف، أخذ يأتيها بالماء تارة، وتارة يواسيها بعبارات غبية، يقول ويفعل أشياء أكثر من عادية، أشياء لا يمكن أن يفعل ما هو أكثر منها.

تافه، كائن تافه.

في الوقت الذي استغرقه التحضير لجنازته التي نظمت على أعلى المستويات (رادوفيتش لم يكن يتخيل أن موت إنسان يكلف كل تلك النفقات)، تورّمت توسا من شدة البكاء، وكادت تعجز عن المشي. تشبثت بقوة بحافة التابوت، كما كانت تتشبث في زمن ما بيد ميزيل، بل أقوى من ذلك، راح رادوفيتش ينزع بصعوبة أصابعها عنه واحدًا بعد واحد، ويقبّل كل إصبع - بصدق وحرارة للمرة الأولى مذ عرفها. مسكينة، تثير الشفقة، أفقدها الحزن صوابها، لكنها حية. أما هي فلم تكن تشعر بقبلاته، ولا حتى بوجوده - للمرة الأولى أيضًا.

كانت الحديقتان - القديمة والحديثة - تغصان بالزهور. وفي فسحة في حديقة المزرعة البهيجة، الربيعية ونصف الشفافة أيضًا، بنوا غرفة خشبية مؤقتة، وضعوا فيها التابوت، لكن رادوفيتش الذي يعرف زوجته جيدًا، لم يكن يشك في أنهم بعد عام أو عامين، سيشيدون بناء حول القبر، لا يقل فخامة عن الأبنية التي تحيط بقبور القياصرة. غير أنه أخطأ في تقديره. توسا بنت فوق قبر ميزيل برجًا - مزخرفًا، رقيقًا، من المرمر الوردي يشبه صبية في أول شبابها، تقف على رؤوس أصابعها، كي تطال ثمار التفاح الناضجة.

بالمناسبة، هي لم تكن مؤمنة، مثلها مثل ميزيل.

هو نفسه ربّاها على ذلك.

أعلنوا الوصية في حفل التأبين - الوصية مصدقة عند كاتب بالعدل حسب الأصول. ميزيل، الذي عرف سلفًا أن وصايا الإرث تواجه الكثير من المشاكل، فضّل ألّا يجهد نفسه بالبحث عن وكلاء روحيين، وأوراق ووثائق ترضي المجلس العدلي النزق. هو لم يكن يملك عقارات ومتاعًا، لكنه كان يملك رأس مال على شكل أوراق نقدية، قدره مئتان وسبع وثمانون ألفًا وأربعون روبلًا، يجب أن يُعطى لنتاليا فلاديميروفنا رادوفيتش (التي حملت قبل الزواج كنية "بورياتينسكايا") لتستخدمه في تحقيق ما تشاء.

كفّت توسا عن البكاء - ولأول مرة منذ الخامس من أيار، رفعت رأسها كأنها لا تصدق ما يحدث، وفجأة وقفت، مغطية فمها بمنديل، وانطلقت تغادر مسرعة، يسارع

معها صاخبًا ثوب الحداد الذي خاطته على عجل، طامسًا بصخبه كلمات ميزيل الأخيرة. طلب ميزيل في وصيته، ألّا ينفقوا على دفنه أكثر من مئتي روبل من المال المذكور.

هو لم يرد أن يكون، عبئًا حتى في هذه القضية، لقد أراد، ألّا يكون حتى بعد موته، عبئًا على أحد.

لم ينفذ أحد هذه الرغبة، لم يحاول أحد أن يسمعها.

رادوفيتش وجد توسا في الاصطبل. قاست طول الجدران بخطواتها وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، ثم استدارت نحو رادوفيتش- وقد استردت تمامًا مظهرها السابق، وجهها متألق عبر الورم، والجراح، واللون المرضي، الغاضب، المتشظي، الذي أدهشه ذات يوم، حين التقيا أول مرة.

بهذا الوجه المخيف المبتهج كان فوك كورومان يجلس دائمًا إلى طاولة القمار. أما وجه ساشا فكان يظهر بهذا الشكل حين كان... حين كنا...

ابتلع رادوفيتش ريقه. لا. يجب ألّا يتذكّر، لا يجوز أن يتذكّر. لا يجوز. "سيتحقق الآن كل شيء"، - قالت توسا بصوت أجش، متقطع بسبب الدموع- اصطبل خيول ممتاز، فيه مرابط للأمهات، ومرابط للمهور، وصالة عرض، مزرعة خيول ستكون الأفضل في روسيا. لكن الأهم- أن للمزرعة مراعيها الخاصة.

أخيرًا

أخيرًا!

تم تأسيس مزرعة الخيول في "آنّا" بعد موت ميزيل بثلاثة أشهر. توسا غاصت حتى رأسها في عملية البناء- مثلما غاصت ذات يوم في "بيتربورغ" وهي تصرخ وسط رذاذ الماء المرح. كانت تتناقش مع المهندس المعماري، وتتشاجر مع المنفذين، تطالبهم بغير الممكن- وكانت تحصل على هذا الـ "غير ممكن" دائمًا، كما هي عادتها. أما رادوفيتش، الذي ما زال، حتى سبع سنوات من الزواج، يخاف أن تمسكه من ياقته ذات صباح وترميه خارجًا، لأنه لا يصلح لشيء، فراح يحاول مساعدة زوجته في كل شيء، يسعى، يتحرك، يشق طريقه في زحمة السيقان، ويحتقر

نفسه كثيرًا بسبب وضعه اليائس، وبسبب ذلك أيضًا.

صارت بورياتينسكايا، التي هدأت وأحست بالفراغ، لا تخرج من غرفتها إلا نادراًا. انتقلت إلى غرفة نومها القديمة في البيت القديم، الذي ظل على الرغم من أن البناء الجديد كان يحتويه كما وعد ذات يوم بويتسوف، يحتفظ برائحته القديمة، وصرير أرضيته الخشبية المألوف، وضيقه اللطيف المريح. وبدا كأن بورياتينسكايا حبلى بتوسا من جديد، صارت تقضي ساعات راقدة في السرير، تنظر إلى الحديقة فتشعر كأنها "ماتروشكا" (دمية بشكل امرأة كبيرة الحجم في داخلها دمية لها شكلها نفسه لكنها أصغر حجمًا، وفي داخل هذه الدمية الثانية دمية لها الشكل نفسه لكنها أصغر منها حجمًا، وهكذا...- االمترجم). البيت الكبير يخبئ في داخله بيتًا صغيرًا، وفي داخل البيت الصغير غرفة صغيرة، وفي داخل هذه الغرفة الصغيرة- تسكن هي، وفي داخلها هي تنبض حياة لا يمكن إيقافها.

كبر بطنها من جديد، كما كبر في زمن ماض، لكنها الآن تخاف أن تصالب يديها فوقه.

لم يلحظ أحد أن بورياتينسكايا قد ازدادت نحولًا، وتحولت إلى شبح حقيقي صامت- فتوسا المنهمكة في مشروع ضخم لتغيير العالم، لم تكن تملك الوقت الازم لملاحظة ذلك، وتانيوشكا ذات السبعين عامًا التي فقدت عقلها منذ زمن بعيد، بشكل فاجأ الجميع، فتُركت تعيش مكرّمة، مطمئنة، في غرفها المحشوة بالصرر، والعلب، والصناديق، والرزم المنضدة، كانت كالآلة التي أدير محركها مرة وإلى الأبد، تحرص دائمًا على ما في المزرعة، فتحمل إلى مسكنها كل ما تصادفه فيها من توافه وأشياء مهملة، وتزور الأميرة يوميًا، كأنها موظفة تذهب إلى دوامها، تجلس إلى جانبها، وهي تهز رأسها بحركات خشبية، ثم تنتبه من غفلتها، فتلتقط عن السجادة منديل أنف، أو فردة حذاء، وتمضي، وهي تعرج، غارقة في شرودها الهادئ، النزيه، الذي استحقته.

ميزيل لم يعد موجودًا، اختفى إلى الأبد، لذلك لم يبق لبورياتينسكايا من تتحدث معه، لم يبق لديها من تشكو له همها، لم يبق من يستطيع علاجها، أو، على الأقل تهدئتها،

وهكذا راحت تموت في صمت، كأنها تهبط على سلّم طويل، غير ثابت إلى ما تحت الأرض، والسلم ينعطف وينعطف، وفسحاته تزداد هبوطًا وعتمة، وفي نهايته لا شيء.

بورياتينسكايا كانت تشعر بأنْ لا شيء في نهايته، حتى ولا مجرد ضوء.

لقد كانت تموت للمرة الثانية في حياتها- غير أنها الآن تعرف ذلك: كانت تعرف ذلك، لكنها لسبب ما، لم تكن خائفة أبدًا هذه المرة. كان سرطان المبيض- اللين، الهادئ، الذي لا يرحم- يأخذها من دون ألم تقريبًا، كل ما كانت تشعر به هو عدم الرغبة في الأكل، كانت لا تشتهي الأكل أبدًا. أناس صامتون لا تعرفهم كانوا يجيئونها بصواني الطعام وأدواته ثم يعودون بها دون أن تلمسها، يرتبون لها سريرها، ويغيرون في أحيان نادرة، أغطيته.

ذات مرة جاءت توسا، تقلصت عضلات وجهها اشمئزازًا، وفتحت النوافذ بعنف. لا بد أن رائحة الغرفة كانت مزعجة. في الحقيقة لم تكن الرائحة مزعجة فقط، بل كانت فظيعة فظاعة لا مثيل لها، لا يمكن أن يتعايش معها أي شيء حي. وقفت توسا في الممر طويلًا وهي تؤنب أحدهم بصوت مرتفع، فانزلقت بورياتينسكايا عن السرير بصعوبة، ومشت مشيًا تخللته وقفات كثيرة، إلى طاولة الزينة، فدهنت نفسها، قدر المستطاع، بنفس عطور الزهر اللطيفة التي كان الأمير يحبها كثيرًا في زمن ما.

هي نفسها لا تذكر الآن ماذا كان اسمها.

منذ ذلك اليوم صارت بورياتينسكايا تعطر يوميًا يديها ورقبتها، وثدييها الذابلين الصغيرين، وكل عظمة في صدرها. هي أرادت أن تعطر بطنها أيضًا. لكنها لم تفعل، خافت: كان بطنها منتفخًا، ومزرقًا، وكبيرًا، وحيًّا جدًا، ومخيفًا.

بورياتينسكايا كانت تأمل أن تزورها توسا مرة ثانية- أن تدخل مسرعة تطرق الأرض بقدميها النشيطين، فتقفز مزقزقة إلى السرير مباشرة، وتتعانقان كما في الماضي، تضغط كل منهما أنفها بأنف الأخرى، وشفتيها بشفتي الأخرى، وتدس كل منهما وجهها بالدانتيل الناعم بحثًا في الجلد الحي الدافئ عن بقعة لينة- كي تقبلها ألف مرة.

ليتها تعانقها لو مرة واحدة.

حتى من دون كلام.

ليتها تعانقها مرة أخرى، بل ليتها، على الأقل، تلمس يدها.

ارحمني يا إلهي، أرجوك.

لكن توسا لم تأت مرة ثانية.

أرسلت بدلًا منها، طبيبًا، ثم طبيبًا آخر غريبًا لا تعرفه بورياتينسكايا- التي رفضت أن يعاينها- ولماذا يعاينها؟ إن الطبيب الوحيد الذي تثق به، راقد في طرف الحديقة، وهو لا يدعوها للمجيء إليه، ولا ينتظر ذلك.

لم يعد هناك من يحتاجها. إنها كائن لا يحتاجه أحد.

انتابت بورياتينسكايا قبل موتها بيوم، حالة غريبة من الحركة القلقة التي لا تهدأ تقريبًا- صارت تجلس تارة، وتنهض تارة، أو تبتهج بقواها التي عادت إليها فجأة، فتنبش الخزانة- تبحث عن شيء ما مهم جدًا وضروري، لكنها، هي نفسها، لا تعرف ما هو، ثم تعيد ترتيب ما نبشته.

لم تهدأ إلا حين عثرت على الشال- شال والدة جدتها الكشميري الثمين، المطرز بخيوط قدسية ذهبية. فردته وتنهدت بارتياح- تعب روحها رقد في داخلها منذ عام ستة وثمانين بعد موت الأمير الذي قسّم ثروته الضخمة كلها إلى ثلاثة أقسام متساوية وزعها عليها وعلى ولديها الأكبرين ليزا ونيكولا، كأن توسا لم تكن موجودة في هذا العالم. آنذاك ظلت فترة طويلة لا تستطيع أن تغفر له فعلته، ثم سلمت أمرها لله الكبير- تمالكت نفسها، وسامحت الميت، غفرت له ذنبه الفظيع، لكنها كتبت وصية تترك فيها كل ما تملك لتوسا، لتوسا فقط.

وخصصت للشال بندًا مستقلًا في الوصية.

كأنها كانت بذلك تثأر من كل من رفض ابنتها.

في المساء شربت بورياتينسكايا القليل من الشاي الخفيف، وحاولت أن تأكل، لكن الطعام الذي كان في الصينية التي نسي الخدم إعادتها إلى المطبخ، فسد، ولم يقدموا لها غيره.

لا يهم، لا يهم، لا داعي للقلق. هذا يكفي.

أخذت بورياتينسكايا تقرض كالفأرة قطعة خبز يابس، لكنها شعرت أنها متعبة جدًا. خبأت الوصية تحت الوسادة، ورقدت في السرير دافنة وجهها في الشال، ونامت- ولأول مرة بعد أسابيع طويلة أغفت بطمأنينة ووضوح- ظلت حتى الصباح تتجول في حديقة شهر آب المشمسة، الحارة، حاملة توسا على ذراعيها، وتدندن بصوت حنون- وهذه ياتوسينكا ثمرات خوخ، انظري كم هي جميلة، تشعّ زرقة، أما هذه فتفاحات ريانات صغيرات، شديدات الحلاوة،- وتحني توسا الصغيرة، الثقيلة، الحارّة رأسها بجدية وهي تتشبث بعنقها بقوة، وتدغدغه بخصلات شعرها المضحكة، وتتساقط حولهما ثمار التفاح- تصدر صوتًا خافتًا يوحي بالنضج، وهي ترتطم بالأرض تارة هنا، وتارة هناك- تتدحرج قليلًا، وتتقافز ثم تهدأ فوق العشب.

توك. توك. توك.

أيقظ هذا الصوت بورياتينسكايا.

فلاح، طويل القامة، فتيّ، ضاعفت سمار بشرته شمس فورونيج، رئيس قرابة العشرين من الحطّابين الذين لوّحتهم الشمس بشدة أيضًا. رفع للحظة الفأس، وقاس بنظره شجرة تفاح عجوز ما زالت قوية بشكل مقنع، بل مزهوة بقوتها، وتضج بالحياة. إنها من نوع أنطونوفكا. تفاحها لم ينضج بعد، ما زال أخضر شاحبًا، لكنه كثير يحجب أوراق أغصانها عن العين.

ليتكم جمعتم المحصول يا صاحبة السمو. لو فعلتم لما احتسب الرب ما تفعلونه إثمًا. أوه، ما أوفر ما تحمله من ثمر.

توسا اكتفت بهز كتفيها- الإثم ليس إثمك. ولست أنت من سيحاسبك الرب. هيا، اقطعها!

رسم الفلاح شارة الصليب، ولوّح بيده راسمًا بفأسه قوسًا شمسيًا فوق رأسه.

توك.

ارتجفت الشجرة كأنها لا تصدق ما يحدث، وصرخت وغصت.
وانقذفت إلى السماء طيور جميلة، مضطربة لا تفهم ما يجري.
هطلت التفاحات مطرًا غزيرًا بصوت خافت على العشب.
توك. توك. توك.
ارتجفت تيجان كل ما في الحديقة من شجر بصمت، كأنها تتألم.
رادوفيتش لم يحتمل المنظر فأشاح ببصره.
توسا هزت كتفيها مرة ثانية، وعضت شفتها. كانت تحتاج مرعى، ومروجًا، وحشيشًا، كثيرًا، كثيرًا جدًا من الحشيش. أنت لا تستطيع أن تكفي مزرعة خيول بعلف تشتريه- هي كانت تعرف ذلك بالتأكيد. لقد اكتسى حلمها باللحم، وحيث اللحم- يوجد الدم. كان لا بد من التضحية بالحديقة من أجل الخيل. وهي ضحت بالحديقة.
إنها، ببساطة، مجرد أشجار- هذا كل ما في الأمر.
لو كان غريفا موجودًا لقال الشيء نفسه.
لقد كانت توسا واثقة من ذلك.
كانت بورياتينسكايا ما تزال حية حين انتهوا من قطع أشجار الحديقة، لكنها لم تكن تشعر بشيء. في عينيها الجامدتين، المفتوحتين كانت تنعكس النافذة المطلة على فراغ، وتنعكس أيضًا، في الوقت نفسه، السماء الخالية التي أخذت ظلمتها تزداد ببطء.
في المساء دخلت تانيوشكا إلى الغرفة، التقطت الشال الذي انزلق على الأرض، وهزت رأسها بحزن، ثم خرجت، تتمتم بكلام غير مفهوم ليس موجّهًا إلى أحد، عدا ربّها.
انغلق الباب وراءها.
وانغلقت أخيرًا عينا بورياتينسكايا أيضًا.
رسمت توسا في المرق الجامد البارد أربعة خطوط، ثم رسمت أربعة خطوط أخرى- متصالبة، ووضعت الشوكة جانبًا، لم تكن لديها قدرة على تناول العشاء.
كل ما حولها كان يفوح برائحة التفاح- شعرت بالغثيان، الرائحة لا تطاق.

ارتجفت بردًا.

وضع رادوفيتش السكين والشوكة جانبًا في خضوع، ونظر إليها بقلق.

هل أنت مريضة؟

أنا، ببساطة متعبة. غدًا سيقتلعون الجذور. سأضطر ثانية للاستيقاظ قبل الفجر، وإلّا فإنهم لن يتقنوا عملهم...

انكمشت توسا وارتجفت ثانية. لقد ساء منظرها بسبب التعب، واكتست بشرتها في هذا الصيف سمرة لا تقل عن سمرة الفلاحين- هذا غير لائق، وغير جائز. كانت ترفض حمل المظلات أو اعتمار القبعات- هذا غير مريح، دعوني أتدبر أمري بنفسي. كانت تعمل كل شيء بيدها، وتتدخل في كل الأمور، حتى مشيتها تغيرت- صارت تمشي بسرعة، وبخطا واسعة، عريضة، عظام يديها، وعنقها، ووجهها، اكتست بلون بني- أحمر، ناري، غير أنثوي، وبدت كلها، بعد موت ميزيل أعرض وأكثر خشونة. غير أن ما تحت ثوبها ظل أبيض، لينًا، ومنتفخًا ليلًا- الأمر الذي مكن رادوفيتش، من أن يرى، وهو يساعد زوجته في تبديل ملابسها مساء، كيف تتضح أكثر فأكثر الحدود بين ما كانت عليه حالة توسا سابقًا، وكيف صارت الآن، ولم يكن يسرّ بما يراه.

نهضت، فنهض رادوفيتش أيضًا على الفور، محنيًا رأسه احترامًا. إنه عمومًا ما يزال جائعًا، يتوقع أن تشبعه الحلوى. هو في نهاية المطاف، ليس صبيًا في الرابعة عشرة من عمره يقبل أن ينام جائعًا في بيته.

في بيته؟!

يا له من مغفل!

خطت توسا خطوة ثم صرخت مذعورة بشكل مفاجئ، أمسكت بطنها بيديها الاثنتين كأنها تحميه، فهرع إليها رادوفيتش- ماذا بك؟ ماذا؟- هل أستدعي الطبيب؟ تنحت توسا ببطء، وأحنت رأسها تصغي إلى ما في داخلها، كأنها تحاول أن تفهم، والنوم يغالبها، هل المطر يهطل، أم أن الريح خلف النوافذ تقلّب بكفها أوراق الشجر الهادئة في الصباح.

فهمت.

وابتسمت.

وضعت كفّيها على بطنها من جديد، لكن بطريقة مختلفة تمامًا- بحرص، وحذر، كأنها تحمي فراشة ضعيفة غير مرئية.

يا إلهي- قال رادوفيتش.- هل حدث ذلك أخيرًا؟

أحنت توسا رأسها بالإيجاب.

لقد كانت واثقة تمامًا من أنه حدث.

أخذت تانيوشكا شال بورياتينسكايا إلى غرفتها، وخبأته بعناية في أحد الصناديق تحت كومة من الأسمال القديمة المهترئة التي لا تصلح لشيء. أما تانيوشكا نفسها فاختفت في الصباح التالي، كأنها لم تعش أبدًا في "آنا"، بل كأنها لم تعش عمومًا في هذا العالم. قد تكون انتحرت غرقًا، أو قد تكون ببساطة هاجرت من المزرعة.

إن كل من أحبوها، ماتوا، وكل من أحبتهم ما عادوا يحتاجونها.

أما هي، تانيوشكا، فكانت، لحسن الحظ، لا تتذكر هؤلاء أو أولئك.

كل ما جمعته من متاع، تم إحراقه بأمر من توسا في الحديقة الخلفية، من دون أن يتفحصوه، بما في ذلك الشال المذكور في الوصية. توسا بحثت عن ذلك الشال قليلًا- ثم توقفت. ليس لديها متسع من الوقت كي تبكي، وتقلق، وتبحث...

توسا حبلى- امتلاكها أول مزرعة للخيول، وحملها الأول لجنين، هما أول أحلامها الحقيقية التي بدأت تتحول إلى واقع- هي شخصيًا كانت تؤمن بذلك.

قطعت أشجار الحديقتين، القديمة والجديدة، كلها، وكذلك أشجار الدار، لم تبق غير شجرة وحيدة- واحدة- بالقرب من قبر ميزيل- شجرة الإجاص العجوز، ودفنت أمها في مقبرة الدير، بالقرب من قبور مالكي "آنا" القدماء، كي لا تزعج غريفا في قبره دون مبرر. فمن حقه أن ينام بهدوء في قبره.

انتصب بيت مالك المزرعة بناء ضخمًا، عاريًا، على غير العادة، مكشوفًا لأعين الناظرين، ومن ورائه بين الأحراج ارتفعت- كالأضلاع المشفّاة- أبنية

مزرعة الخيول المتنامية بسرعة. وفُلحت الأرض على مد البصر حولها، لتكون مراعيَ للخيل- فبدت مقسّمة أقلامًا عريضة، ثخينة، سوداء.

توسا كانت سعيدة، وحرة.

أخيرًا.

صارت كأي إنسان حر، لا تعرف ماذا يحضّر لها المستقبل.

* * *

أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريق. أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريق. أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريق. أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريق. أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريقق.

هذا ما كان مكتوبًا في رسالة ساشا أوليانوف.

أنا أحبكم لذلك لا أستطيع أن أسلك غير هذا الطريق.

كانت العبارة مكررة ألف مرة بنظام، ووضوح، ونزاهة.

رادوفيتش لم يعرف مضمون تلك الرسالة.

وكذلك لم يعرف مضمونها أحد.



«الحديقة» رواية جديدة للكاتبة مارينا ستيبانوفا الحائزة على جائزة «الكتاب الكبير» الأفضل رواجاً عن روايتها «زوجات أليعازر»، وللكاتبة روايتان أخريان هما «الجرّاح» و«دروس إيطالية» وهذه الأخيرة نشرتها «الدار العربية للعلوم- ناشرون» بترجمة د. فؤاد امرعي.

في أواسط القرن التاسع عشر أنجب الأمير والأميرة بورياتينسكي مولوداً لم تكن ولادته متوقعة نظراً لتقدمهما في السن، هو بنت أدت ولادتها إلى انهيار الأسرة التي كانت تبدو مثالية. كانت البنت «توسا» منذ ولادتها تبدو مختلفة عن الآخرين، تتصرف تصرفاً مستقلاً استقلالاً مطلقاً، في مجتمع ذي أطر صارمة، ويتقيد تقيداً تاماً بأعراف وتقاليد تحددها، قبل كل شيء، الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد، فبطلة الرواية» توسا» هي التي تقرر بإرادتها الحرة متى تولد، ومتى تتعلّم النطق، وكيف تتعامل مع المجتمع، وماذا تهوى، ومن تحب أو تكره.

إن هذه الرواية تجسد المصاعب التي يواجهها الإنسان الحر في عالم ليس حراً.

مارينا لفوفنا ستيبانوفا



كاتبة روسيّة وشاعرة ومحررة في مجلّة ومترجمة وكاتبة سيناريو. ولدت في 2 أيلول، عام 1971 في مدينة يفريميف في مقاطعة تولا في أسرة طبيب مجنّد. انتقلت مع أسرتها إلى مدينة كيشينيوف، عام 1981. وأنهت دراستها الثانويّة فيها عام 1988، ثمّ تابعت دراستها العليا في جامعة كيشينيوف في كليّة الآداب. انتسبت إلى قسم الترجمة في معهد غوركي للآداب العالميّة في موسكو ونالت فيه شهادة الدكتوراه عام 1994. نالت ستيبانوفا جائزة «الكتاب الكبير» عن روايتها الأولى الشهيرة «نساء اليعازر» التي ترجمت إلى العديد من اللغات الأوروبيّة. نشرت الكاتبة رواية ثانية بعنوان «الجرّاح»، ورواية «الدروس الإيطالية»، وكتبت مجموعة قصص قصيرة متميّزة نشرتها في مجلّة «سنوب».





